المرأة

في العرفان الإسلامي والمسيحي

«حتى القرن الثامن الهجري»

الدكتوره فروزان الراسخي

دار الهادي

المرأة في
العرفان الاسلامي والمسيحي

«حتى القرن الثامن الهجري»

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ ـ ٨٩٦٣٢٩/٠٣ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

المرأة في
العرفان الإسلامي والمسيحي

«حتى القرن الثامن الهجري»

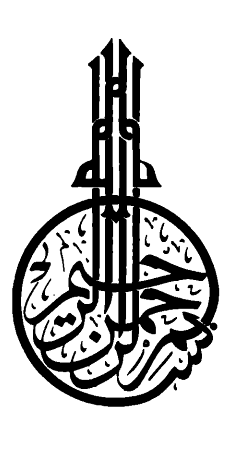
تأليف

الدكتوره فروزان الراسخي

تعريب

عبد الرحمن العلوي





المقدمة

رغم اننا دخلنا في القرن الحادي والعشرين وخلفنا وراءنا تجربة تلك القرون الطويلة المتمادية، لازالت قضية «المرأة» احدى اهم القضايا. والمراد بقضية المـرأة هو: الوضع الذي هي عليه والوضع الذي ينبغي ان تكون عليه.

وبالرغم من ان البعض يرى ان دراسة المشاكل والعقبات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تتعرض لها المرأة، أمر ضروري ومُلح، غير ان الدراسة العميقة لهذه المشاكل تجرنا نحو الدائرة النظرية والبحث عن جذور فهم المجتمع والتيارات الفكرية للمرأة. فطبيعة فهم المرأة هي التي تبلور الرأي العام وتنتهي الى صياغة النظرة السائدة نحو المرأة.

ومن هنا يُعد البحث عن المبادئ التي تنطلق منها النظرة نحو المرأة ـ والتي هي بحجم العمر الانساني ـ أمراً يساعد على تسليط الضوء على قضية المرأة. ورغم انجاز الكثير من البحوث والدراسات في هذا المضمار، غير ان قضية المرأة لازالت حية وجديرة بالدراسة دائماً، ولازالت التساؤلات بهذا الشأن تـتطلب اجـابات جديدة واكثر منطقية.

وتُعد النظرة الدينية احدى اهم وجهات النظر التي كان لها أثر قاطع منذ القدم في بلورة وجهة نظر الرأي العام نحو المرأة. وما ستتحدث عنه هذه الرسالة هـي

رؤية العرفاء للمرأة وطبيعة نظرتهم اليها.

فالرؤية العرفانية للعالم تختلف اختلافاً كبيراً ومن جوانب عديدة عن أية رؤية اخرى للعالم. وللعرفاء وجهة نظر خاصة في الانسان توفر لهم تفسيراً للمرأة يختلف عن تفسير غيرهم من العلماء.

الانسان من وجهة نظر العرفاء: خليفة الله، ولهذا فهو مسؤول، بسبب ما لديه من ارادة حرة؛ وطريق الكمال والانسانية مفتوح بوجه الجميع. وليس بمقدور أية عقبة ان تحول دون انطلاق أي أحد فيه، ما لم ينصرف بإرادته عن ذلك.

صحيح ان الله تعالى خلق النوع الانساني على شكل رجل وامرأة، غير ان جنس أي منهما، غير مؤثر قط على مقام الانسان كخليفة الهي. فنسبة الجنس للانسان في هذا المضمار كنسبة العرض الى الجوهر.

والعالم من وجهة النظر العرفانية بمثابة تجلٍّ للأسماء الالهية ولا وجود للتكرر في هذه التجليات، مع كمون حكمةٍ ما خلف كل تجلٍّ منها. ولذلك بالامكان التساؤل: ما هو الاسم الالهي الذي تتجلى به المرأة في الخلقة؟ وما هو دورها ـ الذي ينسجم مع هذا التجلي ـ في مصنع الوجود؟ وهذا الأمر بالذات دفع بالعرفاء للاهتمام بالوجوه المؤنثة في الذات الالهية. وتتصل هذه الوجوه في معظمها بتجليات الرحمة، ولديها آثار خاصة في الخلقة. ومن الضروري الاهتمام بها في السلوك العرفاني والانتفاع بها ايضاً.

ومن جانب آخر، تواجه المرأة كسالكة، الكثير من المشاكل والصعاب في طريقتها المعنوية. فقد خلقت لها مختلف الآراء والظروف الاجتماعية والثقافية الكثير من القيود والمحدوديات التي ينبثق منها السؤال التالي: هل بامكان المرأة الانطلاق كالرجل في طريق الانسانية والمعرفة الالهية، بدون أن يعمل جنسها الانثوي على حرمانها من بعض الدرجات والاستحقاقات؟

ومما يجدر ذكره هو ان الخلقة الخاصة بالمرأة ـ ورغم وجود جميع تلك المشاكل والعراقيل ـ توفر لها بعض الاستحقاقات التي ربما بامكانها التعويض عن بعض

الحرمان في المجالات الاخرى، بل وربما لها القابلية على ازاحة بعض العراقيل الملقاة في طريقها.

والأمر الآخر الذي يستقطب أنظار العرفاء هو عنصر الامومة، ورمز الام، والحب الامومي، والذي يلعب دوراً عظيماً في تربية الانسان المعنوية، وتنمية عواطفه واستعداداته ومواهبه، ولا يقل عن دور المرأة العظيم الآخر في الاستمرار المادي للنوع الانساني.

دراسة أبعاد هذه القضية بامكانها ان تسلط الضوء على الكثير من الامور وتميط اللثام عن كثير من الجوانب الخفية مثل: الحكمة من خلق الناس ذكراً وأنثى، والعلاقات القائمة بين هذين الجنسين، والدعم الذي بامكان كل منهما ان يقدمه للآخر من أجل رقيّه معنوياً، والدور المكمل الذي يلعبه كل منهما ازاء الآخر ... الخ. كما سيتضح من خلال هذه الدراسة ان الرؤية التقليدية نحو المرأة ـ والتي تهدف الى تحديدها، وتهميش دورها ـ غير منبعثة من منطلق ديني أصيل، ولا صادرة عن رؤية عرفانية للكون.

ولذلك ينصبّ البحث في هذه الرسالة بالدرجة الاولى على معرفة ودراسة وجهة نظر العرفاء المسلمين والمسيحيين (رجالاً ونساءً) بشأن المرأة (عارفة وغير عارفة). ولا شك في اننا سنبحث خلال هذه الدراسة عن موقع المرأة في نظام العرفان الاسلامي والمسيحي، وهل يُنظَر اليها فيه من زاوية كونها انثى ام كانسانة.

وتهتم هذه الرسالة بالدرجة الثانية، بدور المرأة العارفة في تاريخ العرفان الاسلامي والمسيحي. فقد انطلقت المرأة ـ وعلى غرار الرجل ـ في وادي العرفان وذلك من خلال الاتصال المباشر بالله ومن اجل تلبية حاجاتها المعنوية. واهتمت هذه الرسالة على سبيل الاجمال بالدور العملي للمرأة وضمن فترة زمنية خاصة.

وقمنا في النهاية بمقارنة بين وجهتي نظر العرفاء المسلمين والمسيحيين ازاء المرأة. وقد كشفت هذه المقارنة عن الكثير من نقاط الاشتراك والاختلاف، الأمر الذي مهّد الطريق لفهم «قضية المرأة» ضمن اطار السلوك العرفاني.

ومن الاسئلة المثارة في هذه الرسالة والتي كنا نبحث عن اجابة عليها، السؤال التالي: هل وجهة نظر العرفان الاسلامي والمسيحي بالمرأة، متأثرة في معظمها بالقرآن والكتاب المقدس، ام بعوامل اجتماعية وثقافية اخرى؟

والأمر الملفت للنظر هو: بالرغم من الاختلاف الواضح بين الرواية القرآنية ورواية الكتاب المقدس لقصة خلقة آدم وحواء وهبوطهما من الجنة الى الأرض، نجد ان بعض العرفاء والمتكلمين قد تجاهلوا السرد القرآني، واتخذوا من رواية الكتاب المقدس المحرفة أساساً لنظرتهم نحو المرأة[١].

وربما يمكن القول بأن جذور كل هذا الجفاء والتعامل القاسي مع المرأة، نابعة من التفسير الخاطئ لقصة بداية الخلقة البشرية. وقد استندت الى ذلك ايضاً بعض الآراء الكلامية والفقهية، وترتبت عليها العديد من الآثار العملية، كحرمان المرأة من النشاطات المعنوية والمادية ـ وبالتالي تهميش دورها ـ بجريمة الفساد والافساد، وهو رأي مستنبط من الكتاب المقدس.

تسليط الضوء على هذه القضية، سيميط اللثام عن موقع المرأة ودورها ضمن اطار الرؤية العرفانية للعالم، كما يكشف عن مدى التشابه والاختلاف بين وجهات النظر عند كل من العرفاء المسلمين والمسيحيين والعوامل الكامنة خلف كل من التشابه والاختلاف.

اسلوب البحث

يُعد اسلوب البحث هنا اسلوباً تاريخياً تحليلياً، حيث نقدم في بادئ الأمر وعلى أساس ما هو متوفر من كتابات تقريراً وفق التسلسل التاريخي ـ طبقاً للعام الذي وُلد فيه العرفاء ـ برأي العرفاء في المرأة ودورها في العرفان الاسلامي والمسيحي، ثم نعرض تحليلاً ودراسة لتلك الآراء.

---

(١) راجع: تاريخ الطبري. حيث نلاحظ أخذ هذا العالم المسلم برواية الكتاب المقدس وتحدثه بصراحة عن قصة انخداع آدم وحواء كما وردت في هذا الكتاب.

وعلى هذا الضوء، لا تقدم هذه الرسالة أي نقد علمي لآراء هذه الشخصيات ولا تهدف الى تعيين مدى انطباقها أو عدم انطباقها مع الواقع. وانما ينصبّ هدفنا على تسليط الضوء على مدى تأثر هذه الشخصيات العرفانية بثقافتها الدينية لاسيما كتابها المقدس.

الهدف من البحث

الهدف من هذا البحث يتمثل في اجراء مقارنة بين الوضع النظري والواقع العملي للمرأة ضمن اطار العرفانين الاسلامي والمسيحي. ولربما يتضح من خلال هذا الهدف بعض الامور التي لم يُكشف عنها النقاب، وفتح افق جديد من خلال تحديد نقاط الضعف والقوة في كل من هذين العرفانين. سيما وان مكانة المرأة في العرفان، لم تحظ باهتمام معظم المفكرين أو لم يدركوا اهميتها على الأقل.

دائرة البحث

بما ان قدم قضية المرأة مواكب لقدم التاريخ البشري، ونظراً لارتباط هذه القضية بكثير من العلوم لاسيما العلوم الدينية، لذلك وجدنا انفسنا ملزمين بدراسة آراء وأفكار المفكرين الذين عاشوا منذ ظهور المسيحية وحتى القرن الميلادي الرابع وخلّفوا آثاراً مكتوبة. ومن الطبيعي ان تستوعب هذه الفترة التاريخية، مرحلة الاسلام منذ ظهوره وحتى القرن الثامن الهجري.

ولا شك في ان هذا الالتزام الزمني يجعلنا في حلّ من استعراض الآراء العرفانية للعرفاء الذين ظهروا بعد هذه المرحلة الزمنية حتى ولو كانت لديهم آراء مهمة وخلّفوا كتباً على هذا الصعيد. لأنه اذا لم نلتزم بهذه الفترة لأخذت الدراسة دائرة واسعة جداً من الصعب استيعابها واشباعها بحثاً.

ونحن ملتزمون من الناحية الموضوعية ايضاً بالدوران ضمن دائرة البحث النظري وعدم خوض البحوث العملية والفقهية. وان كان لبعض الآراء تأثير كبير جداً على الاحكام الفقهية والآداب العملية سواء كان ذلك التأثير مباشراً أو غير

مباشر، إلّا ان دراسة هذا الموضوع من اختصاص فلسفة الفقه، ولذلك فهي بحاجة الى مجال آخر. واذا كانت هناك بعض الاشارات الى بعض القضايا العملية أو الفقهية والحقوقية في بعض الأحيان، فالهدف منها الايضاح لا غير.

مشاكل البحث

المشكلة الاولى التي يواجهها الباحث في ايران حين البحث عن مصادر ضمن هذا المجال هي قلة المصادر من الدرجة الاولى لاسيما حول المسيحية وبالأخص حول العرفان المسيحي. فكتب العرفان المسيحي الأساسية والمهمة غير متوفرة بالقدر الكافي. والمقدار المتوفر منها، على شكل ترجمات ناقصة لا يمكن الوثوق بها. ولذلك واجهنا مشكلة كبيرة على هذا الصعيد.

مضافاً الى ذلك، بما انه لم يكن هناك اهتمام جاد بالمرأة في المصادر الفارسية والعربية المتوفرة، بحيث يدفع جميع العرفاء للتحدث في آثارهم عن المرأة نفياً أو اثباتاً، لذلك واجهنا مشكلة في اطار العرفان الاسلامي ضمن الفترة الزمنية المحددة للبحث.

ومما يجدر ذكره هو ان العالم المسيحي قد شهد ظهور نساء عارفات انطلقن ـ ورغم الضغوط الاجتماعية والدينية ـ لكتابة آرائهن العرفانية، وحالات الكشف والشهود المعنوي الخاصة بهن. ولا شك في ان عددهن قليل جداً، غير ان هذا العدد القليل، من النادر العثور عليه في العالم الاسلامي. أي لم تقم اية عارفة مسلمة ـ حتى القرن ٨ هـ ـ بكتابة آرائها واحوالها العرفانية. ولذلك لابد من الرجوع على هذا الصعيد الى تقارير الآخرين ضمن هذا الاطار.

فرابعة العدوية على سبيل المثال، والتي تعد من أشهر العارفات في دنيا الاسلام، لم تخلّف أي تصنيف أو أثر مكتوب، ولابد من الرجوع في هذا المجال الى معلومات كتبها الآخرون لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً.

هناك الكثير من العوامل التي تظافرت في المجتمعات الاسلامية للحيلولة دون

كتابة المرأة لأفكارها والحديث عن أحوالها العرفانية. وربما يكمن خلف هذه الغفلة التاريخية الكبرى: القيود الاجتماعية، والفهم الغلط للدين، والتفسير المتطرف للأخلاق العرفانية، والنظر بارتياب لنشاط المرأة، وعدم وجود استقبال عالم لمثل هذه النشاطات. ولا شك في ان البحث عن مصادر هذه الأسباب ومبعثها، بحاجة الى دراسات اجتماعية ودينية دقيقة خارجة عن دائرة دراستنا.

خلاصة الفصول

تضم هذه الرسالة أربعة فصول كالتالي:

الفصل الأول: ينفرد بدراسة المرأة من منظار القرآن والكتاب المقدس. وبما ان أحد أسئلة هذه الدراسة هو: هل كانت وجهات نظر العرفاء متأثرة بكتبهم المقدسة؟ لذلك تبدو هناك أهمية كبرى لدراسة وجهات النظر هذه مستقلة عن التفاسير الاخرى التي أُضيفت اليها فيما بعد. وينقسم هذا الفصل الى قسمين:

القسم الاول: يتناول وجهات نظر القرآن الكريم والكتاب المقدس في بعض النساء مثل حواء ومريم، مع تقديم مقارنة إجمالية فيما بين وجهات النظر هذه. كما يتحدث هذا القسم عن النساء اللاتي ورد ذكرهن في القرآن الكريم فقط، وكذلك عن النساء اللاتي ورد ذكرهن في الكتاب المقدس فقط دون ان يشير القرآن الكريم اليهن بشيء.

القسم الثاني: يدرس المرأة بشكل عام من وجهتي نظر القرآن الكريم والكتاب المقدس، ويقدم مقارنة اجمالية بينهما.

الفصل الثاني: ينبري لاستعراض وجهات نظر المسلمين والمسيحيين ازاء المرأة. ويقتصر هذا الفصل على آراء المتكلمين والمفكرين من غير العرفاء، على ضوء التسلسل التاريخي.

الفصل الثالث: يستعرض آراء العرفاء المسلمين والنصارى مسلمين ومسيحيين، في المرأة وفق التسلسل التاريخي.

الفصل الرابع: ينفرد بالحديث عن كبار العارفات في عالمي الاسلام والمسيحية واللاتي لهن تأثير كبير في تاريخ العرفان الاسلامي والمسيحي. ويهتم هذا الفصل بدراسة آراء هؤلاء العارفات واستعراض كتبهن العرفانية. مع تقديم مقدمة اجمالية في كلا العرفانين الاسلامي والمسيحي من اجل تسليط الضوء على المقامات العرفانية في كلا العرفانين، وما قطعته المرأة في طريق السلوك العرفاني والمقامات التي بلغتها.

وفي هذا الفصل ايضاً مقارنة بين آراء العرفاء المسلمين والمسيحيين مع أخذ جانبين مهمين بنظر الاعتبار: الأول انطباق أو عدم انطباق آرائهم مع كتابهم المقدس، والثاني ما يمكن تحديده في كل من الجانبين من نقاط ضعف وقوة.

ويمكن القول بأن هناك ثلاث دوائر قابلة للتشخيص في دراسة كل دين: الاولى هي الكتب المقدسة في ذلك الدين والتي تمثل الصورة المكتوبة لكلام الشخص أو الأشخاص الذين يتميزون بمرجعية أو ولاية فكرية وعملية، ويحظى كلامهم بنوع من القدسية التي لا تقبل النقاش في ذلك الدين. والثانية هي مجموعة الشروح والتفاسير التي قدّمها علماء ذلك الدين ـ كالمتكلمين وعلماء الاخلاق والفلاسفة والحكماء والعرفاء ـ لتلك الكتب المقدسة طوال التاريخ. والثالثة هي التحقق التاريخي والعملي للدين، أي مجموعة النشاطات والأعمال التي يؤديها أتباع ذلك الدين على مدى التاريخ، مضافاً اليها الآثار والأعمال المترتبة عليها.

ويمكن التعبير عن هذه الدوائر الثلاث بما يلي: الدين من حيث القدسية، والدين من حيث الجانب النظري، والدين من حيث الجانب العملي والتحقق التاريخي. ويمكن القول على هذا الأساس بأن الفصل الاول في هذه الرسالة متعلق بالدائرة الاولى، والفصلين الثاني والثالث متعلقان بالدائرة الثانية، والفصل الرابع متعلق بالدائرة الثالثة.

نتمنى ان تعمل هذه الرسالة ـ ورغم جميع المشاكل والقيود ـ على تسليط الضوء على ذلك الجزء المعتم من تاريخ العرفان الاسلامي والمسيحي والمتعلق

بالمرأة، والذي لم يحظ باهتمام جاد من قبل المفكرين. ومن الطبيعي ان أي جزء من اجزاء هذه الرسالة بحاجة الى دراسة اعمق، والاستناد الى مصادر اكثر، وهو أمر يستوجب وقتاً اكبر وجهداً أعظم. أملنا ان يُنظر الى أي نقص أو قصور في هذا الجهد المتواضع بعين التسامح والصفح.

الفصل الاول

المرأة في القرآن والكتاب المقدس

أ ـ النساء المذكورات في القرآن والكتاب المقدس معاً

١ ـ حواء في الكتاب المقدس

حواء هو الاسم الذي أطلقه آدم على زوجته ويعني الحياة، ولذلك سُميت «حواء» بأُم البشر[١].

خلق حواء: أُشير الى حواء لأول مرة في سفر التكوين في العهد القديم حين التحدث عن خلق آدم: (فخلق الله الانسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأُنثى خَلَقهم * وباركهم الله وقال لهم: «انموا واكثروا واملأوا الأرض وأخضِعوها وتسلطوا على أسماكِ البحر وطيور السماء وكلِّ حيوان يدبُّ على الارض»)[٢].

والأمر الجدير بالنظر في هاتين الآيتين هو الاشارة الى آدم بضمير الجميع. وقد تكرر هذا الأمر في الإصحاح الخامس من سفر التكوين كما يلي:

«هذا كتاب سُلالة آدم: يوم خلق الله الانسان، على مثال الله صنعه * ذكراً

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، تاليف هاكس، الأساطير، ص ٣٣٦.

(٢) العهد القديم، سفر التكوين، ١ / ٢٧، ٢٨.

وأُنثى خلقهم، وباركهم، وسماهم انساناً يوم خُـلقوا»[١] اذن يُـعد «آدم»، الاسم المشترك لكل من الرجل والمرأة.

ووردت رواية خلق حواء بعد ذلك بالشكل التالي:

«وقال الرب الاله: «لا يحسُن ان يكون الانسانُ وحده، فـلأصنعن له عـوناً يُناسبه» * وَجبَل الربُّ الاله من الارض جميع حيوانات الحقول وجميع طـيور السماء، وأتى بها الانسان ليرى ماذا يسميها.

فكل ما سماه الانسان من نفس حيّة فهو اسمه * فأطلق الانسانُ أسماء على جميع البهائم وطيور السماء وجميع وحوش الحقول. وأما الانسان فلم يجد لنفسه عوناً يُناسبه * فأوقع الربُّ الاله سُباتاً عميقاً على الانسان فنام * فأخذ إحدى أضلاعه وسد مكانها بلحم * وبنى الربُّ الالهُ الضلعَ التي أخذها من الانسـان امرأة فأتى بها الانسان * فقال الانسانُ: «هذه المرة هي عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تُسمى امرأة لأنها من امرئٍ أُخِذت» * ولذلك يترك الرجل أباه وأُمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً»[٢].

وهكذا نرى كيف يتحدث العهد القديم في هذه الآيات عن طريقة خلق حواء وتسمية آدم لها باسم «امرأة».

وورد في موضع آخر:

«وسمى الانسانُ امرأته حواء لأنها أُمُّ كل حيّ»[٣].

ولم يسم آدم هذه المرأة فقط، وانما سمى جميع الموجودات ايضاً.

ويمكن أن يُثار على هذا الصعيد السؤال التالي:

اذا كان الله قد نسب في بادئ الأمر خلق الانسان من ذكر وأُنثى الى نـفسه، فكيف تحدّث ايضاً عن خلق حواء من آدم؟ في الآيات الاولى قد اسـتُخدمت

---

(١) نفس المصدر، ٥ / ١، ٢.

(٢) سفر التكوين، ٢ / ١٨ ـ ٢٤.

(٣) نفس المصدر، ٣ / ٢٠.

جميع الضمائر بصيغة الجمع، وأُعطيت البركة لكل من الرجل والمرأة، وأُطلق اسم الانسان على كل منهما. ولكن هناك بعض النقاط التي تشير الى خلق حواء من آدم: اولاً ان حواء قد خُلقت لآدم لأنه كان يعاني من الوحدة فخلق الله له عوناً يُناسبه، من أحد أضلاعه. ثانياً ان حواء جزء من وجود آدم ولهذا فانها متعلقة به. فالله خلق آدم من أديم الأرض بشكل مستقل وقبل ان يخلق حواء، بينما خلق حواء من ضلع آدم. طبعاً من الممكن ان يشير خلق حواء من آدم الى المعنى التالي: ان هذين الاثنين متحدان في الأصل والجوهر، ويعدان معاً موجوداً كاملاً.

وقد اتخذ البعض من هذه الرواية ذريعة لتبرير التفاوت بين الرجل والمرأة والقول: بأن آدم ابن الله، وقد خلقه الله مثله وعلى صورته. اما حواء فانها بنت الانسان (آدم). وبما انها بنت الانسان، فانها ليست مثل زوجها آدم قريبة من الله لوقوع فاصل بينها وبينه[١].

دور حواء في الهبوط

ما يحظى بالأهمية هي رواية العهد القديم بشأن هبوط آدم وحواء. فبالرغم من ان خلق حواء من آدم يوفر الأرضية لبعض التفاسير الخاطئة، غير ان دور حواء في الهبوط يسجل المصير الحاسم للمرأة وغمط فهم المؤمنين لها.

نقرأ في العهد القديم:

«وأمر الربُّ الالهُ الانسانَ قائلاً: ومن جميع اشجار الجنة تأكل * وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، فإنك يوم تأكل منها تموتُ موتاً[٢] ... وكان كلاهما عُريانين، الانسانُ وامرأتُه، وهما لا يخجلان[٣] * وكانت الحيةُ أحيل جميع حيوانات الحقول التي صنعها الرب الاله فقالت للمرأة: أيقيناً قال الله: لا تأكُلا من جميع أشجار الجنة؟» * فقالت المرأة للحية: «من ثمر أشجار الجنة نأكل * وأما

---

(١) See. St. Augustine, on the Trinty, in vol.111 select Library, iii, p.4.

(٢) سفر التكوين، ٢ / ١٦ و١٧.

(٣) سفر التكوين ٢ / ٢٥.

ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا» * فقالت الحية للمرأة: «مَوتاً لا تموتان، فالله عالم انكما في يومِ تأكلان منه تنفتحُ أعينُكما وتصيران كآلهة تعرفان الخيرَ والشرَّ» * ورأتِ المرأةُ أن الشجرة طيبةٌ للأكل ومُتعةٌ للعيون، وأن الشجرة مُنيةٌ للتعقل. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت أيضاً زوجَها الذي معها فأكل * فانفتحت أعينهما فعرفا انهما عُريانان * فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر * فسمعا وقعَ خطى الرب الاله وهو يتمشى في الجنة عند نسيم النهار، فاختبأ الانسانُ وامرأتُه من وجه الرب الاله فيما بين أشجار الجنة * فنادى الربُّ الالهُ الانسانَ وقال له: اين انت؟ * قال: اني سمعتُ وقعَ خُطاك في الجنة فخفتُ لأني عُريان فاختبأتُ * قال: فمن أعلمك أنك عُريان؟ هل أكلتَ من الشجرة التي أمرتُكَ ألّا تأكل منها؟ * فقال الانسان: المرأة التي جعلتَها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ * فقال الرب الاله للمرأة: ماذا فعلتِ؟ فقالت المرأةُ: الحيةُ أغوتني فأكلتُ * ... وقال للمرأة: لأُكثِّرَنَّ مشقّاتِ حَملكِ تكثيراً * فبالمشقة تلدين البنين والى رَجُلكِ تنقادُ أشواقُكِ وهو يسودُكِ * وقال لآدم: لأنك سمعتَ لصوتِ امرأتك فأكلتَ من الشجرة التي أمرتُكَ ألّا تأكل منها، فلعونةٌ الأرضُ بسببك، بمشقة تأكل منها طول أيام حياتك * ... بعرق جبينك تأكلُ خبزاً حتى تعود الى الأرض، فمنها أُخِذتَ لأنك تراب والى التراب تعود * ... وقال الربُّ الالهُ: هُوَ ذا الانسانُ قد صار كواحد منا، فيعرفُ الخيرَ والشرَّ * فلا يمُدنَّ الآن يدَهُ فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا للأبد * فأخرجه الربُّ الاله من جنة عدن ليحرثَ الأرض التي أُخِذ منها * فطردَ الانسانَ وأقام شرقي جنة عدنٍ الكروبيينَ وشُعلةَ سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة»[١].

وفي هذه الرواية الكثير من الرموز القابلة للتفسير. فالعهد القديم ينسب هبوط الانسان الى خطأ حواء وانطلاء حيلة الحية (الكائن الموسوس) عليها، وتحريض

---

(١) سفر التكوين، الاصحاح الثالث.

حواء لآدم على التمرد، الأمر الذي أوجب إهباطهما معاً من الجنة واستحقاق العقوبة الالهية. والحَمل بالنسبة لحواء بمثابة العقوبة الأبدية. لذلك لابد لحواء أن تلد أبناء آدم ولادة مصحوبة بالألم، وكل ولادة بمثابة كابوس. اما آدم فينهض بدور أساسي، وهو الدور المعنوي، لأنه يشبه الله. بينما تمارس حواء دوراً مادياً مشروطاً. فآدم رسول الحياة، وحواء رسولة الموت. كما يمكن استنباط نتائج اخرى ايضاً.

أُشير في العهد الجديد الى قصة الهبوط في موضعين وخلال الرسائل التي كتبها بولس الرسول الذي يبدو انه قد أخذ برواية العهد القديم. فهو يقول: «فاني أغار عليكُم غيرة الله لأني خطبتكم لزوجٍ واحدٍ، خطبةً عذراء طاهرة تُزَفُّ الى المسيح * ولكني أخشى عليكم ان يكون مَثَلُكم مَثَلَ حواء التي أغوتها الحية بحيلتها، فتفسد بصائركم وتتحول عن صفائها لدى المسيح*»[١].

والموضع الآخر هو:

«فانَّ آدم هو الذي جُبِل اولاً وبعده حواء * ولم يُغْوَ آدم بل المرأة هي التي أُغويت فوقعت في المعصية * غير أن الخلاص يأتيها من الامومة اذا ثبتت على الايمان والمحبة والقداسة مع الرزانة»[٢].

ولذلك تنتقل قصة خلق حواء وتقصيرها في هبوط آدم الى الكنيسة المسيحية كميراث لا يقبل الغلط. واخذت هذه الفكرة تترعرع في الفكر المسيحي من بعد عيسى المسيحعليه السلام رغم تعاليمه وسلوكه الواضح في هذا المضمار.

فالهرب من المرأة ومحاربتها عند المسيحيين، أمر له جذور في العهد القديم والثقافة اليهودية. وأخذ يُنظر فيما بعد الى هبوط آدم ـ مضافاً الى كونه بسبب خدعة حواء ـ على انه ناجم عن العلاقة الجنسية والزواج. ولذلك أخذت المسيحية تثني على العزوبة واعتزال الحياة الزوجية وتحث عليها، إلّا عند

---

(١) العهد الجديد، الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ١١ / ٢ و٣.

(٢) العهد الجديد، الرسالة الاولى الى اهل طيموتاوس، ٢ / ١٣ ـ ١٥.

الضرورة.

اذن فرواية العهد القديم بشأن خلق حواء ودورها في هبوط الانسان، كانت من القوة بحيث أثرت على الأديان السامية الثلاثة، أي اليهودية والمسيحية والاسلام، وراح علماء الدين ينظرون اليها كرواية يمكن الاعتماد عليها.

حواء في القرآن الكريم

لم يذكر القرآن اسم حواء، إلّا انه أشار اليها كزوجة لآدم: ﴿وقلنا يا آدمُ اسكن أنت وزوجُك الجنة وكُلا منها رَغداً﴾[١] ﴿ويا آدمُ اسكن انت وزوجُكَ الجنةَ فكُلا من حيثُ شئتُما﴾[٢]. ﴿فقُلنا يا آدمُ ان هذا (ابليس) عدوٌّ لكَ ولزوجِك فلا يُخرِجنَّكُما منَ الجنة﴾[٣].

ونلاحظ استخدام القرآن لضمائر المثنى في الحديث عن آدم وحواء، في الآيات السابقة.

اما بشأن خلقة الانسان، فيتحدث القرآن الكريم عن «النفس الواحدة» التي هي اشارةٌ الى آدم، وعن خلق زوجه منه، ثم خلق سائر الناس منهما معاً:

﴿يا أيُّها الناسُ اتّقوا ربَّكُمُ الذي خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾[٤].

﴿وهُوَ الذي أنشأكُم من نفسٍ واحدة﴾[٥].

﴿هو الذي خلقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوجَها﴾[٦].

﴿خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ ثم جعل منها زوجَها﴾[٧].

---

(١) البقرة / ٣٥.

(٢) الاعراف / ١٩.

(٣) طه / ١١٧.

(٤) النساء / ١.

(٥) الانعام / ٩٨.

(٦) الاعراف / ١٨٩.

(٧) الزمر / ٦.

هذه الآيات تشير في مجملها الى خلق انسانٍ واحدٍ في بادئ الأمر، ثم خلق زوجته منه، ثم بدء عملية التكاثر من خلالها:

﴿يا أيُّها الناس انا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائِلَ لِتَعارَفُوا إن أكرمَكُم عِندَ الله أتقاكُم ان الله عليمٌ خبيرٌ﴾(١).

ويشير القرآن الكريم في آيات اخرى الى خلق ازواج للانسان من نفسه:

﴿والله جعلَ لكُم من أنفسكم أزواجاً وجعلَ لكم من أزواجِكُم بَنينَ وحَفَدةً﴾(٢).

﴿جعل لكم من أنفُسِكُم أزواجاً﴾(٣).

وعدّ الله تعالى هذا النوع من الخلق آيةً من آياته:

﴿ومِن آياته أن خلقَ لكم من أنفُسِكُم أزواجاً لِتَسكُنُوا اليها وجعلَ بينَكُم مَودَّةً ورحمةً ان في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون﴾(٤).

اذن فالقرآن الكريم يتحدث عن تساوي نصيب المرأة والرجل في تكاثر النسل البشري والذرية. وقد أكرم الله تعالى هذا النسل البشري بأجمعه وليس فئةً أو جماعةً منه فقط، ولم يحرم أحداً من هذه الكرامة:

﴿ولقد كرَّمنا بني آدَمَ وحملناهُم في البرِّ والبحرِ ورَزقناهُم من الطيبات وفضلناهُم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً﴾(٥).

غير ان القرآن الكريم قد استعرض حادثة الهبوط الذي لعب فيه آدم وحواء الدور الأصلي، في ثلاث سور. وقد أخذ هذا الاستعراض تفصيلاً اكبر في سورة الأعراف، اما في سورتي البقرة وطه فهناك بعض النقاط الاخرى.

ففي سورة الأعراف، نقرأ بعد ذكر خلق الانسان وامتناع ابليس عن السجود

---

(١) الحجرات / ١٣.

(٢) النحل / ٧٢.

(٣) الشورى / ١١.

(٤) الروم / ٢١.

(٥) الاسراء / ٧٠.

لآدم، وطلب الاستمهال من الله، ما يلي:

﴿ويا آدمُ اسكن أنتَ وزوجكَ الجنةَ فكُلا من حيثُ شئتما ولا تقربا هذهِ الشجرةَ فتكونا من الظالمين. فوسوسَ لهما الشيطانُ ليُبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتِهما وقالَ ما نهاكما ربُّكُما عن هذهِ الشجرةِ إلّا أن تكونا ملكينِ أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما لَمِنَ الناصحين. فَدَلّاهُما بغرورٍ فلما ذاقا الشجرةَ بدت لهُما سوآتُهما وطفقَا يخصفانِ عليهما من ورقِ الجنةِ وناداهُما ربُّهما ألم أنهكما عن تِلكما الشجرةِ وأقل لكما انَّ الشيطانَ لكُما عَدوٌّ مُبينٌ. قالا ربنَا ظلمنا أنفُسنا وإن لم تغفِر لنا وترحمنا لنكُوننَّ منَ الخاسرينَ. قال اهبِطوا بعضكُم لبعضٍ عدوٌّ ولكم في الأرضِ مُستقرٌّ ومتاعٌ الى حينٍ. قالَ فيها تحيونَ وفيها تموتُونَ ومِنها تُخرجونَ. يا بني آدم قد أنزلنا عليكُم لباساً يُواري سوآتكُم وريشاً ولباسُ التقوى ذلكَ خيرٌ ذلك من آياتِ الله لعلهُم يذَّكرونَ. يا بني آدمَ لا يفتِننكُمُ الشيطانُ كما أخرجَ أبويكُم منَ الجنةِ ينزعُ عنهما لِباسهُما ليُريهما سوآتِهما انهُ يراكم هُو وقبيلهُ من حيثُ لا ترونهُم انا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذينَ لا يؤمنونَ﴾(١).

نلاحظ الضمائر في هذه الآيات بصيغة المثنى عدا الفعل الاول في الآية الاولى، أي الفعل «أُسكن». فالله تعالى قد نسب الاذن بالأكل من الجنة، والنهي عن الاقتراب من شجرة معينة، ووسوسة الشيطان، وخديعته، والأكل من تلك الشجرة، وظهور العورة، وسترها بورق الجنة، واللوم الالهي، والاستغفار، الى كليهما، أي الى آدم وحواء معاً.

وتحدثت سورة البقرة عن هذا الأمر أيضاً مع الاشارة الى امور اخرى:

﴿وقُلنا يا آدمُ اسكُن أنتَ وزوجُكَ الجنةَ وكُلا منها رَغداً حيثُ شئتُما ولا تَقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين. فأزلهُما الشيطانُ عنها فأخرجَهُما مما كانا فيه وقُلنا اهبطوا بعضُكُم لبعضٍ عدوٌّ ولَكُم في الارضِ مُستقَرٌّ ومتاعٌ الى حينٍ. فتَلقّى آدمُ مِن ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ انهُ هُوَ التوابُ الرحيمُ. قُلنا اهبِطوا منها جميعاً فإمّا يأتينَّكُم

---

(١) الاعراف / ١٨ ـ ٢٧.

مني هُدى فَمَن تَبعَ هُدايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنونَ﴾[١].

هكذا نلاحظ في هذه الآيات الاشارة بـإجمال الى وسـوسة الشـيطان، بـينما تحدثت بتفصيل اكبر عن آثار ونتائج الهبوط، فضلاً عن الاشـارة الى تـوبة الله تعالى على آدم.

وتقدم سورة طه معلومات اكبر عن الوضع ما قبل الهبوط ووسوسة الشيطان، فتقول:

﴿فقُلنا يا آدمُ انَّ هذا عَدوٌّ لكَ ولِزوجِكَ فلا يُخرِجنكُما منَ الجنةِ فتشقى. انَ لكَ ألا تجُوعَ فيها ولا تعرى. وأنكَ لا تَظْمأُ فيها ولا تضحى. فوسوسَ اليهِ الشيطانُ قال يا آدمُ هل أدُلُّكَ على شجرةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يبلى. فأكلا مِنها فبدَت لهُما سوآتُهُما وطفِقَا يخصِفانِ عليهِما من ورقِ الجنةِ وعصى آدمُ ربَّهُ فغوى. ثُم اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليهِ وهدى. قال اهبِطا منها جميعاً بعضُكُم لِبعضٍ عدوٌّ فإما يأتينكُم مني هُدى فمنِ اتبع هُداي فلا يضلُّ ولا يشقى﴾[٢].

هذه الآيات تتحدث عن وسوسة الشيطان لآدم، ثم اكل كل من آدم وزوجته من الشجرة. أي ان العصيان قد نُسب الى آدم والهبوط الى الجميع.

من خلال ملاحظة السور الثلاث أعلاه يمكن القول بأن العصيان الذي أدى الى الهبوط، قد حدث من قبل آدم وزوجته بـتأثير الوسـوسة الشـيطانية. بـل نلاحظ اللوم الالهي في بعض الآيات موجهاً نحو آدم فقط. غير ان استخدام ضمائر التثنية في جميع الموارد وضمير الجمع في الهبوط، يدل على ان هذا العمل لا يخص شخصاً واحداً، بل ان سياق بعض الآيات ينم عن ان آدم قد خوطب وعوتب من قبل الخالق تعالى بوصفه ممثل النوع البشري. وما يهمنا على هذا الصعيد هو دور زوجة آدم ـ حواء ـ الذي لم نلاحظ في القرآن أي تأكيد عليه، وانما تحدث القرآن عنها كشريك لآدم في جميع أعماله.

---

(١) البقرة / ٣٥ ـ ٣٨.

(٢) طه / ١١٧ ـ ١٢٣.

المقارنة بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم

خلال المقارنة بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم بشأن حواء، يمكن ملاحظة بعض نقاط الاشتراك والاختلاف. في العهد القديم والقرآن الكريم هناك آيات تدل على خلق المرأة والرجل من قبل الله، أي ان هناك منشأ وجودياً واحداً للانسان.

وتحدث الكتاب المقدس عن تسمية آدم للموجودات بما فيها حواء، ولربما يُعد هذا تعبيراً رمزياً عن علم الأسماء عند آدم الذي تحدث عنه القرآن الكريم. غير ان القرآن لم يشر سوى الى تعليم الله لآدم الأسماء كلها، دون أن يشير هل هي اسماء الله، ام اسماء الموجودات، ام شيء آخر.

وينبغي القول بأن الاشتراكات في روايتي القرآن والكتاب المقدس بشأن الهبوط اقل بكثير من الاختلافات الفاحشة فيما بينهما.

فكلا الروايتين تتحدث عن سكن آدم وزوجته في الجنة وسماح الله تعالى لهما بالأكل من جميع ما فيها ما عدا شجرة واحدة.

وتحدث الكتاب المقدس عن الحية، والقرآن الكريم عن الشيطان، كعامل وسوسة في الجنة. كما اتفق الاثنان على ان أكل الثمرة المحرَّمة كان هو السبب في الهبوط.

ويبدأ الاختلاف في روايتي القرآن الكريم والكتاب المقدس للهبوط، من دور حواء فيه. فالقرآن حينما يتحدث عن الوسوسة الشيطانية، يأتي بالضمائر في صيغة المثنى، أي تشمل كلاً من آدم وحواء، فيقول: ﴿فأزلَّهما الشيطان﴾[١]، و﴿فوسوس لهما الشيطان﴾[٢]، و﴿فدلّاهما بغرور﴾[٣]، و﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾[٤].

---

(١) البقرة / ٣٦.

(٢) الاعراف / ٢٠.

(٣) الاعراف / ٢٢.

(٤) الاعراف / ٢١.

فالقرآن لا يقول بأن المرأة مصدر الذنب والفتنة وشريكة الشيطان أو انها تحض الرجل على ارتكاب المعاصي. في حين يقول الكتاب المقدس بأن الشيطان قد خدع حواء، وحرضت حواء المخدوعة آدم على الذنب، وان حواء هي السبب في هبوط كل من آدم وحواء من الجنة والاقامة في الدنيا.

ونلاحظ الاختلاف الآخر بين الاثنين، في مضمار الخلق. فبالرغم من اشارة الكتاب المقدس في موضع ما الى خلق الله للانسان ذكراً وأنثى، إلّا انه عدل عن ذلك في قصة خلق حواء، معتبراً آدم المنشأ المادي لخلق حواء. أي ان الله قد خلقها من أحد أضلاع آدم حينما كان نائماً. اضف الى ذلك انه تقرر منذ البداية ان تكون هذه المرأة معينة لآدم، وأنها قد خُلِقت له، أي انها موجود تابع لآدم. غير ان القرآن الكريم ورغم تحدثه عن خلق زوجة آدم من آدم إلّا انه لم يشر قط الى كونها تابعة له.

في العهد القديم يلوم الله تعالى آدم بعد أكله للثمرة التي منعه من اكلها، فيُلقي آدم جريرة ذلك العصيان على عاتق زوجته، فتُلقي حواء ذلك على عاتق الحية التي أغوتها. اما في القرآن الكريم فيعتذر كل من آدم وحواء الى الله من فعلتهما تلك: ﴿قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[1].

وهكذا لم نلاحظ في العهد القديم أي اشارة لاعتراف آدم وحواء بالذنب ولا بالاعتذار منه، وانما تحدث فقط عن خجلهما من العُري!

العهد القديم يقول بأن عقوبة خديعة حواء لآدم هي الحمل المصحوب بالألم، والرغبة في الزوج، والتبعية الدائمية له، ووقوعها تحت سيطرته. كما يقول بأن عقوبة آدم هي ان الارض قد أصبحت ملعونة بسببه، والاقتيات من الارض بألم وعناء طوال العمر.

العهد القديم يتحدث عن أنّ الله كان يخشى ان يأكل آدم من شجرة الحياة، ويجعل من هذا الأمر دليلاً آخر على طردهما من الجنة. بينما لم يتحدث القرآن

(١) الاعراف / ٢٣.

الكريم عن طرد الله لهما من الجنة خوفاً من ان يحظيا بالحياة الأبدية والخلود، وانما كان ذلك بسبب المعصية ـ والخطاب موجَّه لآدم ـ والاستسلام لوسوسة الشيطان واغوائه. ويمكن ان نقول بصراحة بأن بطل رواية الهبوط ومحورها في الكتاب المقدس هي حواء، وفي القرآن الكريم هو آدم!

وبالرغم من ان القرآن الكريم ينسب العصيان الى آدم، ويعتبر ذلك العصيان عامل الهبوط ويعبّر عن ذمه له، إلّا انه يذكر بعد ذلك عبارات تبعث على الأمل وتبشر آدم بأن الله تعالى قد تاب عليه، وبامكان ابناء آدم العيش على امل النجاة شريطة السير على الهدي الالهي.

رواية العهد القديم ـ على اية حال ـ ذات نظرة تشاؤمية ازاء حواء وتعتبرها سبب انخداع آدم وتلوث النسل البشري بالذنب ومعاناته من الألم. اضف الى ذلك انها عدّت حواء تابعة لآدم، ولا تصل اليه من حيث الشأن الانساني لأنه قد خُلق على صورة الله.

القرآن وعلى العكس من العهد القديم يوجه اللوم والعتاب الى ادم في هذا المجال ولم يشر الى حواء بشكل مباشر. كما يقدم رأياً متفائلاً ازاء الهبوط وآثاره ونتائجه. فالهبوط طبقاً للرواية القرآنية ناجم عن عصيان الانسان، أي كل من آدم وحواء. وقد عوقب الاثنان معاً. غير ان هذه المعصية لا علاقة لها بذريتهما. فكل امرئ مسؤول عن عمله، وباب النجاة والفوز مفتوح بوجه الجميع.

٢ ـ مريم

مريم في العهد الجديد

سُميت ام عيسى (ع) في العهد الجديد باسم «مريم». واسمها ترجمة لاسم Maria (ايضاً Mariam) في اليونانية، وهو مشتق من الاسم العبري (Miriam)[١].

---

(١) Laverdierre, Eugene, (Mary), In Encyclopedia of Early Christianity, Vo1.2, p.733.

مريم من سبط يهوذا ومن ذرية داود وتربطها رابطة قرابة بأليصابات، أمّ يحيى المعمدان(١).

والاشارة الاولى لاسمها في العهد الجديد يمكن ملاحظتها حين ولادة عيسى عليه السلام:

«أما ميلاد يسوع المسيح فهكذا كان: لما كانت مريم أُمُّهُ مخطوبةً ليوسف، وُجِدت قبل أن يتساكنا حاملاً من الروح القدس * وكان يوسفُ زوجُها بارّاً فلم يُرِد أن يشهر أمرها، فعزم على أن يُطلِّقَها سرّاً * وما نوى ذلك حتى تراءى له ملاكُ الرب في الحُلمِ وقال له: يا يوسفَ ابن داود، لا تخَف أن تأتيَ بامرأتِكَ مريم الى بيتك، فإن الذي كُوِّنَ فيها هوَ مِن الروحِ القُدُسِ * وسَتَلِد ابناً فسمِّهِ يسوع، لأنهُ هو الذي يُخلِّصُ شعبه من خطاياهم * وكان هذا كُلُّه ليتم ما قال الربُّ على لسان النبي: * ها ان العذراءَ تحملُ فتلدُ ابناً يسمونه عمانوئيل، أي «الله معنا» * فلما قام يوسفُ من النوم فعل كما أمره ملاكُ الربّ فأتى بامرأته الى بيته * على أنه لم يعرفها حتى ولَدَت ابناً فسماهُ يسوع»(٢).

وأكد انجيل لوقا على قضية حمل مريم بواسطة روح القدس بشكل اكبر، وتحدث عن ارسال الملاك الالهي الى مريم بالشكل التالي:

«وفي الشهر السادس، أرسل الله الملاك جبرائيل الى مدينةٍ في الخليل اسمها الناصرة * الى عذراءَ مخطوبة لرجل من بيت داود اسمُهُ يوسف، واسم العذراء مريم * فدخل اليها فقال: افرحي أيتها الممتلئةُ نعمةً، الربُّ معكِ * فداخَلَها لهذا الكلام اضطرابٌ شديدٌ وسألت نفسها ما معنى هذا السَّلام * فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم، فقد نلتِ حظوةً عند الله * فستحملين وتلدينَ ابناً فسميه يسوع * سيكونُ عظيماً وابنَ العليِّ يُدعى، ويوليه الربُّ الأعلى عرشَ أبيه داود * ويملكُ على بيتِ يعقوب أبدَ الدهر، ولن يكون لمُلكه نهاية * فقالت مريمُ للملاك: كيف

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص ٧٩٤.

(٢) العهد الجديد، انجيل متى، ١ / ١٨ ـ ٢٥.

يكونُ هذا ولا أعرفُ رجلاً؟ * فأجابها الملاك: ان الروحَ القُدُسَ سينزِلُ عليكِ وقدرة العليّ تُظلِّلكِ لذلك يكون المولودُ قدوساً وابنَ الله يُدعى * وها انَّ نسيبَتكِ اليصابات قد حَبِلت هي أيضاً بابنٍ في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك التي كانت تُدعى عاقراً * فما من شيء يُعجِزُ الله * فقالت مريم: أنا أمَةُ الربّ، فليكن لي بحَسَبِ قولك، وانصرفَ الملاكُ من عندها»[1].

وورد في انجيل لوقا الحوار بين مريم والروح القدس، ثم اللقاء الذي حدث بين مريم واليصابات، والذي تحدثت فيه مريم كلاماً متحمساً عن الله عبّرت فيه عن ايمانها العميق به وثنائها العظيم عليه:

«وفي تلك الايام قامت مريم فمضت مسرعةً الى الجبل، الى مدينة يهوذا * ودخلت بيتَ زكريا، فسلمت على اليصابات * فلما سمعت اليصاباتُ سلامَ مريم، ارتكضَ الجنين في بطنها وامتلأت من الروح القدس * فهتفت بأعلى صوتها: مباركةٌ أنتِ في النساء! ومباركة ثمرة بطنكِ! * من أين لي أن تأتيني أُمُّ ربي؟ * فما ان وقع صوتُ سلامك في أُذُنَيَّ حتى ارتكض الجنينُ ابتهاجاً في بطني * فطوبى لمن آمنَتْ، فسيتم ما بلغها من عند الرب * فقالت مريم:

تُعظِّمُ الربَّ نفسي *
وتبتهجُ روحي بالله مُخلِّصي *
لأنه نظر الى أمَته الوضيعة.
سوف تُهنّئني بعد اليوم جميعُ الأجيال *
لأن القديرَ صنع اليَّ اموراً عظيمة:
قُدّوسٌ اسمُه *
ورحمَتُهُ من جيلٍ الى جيلٍ
للذين يتّقونه *

(١) العهد الجديد، لوقا، ١ / ٢٦ ـ ٣٨.

كشفَ عن شدة ساعده

فشتت المتكبرينَ في قلوبهم *

حَطَّ الأقوياءَ عن العروش

ورفَعَ الوضعاء *

أشبعَ الجياعَ من الخيرات

والأغنياءُ صَرفَهُم فارغين *

نصر عَبدَه اسرائيل

ذاكراً كما قال لآبائنا *

رحمته لابراهيم ونَسلِهِ للأبد *

وقامت مريم عند اليصابات نحو ثلاثة أشهر ثم عادت الى بيتها»[١].

وهذا الكلام الذي يعبّر عنه انجيل لوقا بنشيد مريم، يكشف عن المعرفة العميقة لمريم بالله تعالى وتنبئها بما سيحدث لها خلال رؤيتها لروح القدس. وذهبت مريم بعد ذلك مع خطيبها يوسف الى بيت لحم للاشتراك في الاحصاء الذي أمر به آنذاك القيصر اوغسطس. فولدت عيسى هناك[٢].

ويتحدث انجيل لوقا عن مريم وابنها عيسى خلال حدث وقع لعيسى وهو في الثانية عشرة من العمر:

«وكانَ أبواهُ يذهبان كل سنة الى اورشليم في عيد الفصح * فلما بلغ اثنتي عشرة سنة، صعدوا اليها جَرياً على السُّنّة في العيد * فلما انقضت ايام العيد ورجعا، بقي الصبي يسوعُ في اورشليم، من غير أن يعلم أبواه * وكانا يظنان أنه في القافلة، فسارا مسيرة يوم، ثم أخذا يبحثان عنه عند الأقارب والمعارف * فلما لم يجداه، رجعا الى اورشليم يبحثان عنه * فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل، جالساً بين المعلمين يستمع اليهم ويسألهم * وكان جميع سامعيه معجبين أشدّ

---

(١) لوقا، ١ / ٣٩ـ٥٦.

(٢) لوقا، ٢ / ٤ـ٧.

الاعجاب بذكائه وجواباته * فلما أبصراه دهشا، فقالت له أمه: يا بُنيّ لِمَ صنعتَ بنا ذلك؟ فأنا وأبوك نبحث عنك متلهفين * فقال لهما: ولِمَ بحثتما عني؟ الم تعلما أنه يجب عليّ ان اكون عند أبي؟ * فلم يفهما ما قال لهما * ثم نزل معهما وعاد الى الناصرة، وكان طائعاً لهما. وكانت امه تحفظ تلك الأمور كلها في قلبها»[١].

ورغم الاشارة الى مريم مراراً خلال ذكر التبشير العام للمسيح، لكنها كانت في الغالب في الظل وينصب التأكيد على دور المسيح، وقد اشتاقت يوماً للتحدث معه فذهبت لرؤيته:

«وبينما هو يكلم الجموع، إذ أُمُّهُ وإخوته قد وقفوا في خارج الدار يريدون ان يكلموه * فقال له بعضهم: ان أُمك وإخوتك واقفون في خارج الدار يريدون أن يكلموك * فأجابَ الذي قال له ذلك: مَن أُمي ومَن إخوتي * ثم أشار بيده الى تلاميذه وقال: هؤلاء هم أُمي وإخوتي * لأنَّ من يعمل بمشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأُختي وأُمي»[٢].

ويقول انجيل لوقا ان عيسى قال: «ان أُمي وإخوتي هم الذين يستمعون كلمة الله ويعملون بها»[٣].

وتحدث انجيل يوحنا عن حضور مريم عند الصليب:

«هناك عند صليب يسوع، وقفت امه، وأُخت أُمّه مريمُ امرأةُ قلوبا، ومريمُ المجدلية * فرأى يسوعُ أُمَّهُ والى جانبها التلميذُ الحبيبُ اليه، فقال لأُمه: ايتها المرأة هذا ابنك * ثم قال للتلميذ: هذه امك، ومنذ تلك الساعة استقبلها التلميذ في بيته»[٤].

وهكذا نجد في انجيل يوحنا كيف يخاطب عيسى امه قائلاً «ايتها المرأة»، بينما لم

---

(١) لوقا، ٢ / ٤١ ـ ٥١.

(٢) متى، ١٢ / ٤٦ ـ ٥٠.

(٣) لوقا، ٨ / ٢١.

(٤) يوحنا، ١٩ / ٢٥ ـ ٢٧.

تعهد الأدبيات اليونانية بما فيها التفسير السبعيني ان يخاطب الابن امه بمثل هـذا الخطاب، ويبدو ان الانجيل يريد ان يحيي حواء، المرأة التي هي أُم الناس جميعاً.

اذن فقد طلب عيسى على اية حال من امه ان تكون اماً لحواريه الحبيب ـ أي يوحنا ـ ويطلب من يوحنا ان ينظر الى مريم كأم له(١).

وتحدثت الأناجيل عن حمل مريم، وعن تبتلها، وحملها وانجابها لعيسى(٢) دون ان تفقد بكارتها(٣). كما تحدثت عن يوسف كخطيب لها في بادئ الأمر وتزوجه بها فيما بعد(٤).

ونلاحظ مريم ايضاً في الانجيل خلال مـراسم الزواج بـقانا الجـليل، وكـيف اخبرت عيسى بنفاد الخمر، وتحدث عيسى هناك عن ساعته ومستقبله:

«وفي اليوم الثالث كان في قانا الجليل عرس وكانت ام يسوع هناك * فدُعي يسوع أيضاً وتلاميذه الى العرس * ونفدت الخمر، فـقالت ليسـوعَ امـهُ: ليس عندهم خمر * فقال لها يسوع: ما لي وما لكِ ايتها المرأة؟ لم تأت ساعتي بعد * فقالت امه للخدم: مهما قال لكم فافعلوه»(٥).

وقد حوّل عيسى الماء طبقاً لهذه الرواية الى خمر(٦)، وخـاطب عـيسى امـه بخطاب «ايتها المرأة» ايضاً.

ولم تشر كتابات بولس الى مريم بشيء، ولم تشر أعمال الرسل اليها سوى مرة واحدة:

«ولما وصلوا اليها صعدوا الى العُلّيّة التي كانوا يـقيمون فـيها وهـم بـطرس، ويوحنا، ويعقوب، وأندراوس، وفيلبس، وتوما، وبرتلماوس، ومتّى، ويعقوب بن

---

(١) Laverdierre, op. cit., p.734.

(٢) لوقا، ١ / ٣١ـ٣٣.

(٣) متى، ١ / ٢٠ و٢٣؛ لوقا، ١ / ٣٤.

(٤) متى، ١ / ١٨ و٢٤.

(٥) يوحنا، ٢ / ١ـ٥.

(٦) يوحنا، ٢ / ٦ـ١٢.

حَلفى، وسمعان الغيور، فيهوذا بن يعقوب * وكانوا يواظبون جميعاً على الصلاة بقلب واحد، مع بعض النسوة ومريم ام يسوع ومع اخوته»[١].

وهكذا رأينا ظهور مريم في الأناجيل خلال العديد من القصص مثل حملها، والاعلان عن هذا الحمل من قبل الروح القدس، ولقائها باليصابات، وولادة عيسى، والعثور عليه في الهيكل. وقد لعبت مريم خلال هذه الأحداث دوراً محورياً. غير ان دورها أخذ يتحول الى هامشي في ظل رسالة عيسى ودوره، ولم يُشَر اليها خلال ذلك الا من خلال علاقتها بعيسى كأُم.

مريم في القرآن الكريم

بما أن القرآن الكريم قد عبّر عن مريم ببنت عمران[٢]، وأُخت هارون[٣]، وبما ان موسى يُنظر اليه على انه ابن عمران وأخو هارون، فقد قال بعض المستشرقين بأن القرآن قد ارتكب خطأً تاريخياً حينما نسب كلاً من موسى ومريم الى عمران، أي انهما ابنان من أبناء عمران، وهذا يعني ان موسى خالُ عيسى، في حين هناك فاصل زماني بين موسى وعيسى بنحو ١٣ ـ ١٨ قرناً![٤].

وبامكاننا ان نقول ودون الخوض في الجزئيات والتفاصيل بأن مفسري القرآن والمؤرخين يعتقدون بوجود شخصين في التاريخ باسم عمران: الاول هو عمران بن يصهر والد موسى وهارون، والثاني عمران بن ماثان والد مريم وجد عيسى عليه السلام من امه. والمدهش في الأمر ان الاثنين كان لهما بنت باسم «مريم».

اذن فقد كان لموسى وهارون اخت باسم مريم، وكان اسم أم عيسى مريم ايضاً.

---

(١) أعمال الرسل، ١ / ١٣ و ١٤.

(٢) التحريم / ١٢.

(٣) مريم / ٢٨.

(٤) راجع: بدوي عبد الرحمن، الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، مكتبة مدبولي الصغير، ١٩٨٨، الفصل ١٢: حول العبارة القرآنية «يا اختَ هارون»، ص ١٤٧ ـ ١٨٠.

ومن هنا يتضح لماذا يدعو القرآن الكريم مريم ام عيسى (ع) ببنت عمران. ولكن القضية التي تبدو اكثر تعقيداً هي «هارون». فلا شك في تحدث العهد القديم والقرآن الكريم عن اخ لموسى عليه السلام باسم «هارون». اذن فمن هو هارون الذي هو أخو مريم وخال عيسى؟

يبدو ان يوحنا الدمشقي (ت ٧٤٩ م) كان أول من أثار هذا الإشكال ضد القرآن الكريم في القرن الاول الهجري (= القرن ٧ م). ومن اجل ان ينزه المفسرون المسلمون القرآن من مثل هذا الخطأ التاريخي ودحض مثل هذا الاشكال، قدّموا خمسة حلول كما يلي:

١ ـ هارون الذي تحدث عنه القرآن الكريم كان رجلاً صالحاً من بني اسرائيل. وكان من عادتهم الانتساب الى الأخيار والصالحين منهم ويعتبرون انفسهم اخواناً وأخوات للرجل الصالح فيهم. ولذلك خاطبوا مريم ام عيسى بخطاب «يا أُخت هارون» على سبيل الطعن والتقريع[1]، ولا يستند هذا الرأي على أي شاهد تاريخي.

٢ ـ كان هارون رجلاً سيئ السمعة والسلوك، ولذلك نسبها اليهود اليه بعد أن اساؤوا الظن بها، وعلى سبيل التقريع. ولا يوجد شاهد تاريخي يثبت هذا الرأي ايضاً.

٣ ـ كان هناك أخ لمريم باسم هارون[2]. وهذا الرأي وان لم يُدعم بشاهد تاريخي ايضاً، ولكن بما ان الأصل في الكلام هو الحقيقة وليس المجاز، فمن المرجّح ان يكون لدى مريم اخ باسم هارون.

٤ ـ المراد بهارون، هارون شقيق موسى، غير ان انتساب مريم اليه ليس لكونه اخاها الحقيقي، بل لكونها من ذريته. فمريم قريبة لاليصابات زوجة زكريا،

---

(١) البرهان في تفسير القرآن، المحدث البحراني، ج ٢، ص ١٠؛ تفسير نمونه، تحت اشراف ناصر مكارم الشيرازي، ج ١٣، ص ٥٠.

(٢) جوامع الجامع، الطبرسي، ج ٢، ص ٣٦٣؛ الكشاف، الزمخشري، ج ١٣، ص ١٤؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج ٢١، ص ١٧٧.

واليصابات من ذرية هارون[١].

من الواضح انه يُلجأ في اللغة العربية لاستخدام مفردتي الاخ والأخت تعبيراً عن الانتساب الى قوم أو قبيلة أو مدينة أو قصبة ـ وقد حذا القرآن الكريم حذو ذلك ايضاً[٢] ـ غير ان الذي يُضاف الى الأخ أو الأخت في جميع الأحوال هو اسم القوم والقبيلة أو المدينة والقصبة، وليس اسم الانسان. ولهذا لا يبدو هذا الرأي قوياً[٣].

٥ ـ المراد بهارون، هارون شقيق موسى، وانه اخ حقيقي لمريم وخال حقيقي لعيسى! اي ان السيدة مريم ـ ام عيسى ـ هي نفسها مريم اخت موسى، والتي أشار اليها الكتاب المقدس ايضاً[٤]. وعلى ضوء هذا الرأي عمرت مريم نحو ١٣٠٠ ـ ١٨٠٠ عام، وأنجبت في معجزة اخرى عيسى بدون أب! ولا يُلاحظ هذا الرأي إلّا عند محمد بن كعب القُرَظي او القُرَيظي[٥]، الذي يعتبره العلامة محمد حسين الطباطبائي (صاحب تفسير الميزان) من مفسري الطبقة الثانية، أي من طبقة التابعين وتلامذة الصحابة.

مريم هي المرأة الوحيدة التي ذكر القرآن اسمها، رغم تحدثه عن نساء أُخريات، إلّا انه لم يذكرهن بأسمائهن بل بعناوين أُخر، مثل: زوج آدم، وامرأة فرعون، وامرأة لوط، وامرأة نوح، وامرأة ابراهيم، وامرأة عمران، وامرأة زكريا، وملكة سبأ، وبنتي شعيب، وامرأة ابي لهب، ونساء النبي ﷺ.

وهكذا نلاحظ ان القرآن قد نسب جميع هذه النسوة الى ازواجهن عدا ملكة سبأ، وبنتي شعيب. غير ان السيدة مريم من حقها ان تفتخر بأن القرآن قد اشار

---

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ١٠.

(٢) مثلاً في هود / ٥٠ و٦١ و٨٤، الاعراف / ٧٣ و٨٥، الشعراء / ١٠٦ و١٢٤ و١٤٢ و١٦١ (والى عاد اخاهم هوداً، والى ثمود أخاهم صالحاً، والى مدين اخاهم شعيباً ...).

(٣) بدوي، الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص ١٤٥ ـ ١٨٠.

(٤) سفر الخروج، ١٥ / ٢٠.

(٥) تفسير ابن كثير، ج ١٣، ص ١١٩.

اليها باسمها. ليس هذا فحسب بل حينما يتحدث عن عيسى فإنه ينسبه اليها أيضاً. فقد ورد اسم عيسى في القرآن: أربع عشرة مرة بعنوان «عيسى بن مريم»، وخمس مرات بعنوان «المسيح بن مريم»، ومرتين بعنوان «المسيح عيسى بن مريم»، ومرة واحدة بعنوان «ابن مريم». ولم يُذكر اسمه في آية قرآنية بدون ان يقترن معه اسم امه مريم. وهذا ما يدل بوضوح على أنّ مكانة مريم مستقاة من علاقتها بعيسى، والتأكيد على انها كانت ام عيسى. فكونها اماً لعيسى امر يحظى بأهمية كبيرة.

تحدث القرآن الكريم عن مريم في مختلف السور وفي العديد من المناسبات. وقد انطلق أحياناً لتقديم صورة اجمالية عنها مثل:

﴿ومريم ابنةَ عمرانَ التي أحصنتْ فرجَها فنفَخنا فيهِ مِن روحنا وصدَّقت بكلماتِ ربِّها وكُتبهِ وكانت من القانتينَ﴾[1].

وتحدث احياناً عنها وعن ابنها بالاجمال:

﴿وجعلنا ابن مريمَ وأُمهُ آيةً وآويناهُما الى رَبوةٍ ذات قرارٍ مَعينٍ﴾[2].

وأمر الله تعالى عيسى بشكر نعمة الله عليه وعلى امه:

﴿اذ قالَ الله يا عيسى ابن مريمَ اذكُر نعمتي عليكَ وعلى والدتِكَ﴾[3].

وخاطب القرآن اهل الكتاب بشأن عيسى قائلاً:

﴿يا أهلَ الكتابِ لا تغلُوا في دينِكُم ولا تقولوا على الله إلّا الحقَّ انما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها الى مريمَ وروحٌ منه فآمنوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ﴾[4].

وهكذا نلاحظ كيف يشير القرآن الكريم الى مريم كوعاء طاهر نقي لاستقبال كلمة الله، بل محل لظهور كلمة «كن» والخلقة المباشرة لله تعالى:

---

(١) التحريم / ١٢.

(٢) المؤمنون / ٥٠.

(٣) المائدة / ١١٠.

(٤) النساء / ١٧١.

﴿ان مَثلَ عيسى عند الله كمَثلِ آدمَ خلقهُ من ترابٍ ثم قال له كن فيكون﴾[١].

وتحدث القرآن عن مريم بالتفصيل في موضعين: الأول حين ولادة مريم، والثاني حين حملها بعيسى وولادته. الموضع الاول ورد في سورة آل عمران كما يلي:

﴿اذ قالتِ امرأةُ عمرانَ ربِّ اني نذرتُ لكَ ما في بطني مُحرراً فتقبل مني انك انتَ السميعُ العليمُ. فلما وضَعتها قالت ربِّ اني وضعتُها أُنثى والله أعلمُ بما وضعت وليس الذكَرُ كالأُنثى وانّي سميتُها مريمَ واني أُعيذُها بكَ وذرّيتَها منَ الشيطانِ الرجيمِ. فتقبَّلَها ربُّها بقبُولٍ حسنٍ وأنبتَها نباتاً حسناً وكفّلَها زكريّا كُلّما دخلَ عليها زكريّا المحرابَ وجدَ عندها رِزقاً قالَ يا مريمُ أنى لكِ هذا قالت هوَ مِن عند الله ان الله يرزُقُ من يشاءُ بغيرِ حساب﴾[٢].

وجاء في سورة آل عمران أيضاً:

﴿واذ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ ان الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساءِ العالمينَ. يا مريمُ اقنُتي لربكِ واسجدي واركعي مع الراكعينَ. ذلكَ من أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ اليكَ وما كُنتَ لديهم اذ يُلقونَ أقلامهُم أيهُم يكفلُ مريمَ وما كنتَ لديهم اذ يختصمونَ. اذ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ ان الله يُبشركِ بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيحُ عيسى ابن مريمَ وجيهاً في الدُّنيا والآخرةِ ومنَ المُقربينَ﴾[٣].

وتشير هذه الآيات الى ما يلي:

اولاً ان ام مريم كانت امرأة تقية ورعة ومن اهل الايمان والمناجاة وأنها هي التي اسمتها مريم وقد نذرتها لله قبل ولادتها. ولم تتنصل عن نذرها حتى بعد أن تبين لها ان وليدها أُنثى، حيث يبدو انها كانت تتصور قبل ذلك انه ذكر.

ثانياً كان زكريا ـ وهو من انبياء الله ـ يشاهد كرامات مريم عن كثب. وكانت

---

(١) آل عمران / ٥٩.

(٢) آل عمران / ٣٥ ـ ٣٧.

(٣) آل عمران / ٤٢ ـ ٤٥.

مريم على يقين بأن تلك الكرامات نازلة عليها من الله تعالى. ومن تلك الكرامات ان الملائكة كانت تتحدث معها وتأمرها بالقنوت لله والسجود والركوع له، وتبشرها.

اذن فقد كانت مريم تحادث الملائكة قبل استقبال الكلمة الالهية. وكان هناك صراع حول الذي يكفل مريم ويتولى امورها. ويبدو ان ذلك بسبب الكرامات التي ظهرت لها، الأمر الذي دفع الكثيرين للتشرف بتولي امورها والافادة من بركاتها المعنوية.

والموضع الثاني ورد في سورة «مريم»، وهي المرأة الوحيدة التي سُمّيَت احدى سور القرآن باسمها، فضلاً عن وجود سورة اخرى باسم اسرتها.

نقرأ في هذه السورة:

﴿واذكُر في الكتابِ مريمَ اذِ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها رُوحنا فتمثلَ لها بشراً سوياً. قالت اني أعوذُ بالرحمنِ منكَ ان كُنتَ تقياً. قالَ انما أنا رسولُ ربكِ لأهبَ لكِ غُلاماً زكياً. قالت أنى يكونُ لي غُلامٌ ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغياً. قالَ كذلكِ قالَ ربُّكِ هو عليَّ هينٌ ولنجعلهُ آيةً للناسِ ورحمةً مِنا وكانَ أمراً مقضياً. فحملتهُ فانتبذت بهِ مكاناً قصياً. فأجاءها المخاضُ الى جذعِ النخلةِ قالت يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسياً. فناداها من تحتِها ألّا تحزني قد جعلَ ربُّكِ تحتكِ سرياً. وهُزّي اليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقط عليكِ رُطباً جنياً. فكُلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترينَّ منَ البشرِ أحداً فقولي اني نذرتُ للرحمنِ صوماً فلن أُكلمَ اليومَ انسياً. فأتت به قومها تحملهُ قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فرياً. يا أُختَ هرونَ ما كانَ أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانت أُمكِ بغياً. فأشارت اليه قالوا كيفَ نُكلمُ من كانَ في المهدِ صبياً. قالَ اني عبدُ الله آتاني الكتابَ وجعلني نبياً. وجعلني مُباركاً أين ما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ مادُمتُ حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلامُ علي يومَ وُلدتُ ويومَ أموتُ ويوم أُبعثُ حياً﴾[1].

---

(١) مريم / ١٦ ـ ٣٣.

وفي هذه الآيات العديد من النقاط الرائعة بشأن مريم. فهي تتحدث عن اعتزالها من اجل التفرغ لعبادة الله. وفي ذلك الاعتزال التقت بالروح الذي ظهر لها على شكل انسان جميل. فشعرت بالخوف في بادئ الامر، إلّا انها سكنت حينما كشف ذلك الملاك الإلهي عن هويته، وتم بعد ذلك القاء عيسى الى مريم بطريقة غير معلومة. فأمضت مريم فترة الحمل في مكان قصي وبعيد. إلّا انها تمنت الموت حين المخاض والولادة نظراً للوضع الخاص الذي كانت عليه. غير ان الله تعالى اخذ يخاطبها ويبدد عنها الخوف والشعور بالألم والاضطراب. والأمر الذي يستحق الالتفات في هذه الآيات هو ان الله تعالى كان يخاطبها بشكل مباشر، بينما كانت تُخاطَب قبل ذلك من قبل الملائكة والروح. وهذه منزلة عظيمة جداً ترتفع بمريم الى مستوى الأنبياء.

وقد عبّر القرآن الكريم عن التهمة التي وجهها قوم مريم لها بالبهتان العظيم:

﴿وبكُفرِهم وقولهم على مريمَ بُهتاناً عظيماً﴾[1].

وتتحدث سورة اخرى من القرآن عن الحوار الذي جرى بين مريم والبارئ تعالى حينما تقرر أن تحمل بعيسى:

﴿قالت ربِّ أنى يكونُ لي ولدٌ ولم يمسَسني بَشرٌ قالَ كذلكِ الله يخلقُ ما يشاءُ اذا قضى أمراً فانما يقولُ لهُ كن فيكون﴾[2].

مريم من وجهة نظر القرآن الكريم امرأة مقدسة وكاملة ولا تشبهها امرأة اخرى، لأنها المرأة الوحيدة التي توفرت لها القابلية على استقبال الكلمة الالهية طوال التاريخ. وهذا افتخار لا يرقى اليه افتخار.

المقارنة بين وجهتي نظر القرآن والعهد الجديد

لمريم مكانة عظيمة جداً في القرآن الكريم، وتحدث عن خصوصياتها التي تحوّلها الى امرأة لا نظير لها في التاريخ. وفي القرآن سورة باسم «مريم» واخرى

---

(١) النساء / ١٥٦.

(٢) آل عمران / ٤٧.

باسم قومها «آل عمران»، بينما أحجم عن ذكر اسم أية امرأة اخرى. وكلما ذكر القرآن الكريم عيسى ذكر معه امه مريم ايضاً، بحيث لا نجد موضعاً في القرآن أُشير فيه لعيسى إلّا وأُشير الى انه ابن مريم.

تلعب مريم في العهد الجديد دوراً اساسياً في حادثة ولادة عيسى، غير ان هذا الدور ينتهي بمجرد ولادته وتقع مريم في الهامش كأحد حواريي عيسى البعداء. بل لم تفلح حتى في الالتقاء بولدها. ولم يتحدث العهد الجديد بعد ذلك عن مريم إلّا في موارد غير مهمة وقليلة. فقد عتّمت عليها شخصيةُ ولدها المسيح تماماً.

وفي كل من القرآن الكريم والكتاب المقدس نجد ان الملاك يلتقي بمريم ويعلن عن الأمر الالهي بحملها. غير انها تضطرب وتخاف وتبدي شكها في ذلك ايضاً سيما وانها لم تُمسّ من قبل أحد. غير انها تقتنع بعد حوار مع الملاك الذي يبشرها ببعض البشارات.

الروايتان ذكرتا ان الاستدلال الذي قدّمه الملاك لمريم وأقنعها به هو: «كذلك الله يخلقُ ما يشاءُ اذا قضى أمراً فانما يقولُ لهُ كُن فيكون».

وتحدث القرآن عن هذا الحدث بشكل اكثر تفصيلاً، وتطرق الى بدء ولادة مريم نفسها وتربيتها، وقال بأنها كانت قبل حملها بعيسى تحادث الملائكة، ولديها الكثير من الكرامات الظاهرة.

اما العهد الجديد فلم يتحدث عن خلفية مريم وماضيها سوى قوله بأنها خطيبة يوسف. بينما لم يشر القرآن الكريم الى اسم أي خطيب أو زوج، وانما وصفها بالطهر والعفاف والتقوى.

وقدم القرآن تفاصيل اكبر عن اللقاء الذي حصل بين الملاك ومريم، في حين لم يقدم العهد الجديد سوى خبر مقتضب عن حدث ولادة عيسى. فلم نعرف منه سوى ان المسيح قد وُلد في الناصرة!

وتحدث القرآن الكريم عن حياة العزلة التي اختارتها مريم خلال فترة الحمل وذكر الحالات التي كانت عليها خلال فترة المخاض وما بعدها، وأشار الى التهمة

التي الصقها بها قومها حين الانجاب، واستنكر تلك التهمة واكد على عفافها وطهرها. بينما ذكر العهد الجديد اسمها بشكل عابر خلا عدة أحداث هامشية.

الروايتان على اية حال تصرحان بأن مريم امرأة طاهرة ذات مكانة سامية. وكانت على درجة عظيمة من السمو بحيث استحقت ان يُلقي الله اليها بكلمته. كما يكشف نزول الملائكة عليها وتحدثهم معها عن علوّها المعنوي وشأنها الروحي العظيم. وقد اكد القرآن الكريم اكثر من العهد الجديد على مقامها المعنوي، بينما نظر العهد الجديد اليها كأم للمسيح وأهميتها في ولادته، ولم ينظر اليها من أية زاوية اخرى.

ومن المناسب ان نقدم الجدول التالي الذي يبين خصوصيات السيدة مريم كما وردت في القرآن الكريم والعهد الجديد:

القرآن	العهد الجديد
١ ـ مُعاذة بالله من الشيطان الرجيم: آل عمران / ٣٦	انها مع الله: لوقا، ٢٨/١
٢ ـ تقبلها الله: آل عمران / ٣٧.	أمةُ الله: لوقا، ١ / ٣٨ و٤٨
٣ ـ أنبتها الله نباتاً حسناً: آل عمران/٣٧.	
٤ ـ رزقُها من الله: آل عمران / ٣٧.	
٥ ـ مصطفاةٌ من الله: آل عمران / ٤٢	مباركة بين النساء: لوقا، ١ / ٢٨ و٤١
٦ ـ مطهرة من قبل الله: آل عمران / ٤٢.	
٧ ـ تحدثها مع الملائكة: آل عمران / ٤٢ ـ ٤٣، ٤٥ ـ ٤٧؛ مريم / ١٧ ـ ٢١.	تحدثها مع جبرائيل: لوقا، ١ / ٢٨ ـ ٣٨.
٨ ـ صدّيقة: المائدة / ٧٥	
٩ ـ أنعمَ الله عليها: المائدة / ١١٠	الممتلئة نعمة: لوقا، ١ / ٢٨. ذات حظوة عند الله: لوقا، ١ / ٣٠. صنع الله لها اموراً عظيمة: لوقا، ١ / ٤٩.

١٠ ـ عفيفة: مريم / ٢٠؛ الانبياء / ٩١؛ التحريم / ١٢	لا تعرف رجلاً: لوقا، ١ / ٣٤.
١١ ـ آية للعالمين: الانبياء / ٩١.	أمّ الله: لوقا، ١ / ٤٣.
١٢ ـ مصدقة بكلمات الله وكتبه: التحريم/١٢	تعظُم الربَّ: لوقا، ١ / ٤٦ تبتهج روحُها بالله: لوقا، ١ / ٤٧
١٣ ـ قانتة: التحريم / ١٢	المواظبة على الصلاة بقلب واحد: اعمال الرسل، ١ / ١٤.
١٤ ـ نفخ الله فيها من روحه: الانبياء /٩١؛ التحريم / ١٢	حملُها من الروح القدس: متى، ١ / ١٨ ولوقا، ١ / ٣٥.

وهكذا نلاحظ ان هناك اتفاقاً بين القرآن الكريم والعهد الجديد حول عشر خصوصيات خص الله بها السيدة مريم، في حين هناك اربع خصوصيات اخرى تحدث عنها القرآن ولم يتحدث عنها العهد.

٣ ـ ام يحيى (اليصابات)

ام يحيى في القرآن

لم يذكر القرآن اسم ام يحيى، وانما عبّر عنها بامرأة زكريا. كما لم ينقل عنها أي كلام أو عمل. وكل ما ورد هو الاشارة اليها خلال الحديث الذي دار بين الملاك وزكريا:

﴿قال ربِّ أنى يكونُ لي غُلامٌ وقد بلغني الكِبَرُ وامرأتي عاقرٌ قالَ كذلك الله يفعلُ ما يشاءُ﴾[1].

وأكدت الآيات الخامسة والثامنة والتاسعة من سورة مريم على عقم امرأة

---

(١) آل عمران / ٤١.

زكريا.

وأشار القرآن ايضاً الى ان الله تعالى هو الذي أسمى ابن زكريا باسم لم يُسمَّ به أحد من قبل:

﴿يا زكريا إنا نُبشِّرُكَ بغلام اسمهُ يحيى لم نجعل لهُ من قبلُ سمياً﴾[١].

ام يحيى في العهد الجديد

هي اليصابات، زوجة زكريا وأم يحيى (يوحنا المعمدان)، من سبط لاوي وذرية هارون[٢]. وأشار العهد الجديد اليها اربع مرات. المرة الاولى ورد ذكرها بعد التعريف بزوجها زكريا:

«كان في ايام هيرودُس ملك اليهودية، كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيّا، له امرأة من بنات هارون اسمها أليصابات، وكان كلاهما باراً عند الله تابعاً جميع وصايا الرب وأحكامه ولا لوم عليه»[٣].

والمرة الثانية حين تحدث روح القدس مع مريم:

«وها ان نسيبتكِ اليصابات قد حبِلت هي أيضاً بابنٍ في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك التي كانت تُدعى عاقراً * فما من شيء يُعجزُ الله»[٤].

والمرة الثالثة حينما انصرف الملاك من عند مريم:

«وفي تلك الأيام قامت مريمُ فمضت مسرعةً الى الجبل الى مدينة في يهوذا * ودخلت بيت زكريا فسلمت على اليصابات * فلما سمعت اليصابات سلامَ مريم ارتكض الجنينُ في بطنها وامتلأت من الروح القدس * فهتفت بأعلى صوتها: مباركةٌ أنتِ في النساء! ومباركة ثمرة بطنك! من أين لي أن تأتيني أُمُّ ربي؟ فما أن وقع صوتُ سلامك في اذني حتى ارتكض الجنين ابتهاجاً في بطني * فطوبى لمن

---

(١) مريم / ٧.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ص ٩٩ و ٧٩٤.

(٣) لوقا، ١ / ٥.

(٤) لوقا، ١ / ٣٦ و ٣٧.

آمنت: فسيتم ما بلغها من عند الرب»[1].

وتدل هذه الآيات الانجيلية على مدى ايمان اليصابات وعرفانها العظيم.

والمرة الرابعة حين ولادة يحيى وتسميته:

«وأما اليصابات فلما حان وقتُ ولادتها وضعت ابناً * فسمع جيرانها وأقاربها بأن الربَّ رحمها رحمةً عظيمة ففرحوا معها * وجاؤوا في اليوم الثامن ليختنوا الطفل وأرادوا أن يسموه زكريا باسم أبيه * فتكلمت امه وقالت: لا بل يسمى يوحنّا * قالوا لها: ليس في قرابتكِ مَن يدعى بهذا الاسم * وسألوا أباه بالاشارة ماذا يريد أن يُسمى * فطلب لوحاً وكتب: اسمه يوحنا، فتعجبوا كلهم»[2].

هذه الآيات تكشف عن ان اليصابات هي التي اسمت ابنها باسم يحيى (يوحنا) وان اباه زكريا قد أيّد هذه التسمية رغم معارضة الجيران والأقرباء. ولربما يرجع تعجب هؤلاء الى عدم تكلم زكريا باسم ابنه وانما كتبه على لوح، أو لأنه وافق على تسمية زوجته، أو لأن هذا الاسم اسم غريب لم يكن قد تسمى به أحد من قبل.

المقارنة بين ام يحيى في القرآن والعهد الجديد

رأينا ان العهد الجديد قد تحدث عن ام يحيى بشكل اكثر تفصيلاً من القرآن وقدم بعض المعلومات عن شخصيتها، بينما اكتفى القرآن الكريم بالاشارة الى عقمها وتفضل الله عليها وعلى زوجها بأن وهب لهما يحيى بعد البشارة الالهية باستجابة دعاء زكريا.

ونسب العهد الجديد تسمية يحيى الى امه، في حين تحدث القرآن الكريم عن تسمية الله له. وأكد الاثنان على ان هذا الاسم لم يكن قد تسمى به أحد من قبل.

---

(١) لوقا، ١ / ٣٩ـ ٤٥.

(٢) لوقا، ١ / ٥٧ـ ٦٣.

اضف الى ذلك ان كلمات اليصابات حين لقائها بمريم والبشارة التي بشرتها بهـا، دليل على ايمانها العميق بالله واخلاصها له. كما يكشف امتلاؤها من روح القدس ـ حسب تعبير الكتاب المقدس ـ عن جانبها المعنوي العظيم.

٤ ـ ام موسى وأخته

في القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن ام موسى واخته في سورة طه حين ذكره للنعم التي انعمها على موسى:

﴿اذ أوحينا الى أمِّكَ ما يُوحى. أنِ اقذفيهِ في التابوتِ فاقذفيهِ في اليمِّ فليُلقهِ اليمُّ بالساحلِ يأخذهُ عدوٌّ لي وعدوٌّ لهُ وألقيتُ عليكَ محبةً مني ولتصنعَ على عيني. اذ تمشي أُختكَ فتقولُ هل أدُلُّكُم على من يكفُلُهُ فرجعناكَ الى أُمكَ كي تقرَّ عينُها ولا تحزنَ﴾[١].

وجاء في سورة القصص:

﴿وأوحينا الى أُمِّ موسى أن أرضعيه فاذا خِفتِ عليهِ فألقيهِ في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني انا رادُّوهُ اليكِ وجاعلوهُ منَ المُرسلينَ. فالتقطهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحزناً إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأةُ فرعونَ قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ لا تقتلوهُ عسى أن ينفعَنا أو نتخِذَهُ ولداً وهم لا يشعرونَ. وأصبحَ فُؤادُ أُمِّ موسى فارغاً إنْ كادت لَتبدي به لولا أن ربطنا على قلبِها لتكونَ من المؤمنينَ. وقالت لأُختِهِ قُصِّيهِ فبصُرَت بهِ عن جنُبٍ وهم لا يشعرونَ. وحرّمنا عيه المراضِعَ من قبلُ فقالت هل أدُلكُم على أهلِ بيتٍ يكفلُونَهُ لكم وهُم لهُ ناصحونَ. فرددناهُ الى أُمِّهِ كي تقرَّ عينُها ولا تحزنَ ولِتعلمَ أنَّ وعدَ الله حقٌّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمونَ﴾[٢].

---

(١) طه / ٣٨ـ٤٠.

(٢) القصص / ٧ـ١٣.

في الكتاب المقدس

مريم، اسم اخت موسى وهارون وبنت عمرام[١]. ويبدو انها اكبر من موسى بعشر سنوات، اذ ورد في العهد القديم:

«ومضى رجل من آل لاوي فتزوج بابنة لاوي * فحملت المرأة وولدت ابناً. ولما رأت أنه جميل أخفته ثلاثة أشهر * ولما لم تستطع أن تُخفيه بعد، أخذت له سلّة من البردي وطلتها بالحُمَر والزفت وجعلت الولد فيها ووضعتها بين القصب على حافة النهر * ووقفت اخته من بعيد لتعلم ما يحدث له * فنزلت ابنةُ فرعون الى النيل لتغتسل، وكانت وصائفها يتمشين على شاطئ النيل. فرأت السلّة بين القصب، فأرسلت خادمتها فأخذتها * وفتحتها ورأت الولد، فاذا هو صبي يبكي، فأشفقت عليه وقالت: هذا من اولاد العبرانيين * فقالت اخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لكِ مرضعةً من العبرانيات تُرضعُ لكِ الولد * فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أُم الولد * فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد فأرضعيه لي وأنا أعطيك اجرتكِ. فأخذت المرأةُ الولد وأرضعته»[٢].

ولا نجد ذكراً بعد ذلك لأخت موسى حتى عبور موسى وأصحابه لنهر النيل برعاية الله وبلوغهم اليابسة:

«ثم أخذت مريم النبيّةُ ـ اختُ هارون ـ الدفَّ في يدها، وخرجت النساءُ كلهن وراءها بالدفوف والرقص * فجاوبتهن مريم: أنشدوا للربِّ فإنه تعظّم تعظيماً. الفرسُ وراكبُه في البحرِ ألقاهما»[٣].

ونقرأ بعد ذلك في سفر العدد بشأنها ما يلي:

«وتكلمت مريمُ وهارونُ في موسى بسبب المرأة الحبشية التي تزوجها لأنه كان

(١) سفر الأخبار الاول، ٦ / ٣.
(٢) سفر الخروج، ٢ / ١ ـ ٩.
(٣) سفر الخروج، ١٥ / ٢٠ و٢١.

قد اتخذ امرأةً حبشية * وقالا: تُرى أ بموسى وحده تكلم الرب؟ الم يتكلم بنا ايضاً؟ فسمع الرب * وكان موسى رجلاً متواضعاً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض * فقال الرب فجأة لموسى وهارون ومريم: أُخرجوا ثلاثتكم الى خيمة الموعد. فخرجوا ثلاثتهم * فنزل الرب في عمود غمام ووقف على باب الخيمة ونادى هارونَ وموسى. فخرجا كلاهما * فقال: اسمعا كلامي. إن يكنْ فيكم نبي فبالرؤيا اتعرّف اليه. انا الرب وفي حُلم أخاطبه * وأما عبدي موسى فليس هكذا، بل هو على كل بيتي مؤتمن * فماً الى فم أُخاطبه وعياناً لا بألغاز. وصورة الرب يعاين. فلماذا لم تهابا أن تتكلما في عبدي موسى؟ * وغضب الرب عليهما ومضى * وابتعد الغمامُ عن الخيمة، واذا بمريم برصاء كالثلج. والتفت هارونُ الى مريم فاذا هي برصاء * فقال هارون لموسى: يا سيدي لا تُحملنا الخطيئة التي جُنّنا بارتكابها * ولا تبق هذه كالميت عند خروجه من رحم امه وقد تأكل نصفُ جسمه * فصرخ موسى الى الرب قائلاً: اللهم اشفِها * فقال الربُّ لموسى: لو أن أباها بصقَ في وجهها اما تستحيي سبعة ايام؟ فلتُحجز سبعة أيام خارج المخيَّم وبعد ذلك تُرجع * فحُجِزت مريم خارج المخيم سبعة أيام * وبعد ذلك رحل الشعبُ من حَصيروت وخيّموا في بريّة فاران»[1].

وتشير هذه الآيات الى ان اعتراض مريم على موسى لم يكن مقتصراً على اطار زواجه بالمرأة الحبشية، وانما يمتد الى الاعتراض على نبوته وقد ساهم هارون معها في هذا الاعتراض. وكان اعتراضاً مذموماً وقبيحاً الى درجة ان الله قد عاقب مريم بمرض البرص. فتوسل موسى الى الله كي يصرف عنها هذا المرض. وقد عوقبت في نهاية المطاف بالحجز خارج المخيم لمدة ٧ أيام.

وُلدت مريم في قادش ودُفنت فيها:

«ووصل بنو اسرائيل، الجماعة كلها الى برّيّة صين في الشهر الأول، فأقام

(١) سفر العدد، الاصحاح ١٢.

الشعبُ بقادش، وماتت هناك مريم ودُفنت هناك»[١].

مقارنة عامة

تحدث القرآن والكتاب المقدس كلاهما عن ان ام موسى واختـه لعـبتا دوراً مهماً في حدث ولادة موسى. وقد أدى التنسيق فيما بينهما الى نجاة يوسف من القتل وعودته الى امه. غير ان القرآن الكريم قدّم معلومات اكبر عن ام موسى، في حين اولى الكتاب المقدس أهمية اكبر نحو اخته.

تحدث القرآن قائلاً بأن الله تعالى هو الذي اوحى الى ام موسى كي تلقي ولدها موسى في مياه النيل. في حين ورد في الكتاب المقدس ان ام موسى قـد اخـفت ولدها على مدى ثلاثة أشهر، ثم قررت ان تضعه في تابوت وتلقيه في النهر، دون الاشارة الى وجود وحي الهي في هذا المجال.

القرآن والكتاب المقدس يتحدثان كلاهما عن تقصّي اخت موسى لموسى الذي كان عائماً على سطح الماء كي تكون على بصيرة من امره، وانها هي نفسها التي اقترحت على منتشلته ان تحمله الى امرأة ترضعه. وذكر القرآن ان زوجة فرعون هي التي انتشلته من الماء بينما قال الكتاب المقدس انها ابنة فرعون.

القرآن لم يشر بعد ذلك بشيء الى اخت موسى، وقد انصبّ التأكيد القـرآني على ان الله تعالى قد أمر ام موسى ومن خلال الاتصال القلبي والباطني الذي كان بينها وبين الله، ان تُلقي طفلها في الماء ووعدها بإعادته اليها سليماً، وقد اعاده اليها كما وعد سبحانه. اذن وطبقاً للرواية القرآنية لابد ان تكون ام موسى امرأة صالحة وتقية ومن اهل المناجاة والاتصال الوثيق بالله. وقد طمأن الله قلبها من خـلال البشارة التي بشرها بها.

ولم يتحدث العهد القديم عن شخصية ام موسى، وانما تحدث عن اخته التي عبّر عنها في موضع آخر بالنبية. وقال بأنها كانت تضرب على الدف فـرحاً بـنجاة

---

(١) سفر العدد، ٢٠ / ١.

موسى من فرعون وتعبّر عن شكرها لله. كما تحدث عن عفو الله عنها بعدما غضب عليها بسبب موقفها غير الصحيح ازاء موسى.

٥ ـ امرأة لوط

في القرآن

تحدث القرآن في عدة مواضع عن امرأة لوط: مرةً حينما جاء الملائكة الى لوط وأخبروه بقرب نزول العذاب الالهي على قومه عدا امرأته:

﴿قالوا يا لوطُ انا رُسلُ ربِّكَ لن يصلوا اليكَ فأسْرِ بأهلكَ بقِطْعٍ منَ الليلِ ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلّا امرأتكَ انهُ مصيبُها ما أصابهُم ان موعدَهم الصبحُ أليس الصبحُ بقريبٍ﴾[1].

وجاء في آية اخرى:

﴿... وقالوا لا تخف ولا تحزن انا مُنجّوكَ وأهلَكَ إلّا امرأتَكَ كانت منَ الغابرينَ﴾[2].

وتحدث القرآن الكريم عن مصير امرأة لوط حينما نزل العذاب على قوم لوط:

﴿فأنجيناهُ وأهلهُ إلّا امرأته كانت من الغابرين﴾[3].

وكرر القرآن الكريم الحديث عن مصير امرأة لوط في موضع آخر:

﴿الا آلَ لوطٍ انا لمنجّوهُم أجمعين. إلّا امرأتَهُ قدَّرناها لَمِنَ الغابرينَ﴾[4].

والأمر المدهش المتعلق بامرأة لوط هو ان الله تعالى قد ضربها مثلاً للذين كفروا فقال:

﴿ضربَ الله مثلاً للذينَ كفروا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ كانتا تحتَ عبدينِ مِن عبادِنا صالحينِ فخانتاهُما فلم يُغنِيا عنهما منَ الله شيئاً وقيلَ ادخُلا النارَ مع

---

(١) هود / ٨١.

(٢) العنكبوت / ٣٣.

(٣) الاعراف / ٨٣.

(٤) الحجر / ٥٩ و٦٠.

الداخلينَ﴾[١].

في الكتاب المقدس

اورد هاكس حين التحدث عن لوط انه حينما قدم الملكان الى لوط مرسلين من قبل الله، اخبراه بالعذاب الالهي الذي سينزل على مدينة سدوم وعمورة وأدمه وصبوئيم وبالع. وقيل انه أُمر بالهروب الى بالع وهي قصبة صغيرة وتغيير اسمها الى صوغر. وحينما كانوا يهربون نظرت امرأته الى الخلف فسخها الله نُصباً من الملح، لأنها خالفته[٢].

وجاء في سفر التكوين:

«فالتفتت امرأةُ لوط الى ورائها فصارت نُصب ملح»[٣].

واشار العهد الجديد الى هذا الامر مرة واحدة:

«وكما حدث في أيام لوط، اذ كانوا يأكلون ويشربون، ويشترون ويبيعون، ويغرسون ويبنون * ولكن يوم خرج لوط من سدوم، أُمطر الله ناراً وكبريتاً من السماء فأهلكتهم أجمعين * فكذلك يكون الأمر يوم يظهر ابن الانسان * فمن كان في ذلك اليوم على السطح وأمتعتُه في البيت فلا ينزل ليأخذها، ومن كان في الحقل فلا يرتد الى الوراء * تذكّروا امرأة لوط! مَن اراد ان يحفظ حياته يفقدها، ومن فقد حياته يخلّصها»[٤].

ويمكن ان ترمز التفاتة زوجة لوط للخلف، الى الرجوع للدنيا. ولم يتحدث الكتاب المقدس عن أي ذنب آخر لامرأة لوط عدا هذا الذنب.

مقارنة

لم يتحدث الكتاب المقدس عن امرأة لوط عدا ما أشرنا اليه وهو انها نظرت

---

(١) التحريم / ١٠.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ص ٧٧١.

(٣) سفر التكوين، ١٩ / ٢٦.

(٤) لوقا، ١٧ / ٢٨ ـ ٣٢.

الى الخلف، فعُدّ هذا تمرداً على الأمر الالهي، فتحولت الى نصب من ملح.

غير ان القرآن وضمن اشارته الى المعنى اعلاه وهو ألا يلتفت أي أحد من أهل لوط الى الوراء خلال الهرب من المدينة، لمّح الى ان امرأة لوط قد فعلت مثل هذا الأمر فحلّ بها العذاب الذي حلّ بالمدينة. وقد عبّر عنها القرآن الكريم بالخائنة لزوجها، وضربها مثلاً للذين كفروا، فاستحقت العذاب الالهي بسبب تلك الخيانة والكفر.

٦ ـ امرأة ابراهيم

في القرآن

تحدث القرآن الكريم عن امرأة ابراهيم حين سرده لقصة مجيء الملائكة الى ابراهيم، وهم نفس الملائكة الذين أُمروا بانزال العذاب على قوم لوط:

﴿ولقد جاءت رُسلُنا ابراهيمَ بالبُشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبِثَ أن جاءَ بعِجلٍ حنيذٍ. فلما رأى أيديهُم لا تصلُ اليهِ نكرَهُم وأُوجسَ منهُم خيفَةً قالوا لا تخف انا أُرسلنا الى قومِ لوطٍ. وامرأتُهُ قائمةٌ فضحكَت فبشرناها باسحاق ومِن وراءِ اسحاقَ يعقوبَ﴾[(١)].

طبقاً لهذه الآيات بشر الله تعالى زوجة ابراهيم بشارتين: الاولى ولادة اسحاق، والثانية ولادة يعقوب.

ووردت هذه القصة في سورة اخرى كالتالي:

﴿فأوجسَ منهُم خيفةً قالوا لا تخف وبشروهُ بِغلامٍ عليمٍ. فأقبلتِ امرأتُهُ في صَرَّةٍ فصكَّت وجههَا وقالت عجوزٌ عقيمٌ. قالوا كذلكِ قالَ ربُّكِ انهُ هوَ الحكيمُ العليمُ﴾[(٢)].

وفيما عدا هذين الموردين، لم يتحدث القرآن الكريم عن امرأة ابراهيم.

---

(١) هود / ٦٩ ـ ٧١.

(٢) الذاريات / ٢٨ ـ ٣٠.

في الكتاب المقدس

ورد في العهد القديم ان الاسم الأصلي لامرأة ابراهيم هو «ساراي» ـ أي أميرتي ـ [١] وغيّره الله الى «سارة»، أي الأميرة:

«وقال الله لابراهيم: ساراي امرأتُك لا تُسمّها ساراي، بل سمها سارة» [٢].

وبشر الله سارة كما بشر ابراهيم:

«وأنا أُباركها وأرزقك منها ابناً، وأُباركها فتصيرُ أُمماً، وملوكُ شعوبٍ منها يخرجون. فسقط ابراهيمُ على وجهه وضحك وقال في قلبه: ألابنِ مئةِ سنةٍ يولَد ولدٌ، أم سارةُ وهي ابنة تسعين سنة تلد؟ ... فقال الله: بل سارة امرأتك ستلدُ لك ابناً وسمِّه اسحاق، وأُقيمُ عهدي معه عهداً أبدياً لأكونَ له الهاً ولنسلِهِ من بعده» [٣].

وورد في العهد القديم ان ابراهيم نزل مع سارة الى مصر بسبب المجاعة، فقال لها: «أنا اعلم انكِ امرأة جميلة المنظر * فيكون اذا رآكِ المصريون انهم يقولون «هذه امرأته» فيقتلونني ويبقونك على قيد الحياة * فقولي انكِ أُختي حتى يُحسن اليّ بسببك وتحيا نفسي بفضلك» [٤].

وفعلت سارة كما اوصاها ابراهيم، فأخذها رؤساء فرعون الى بيته فأحسن الى ابراهيم بسببها، إلّا انه علم عندما وجه اليه الله عقوبات شديدة، انها زوجة ابراهيم وليست اخته، فأعادها اليه [٥].

وورد في العهد القديم ايضاً في شرح حياتها انها لم تلد لابراهيم ولداً فاقترحت

---

(١) التكوين، ١١ / ٢٩.

(٢) التكوين، ١٧ / ١٥.

(٣) التكوين، ١٧ / ١٦ ـ ١٩.

(٤) التكوين، ١٢ / ١١ ـ ١٣.

(٥) التكوين، ١٢ / ١٣ ـ ٢٠.

عليه الدخول على خادمتها هاجر. فحملت هاجر منه، فهانت سيدتها سارة في عينها. وتألمت سارة بسبب ذلك فعمدت الى اذلالها، فهربت هاجر من وجهها، فنزل عليها الملاك وأمرها بالعودة الى سارة واطاعتها[١].

وبعد أن انجبت هاجر اسماعيل، وانجبت سارة اسحاق، طلبت سارة من ابراهيم ان يطرد هاجر وابنها: «فقالت لابراهيم: اطرد هذه الخادمة وابنها فان ابن هذه الجارية لن يرث مع ابني اسحاق»[٢].

ورغم تحدث هذه القصة عن بعض السلبيات عند سارة، غير ان ايمانها كان كافياً لايجاد النسل الموعود: «بالايمان نالت سارة هي ايضاً القوة على انشاء نسل، وقد جاوزت السن، ذلك بأنها عدّت الذي وعَدَ أميناً»[٣].

وورد في سفر التكوين:

«وكانت سنو عمر سارة مئة وسبعاً وعشرين سنة * وماتت سارة في قرية أربع وهي حبرون، في أرض كنعان، فأقبل ابراهيم يندب سارة ويبكيها»[٤].

مقارنة

لم يذكر القرآن الكريم اسم امرأة ابراهيم، بل لم يتحدث بشكل صريح عن خطاب الله وبشارة الملائكة لها. وانما ورد فقط ان ابراهيم قد بُشِّر بغلام، وأُشير الى ردة فعل امرأته عند سماع تلك البشرى.

ويبدو ان «سارة» كانت تشاهد لقاء الملائكة بزوجها ابراهيم وتسمع حديثهم معه، ولذلك ضحكت من بشارتهم مرة وأبدت دهشتها مرة اخرى.

اذن لم تكن امرأة ابراهيم في القرآن سوى وعاء لتحقق الارادة الالهية وولادة اسحاق من أب شيخٍ وأم عقيم. ويبدو ان التعبير عن دهشتها حين سماع الخبر،

---

(١) التكوين، الاصحاح ١٦.

(٢) التكوين، ٢١ / ١٠.

(٣) الرسالة الى العبرانيين، ١١ / ١١.

(٤) سفر التكوين، ٢٣ / ١ و٢.

طبيعي كالوجل الذي شعر به ابراهيم حين رؤية الملائكة والتعجب الذي ابداه زكريا حينما بُشِّر بيحيى. ولذلك لا يمكن ان تُعد ردة الفعل التي ابدتها امرأة ابراهيم نقطة ضعف أو عاملاً سلبياً.

ورغم وجود بعض المشتركات بين القرآن الكريم والكتاب المقدس ازاء امرأة ابراهيم، هناك بعض أوجه الاختلاف ايضاً. ولا شك في ان رواية الكتاب المقدس اكثر تفصيلاً من الرواية القرآنية. فالكتاب المقدس لا يذكر اسم امرأة ابراهيم فحسب، بل يرى ان تغيير اسمها قد تمّ بأمر الله أيضاً.

ويشير الكتابان معاً الى ان ابراهيم هو الذي بُشِّر وليس امرأته، مع الاختلاف التالي وهو ان القرآن يقول بأن الذين حملوا هذه البشارة هم نفس الملائكة الذين أُمروا بانزال العذاب على قوم لوط، في حين يقول الكتاب المقدس بأن الله تعالى هو الذي خاطبه مبشراً، ولم تكن سارة حاضرة، وقد ابدى ابراهيم تعجبه لأنه وامرأته عجوزان. اما القرآن فيتحدث عن تعجب امرأة ابراهيم لا ابراهيم.

والكتابان كلاهما يذكران ان اسحاق هو الابن الذي بشر القرآن ابراهيم بولادته.

قصة مواجهة ابراهيم وسارة لأهل مصر وامراء فرعون ومن ثم لفرعون، تشير فقط الى الجمال الظاهري لسارة واطاعتها لزوجها. في حين يُعاب عليها سلوكها مع هاجر وطلبها من ابراهيم طردها من البيت. هاتان القصتان لم يشر اليهما القرآن قط.

ب ـ النساء المذكورات إما في القرآن وإما في الكتاب المقدس

النساء المذكورات في القرآن فقط:

١ ـ امرأة أبي لهب

ورد ذكر امرأة ابي لهب في سورة «المسد» فقط.

وقد عبّر القرآن الكريم عن غضبه عليها وعلى زوجها أبي لهب ووعدهما

بالعذاب الالهي:

﴿تبّت يدا أبي لهبٍ وتبَّ. ما أغنى عنهُ مالهُ وما كسبَ. سيصلى ناراً ذاتَ لهبٍ. وامرأتُهُ حمالَةَ الحطبِ. في جيدِها حبلٌ مِن مسدٍ﴾[١].

٢ ـ امرأة فرعون

امرأة فرعون من النساء اللاتي ذكرهن القرآن بخير، وقد ظهرت في مشهدين: الاول حينما التقطت موسى من اليم وحالت دونه قتله:

﴿وقالتِ امرأةُ فرعونَ قُرةُ عينٍ لي ولكَ لا تقتلُوهُ عسى أن ينفعَنا أو نتخذَهُ ولداً وهم لا يشعرونَ﴾[٢].

والثاني حينما كانت تناجي الله، فضربها الله مثلاً للذين آمنوا:

﴿وضربَ الله مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فرعونَ اذ قالت ربِّ ابنِ لي عندكَ بيتاً في الجنةِ ونجِّني من فرعونَ وعملِهِ ونجِّني منَ القومِ الظالمينَ﴾[٣].

٣ ـ امرأة عزيز مصر

تحدثت سورة يوسف عن يوسف وما جرى عليه من أحداث وما تعرض له من محن وامتحانات الهية. وأشارت هذه السورة خلال سرد تلك الأحداث الى امرأة عزيز مصر في عدة مواضع منها: الاول، حينما ابتاع العزيز «يوسف» وجاء به الى البيت، قال لزوجته: ﴿أكرمي مثواهُ عسى أن ينفعنا أو نتخذهُ ولداً﴾[٤].

والثاني، حينما حاولت ايقاع يوسف في معصية الزنا: ﴿وراودتهُ التي هو في بيتِها عن نفسهِ وغلّقتِ الأبوابَ وقالت هيتَ لكَ قالَ معاذَ الله انهُ ربي أحسنَ مثوايَ انهُ لا يُفلحُ الظالمون. ولقد همت به وهمَّ بها لولا أن رأى بُرهانَ ربِّهِ كذلك لِنصرِفَ

(١) سورة المسد.

(٢) القصص / ٩.

(٣) التحريم / ١١.

(٤) يوسف / ٢١.

عنهُ السُّوءَ والفحشاءَ انهُ من عبادِنا المخلَصين. واستبَقا البابَ وقدَّت قميصهُ مِن دُبرٍ وألفَيا سيدَها لدى البابِ قالت ما جزاءُ من أرادَ بأهلكَ سوءاً إلّا أن يُسجنَ أو عذابٌ أليمٌ. قالَ هي راودَتني عن نفسي وشهِدَ شاهدٌ من أهلها إن كان قميصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبينَ. وإن كان قميصهُ قُدَّ من دُبرٍ فكذبت وهوَ منَ الصادقينَ. فلما رأى قميصهُ قُدَّ من دُبرٍ قال انهُ من كيدِكُنَّ ان كيدَكُنَّ عظيمٌ. يوسفُ أعرِض عن هذا واستغفري لذنبِكِ انكِ كنتِ من الخاطئين. وقالَ نِسوةٌ في المدينةِ امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فتاها عن نفسهِ قد شغفَها حُبّاً انا لنراها في ضلالٍ مُبينٍ. فلما سمعَت بمكرِهنَّ أرسلت اليهنَّ وأعتدت لهنَّ مُتكأً وآتت كُلَّ واحدةٍ منهُنَّ سِكيناً وقالتِ اخرج عليهنَّ فلما رأينهُ أكبرنَهُ وقطّعنَ أيديهُنَّ وقُلنَ حاشَ لله ما هذا بشراً ان هذا إلّا ملكٌ كريمٌ. قالت فذلكُنَّ الذي لُمتُنَّني فيهِ ولقد راودتُهُ عن نفسهِ فاستعصمَ ولئن لم يفعل ما آمُرُهُ ليُسجننَّ وليكونن من الصاغرينَ﴾[١].

ولم يتحدث القرآن عن زوجة العزيز بعد القاء يوسف في السجن الى ان رأى ملك مصر مناماً فسّره له يوسف، فبعث خلفه، فطلب منه يوسف ان يحقق في امره كي تثبت له براءته من خلال الاستفسار من النسوة اللائي قطّعن ايديهن. فأحضر الملك تلك النسوة فاعترفن ببراءة يوسف، وأقرّت امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فأبى:

﴿وقالَ الملِكُ اني أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعَ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخرَ يابساتٍ يا أيُّها الملأُ أفتوني في رُؤيايَ ان كنتُم للرؤيا تعبُرونَ. قالوا أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ. وقالَ الذي نجا منهُما وادَّكرَ بعدَ أُمةٍ أنا أُنبئُكُم بتأويلهِ فأرسلُونَ. يُوسفُ أيُّها الصدِّيقُ أفتنا في سبعِ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهنَّ سبعٌ عِجافٌ وسبعِ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخرَ يابساتٍ لعلّي أرجعُ الى الناسِ لعلهُم يعلمونَ. قالَ تزرعُونَ سبعَ سنينَ دأباً فما حصدتُم فذروهُ في سُنبلهِ إلّا قليلاً مما تأكلونَ. ثُم يأتي من بعدِ ذلكَ سبعٌ شِدادٌ يأكلنَ ما قدمتُم لهُنَّ إلّا قليلاً مما

(١) يوسف / ٢٤ ـ ٣٢.

تُحصنونَ. ثُمَّ يأتي مِن بعدِ ذلكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ الناسُ وفيهِ يَعصِرُونَ. وقالَ الملكُ ائتوني بهِ فلما جاءَهُ الرسُولُ قالَ ارجع الى ربكَ فاسألهُ ما بالُ النِّسوةِ اللاتي قطّعنَ أيديهُنَّ ان ربي بكيدهِنَّ عليمٌ. قالَ ما خطبُكُنَّ اذ راودتُنَّ يُوسفَ عن نفسهِ قُلنَ حاشَ لله ما علمنَا عليهِ من سوءٍ قالتِ امرأةُ العزيزِ الآنَ حصحصَ الحقُّ أنا راودتُهُ عن نفسهِ وانهُ لمِنَ الصادقينَ. ذلكَ ليعلَمَ أني لم أخنهُ بالغيبِ وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين﴾[1].

قصة يوسف أطول قصص القرآن، والتحدث عما جرى بين يوسف وامرأة العزيز، أطول كلام أورده القرآن حول امرأة من النساء. وقدّم القرآن هذه المرأة في باديء الأمر كامرأة ماكرة تقف خلف سجن يوسف، إلّا انها اعترفت بذنبها في آخر المطاف، وأدت شهادتها الى اثبات براءة يوسف.

٤ ـ امرأة عمران

هي ام مريم. وقد أشارت اليها سورة آل عمران بعض الاشارات كما يلي:

﴿اذ قالت امرأةُ عمرانَ ربِّ اني نذرتُ لكَ ما في بطني مُحرراً فتقبَّل مني انكَ أنت السميعُ العليم. فلما وضعتها قالت ربِّ اني وضعتُها أُنثى والله أعلمُ بما وضعت وليس الذكرُ كالأُنثى وانّي سميتُها مريمَ واني أُعيذُها بكَ وذُرِّيتها من الشيطانِ الرجيم. فتقبلَها ربُّها بقبولٍ حَسنٍ وأنبتَها نباتاً حسناً﴾[2].

٥ ـ امرأة نوح

أُشير اليها في موضع واحد من القرآن الى جانب امرأة لوط، وعبّر القرآن عن كلتيهما بالشكل التالي:

﴿... ضربَ الله مثلاً للذين كفروا امرأةَ نوح وامرأةَ لوطٍ كانتا تحتَ عبدينِ مِن

---

(١) يوسف / ٤٣ ـ ٥٢.

(٢) آل عمران / ٣٥ ـ ٣٦.

عبادِنا صالحين فخانتاهُما فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً وقيلَ ادخُلا النارَ مع الداخلين﴾[١].

وبما ان القرآن لم يتحدث عنها في موضع آخر، فلا نعرف كيف كانت وما هي الاعمال التي قامت بها بحيث استحقت هذا الغضب الالهي فعدّها القران مثلاً للكافرين ووجّه اليها تهمة خيانة زوجها نوح.

٦ ـ نساء النبي ﷺ

الآيات التي تحدثت عن نساء النبي محمد ﷺ نوعان:

١ ـ الآيات التي تتحدث عن واحدة أو اثنتين من نساء النبي ﷺ؛ ٢ ـ الآيات التي تتحدث عن جميع نساء النبي ﷺ.

تتحدث سورة الأحزاب عن احدى نساء الرسول ﷺ كالتالي:

﴿واذ تقولُ للذي أنعمَ الله عليه وأنعمتَ عليه أمسِكْ عليكَ زوجكَ واتّقِ الله وتُخفي في نفسِكَ ما الله مُبديه وتخشى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاهُ فلما قضى زيدٌ منها وَطراً زوَّجناكَها لكي لا يكونَ على المؤمنينَ حَرجٌ في أزواجِ أدعيائِهم اذا قضَوا مِنهُنَّ وَطراً وكانَ أمرُ الله مفعولاً﴾[٢].

وتحدثت سورة التحريم عن اثنتين من نساء النبي كما يلي:

﴿واذ أسرَّ النبيُّ الى بعضِ أزواجِهِ حديثاً فلما نبَّأت به وأظهرَهُ الله عليه عرَّفَ بعضَهُ وأعرَضَ عن بعضٍ فلما نبَّأها بِهِ قالت مَن أنبأَكَ هذا قالَ نبّأني العليمُ الخبيرُ. ان تَتوبا الى الله فقد صغَت قلوبُكما وان تظاهَرا عليه فان الله هُو مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنينَ والملائكةُ بعد ذلكَ ظهيرٌ. عسى ربُّهُ ان طلّقكُنَّ أن يُبدِلهُ أزواجاً خيراً مِنكُنَّ﴾[٣].

---

(١) التحريم / ١٠.
(٢) الأحزاب / ٣٧.
(٣) التحريم / ٣ـ ٥.

في هذه الآيات تعرضت هاتان الزوجتان من أزواج النبي ﷺ الى مؤاخذة الله القاسية وعتابه الشديد، وعدّ تعاملهما مع النبي ﷺ تعاملاً غير مقبول.

اما فيما يتعلق بالآيات التي صدرت في نساء النبي عموماً، فقد ورد:

﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفُسهم وأزواجُهُ أُمهاتُهم﴾(١).

وهذه الآية تجعل من ازواج النبي ﷺ امهاتٍ للمؤمنين، وهو حكم تترتب عليه أحكام اخرى مثل تحريم الزواج بهن من قبل أي رجل بعد وفاة النبي ﷺ.

وقال الله تعالى ايضاً:

﴿يا أيها النبيُّ قُل لأزواجكَ ان كُنتُنَّ تُرِدنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَينَ أُمتّعكُنَ وأُسرِّحكُنَّ سراحاً جميلاً. وان كُنتُنَّ تُرِدنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ فانَّ الله أعدَّ للمُحسِناتِ مِنكُنَّ أجراً عظيماً. يا نساءَ النبيِّ مَن يأتِ مِنكُنَّ بفاحِشةٍ مُبيِّنَةٍ يُضاعَف لها العذابُ ضِعفَينِ وكانَ ذلكَ على الله يسيراً. ومَن يَقنُت مِنكُنَّ لله ورسولِهِ وتعمَل صالحاً نُؤتِها أجرها مرتينِ وأعتدنا لها رزقاً كريماً. يا نساءَ النبيّ لستُنَّ كأحدٍ من النساءِ انِ اتقيتُنَّ فلا تخضعنَ بالقولِ فيطمعَ الذي في قلبهِ مرضٌ وقُلنَ قولاً معروفاً. وَقَرنَ في بيوتِكُنَّ ولا تبرَّجنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأُولى وأقِمنَ الصلاةَ وآتينَ الزكاةَ وأطِعنَ الله ورسولَهُ انما يريدُ الله ليُذهِبَ عنكُمُ الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِّرَكُم تطهيراً. واذكُرنَ ما يُتلى في بُيوتِكُنَّ مِن آياتِ الله والحكمةِ انَّ الله كان لطيفاً خبيراً﴾(٢).

ويستشف من هذه الآيات ان بعض نساء النبي كن يُنشدن حياة دنيوية أفضل فخاطبهن الله تعالى قائلاً بأن الحياة مع النبي ﷺ ليست مقترنة بالرخاء المادي، غير ان الولاء لله ورسوله لابد وأن يستحق الأجر الاخروي العظيم. والآيات بشكل عام تهدف الى تذكير نساء النبي ببعض النقاط المهمة من جهة، والاشارة الى تميزهن عن سائر النساء من جهة اخرى.

---

(١) الأحزاب / ٦.

(٢) الأحزاب / ٢٨ ـ ٣٤.

٧ ـ ابنتا شعيب

تحدثت سورة القصص عن ابنتي شعيب حين استعراض خروج موسى من مصر هارباً ودخوله الى مدين:

﴿ولمَّا توجَّهَ تِلقاءَ مَدينَ قالَ عَسى ربي أن يهديني سَواءَ السبيلِ. ولما وردَ ماءَ مدينَ وَجدَ عليهِ أُمةً مِن الناسِ يسقُونَ ووجدَ من دُونهمُ امرأتينِ تذُودانِ قال ما خطبُكما قالتا لا نَسقي حتى يُصدرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخٌ كبيرٌ. فسقى لهما ثُم تـولى الى الظِّلِ فقالَ ربِّ اني لِما أنزلتَ الي من خيرٍ فقيرٌ. فجاءَتهُ احداهما تمشي على استحياءٍ قالت انَّ أبي يدعُوكَ ليجزيَكَ أجر ما سقَيتَ لنا فلما جاءَهُ وقصَّ عليهِ القَصصَ قالَ لا تخف نجوتَ من القومِ الظالمينَ. قالت احداهُما يـا أبتِ اسـتأجِرهُ انَّ خـيرَ مـن استأجرتَ القويُّ الأمينُ. قال إني أُريدُ أن أُنكِحكَ احدى ابـنتيَّ هـاتينِ عـلى أن تأجُرني ثماني حِججٍ فان أتممتَ عشراً فمِن عِندكَ وما أُريدُ أن أشُقَّ عليكَ ستجدُني ان شاءَ الله منَ الصالحينَ. قالَ ذلكَ بيني وبينكَ أيَّما الأجلينِ قضيتُ فلا عُدوانَ علي والله على ما نقولُ وكيلٌ﴾[1].

ولم توضح لنا هذه الآيات من هي من ابنتي شعيب التي دعت موسى، ومن هي التي امتدحته عند ابيها، ومن هي التي تزوجها موسى؟ غير ان النبرة القرآنية تدل على الرضا عن ابنتي شعيب وسلوكهما العفيف المنصف.

٨ ـ ملكة سبأ

عبّر عنها القرآن الكريم بالمرأة التي تملك سبأ، وطرح بعض النقاط العـجيبة حول الطريقة التي كانت تحكم بها وعن تدبيرها وحكمتها. والموضع الوحيد الذي تحدث به القرآن عنها هي سورة النمل. وقد بدأ الحديث عنها من خلال التـقرير الذي قدّمه الهدهد لسليمان:

---

(١) القصص / ٢٢ ـ ٢٨.

﴿أَحَطتُ بِما لم تُحِط بهِ وجِئتُكَ مِن سبَأٍ بنبأٍ يقينٍ. اني وجدتُ امرأةً تَملِكُهُم وأُوتيَتْ مِن كلِّ شيءٍ ولها عَرشٌ عظيمٌ. وَجدتُها وقَومَها يسجُدونَ للشمسِ مِن دونِ الله وزيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهُم فصدَّهُم عن السبيلِ فهُم لا يهتدونَ﴾[1].

وعلى اثر تقرير الهدهد بعث سليمان كتاباً الى ملكة سبأ ليعلم صدق الهدهد ام كذبه ويرى ردة فعل ملكة سبأ. وبعد ان تلقت ملكة سبأ الكتاب جمعت قومها للتشاور معهم ﴿قالت يا أَيُّها المَلأُ انِّي أُلقِيَ اليّ كتابٌ كريمٌ. انهُ مِن سُليمانَ وإنهُ بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ. ألا تَعلُوا عليَّ وأتُوني مُسلمينَ﴾[2].

وبعد ذلك ﴿قالت يا أَيُّها الملأُ أفتوني في أمري ما كُنتُ قاطعةً أمراً حتّى تشهدونِ﴾[3].

﴿قالوا نحن أُولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديدٍ والأمرُ اليكِ فانظُري ماذا تأمُرين﴾[4].

﴿قالت انَّ المُلوكَ اذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعِزَّةَ أهلها أذلَّةً وكذلكَ يفعلونَ﴾[5].

وأرسلت الى سليمان هديةً وظلت تنتظر ماذا يكون جوابه. غير انه لم يقبل هديتها، وقال:

﴿فَلناتينَّهُم بجنودٍ لا قِبلَ لهم بها ولنُخرِجنَّهُم منها أذِلّةً وهُم صاغرون﴾[6].

والتفت سليمان الى من كان حوله وقال:

﴿يا أَيُّها الملأُ أيُّكُم يأتيني بعرشِها قبل أن يأتُوني مسلمينَ﴾[7].

---

(١) النمل، / ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) النمل، ٢٩ ـ ٣١.

(٣) النمل، ٣٢.

(٤) النمل، ٣٣.

(٥) النمل، ٣٤.

(٦) النمل، ٣٧.

(٧) النمل، ٣٨.

وجيء لسليمان بعرش ملكة سبأ ﴿فلما رآهُ مُستقرّاً عندهُ قالَ هذا من فضلِ ربّي ليبلُوَني أأشكُرُ أم أكفُرُ﴾[١].

وحينما دخلت ملكة سبأ قصر سليمان ﴿قيل لها ادخُلي الصرحَ فلمّا رأتهُ حَسِبتهُ لُجَّةً وكشفَت عن ساقيها قالَ انه صرحٌ مُمَرَّدٌ مِن قواريرَ قالت ربِّ انّي ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ لله ربِّ العالمينَ﴾[٢].

هذه الآيات القرآنية تقدّم ملكة سبأ كامرأة عاقلة ومدبّرة ومن أهل المشورة واتباع الحق. فبالرغم من كتاب التهديد الذي بعثه سليمان، ورغبة كبار رجال البلد بالحرب، إلّا انها اختارت الطريق السلمي فبعثت لسليمان هدية، مستدلة في موقفها هذا بدليل منطقي. اضف الى ذلك انها لم تتعصب لعقيدتها وسرعان ما آمنت بالله بمجرد ان عرفت الحق وأدركته.

الاستنتاج

معظم النساء اللاتي أشار القرآن اليهن، حظين بامتداح الله، والذكر الحسن. ونماذج النساء الكفوءات الصالحات في القرآن تفوق نماذج النساء اللاتي انبرى القرآن لذمهن. فعدا زوجة عزيز مصر، وامرأة لوط، وامرأة نوح، وامرأة ابي لهب، وواحدة أو اثنتين من نساء الرسول ﷺ، قدّم القرآن النماذج النسوية الاخرى، نماذج صالحة وخيّرة وعارفة لعبت دوراً ايجابياً في محيطها ومجتمعها، وقد خاطب الله أو الملائكة بعضها.

النساء المذكورات في الكتاب المقدس فقط

في العهد القديم

١ ـ أستير، وُلدت استير بنت ابيجائيل في بلاد فارس قبل ميلاد المسيح بحوالي

---

(١) النمل، ٤٠.

(٢) النمل، ٤٤.

٥٠٠ عام. تزوجت بملك ايران بعد وفاة ابيها فأصبحت ملكة على هذه البلاد بدعم من ابن عمها مردخاي. ولذلك خفّضت كثيراً الضرائب المفروضة على اليهود، وأصبحت ذات نفوذ كبير بحيث جعلت اليهود في امان من غضب الملك وأنقذتهم من القتل.

تحدث سفر «استير» عنها بشكل مفصل.

٢ ـ بَتْشابَع بنت اليعام، امرأة اورِيّا الحثّي، أحد أصحاب المناصب العبرانيين. وورد في العهد القديم ان داود كان يتمشى على سطح البيت فرأى من السطح هذه المرأة تستحم وكانت جميلة جداً. فأرسل رسلاً وأخذها، فأتت اليه فضاجعها. ثم احتال في قتل زوجها خلال الحرب، فتزوجها، فولدت له سليمان[١].

٣ ـ حُلدَة، امرأة شلّوم بن تقوة بن حرحاس، وكانت نبية معروفة مقيمة في اورشليم. وحينما ظهرت التوراة بعث الملك يوشيا اليها من يرجوها أن تسأل الرب فيه، فأخبرتهم بما قال الرب[٢].

٤ ـ حنّة، زوجة القانة ووالدة النبي صموئيل، كانت عاقراً فدعت الله فاستجاب دعوتها ووهبها صموئيل. وقد أنشدت نشيد الشكر حين ولادته والذي يُعد من أروع الاناشيد في الاشادة بالعدل الالهي وقدسية الذات الالهية[٣]. وهو نموذج لنشيد مريم العذراء حين تحادثها مع اليصابات والذي ورد في العهد الجديد[٤].

٥ ـ دَبورة، كانت نبية وزوجة لَفيدوت، ومتولية قضاء بني اسرائيل في ذلك الزمان. وكانت تجلس تحت نخلة دبورة في جبل أفرائيم، وكان بنو اسرائيل يصعدون اليها لتقضي لهم[٥].

---

(١) سفر صموئيل الثاني، الاصحاح ١١.

(٢) سفر الملوك الثاني، ٢٢ / ١٥ ـ ٢٠.

(٣) سفر صموئيل الاول، ٢ / ١ ـ ١٠.

(٤) لوقا، ١ / ٤٦ ـ ٥٥.

(٥) سفر القضاة، ٤ / ٤ ـ ٥.

وكان بنو اسرائيل في زمانها تحت حكم يابين ملك كنعان، وبعثت دبورة ومن خلال الهداية الالهية الى رجل يدعى «ياراق» وأمرته ـ بأمر من الله ـ ان يهاجم «سيسرا» قائد جيش يابين بعشرة آلاف مقاتل، ووعدته بالانتصار. إلّا انه قال لها: «إن انتِ انطلقتِ معي انطلقتُ وان لم تنطلقي فلا أنطلق». فقالت له: «أنطلقُ معك، غير انه لا يكون لك فخر في الطريق الذي أنت سالكه، فان الربّ الى يد امرأة يسلم سيسرا».

وتحقق ما وعدت به دبورة فانهزم سيسرا وقُتل، وانشدت دبورة نشيد السرور وحمدت الله[١].

٦ ـ دليلة، امرأة زانية كانت تقيم في وادي سوريق بالقرب من فلسطين. وقد أوقعت «شمشون» أحد أشهر المؤمنين في يد أعدائه بعد ان وقع في غرامها[٢].

٧ ـ راحاب، زانية من أهل اريحا أخفت في دارها افراد يشوع بن نون. ولذلك سلمت دارها من التدمير حين دخول يشوع الى اريحا. تزوجت فيما بعد بسلمون من سبط يهوذا وأحد أجداد المسيح[٣].

٨ ـ راحيل، بنت لايان، وامرأة يعقوب، وام يوسف وبنيامين[٤].

٩ ـ رصفة، سُرِّيَّة شاول، التي حرست جسدي ابنيها اللذين صلبهما الجبعونيون على مدى عدة أشهر[٥].

١٠ ـ رفقة، أُخت لابان، وامرأة اسحاق بن ابراهيم. وتعد قصة زواجها باسحاق من أجمل قصص العهد القديم[٦]. وأنجبت بعد زواجها بعشرين عاماً كلاً من يعقوب وعيسو، وكشف الله لرفقة عن مستقبل هذين الابنين. وأخذ قلبها يميل

---

(١) سفر القضاة، الاصحاحان ٤ و٥.

(٢) سفر القضاة، الاصحاح ١٦.

(٣) سفر يشوع، ٢ / ١ و٨ ـ ١٢ و١٧ ـ ٢٣؛ ٦ / ١٧ ـ ٢٥.

(٤) سفر التكوين، ٢٩ / ٦.

(٥) سفر صموئيل الثاني، ٣ / ٧؛ ٢١ / ٨ ـ ١٠.

(٦) سفر التكوين، الاصحاح ٢٤.

ليعقوب أكثر من عيسو مما ادى الى بروز بعض المتاعب في الأسرة. دُفنت في مقبرة ابراهيم[١].

١١ ـ راعوت، امرأة من أهل موآب هاجرت الى ارض يهوذا فتزوجها بوعز، فولد لهما داود الذي من نسله عيسى المسيح. وفي العهد القديم سفر صغير باسم راعوت، تحدث عن هذا الحدث مفصلاً[٢].

١٢ ـ ساراي (= اميرتي)، الاسم الأصلي لامرأة ابراهيم[٣] فغيّره الله تعالى الى «سارة»[٤]. وبشّرها الله بكثير من البشارات[٥]. وكانت عقيماً فزوجت خادمتها هاجر لابراهيم. وقد غضبت على هاجر بعد حملها وطلبت من ابراهيم أن يطردها. بشرها الله بولادة اسحاق[٦].

١٣ ـ هاجر، خادمة مصرية عند سارا امرأة ابراهيم، تزوجها ابراهيم باقتراح من زوجته سارا. «فلما رأت انها قد حملت، هانت سيدتُها في عينيها»[٧] فأساءت سارا معاملتها فهربت هاجر من وجهها، فوجدها الملاك عند عين ماء في البرية فبشّرها باسماعيل وقال لها «لأُكثِّرنّ نسلكِ تكثيراً حتى لا يُحصى لكثرته»[٨].

ولم يشر العهد القديم الى هاجر بشيء بعد ذلك الى ان فطمت سارة اسحاق، ورأت اسماعيل يلعب مع ابنها اسحاق، فقالت لابراهيم: «اطرد هذه الخادمة وابنها فان ابن هذه الجارية لن يرث مع ابني اسحاق»[٩].

وأبى ابراهيم في بادئ الامر، فأمره الله ان يسمع قول سارة وبشّره بأنه

---

(١) سفر التكوين، ٤٩ / ٣١.

(٢) سفر راعوت.

(٣) التكوين، ١١ / ٢٩.

(٤) التكوين ٢٠ / ١٢.

(٥) التكوين، ١٢ / ١٥.

(٦) التكوين، ١٦ / ٦؛ ٢١ / ١٠.

(٧) التكوين، ١٦ / ٤.

(٨) التكوين، ١٦ / ١٠.

(٩) التكوين، ٢١ / ٩.

سيجعل لاسماعيل أُمة عظيمة. فصرفها ابراهيم مع ابنها، فمضت وتاهت في بريّة بئر سبع ونفد الماء الذي معها ورفعت صوتها باكية خوفاً على ولدها من الموت، فناداها ملاك الرب من السماء بأن الله جاعله امة عظيمة، وفتح الله عينها، فرأت بئر ماء فمضت وملأت القربة وسقت الصبي.

وأقام اسماعيل ببرية فاران واتخذت له امه امرأة من أرض مصر[١]. واعتبر القديس بولس هاجر رمز اورشليم وعبودية الله[٢].

١٤ ـ ياعيل، امرأة حابر القيني، وقد أدخلت سيسرا قائد جيش يابين الهارب الى خيمتها، لكنها أخذت وتداً من أوتاد الخيمة وأخذت المطرقة بيدها وسارت اليه بهدوء وضربت الوتد في صدغه حتى انغرز في الارض، وكان نائماً منهكاً فمات. واستحسنت «دبورة» عملها هذا كثيراً لأن يابين وسيسرا آذيا بني اسرائيل كثيراً[٣].

١٥ ـ يوكابد: ام هارون وموسى ومريم (اخت موسى)، وزوجة عمرام (عمران)، وبنت لاوي، وقد وُلدت بمصر[٤].

وهناك الكثير من الأسماء النسوية في العهد القديم دون ان يقدّم لنا عنها معلومات خاصّة، مكتفياً بالقول من هو أبو هذه أو امّها وامّ من هي تلك. فقد أولى العهد القديم أهمية كبيرة لذكر سلسلة النسب وأسماء الأجداد من الأب والأم. وقد أوردنا اسماء النساء اللاتي تميزن بخصوصية خاصة أو لعبن دوراً في برهة تاريخية ما. ولم يكن بين هذه النسوة سوى «دليلة» تعرضت للذم.

في العهد الجديد

١ ـ ايزابل (= طاهرة)، زوجة آحاب ملك اسرائيل وبنت أحد الملوك

---

(١) التكوين، ٢١ / ٩ ـ ٢١.

(٢) الرسالة الى أهل غلاطيه، ٤ / ٢٣ ـ ٢٥.

(٣) سفر القضاء، ٤ / ١٧ ـ ٢٢؛ ٥ / ٢٤ ـ ٢٧.

(٤) سفر الخروج، ٦ / ٢٠؛ سفر العدد، ٢٦ / ٥٩.

الصيدونيين. ترعرعت بين الوثنيين وكانت هي التي تحكم اسرائيل في حقيقة الأمر، وكانت تجبر الناس على عبادة بعل وسائر الأصنام. وكانت تنوي لقتل الانبياء، إلّا انها قُتلت على يد الملك التالي بعد ان ظلمت الناس كثيراً. ذكره يوحنا بسوء في سفر الرؤيا[١].

٢ ـ برنيقة، بنت اغريبا الكبير وأُخت اغريبا ملك اليهود. كانت شهيرة بسوء السيرة، وحضرت في قيصرية المحكمة التي أُقيمت لمحاكمة القديس بولس[٢].

٣ ـ برسيس، امرأة مسيحية من سكان روما وقد بعث لها القديس بولس السلام[٣].

٤ ـ بِرسقِلَّة، زوجة اقيلا، وكانت يهودية ورعة معروفة تساعد زوجها دائماً في امور الخير والضيافات التي يقيمها اعضاء الكنيسة في بيتها[٤].

٥ ـ يُولِية، زوجة فيلولوغُس، وقد سلّم عليها بولس في رسالته لأهل روما[٥].

٦ ـ حنَّة (= الموفَّقة)، امرأة نبية، وهي ابنة فانوئيل من سبط آشِر، عاشت مع زوجها سبع سنوات، ثم بقيت أرملة، فبلغت الرابعة والثمانين من عمرها لا تفارق الهيكل متعبدة بالصوم والصلاة ليل نهار. وحظيت وهي في هذه السن بلقاء عيسى وهو طفل، وأخذت تحدّث بأمره كل من كان ينتظره[٦].

٧ ـ دُرسُلَّة، بنت هيرودُس الثالث وزوجة فيلكس، وقد اشتركت مع زوجها في محاكمة بولس[٧].

---

(١) سفر الرؤيا، ٢ / ١٨ ـ ٢٣.

(٢) اعمال الرسل، ٢٥ / ١٣ و٢٣؛ ٢٦ / ٣٠.

(٣) الرسالة الى اهل رومة، ١٦ / ١٢.

(٤) الرسالة الى اهل رومه، ١٦ / ٣؛ اعمال الرسل، ١٨ / ٢ و١٨ و٢٦.

(٥) الرسالة الى اهل رومه، ١٦ / ١٥.

(٦) لوقا، ٢ / ٣٦ ـ ٣٨.

(٧) اعمال الرسل، ٢٤ / ٢٤ ـ ٢٧.

٨ ـ سالومة، زوجة زَبدى وأُم يعقوب الكبير ويوحنا الانجيلي ـ وهما من حواريي عيسى ـ وقد شهدت صلب المسيح[١]. وكانت ممن تبعن المسيح من الجليل ليخدمنه[٢]. وانطلقت مع مريم المجدلية ومريم ام يعقوب لتطييب قبر المسيح. وقد كانت الى جانب من رأى قبره خالياً لأول مرة بعد موته. وبشّرها الملاك مع من كان معها بأن المسيح قد قام[٣].

٩ ـ سفيرة (= جميلة)، زوجة حَننْيا، وقد توفيت فجأة لأنها ساعدت زوجها في اخفاء المال الذي كان ينبغي ان يعطيه للرسل[٤].

١٠ ـ سَوْسَنة، احدى النساء اللاتي خدمن المسيح[٥].

١١ ـ فَيْبة، شَمّاسةُ كنيسةِ قَنخَرِيّة. كانت محبوبة لأعمال خيرها. قال فيها بولس: «حمت كثيراً من الاخوة وحمتني أنا ايضاً»[٦].

١٢ ـ قُلُودِية، امرأة مسيحية كانت تقيم بروما وممن ذكرها بولس بين الأشخاص الذين سلّموا على طيموتاوس[٧].

١٣ ـ ليدِية، امرأة كانت تعبد الله من مدينة تياطيرة. وفتح الله قلبها لتصغي الى ما يقول بولس، فأصبحت مسيحية. كانت تعمل بالتجارة فكان لديها مال كثير. دعت الرسل والمؤمنين لدخول بيتها والاقامة عندها[٨].

١٤ ـ مرتا، اختُ لَعازَر ومريم، ويبدو انها اكبر منهما، لأنها تُذكر قبل اختها مريم دائماً. كان يحبها المسيح. وقد شاهدت كيف احيا المسيح أخاها لعازر بعد

(١) مرقس، ١٥ / ٤٠.
(٢) متى، ٢٧ / ٥٦.
(٣) مرقس، ١٦ / ١ ـ ٩.
(٤) اعمال الرسل، ٥ / ١ ـ ١١.
(٥) لوقا، ٨ / ٣.
(٦) الرسالة الى اهل رومه، ١٦ / ١ و٢.
(٧) رسالة القديس بولس الثانية الى طيموتاوس، ١٤ / ٢١.
(٨) اعمال الرسل، ١٦ / ١٤.

أربعة ايام من موته[١].

١٥ ـ مريم، امُّ يعقوب وتدعى بمريم الأخرى، وكانت من بين النسوة اللاتي ذهبن لقبر المسيح لتطييب جسده. وحملت بشارة قيام المسيح الى تلامذته. وقد التقت به بعد ذلك فأمسكت قدميه[٢].

١٦ ـ مريم، اخت لَعازر ومرتا، وكانت محبة وصادقة في حبها للمسيح، حتى انه قال فيها: «اختارت مريم النصيب الأفضل»[٣]. وكانت صالحة ومتدينة كثيراً[٤]. دهنت قدمي المسيح بالطيب الخالص الغالي الثمن ومسحتهما بشعرها في بيت اخيها لعازر، فعبق البيتُ بالطيب[٥].

١٧ ـ مريم، ام يوحنا الملقب بمرقُس، وخالة برنابا، وكانت امرأة متقية ساكنة في اورشليم. وكان جماعة من تلامذة المسيح في بيتها في تلك الليلة التي نجا فيها بطرس من السجن[٦].

١٨ ـ مريم المجدليّة: معروف انها كانت زانية غنية. وكانت مبتلاة بسبعة شياطين فأخرجها المسيح منها[٧]. وحضرت صلب المسيح[٨]، وشهدت دفنه[٩]، وانطلقت مع اخريات لتطييب جسده[١٠] وكانت من اوائل اللاتي شهدن خلو القبر منه، وتحدث معها هناك ملاك الرب[١١]. كما تكلم معها المسيح بعد قيامه، وبعث

---

(١) لوقا، ١٠ / ٣٨ـ ٤٢؛ يوحنا، ١١ / ٥ و٣٩.

(٢) مرقس، ١٦ / ١ ـ ١٠؛ لوقا، ٢٤ / ١؛ متى، ٢٨ / ١ و٩.

(٣) لوقا، ١٠ / ٤١ و٤٢.

(٤) يوحنا، ١١ / ١.

(٥) يوحنا، ١٢ / ١ـ ٣.

(٦) اعمال الرسل، ١٢ / ١٢.

(٧) لوقا، ٨ / ٢ و٣.

(٨) يوحنا، ١٩ / ٢٥.

(٩) مرقس، ١٥ / ٤٧.

(١٠) مرقس، ١٦ / ١.

(١١) مرقس، ١٦ / ١.

معها رسالته الى حوارييه[١].

١٩ ـ هيروديا، امرأة هيرودُس وأُم سالومة. وكان يحيى قد وبّخها فأضمرت له الحقد، ولذلك حرضت ابنتها سالومة على طلب رأس يحيى من هيرودُس:

«ولما احتفل هيرودُس بذكرى مولده رقصت ابنة هيروديا في الحفل فأعجبت هيرودس * فوعدها مؤكداً وعده بيمين أن يعطيها أي شيء تطلبه * فلقّنتها امها فقالت: أعطني هاهنا على طبق رأس يوحنا المعمدان * فاغتمّ الملك ولكنه أمر باعطائها اياه من أجل أيمانه ومراعاةً لجلسائه * وأرسل فقطع رأس يوحنا في السجن * وأُتي بالرأس على طبق فدُفِعَ الى الصبية فحملته الى أُمّها»[٢].

٢٠ ـ حنّة، امرأة كوزي خازن هيرودس، وكانت من بين النساء اللاتي خدمن المسيح[٣]. وقد جلبت مع نسوة أُخريات الطيب لتطييب جسد المسيح، فعلمت بقيامه، فأذاعت به[٤].

وهكذا نجد ان معظم النساء اللاتي وردت اسماؤهن في العهد الجديد، من صاحبات الفضيلة والدين والخدمة. وطالما تطرقت رسائل بولس الى النساء الداعيات والحاميات للرسل مالياً ومعنوياً. وهناك تسع نسوة، بين الافراد الثماني والعشرين الذين ذكرهم بولس بخير في رسالته الى روما.

ج ـ المرأة من منظار القرآن والعهد الجديد

المرأة من منظار القرآن

يقول القرآن بأن الله خلق المرأة والرجل بشكل واحد في جوهر الوجود، وصنعهما من نفس واحدة:

﴿يا أيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكُمُ الذي خلقكُم من نفسٍ واحِدَةٍ وخلقَ منها زوجَها

---

(١) يوحنا، ٢٠ / ١١ ـ ١٨.

(٢) متى، ١٤ / ٦ ـ ١٢.

(٣) لوقا، ٨ / ٣.

(٤) لوقا، ٢٤ / ١٠ و١١.

وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾[١].

﴿خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ ثُمَّ جعلَ منها زوجها﴾[٢].

وأشار القرآن الكريم في العديد من آياته الى خلقة الانسان ـ رجلاً كان أو امرأة ـ وصرّح بأن المصدر المادي لوجوده هو التراب أو الطين:

﴿الذي أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلقهُ وبدَأ خلقَ الانسانِ من طِينٍ. ثم جعلَ نسلَهُ من سُلالةٍ من ماءٍ مهينٍ﴾[٣].

﴿ولقد خلقنا الانسانَ من صَلصالٍ من حمأٍ مسنُونٍ﴾[٤].

﴿لقد خلقنا الانسانَ في أحسنِ تقويمٍ﴾[٥].

﴿خلق الانسانَ من صَلصالٍ كالفَخّارِ﴾[٦].

﴿فإنّا خلقناكُم من تُرابٍ ثُمَّ من نُطفةٍ ثمَّ من علَقةٍ ثمَّ من مُضغةٍ مُخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ لنُبيِّنَ لكُم ونُقرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ الى أجلٍ مُسمى ثم نُخرِجكُم طِفلاً ثُمَّ لتـبلُغوا أشُدَّكُم ومنكُم من يُتوفى ومنكُم من يُردُّ الى أرذلِ العُمرِ لكيلا يعلمَ مِن بعدِ علمٍ شيئاً﴾[٧].

﴿ومن آياتهِ أن خلقَكُم من تُرابٍ ثمَّ اذا انتُم بشرٌ تنتشرون﴾[٨].

وهناك طائفة من الآيات التي اكّد فيها تعالى على خلقة المرأة والرجل، واستخدم فيها كلمتي الذكر والانثى بشكل صريح للدلالة على النوع الانساني:

﴿وأنَّهُ خلقَ الزوجينِ الذَّكرَ والأُنثى. مِن نُطفةٍ اذا تُمنى﴾[٩].

---

(١) النساء / ١.

(٢) الزمر / ٦.

(٣) السجدة / ٧ـ٨.

(٤) الحجر / ٢٦.

(٥) التين / ٤.

(٦) الرحمن / ١٤.

(٧) الحج / ٥.

(٨) الروم / ٢٠.

(٩) النجم / ٤٥و٤٦.

﴿وما خلقَ الذَّكرَ والأُنثى﴾(١).

﴿ألم يكُ نُطفةً مِن مَنِيٍّ يُمنى. ثمَّ كانَ علقةً فخلقَ فسوّى. فجعلَ مِـنهُ الزوجـينِ الذكرَ والأُنثى﴾(٢).

وبذلك نلاحظ تحدث القرآن الكريم عن خلق الانسان على شكل ذكر وأنثى واكد على صدورهما عن منشأ واحد عبّر عنه بالنفس الواحدة.

وكما عبر القرآن الكريم عن وحدة المرأة والرجل في الخلقة والانسانية، تحدث أيضاً عن وحدة النظر اليهما من حيث الايمان والعمل والسلوك، وجعل اساس التقويم هو مقدار ما يقدمه الانسان ـ ذكراً أو انثى ـ من عمل صالح ومدى ما يتمتع به من ايمان وتقوى:

﴿اني لا أُضِيعُ عملَ عاملٍ منكُم من ذكرٍ أو أُنثى﴾(٣).

﴿ومَن يعمل من الصالحاتِ من ذكرٍ أو أُنثى وهُوَ مؤمِنٌ فأولئكَ يدخُلونَ الجنةَ ولا يُظلمونَ نقيراً﴾(٤).

﴿ومَن عملَ صالحاً مِن ذكرٍ أو أُنثى وهُوَ مؤمنٌ فأولئك يدخلونَ الجنةَ يُرزقونَ فيها بغيرِ حسابٍ﴾(٥).

﴿مَن عملَ صالحاً مِن ذكرٍ أو أُنثى وهوَ مُؤمنٌ فلنحيِيَنهُ حياةً طيِّبةً ولنجزِينهُم أجرهُم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ﴾(٦).

﴿يا أيُّها الناسُ انا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتعارفوا إنَّ أكرمكُم عندَ الله أتقاكُم ان الله عليمٌ خبيرٌ﴾(٧).

---

(١) الليل / ٣.

(٢) القيامة / ٣٧ ـ ٣٩.

(٣) آل عمران / ١٩٥.

(٤) النساء / ١٢٤.

(٥) غافر / ٤٠.

(٦) النحل / ٩٧.

(٧) الحجرات / ١٣.

﴿وأن ليسَ للانسانِ إلّا ما سعى﴾(١).

القرآن لم يقل بأن المرأة فاقدة للذوق والاستعداد المعنوي، وانما قال بأن المرأة والرجل كليهما لديه الاستعداد كي يحيا حياة طيبة. فالجزاء الاخروي لا يعتمد على الجنس قط، وانما يُحدَّد على اساس الايمان والعمل الصالح. ووفق هذا المعيار انطلق القرآن الكريم للاشادة بنساء مثل امرأة فرعون، ومريم، وأمِّ موسى، واعلان غضبه على نساء أُخريات مثل امرأتي نوح ولوط.

وهناك آية قرآنية تؤكد بشكل لا يقبل الشك على تساوي النساء والرجال في الفضائل الباطنية:

﴿ان المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصادقينَ والصادقاتِ والصابرينَ والصابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدقينَ والمتصدقاتِ والصائمينَ والصائماتِ والحافظينَ فروجهُم والحافظاتِ والذاكرينَ الله كثيراً والذاكراتِ أعدَّ الله لهُم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾(٢).

وهناك العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن العلاقة الحميمة والصلة الوثيقة بين المرأة والرجل. فالقرآن لا يقول قط بأن المرأة تابعة، أو انها خُلقت من أجل تمتع الرجل والتذاذه، وانما يؤكد على ان الرجل والمرأة قدم كلاهما من صحراء العدم الى روض الوجود، وان كلاً منهما مكمل للآخر:

﴿هُنَّ لباسٌ لكُم وأنتُم لباسٌ لهُنَّ﴾(٣).

بل ويعتبر القرآن خلق الانسان في صورة رجل وامرأة، آية من آيات الله، ويؤكد على ان المرأة سكن للرجل، وان الله قد جعل بينهما المودة والرحمة:

﴿هوَ الذي خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوجَها ليسكُنَ اليها﴾(٤).

﴿ومِن آياتهِ أن خلقَ لكُم من أنفُسِكُم أزواجاً لتسكُنوا اليها وجعلَ بينَكُم

---

(١) النجم / ٣٩.

(٢) الاحزاب / ٣٥.

(٣) البقرة / ١٨٧.

(٤) الاعراف / ١٨٩.

مودَّةً ورحمةً ان في ذلكَ لآياتٍ لقوم يتفكرونَ﴾[١].

﴿والله جعلَ لكُم من أنفسكُم أزواجاً وجعلَ لكُم مِن أزواجِكُم بَنينَ وحفدَةً ورزقَكُم مِن الطيِّباتِ﴾[٢].

وينطلق القرآن الكريم ناصحاً الرجال بالاحسان الى النساء وعدم الاساءة اليهن:

﴿وعاشِروهُنَّ بالمعروفِ﴾[٣].

ويتمتع هذا الحكم القرآني بالعمومية الى درجة بحيث لا يقبل الاستثناء أو التقييد. اذن فنحن ورغم عدم اشارتنا الى الآيات المتحدثة عن الأحكام الخاصة بالنساء لأنها لا صلة لها بموضوع دراستنا، لابد من الالتفات أيضاً الى ان تلك الاحكام يجب ان تُعد ـ وبما ينسجم مع الزمان والمكان ـ مصداقاً من مصاديق التعامل الحسن مع النساء.

والآية التي يمكن أن تُعد معبِّرة عن العلاقة بين المرأة والرجل، هي الآية التالية:

﴿الرجالُ قوّامُونَ على النساءِ بما فضلَ الله بعضهُم على بعضٍ وبِما أنفقُوا من أموالِهِم فالصالحاتُ قانتاتٌ حافِظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ الله واللاتي تخافونَ نُشُوزهُنَّ فعِظوهُنَّ واهجُروهنَّ في المضاجِعِ واضرِبوهُنَّ فإن أطعنكُم فلا تبغُوا عليهنَّ سبيلاً إن الله كانَ عليّاً كبيراً﴾[٤].

ورغم ان هذه الآيات قد تبدو في نظر الانسان العصري ذات نبرة حادة ازاء النساء، إلّا انها لا يمكن ان تخصص الحكم الكلي العام المتمثل بالمعاشرة بالمعروف. فهذا الحكم في الواقع محدِّد للمصاديق الجزئية على ضوء مقتضيات الزمان والمكان.

والأمر الطريف في القرآن هو: ان من النعم الالهية في الجنة ان ترافق المؤمن

---

(١) الروم / ٢١.

(٢) النحل / ٧٢.

(٣) النساء / ١٩.

(٤) النساء / ٣٤.

زوجته فيها، أو ان يزوجه الله تعالى بالحور العين والازواج المطهرة:

﴿أُدخُلوا الجنةَ أنتُم وأزواجكُم تُحبرونَ﴾[١].

﴿جناتُ عَدنٍ يدخُلونَها ومَن صلحَ من آبائِهم وأزواجِهم﴾[٢].

﴿جناتُ عدنٍ التي وعَدناهُم ومَن صلحَ من آبائهم وأزواجهم﴾[٣].

﴿كذلك وزوجناهُم بحورٍ عينٍ﴾[٤].

﴿مُتكئينَ على سُرُرٍ مصفوفةٍ وزوجناهُم بحورٍ عينٍ﴾[٥].

﴿ولَهُم فيها أزواجٌ مُطهرَةٌ وهُم فيها خالدونَ﴾[٦].

﴿للذينَ اتقَوا عندَ ربِّهِم جناتٌ تجري مِن تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزواجٌ مُطهرَةٌ ورضوانٌ مِنَ الله والله بصيرٌ بالعبادِ﴾[٧].

﴿لَهم فيها أزواجٌ مُطهرَةٌ ونُدخِلُهُم ظِلاً ظليلاً﴾[٨].

﴿هُم وأزواجُهُم في ظِلالٍ على الأرائِكِ مُتكئونَ﴾[٩].

﴿حورٌ مقصوراتٌ في الخيامِ﴾[١٠].

﴿وحورٌ عينٌ. كأمثالِ اللؤلؤ المكنُونِ﴾[١١].

وأشار القرآن أيضاً الى وجود الغلمان ذوي الوجوه الجميلة لخدمة المؤمنين في الجنة:

---

(١) الزخرف / ٧٠.

(٢) الرعد / ٢٣.

(٣) غافر / ٨.

(٤) الدخان / ٥٤.

(٥) الطور / ٢٠.

(٦) البقرة / ٢٥.

(٧) آل عمران / ١٥.

(٨) النساء / ٥٧.

(٩) يس / ٥٦.

(١٠) الرحمن / ٧٢.

(١١) الواقعة / ٢٢ و٢٣.

﴿ويطوفُ علَيهِم غِلمانٌ لهُم كأنهُم لؤلؤٌ مكنونٌ﴾[١].

يُستشف من ظاهر هذه الآيات، وجود موجودات مؤنثة ومذكرة في الجنة ووجود حالة الزواج والتزاوج أيضاً رغم ان بعض المفسرين لاسيما العرفاء ينظرون الى اوصاف الجنة والنار في القرآن كتعابير رمزية ولذلك يلجأون الى تأويلها. فلا يعتبرون الحور العين ـ مثلاً ـ ظواهر مادية وانما موجودات روحانية ترمز الى الجزاء المعنوي وتعبّر عن تجلي الصفات الالهية التي يتم بينها وبين روح الانسان نكاح عرفاني. «وهو تدبير اتخذته الكتب السماوية وتعاليم الأنبياء والأولياء والحكماء العرفانيين لتربية المجتمع البشري وهدايته وانذاره. فانطلاقاً من القول القائل: «كلِّموا الناس على قدر عقولهم»، تم التوسل بالتمثيلات الجزئية المحسوسة من أجل ان يتم فهم المعاني العامة الروحانية، وتم النزول بالحقائق الالهية العالية الى الصور والأشكال المادية الحسية الصغيرة كي تستوعبها الأفهام الضيقة والأذهان المحدودة»[٢].

نظرة النبي ﷺ للمرأة: المداراة وعدم التحكم

رغم اننا لا نهدف دراسة السنة الاسلامية واستخراج نظرة الرسول ﷺ والأئمة الاطهار عليهم السلام للمرأة، اذ ان مثل هذا الموضوع بحاجة الى دراسة مستقلة وواسعة، ولكن من المناسب الاشارة الى بعض الحوادث التي تشير الى السلوك العطوف المشفق للنبي ﷺ مع النساء ومدى التزامه بمراعاة حقوقهن.

في عصر النبي ﷺ كانت النساء تشترك في الحرب لأداء بعض الوظائف الخاصة ومن بينها تضميد الجرحى. وقد وقفت نسيبة بنت كعب بسيفها الى جانب الرسول ﷺ في غزوة أُحد حتى انها جُرحت ثلاثة عشر جرحاً، فنظر اليها الرسول ﷺ نظرة احترام وتقدير ووصفها بأنها افضل من بعض الرجال[٣].

---

(١) الطور / ٢٤.

(٢) همائي، جلال الدين، مولوي نامه، ج ١، طهران، ١٩٨٣، ص ٣١٤.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت ج ٨، ص ٤١٢ ـ ٤١٣.

المرأة عظيمة في نظر الرسولﷺ حتى انه كان يفتخر بالانتساب الى نساء قبيلته ويقول: «انا ابن العواتك»، وهنّ: عاتكة بنت هلال، وعاتكة بنت مرة، وعاتكة بنت الأقصى، من قبيلة سليم.

وقد احتفظت المرأة في صدر الاسلام بحقها في انتخاب زوجها، وطالما استخدمت هذا الحق: «أقبلت ليلى بنت الحطيم الى النبيﷺ ... فقالت: ... انا ليلى بنت الحطيم جئتُ لأعرض عليك نفسي، تزوَّجني. قال: قد فعلتُ. فرجعت الى قومها فقالت: قد تزوجني النبيﷺ. فقالوا: بئس ما صنعت! انتِ امرأةٌ غَيرى، والنبي صاحب نساء تغارين عليه فيدعو الله عليك. فاستقيليه نفسكِ. فرجعت فقالت: يا رسول الله أقلني. قال: قد أقلتكِ»[1].

فالمرأة في صدر الاسلام لم يكن بمقدورها انتخاب الزوج فحسب، بل كانت تجابه زوجها في بعض الاحيان وقد تغضب عليه. ونشاهد مثل هذا السلوك حتى عند بعض نساء الرسولﷺ:

قال عمر بن الخطاب: ... وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار اذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار، فصحتُ على امرأتي فراجَعتني فأنكرتُ أن تراجعني. فقالت: ولم تُنكرُ أن أُراجعك؟ فوالله ان ازواج النبيﷺ ليُراجعنه، وان احداهُنَّ لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني ذلك، فقلتُ: قد خاب من فعل ذلك منهن ... فدخلتُ على حفصة فقلتُ: يا حفصة أتُغاضب احداكنّ رسول الله يوماً الى الليل؟ قالت: نعم. قلتُ: خبت وخسرت. أفتأمنين ان يغضب الله لغضب رسوله فيهلككِ؟ لا تستكثري على رسول الله ولا تُراجعيه في شيء، ولا تهجريه»[2].

كان المعروف عن عائشة انها تعارض الرسولﷺ بالرغم من نفوذ كلامه بين المسلمين. وأرادت حفصة ـ زوجة الرسول الاخرى ـ ان تقلّد عائشة في ذلك،

(١) نفس المصدر، ص ١٥٠.

(٢) نفس المصدر، ص ١٨٢.

فقال لها أحد الصحابة: «لعلكِ تُراجعين النبي بمثل ما تراجعه به عائشة»[١].

وكانت عائشة تعبّر عن غضبها كلما تزوج النبيﷺ بامرأة جديدة. ولم تكن تكتفي بالوقوف بوجههﷺ وانما تحرض نساءه الاخريات على ذلك. وعظمت مخالفتها للرسولﷺ الى درجة انها هبّت لمخالفة بعض الآيات القرآنية النـازلة عليه. وبهذا الشأن قال محمد بن عمر بن علي بن ابي طالب:

«لم يمت رسول اللهﷺ حتى أُحِلَّ له ان يتزوج من النساء ما شاء وهو قوله «تُرجي مَن تشاء منهن» ... اخبرنا محمد بن عمر ... عن عائشة أنها قالت: لما نزل «تُرجي من تشاءُ منهن» قالت عائشة: ان الله يُسارع لكَ فيما تُريد»[٢].

وورد ان الرسولﷺ كان غالباً ما يساعد ازواجـه عـلى امـتطاء الدواب. وطالما كان يثني رجله كي تضع نساؤه اقدامها على ركبته من اجل امتطاء الدابة. وكان يقبّل يد ابنته فاطمة الزهراءعليها السلام. وروى عـروة عـن عـائشة انـهﷺ لم يضرب امرأة ولا خادماً قط.

ولذلك ليس عجيباً ان تكون آخر وصايا الرسول حين احتضاره:

«الله الله في النساء فإنهنّ عوان بين ايديكم»[٣].

وقال الرسولﷺ في النساء ايضاً:

(كلما ازداد العبد ايماناً ازداد حباً للنساء»[٤].

وقالﷺ:

«ما اكرمَ النسـاءَ إلّا كريم ولا أهانهن إلّا لئيم».

وقال وهو يطرح نفسه قدوة للمسلمين في التعامل مع النسـاء:

«خياركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي».

---

(١) نفس المصدر، ص ١٨٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) راجع: شرف النبي، ص ٤٥١؛ صحيح البخاري، بيروت، ج ٧، باب المداراة مع النساء، ص ٣٣.

(٤) بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ٢٢٨.

وقال كذلك:

«خيركم، خيركم لنسائكم وبناتكم».

وهناك الكثير من الأحاديث التي أوصى فيها الرسولﷺ بالتعامل الحسن مع النساء وطرح فيها نفسه كانموذج للتعامل مع المرأة[١].

المرأة من منظار العهد الجديد

للاطلاع على نظرة العهد الجديد للمرأة، لابد ان نفصل نظرة السيد المسيح الواردة في الأناجيل الأربعة عن نظرة القديس بولس التي اشارت اليها رسائله وكتاباته، لأن نظرة بولس تعبير في الواقع عن فهمه الشخصي، وفيها حذف أو اضافة لكلمات السيد المسيح.

نظرة السيد المسيح

في الأناجيل العديد من القصص التي تتحدث عن سلوك النبي عيسى سلوكاً يتميز بسعة الصدر وطول الأناة. وكان اتباعه، من النساء والرجال. وأورد مرقس ان عدداً كبيراً من النساء رافق عيسى الى اورشليم، وبعضهن تبعنه وخدمنه[٢].

ويقول متى ان نساءً كثيرات تبعن عيسى من الجليل كي يخدمنه[٣]. ويذكر لوقا ان نساء كثيرات كنّ يخدمنه بأموالهن[٤]. وكانت النساء جميعاً حاضرات صلب السيد المسيح وكان يخاطبهن ويلقي عليهن مواعظه: «وتبعه جمع كثير من الشعب، ومن نساء كُنَّ يضربنَ الصدورَ وينُحنَ عليه * فالتفت يسوعُ اليهن فقال: يا بناتِ اورشليم لا تبكين علي، بل ابكين على انفسكن وعلى اولادكُنّ * فها هي ذي أيام

(١) راجع: ميزان الحكمة، محمدي ري شهري، مركز النشر، ١٩٨٣، ج ٩، باب مدح النساء، ص ١٠٦؛ الميزان، الطباطبائي، ج ٤، ص ٢٤٨ و٢٤٩.

(٢) مرقس، ١٥ / ٤٠ و٤١.

(٣) متى، ٢٧ / ٥٥.

(٤) لوقا، ٨ / ٢ و٣.

تأتي يقول الناس فيها: طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم تُرضع»[١].

وكانت النساء في الحقيقة آخر فئة تحدث معها عيسى وهو على خشبة الصلب.

وكانت النساء أيضاً أول من شهد على قبره الخالي وقيامه وأوصل رسالته الى حوارييه، وكنّ حاضرات آخر وداع لعيسى مع انصاره[٢]. وتُلاحظ دعوة المسيح العامة للايمان والخلاص في جميع الأناجيل دون أن يُلاحَظ فيها أي فرق بين الرجل والمرأة: «بل اطلبوا ملكوته تُزادوا ذلك»[٣].

«وكل من ترك بيوتاً أو اخوة أو اخوات أو أباً أو اماً أو بنين أو حقولاً لأجل اسمي، ينال مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية»[٤].

«ومن اتى اليّ ولم يُفضلني على ابيه وأمه وامرأته وبنيه واخوته وأخواته، بل عن نفسه ايضاً، لا يستطيع ان يكون لي تلميذاً»[٥].

اذن ما هو مهم لعيسى المسيح، الانتخاب الحر لكلا الجنسين. فهذا الانتخاب هو الشيء الوحيد الذي لديه قيمة، ونتيجته هي السعادة بدون قيد أو شرط.

ونُقل عنه كلام بشأن الزواج والطلاق والزنا، يجمع المقولات الثلاث أعلاه، ويرسم نظرته الخاصة. ويأخذ كلامه معنىً خاصاً على ضوء الظروف ومقتضيات الزمان والثقافة اليهودية السائدة:

«فدنا بعض الفريسيين وسألوه ليحرجوه هل يحلّ للزوج أن يطلّق امرأته * فأجابهم: بماذا أوصاكم موسى؟ * قالوا: ان موسى رخّصَ أن يُكتَب لها كتاب طلاق وتُسرَّح * فقال لهم يسوع: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية

---

(١) لوقا، ٢٣ / ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) مرقس، ١٦ / ١ ـ ١٣؛ متى، ٢٨ / ١ ـ ١٠؛ لوقا، ٢٤ / ١ ـ ١١؛ يوحنا، ٢٠ / ١ ـ ١٨.

(٣) لوقا، ١٢ / ٣١.

(٤) متى، ١٩ / ٢٩.

(٥) لوقا، ١٤ / ٢٦.

* فمنذ بدء الخليقة جعلها الله ذكراً وأُنثى * ولذلك يترك الرجل أباه وأُمه ويلزم امرأته * ويصير الاثنان جسداً واحداً، فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد * فما جمعه الله فلا يفرقه الانسان * وسأله التلاميذ في البيت أيضاً عن ذلك * فقال لهم: من طلّق امرأته وتزوج غيرها فقد زنى عليها * وإن طلّقت المرأةُ زوجَها وتزوجت غيره فقد زنت»[١].

ووردت نفس هذه المحادثة في انجيل متى، غير ان الجزء الأخير منها يشير الى موافقة السيد المسيح على الطلاق المشروط: «أما أنا فأقول لكم: من طلّق امرأته، إلّا لفحشاء، وتزوج غيرها فقد زنى * فقال له التلاميذ: اذا كانت حالة الرجل مع المرأة هكذا، فلا خير في الزواج»[٢].

وتشف هذه الآيات عن ان المسيح يجيز الطلاق فقط فيما لو تبين انجرار المرأة الى الفحشاء، ولذلك فضّل تلاميذه العزوبة على الزواج. وهذا يكشف عن ان هذا الرأي ـ اي عدم الزواج ـ رأي تلاميذه لا رأيه. وتكرار آيات العهد القديم فيما يتعلق بخلقة المرأة والرجل واتحادهما بفعل الزواج، ليدل على اطلاعه على شريعة موسى من جهة، وتأييده لها، فضلاً عن اعتقاده بأن الطلاق بلا سبب أو دليل، ناشئ عن قساوة القلب.

ويعبّر السيد المسيح عن رأيه في البغاء اعتماداً على حكم شريعة موسى:

«وسمعتم انه قيل: لا تزنِ * أما أنا فأقول لكم: من نظر الى امرأة بشهوة، زنى بها في قلبه»[٣].

وسئل المسيح عن الزواج في القيامة:

«في ذلك اليوم دنا اليه بعض الصدوقيين، وهم الذين يقولون انه لا قيامة، وسألوه * يا معلم، قال موسى: ان مات أحد ليس له ولد، فليتزوج اخوه امرأته

---

(١) مرقس، ١٠ / ٢ ـ ١٢؛ لوقا، ١٦ / ١٨.

(٢) متى، ١٩ / ٩ و١٠؛ ٥ / ٣٢ و٣٣.

(٣) متى، ٥ / ٢٨ و٢٩.

ويُقيم نسلاً لأخيه * وكان عندنا سبعة إخوة، فتزوج الأول وتوفي ولم يكن له نسل فترك امرأته لأخيه * ومِثلُهُ الثاني والثالث حتى السابع * ثم ماتت المرأة من بعدهم جميعاً * ففي القيامة لأيٍّ من السبعة تكونُ امرأةً؟ فقد كانت لهم جميعاً * فأجابهم يسوع: انتم في ضلال لأنكم لا تعرفون الكتب ولا قدرة الله * ففي القيامة لا الرجال يتزوجون، ولا النساء يُزَوجنَ، بل يكونون مثل الملائكة في السماء»[1].

ونفهم من اجابة السيد المسيح انه كان على علم بعدم ايمان السائلين، وانه يعتبر عالم ما بعد الموت، فوق الجنس. فلا زواج في هذا العالم، لأن الناس فيه كالملائكة مجردين وغير ماديين. ولأنه عالم الروح، والروح ليست مؤنثة أو مذكرة كي يمكن تصور زواجها. وتدل فحوى اجابة المسيح على ان المؤمن المسيحي يعيش في الجنة بدون جنس كالملائكة.

ونقرأ في انجيل لوقا كيف تعامل السيد المسيح برحمة وحنان مع امرأة خاطئة، والذي قد يبدو في نظر الآخرين سلوكاً غير قابل للتبرير، إلّا انه برر سلوكه هذا وأوضحه للذي اعترض عليه:

«ودعاه أحد الفريسيين الى الطعام عنده، فدخل بيت الفريسي وجلس الى المائدة * واذا بامرأة خاطئة كانت في المدينة، علمت أنه على المائدة في بيت الفريسي، فجاءت ومعها قارورة طيب * ووقفت من خلف عند رجليه وهي تبكي، وجعلت تبِلُّ قدميه بالدموع وتمسحهما بشعر رأسها، وتقبّل قدميه وتدهنهما بالطيب * .

فلما رأى الفريسي الذي دعاه هذا الأمر قال في نفسه: لو كان هذا الرجل نبياً لعلم من هي المرأة التي تلمسه وما حالها: انها خاطئة * فأجابه يسوع: يا سمعانُ عندي ما أقوله لك. فقال: قل يا معلم * قال: كان لمُداينٍ مدينان، على أحدهم خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون * ولم يكن بامكانهما ان يُوفيا دينَهما فأعفاهما

---

(١) متى، ٢٢ / ٢٣ ـ ٣٠؛ مرقس، ١٢ / ٢٥؛ لوقا، ٢٠ / ٢٧ ـ ٣٦.

جميعاً. فأيهما يكون اكثر حباً له؟ * فأجابه سمعان: أظنُّه ذاك الذي أعفاهُ من الأكثر. فقال له: بالصواب حكمت * ثم التفت الى المرأة وقال لسمعان: أترى هذه المرأة؟ انّي دخلتُ بيتك فما سكبتَ على قدَميَّ ماءً، وأما هي فبالدموع بلَّت قدمي وبشعرها مسحتهما * أنت ما قبّلتني قبلةً، وأما هي فلم تكفّ مذ دخلت عن تقبيل قدميَّ * أنت ما دهنتَ رأسي بزيت معطّر، أما هي فبالطيب دهنت قدميّ * فاذا قلتُ لكَ انَّ خطاياها الكثيرة غُفِرت لها، فلأنها اظهرت حباً كثيراً. وأما الذي يُغفَر له القليل فإنه يُظهِر حبّاً قليلاً * ثم قال لها: غُفرَت لكِ خطاياكِ * فأخذ جُلساؤه على الطعام يقولون في أنفسهم: مَنْ هذا حتى يغفر الخطايا؟ * فقال للمرأة: ايمانُك خلّصكِ فاذهبي بسلام»[١].

لقد اتخذ المسيح من هذه القضية ذريعة من اجل ان يطرح بعض آرائه الاساسية في الحب والتدين والخطيئة والمغفرة الالهية.

ويبدو بشكل عام ان عيسى لديه نظرة ايجابية ازاء المرأة ولم يفرق في دعوته المعنوية بين المرأة والرجل، بل ويُلاحظ في تعاليمه نوع من عدم الاهتمام بفصل الاحكام الخاصة بالرجل عن الأحكام الخاصة بالمرأة. وفي المقابل ينعكس في كلماته بشكل واضح التأكيد على التساوي فيما بين الجنسين في الانسانية والمعنوية وطلب الخلاص.

رأي القديس بولس

اشار بولس في رسائله وكتاباته الى قضية المرأة، ووضع بعض الأحكام في بعض الأحيان. ففي رسالته الى أهل غلاطية ساوى بين المرأة والرجل من حيث الايمان بالمسيح:

«لأنكم جميعاً أبناء الله بالايمان بالمسيح يسوع * فإنكم جميعاً، وقد اعتمدتم في المسيح، قد لبستم المسيح: * فليس هناك يهودي ولا يوناني، وليس هناك عبد

(١) لوقا، ٧ / ٣٦ـ ٤٤.

أو حر، وليس هناك ذكر وأُنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع»[١].

وأشار بولس في رسائله الى بعض النساء من انصار المسيح والحماة المعنويين والماليين للرسول والمبلغين من بعده. ففي رسالته الى اهل رومة ذكر أسماء تسع من النساء وأثنى على خدماتهن[٢]. ورغم ان هذه الرسائل تكشف عن الدور المـهم الذي لعبته المرأة في صدر المسيحية، إلّا انه كان يميل غالباً الى حصر هذا الدور ضمن اطار الضيافة والمعونة المالية والمعنوية[٣].

والغريب في الأمر هو ان الأناجيل جميعاً قد ذكرت أسماء بعض النساء اللائي كنّ اول من شاهد خلو قبر المسيح من جسده، وتحدثن معه بعد القيام، وحملن رسالته الى الحواريين، غير ان بولس قد تجـاهل في حديثه عن قيام المسيح هذا الأمر تماماً، وحذف من تقريره ظهور المسيح لهؤلاء النسوة:

«سلمتُ اليكم قبل كل شيء ما تسلمته أنا أيضاً وهو ان المسيح مـات مـن أجل خطايانا كما ورد في الكتب * وأنه قُبِر وقام في اليوم الثـالث كـما ورد في الكتب * وأنه تراءى لأكثر من خمسمائة اخٍ معاً لا يزالُ معظمهم حيّاً وبـعضهم ماتوا * ثم تراءى ليعقوب، ثم لجميع الرسل * حتى تراءى آخر الأمر لي أيضاً أنا السِّقط»[٤].

ونلاحظ وجود ازدواجية لدى بولس حين يبدي رأيه في الزواج. فهو يؤكد على حُسن الزواج من جهة ويعتبر منعه عملاً شيطانياً، بينما يشيد من جهة اخرى بمن يفضلون العزوبة على الزواج. يقول في رسالته الى العبرانيين: «ليكن الزواج مكرَّماً عند جميع الناس، وليكن الفراشُ بريئاً من الدنس، فانَّ الزُناة والفاسقين

---

(١) الرسالة الى اهل غلاطية، ٣ / ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) الرسالة الى اهل رومة، ١٦.

(٣) أعمال الرسل، ١٢ / ١٢، الرسالة الى اهل رومه، ١٦ / ٣ ـ ٥، الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ١٦ / ١٩؛ الرسالة الى أهل قولسي، ٤ / ٥؛ الرسالة الى فليمون، ٢.

(٤) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ١٥ / ٣ ـ ٨.

سيدينهم الله»[١].

ويقول في رسالته الاولى الى طيموتاوس: «والروح يقول صريحاً ان بعضهم يرتدّون عن الايمانِ في الأزمنة الأخيرة ... ينهونَ عن الزواج وعن أطعمة خلقها الله لتناولها»[٢].

كما يطالب الأساقفة بالزواج ايضاً: «فعلى الأسقف أن لا يناله لوم وأن يكون زوج امرأة واحدة ... وعلى الشمامسة ان يكون الواحد منهم زوج امرأة واحدة وأن يحسنوا رعاية أبنائهم وبيوتهم»[٣].

ويقول ايضاً: «... وتُقيم شيوخاً في كل بلدة كما اوصيتك * تُقيم من لم ينله لوم، زوج امرأةٍ واحدةٍ، وأولادُهُ مؤمنون لا يُتَّهمون بالفجور ولا عاصون»[٤].

رسالة بولس الاولى الى اهل قورنتس تمثل أكثر آرائه تفصيلاً حول المرأة:

«وأما ما كتبتم به الي فيحسن بالرجل أن لا يمس المرأة * ولكن لتجنب الزنى، فليكن لكل رجل امرأته ولكل امرأة زوجها * وليقض الزوجُ امرأتَه حقَّها وكذلك المرأةُ حقَّ زوجِها * لا سُلطة للمرأة على جسدها فانما السلطةُ لزوجها، وكذلك الزوج لا سلطة له على جسده فانما السلطة لامرأته * لا يمنع أحدكما الآخر إلّا على اتفاق بينكما والى حين كي تتفرغا للصلاة، ثم عودا الى الحياة الزوجية لئلا يجرِّبكما الشيطان لقلة عفتكما * أقول هذا من باب الاجازة لا من باب الأمر * فاني أودّ لو كان جميع الناس مثلي.

ولكن كل انسان ينال من الله موهبته الخاصة، فبعضُهم هذه وبعضُهم تلك * وأقول لغير المتزوجين والأرامل انه يحسُنُ بهم أن يظلوا مثلي * فاذا لم يطيقوا العفاف فليتزوجوا، فالزواج خير من التحرّق *

---

(١) الرسالة الى العبرانيين، ١٣ / ٤.

(٢) الرسالة الاولى الى طيموتاوس، ٤ / ١ ـ ٣.

(٣) الرسالة الاولى الى طيموتاوس، ٣ / ٢ ـ ١٢.

(٤) الرسالة الى طيطس، ١ / ٤ ـ ٦.

وأما المتزوجون فأوصيهم، ولستُ أنا الموصي، بل الرب، بأن لا تفارق المرأة زوجها * وان فارقته فلتبق غير متزوجة أو فلتصالح زوجها، وبألّا يتخلى الزوج عن امرأته*

وأما الآخرون فأقول لهم أنا لا الرب، اذا كان لأخٍ امرأة غير مؤمنة ارتضت أن تساكنه، فلا يتخلّ عنها * واذا كان لامرأة زوج غير مؤمن ارتضى أن يساكنها فلا تتخل عن زوجها * لأن الزوج غير المؤمن يتقدّس بامرأتـه، والمـرأة غـير المؤمنة تتقدس بالزوج المؤمن، وإلّا كان أولادكم أنجاساً، مع انهم قديسون * وان شاء غير المؤمن أن يُفارق فليفارق، فليس الأخ أو الأُخت في مثل هذه الحـال بمرتبطين لأن الله دعاكم ان تعيشوا بسلام * فما أدراكِ ايتها المرأة أنكِ تُخـلّصين زوجك؟ وما أدراك ايها الرجل انك تُخلّص امرأتك؟[1]

... وأما الفتياتُ والفتيان، فليس لهم عندي وصـيّة مـن الرب، ولكـني أُدلي برأيي وهو رأي رجل جعلته رحمةُ الله جديراً بالثقة * وأرى أن حالهم حسـنة بسبب الشدة الحاضرة، فإنه يحسن بالانسان أن يكون على هذه الحال * أأنت مرتبط بامرأة؟ فلا تطلب الفراق. أأنت غير مرتبط بامرأة؟ فلا تطلب امـرأة * واذا تزوجتَ فلا ذنب عليك، واذا تزوجتِ الفتاةُ فلا ذنبَ عليها، ولكن أمـثال هؤلاء سيلقون مشقة في أجسادهم، واني أُريد أن أحميكم منها *

اقول لكم ايها الاخوة ان الزمان يتقاصر: فمنذ الآن ليكن للـذين لهـم امـرأة كأنهم لا امرأة لهم[2].

... بودي لو كنتم من دون همّ، فان غير المتزوج يصرف همّه الى امور الربّ والوسائل التي يُرضي بها الربّ * والمتزوج يصرف همّه الى امور العالم والوسائل التي يُرضي بها امرأته * فهو منقسم. وكذلك المرأة غير المتزوجة ومثلها الفـتاة تصرفان همها الى امور الرب لتكونا مقدستين جسداً وروحاً. وأمـا المـتزوجة

---

(١) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ٧ / ١ ـ ١٦.

(٢) الرسالة السابقة، ٧ / ٢٥ ـ ٣٠.

فتصرف همها الى امور العالم والوسائل التي تُرضي بها زوجها[١].

«... ان المرأة تظل مرتبطة بزوجها مادام حياً، فإن مات زوجُها أصبحت حرة، لها أن تتزوج من شاءت، ولكن زواجاً في الربِّ فقط * غير أنها كما ارى تكون أكثر سعادةً اذا بقيت على حالها، وأظنُّ روحَ الله فيَّ أنا أيضاً»[٢].

وهكذا نرى ان بولس لا يوصي عموماً بالزواج إلّا عند الضرورة: حينما لا توجد لدى الشخص القابلية على التعفف، ومن اجل الحيلولة دون الوقوع في الزنى، اذ انه ينظر الى الزواج كالقيد الذي يمنع الرجل والمرأة عن وقف نفسيهما تماماً الى الله. ورغم ذلك نراه يؤكد على ان تفضيله للبتولة على الزواج، رأي شخصي، وليس حكماً من جانب الله. كما انه يُدلي برأيه هذا على سبيل الشفقة والرحمة كي لا يقع الآخرون في المتاعب التي يسببها الزواج.

اما فيما يتعلق بالطلاق فانه يعلن بجزم عن ان الله قد حكم في انه امر غير مرغوب فيه، لكنه ـ أي بطرس ـ يجيز للزوجين الانفصال من اجل التفرغ للصلاة والعبادة ثم عودة كل منهما الى الآخر بعد ذلك.

ولا يولي بطرس في هذه الرسالة اهتماماً خاصاً نحو الاحكام المتعلقة بالمرأة، وانما ينطلق في كل مورد لتبيان حكم ثنائي يتعلق بالرجل والمرأة معاً. غير انه اولى مثل هذا الاهتمام في رسائله الاخرى، وسعى لتقديم آرائه الشخصية على هذا الصعيد، كقوله:

«وكذلك ليكن على النساء لباس فيه حشمة، ولتكن زينتهُنَّ بحياء ورزانة، لا بشعر مجدول وذهب ولؤلؤ وثياب فاخرة * بل بأعمال صالحة تليق بنساء تعاهَدنَ تقوى الله * وعلى المرأة أن تتلقى التعليم وهي صامتة بكل خضوع * ولا أُجيز للمرأة أن تُعلِّم ولا أن تتسلط على الرجل، بل تحافظ على السكوت * فانَّ آدم هو الذي جُبِل أولاً وبعده حواء * ولم يُغوَ آدم، بل المرأة هي التي أُغوِيت

---

(١) الرسالة السابقة، ٧ / ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) الرسالة السابقة، ٧ / ٣٩ ـ ٤٠.

فوقعت في المعصية»[١].

وقال ايضاً:

«ولتكن النساء كذلك رصينات، غير نمامات، متقشفات، أمينات في كل شيء»[٢].

وله كلام آخر:

«أيتها النساء، اخضعنَ لأزواجكنّ خضوعكنّ للرب * لأنّ الرجل رأس المرأة كما ان المسيح رأس الكنيسة التي هي جسده وهو مُخلِّصها * وكما تخضع الكنيسة للمسيح فلتخضع النساء لأزواجهن في كل شيء»[٣].

ولديه كلام آخر يقول فيه:

«وأن تكون العجائز كذلك في سيرة تليق بالقديسات، غير نمامات ولا مُدمنات للخمر، هاديات للخير * فيُعلِّمنَ الشابات حُبَّ ازواجهن وأولادهن * وأن يكُنّ قنوعات، عفيفات، مهتمات بشؤون البيت، صالحات، خاضعات لأزواجهن لئلا يُجدَّفَ على كلمة الله»[٤].

ومن ذلك يتضح ان بولس قد وقع تحت تأثير ثقافة سيادة الرجل اليهودي التي تجعل المرأة في موقف الخضوع والطاعة، والدور المهم الذي أناطه بالمرأة العجوز هو: تعليم الشابات حب الأزواج!

وفضلاً عن الوظائف التي ألقاها على عاتق النساء، ألقى بعض الوظائف على عاتق الازواج ايضاً:

«ايها الرجال أحِبُّوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وجاد بنفسه من أجلها * ليقدّسها مطهِّراً اياها بغُسل الماء وكلمة تصحبه * فيزفّها الى نفسه

(١) الرسالة الاولى الى طيموتاوس، ٢ / ٩ ـ ١٥.

(٢) نفس الرسالة، ٣ / ١١.

(٣) الرسالة الى أهل افسس، ٥ / ٢٢ ـ ٢٤.

(٤) الرسالة الى طيطس، ٢ / ٣ ـ ٦.

كنيسةً سنيّةً لا دَنس فيها ولا تغضُّنَ ولا ما أشبه ذلك، بل مقدسة بلا عيب * وكذلك يجب على الرجال ان يحبّوا نساءَهم حُبهم لأجسادهم. من أحبّ امرأته أحبَّ نفسه * فما أبغضَ أحدٌ جسده قط، بل يـغذّيه ويُـعنى بـه شأنَ المسـيح بالكنيسة * فنحنُ أعضاء جسده * ولذلك يترك الرجل أباه وأُمّه ويلزم امرأته فيصير الاثنان جسداً واحداً * ان هذا السر لعظيم، واني اقول هذا في أمر المسيح والكنيسة * فكذلك أنتم أيضاً فليُحبَّ كلٌّ منكم امرأته حُبهُ لنفسه، ولتوقِّر المرأةُ زوجها»[١].

لقد اكد بولس في مواضع عديدة على طاعة المـرأة للـزوج: «ايـتها النسـاء اخضعن لأزواجكن كما يجب في الرب * أيها الرجال أحبّوا نساءكم ولا تكونوا قُساةً عليهن*»[٢].

لابد للزوجين ـ من وجهة نظر بولس ـ ان يحترم احدهما الآخر، غير انه يؤكد على طاعة المرأة للرجل، وعلى محبة الرجل للمرأة ومداراتها. ويعلل بولس حب الرجل للمرأة لأنها جزء من جسمه، وحبّها في الواقع حبّ لنفسه، ملمحاً في ذلك الى رواية العهد القديم التي تقول بأن حواء قد خُلقت من ضلع آدم.

والطريف في الأمر تشبيه بولس لحب الرجل للمرأة بحب المسيح للكنيسة، أي انه يشبه المرأة بالكنيسة، والرجل بالمسيح. ونلاحظ مثل هذا التشبيه في موضع آخر ايضاً:

«ايتها النساء اخضعن لأزواجكنّ خضوعكنّ للرب * لأن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة التي هي جسده وهو مخلّصها * وكما تخضع الكنيسة للمسيح فلتخضع النساء لأزواجهنّ في كل شيء»[٣].

وينسب بولس في هذا التشبيه صفة نسوية الى الكنيسة وهي صـفة الطـاعة

(١) الرسالة الى اهل افسس، ٥ / ٢٥ ـ ٣٣.

(٢) الرسالة الى اهل قولسي، ٣ / ١٨ ـ ١٩.

(٣) الرسالة الى اهل افسس، ٥ / ٢٢ ـ ٢٤.

وقبول تفوق الآخرين، مع فارق واحد وهو ان هذا التفوق واقعي ومعنوي على صعيد المسيح والكنيسة، وظاهري وبلا قيد أو شرط على صعيد المرأة والرجل.

ولبولس أحكام اخرى بشأن المرأة يرى اجراءها واجباً على أتباعه، مستنداً في اصدارها على رواية العهد القديم. فيقول بشأن حضور المرأة في الكنيسة وحدود سلوكها فيها:

«ولكني أُريد ان تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ورأس المرأة هو الرجل ورأس المسيح هو الله * فكل رجل يصلّي أو يتنبّأ وهو مغطى الرأس يَشينُ رأسه * وكل امرأة تصلّي أو تتنبّأ وهي مكشوفة الرأس تشينُ رأسها كما لو كانت محلوقته الشعر * واذا كانت المرأة لا تغطّي رأسها فلتقصّ شعرها، ولكن اذا كان من العار على المرأة ان تكون مقصوصة الشعر أو محلوقته فعليها أن تغطي رأسها *

اما الرجل فما عليه أن يغطي رأسه لأنه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل * فليس الرجل من المرأة، بل المرأة من الرجل * ولم يُخلق الرجل من أجل المرأة، بل خُلقت المرأة من أجل الرجل * لذلك يجب على المرأة أن يكونَ سُلطةٌ على رأسها من أجل الملائكة * إلّا انه لا تكون المرأة بلا الرجل عند الرب ولا الرجل بلا المرأة * فكما أن المرأة استُلَّت من الرجل، فكذلك الرجل تلده المرأة، وكل شيء يأتي من الله *

فاحكموا انتم بهذا: أيليق بالمرأة أن تصلي لله وهي مكشوفة الرأس؟ أما تُعلّمكم الطبيعة نفسها أنه من العار على الرجل ان يُعفي شعره * على حين أنه من الفخر للمرأة أن تُعفي شعرها؟ لأن الشعر جُعل غطاءً لرأسها * فإن رأى أحد أن يجادل، فليس مثل هذا من عادتنا ولا من عادة كنائس الله *

أما وأنا في باب الوصايا، فإنّي لا أُثني عليكم لأن اجتماعاتكم لا تُؤول الى ما يفيدكم، بل الى ما يؤذيكم»[(١)].

(١) الرسالة الاولى الى أهل قورنتس، ١١ / ٣ـ١٧.

«ولتصمت النساء في الجماعات، شأنها في جميع كنائس القديسين، فانه لا يؤذَن لهن بالتكلم. وعليهن أن يخضعن كما تقول الشريعة ايضاً * فان رغبنَ في تعلّم شيء فليسألن ازواجَهُنَّ في البيت، لأنه من غير اللائق للمرأة أن تتكلم في الجماعة»(١).

اذن لابد للمرأة من وجهة نظر بولس ان تغطي رأسها وتصمت في الكنيسة، وليس بمقدورها نيل أي مقام فيها. بل ليس لها الحق في التكلم بالكنيسة حتى من أجل التعلم. غير ان الامر الملفت للنظر في هذا الرأي، هو الاستدلال الذي يستدل به بولس على هذه الأحكام، وهو رواية العهد القديم التي تقول بأن الله خلق آدم على صورته. وهذا يعني لديه ان الرجل صورة الله ومجده، في حين تمثل المرأة مجد الرجل فقط، بل ان المرأة مخلوقة من جسم الرجل.

ولربما تعد فكرة بولس هذه عن المرأة أرسخ الافكار والأحكام التي كانت لدى بولس حول المرأة. وسنرى فيما بعد كيف تجذرت هذه الفكرة في ثقافة المسيحيين وطريقة فهمهم للمرأة.

ونلاحظ في موضع آخر كيف يضع ادارة شؤون الأرامل على عاتق الكنيسة مع تقييد ذلك ببعض القيود:

«أكرم الأرامل اللواتي هُنَّ أرامل حقاً * واذا كانت أرملة لها بنون أو حفدة، فليتعلموا هم أولاً أن يبرّوا أهل بيتهم وأن يفوا ما عليهم لوالديهم، فذاك مرضيّ عند الله * اما الأرملة حقاً، وهي الباقية وحدها، فقد جعلت رجاءها في الله وتقضي ليلها ونهارها في الدعاء والصلاة * وأما المسترسلة في اللذة، فقد ماتت وإن تكن حيّة * فبذلك وصِّ لئلا يناهلنّ لوم»(٢).

«فأُريد اذاً أن تتزوج الأرامل الشابات ويأتين بأولاد ويقُمن بتدبير المنزل ولا يدعنَ للخصم أي سبيل للشتيمة * فقد ضلّ بعضُهن فاتبعن الشيطان * واذا كان

---

(١) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ١٢ / ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) الرسالة الاولى الى طيموتاوس، ٥ / ٣ ـ ٧.

لاحدى المؤمنات أرامل بين ذويها، فلتُساعدهنّ ولا يُثقَّل على الكنيسة، لكي تساعد اللواتي هُنَّ أراملُ حقّاً»[١].

اذن فالأرملة الحقيقية هي تلك التي تدير الكنيسة شؤونها وحياتها، وليس لديها اولاد وحفدة، وتتميز بالدين والصلاح، ولا تملك بيتاً ولا أقرباء.

ونختتم هذا البحث بذكر النقطة التالية وهي اننا نجد في آخر أسفار العهد الجديد ـ أي سفر الرؤيا، والذي يضم الكثير من الكلام الرمزي ـ الكثير من التشبيه بالمرأة. كتشبيه اورشليم بالعروس[٢]، ومدينة بابل بالمرأة الخبيثة والزانية[٣]. ونقرأ فيه ايضاً:

«هؤلاء هم الذين لم يتنجّسوا بالنساء، فهم أبكار، هؤلاء هم الذين يتبعون الحملَ أينما يذهب. هؤلاء هم الذين افتدوا من بين الناس باكورةً لله والحمل»[٤].

فهذه الكلمات بشكل عام تجعل المرأة مرة رمزاً للدنيا وأدرانها، وتشبّه مرةً اخرى موضع التجلي الالهي ـ أي اورشليم ـ بالعروس الجميلة المتأهبة للقاء عريسها، أي الله او المسيح.

مقارنة بين القرآن والعهد الجديد

ان أية مقارنة بين القرآن والعهد الجديد في موقفهما من المرأة ونظرتهما اليها، يجب ان تأخذ بنظر الاعتبار الظروف والمقتضيات الزمانية والمكانية لنزول الآيات القرآنية وكتابة العهد الجديد. ويمكن القول على سبيل الاجمال ان الكتابين قد ظهرا في زمن كانت تطغى فيه ثقافة حكومة الرجل وسيادته.

فالقرآن قد نزل في فترة زمنية بلغت فيها الثقافة الجاهلية ـ التي من خصوصيتها الخشونة وهيمنة الرجل ـ ذروتها. وظهر العهد الجدد في ظل ثقافة

---

(١) نفس المصدر، ٥ / ١٤ ـ ١٦.

(٢) الرؤيا، ٢١ / ٢.

(٣) الرؤيا، ١٨ / ٢ ـ ١٠؛ ١٧ / ١ ـ ٧ و١٨.

(٤) الرؤيا، ١٤ / ٤.

مضادة للمرأة وتنطبع بطابع سيادة الرجل اليهودي، وكانت تدعم هذه الثقافة الصراعات المستمرة بين اليهود والروم الذين كانوا يحكمون بلاد كنعان. ففي مثل هذه الأجواء وهذه البيئة التي تحمل طابع العنف والقسوة ظهرت التعاليم القرآنية وكذلك التعاليم الانجيلية. وكان من الطبيعي ان يكون لهذه التعاليم نظرة جديدة نحو المرأة.

فالقرآن ومن خلال التمحور حول الله وارجاع كل شيء اليه واعتبار جميع الكائنات مخلوقات الهية، عدّ المرأة والرجل جزءاً من هذه المخلوقات، وأرجع منشأهما الى مصدر واحد. فالقرآن يحترم الطبيعة الانسانية ويوليها اهمية كبيرة، ويرى ان الهبوط لم يؤد الى تلوث طبيعة الانسان وفطرته الطاهرة.

لذلك نجد ان الخطاب القرآني خطاب عام موجّه لجميع الناس رجالاً ونساءً، ويهدف الى فوز الجميع وسعادتهم، من خلال التأكيد على ان معيار التقويم عند الله تعالى هو القلب السليم والروح الطاهرة أو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بـ «التقوى».

فالدعوة القرآنية المعنوية من اجل حياة أُخرى، لا تخص فئة من الناس وانما هي للجميع. فطالما يستخدم القرآن تعبير «يا ايها الناس» للتعبير عن عمومية دعوته وانطباقها على جميع الناس ذكوراً واناثاً.

اذن تقوم النظرة القرآنية للمرأة على اساس عالمي عام. اما بعض الاختلافات بين المرأة والرجل فلا تُلاحَظ إلّا في دائرة الأحكام الفقهية والتي مردها الى الدور الخاص الذي تلعبه المرأة. وهذه الاحكام هي الاخرى ـ وعلى غرار الاحكام الكلية ـ ذات مرونة وقابلية على الانطباق مع المستجدات والمقتضيات الزمانية.

وعلى هذا الضوء اتخذ القرآن وبحسب زمانه موقفاً ايجابياً ومحقاً جداً ازاء المرأة، وشيّد أساس التعامل العادل مع المرأة وانتهاج السلوك الانساني. فقد حرّم وبشكل قاطع ظاهرة وأد البنات التي كانت مستشرية في العصر الجاهلي، وجعل رضا المرأة شرطاً في صحة الزواج، ووضع للمرأة ارثاً ومهراً ونفقة، ومنحها حق

الطلاق، واعترف بحق التصرف في اموالها التي تصلها عن طريق الارث. وجميع هذه الحقوق التي اقرّها الاسلام للمرأة كانت غير موجودة في العصر الجاهلي، بل ان هذا العصر لم يعترف لها بحقوق أساساً.

واهتم الاسلام اهتماماً كبيراً بالمرأة كأُم وزوجة بحيث حذّر حتى من اطلاق كلمة «أُفّ»[١] في وجه الأم، وهي كلمة تعبّر عن التذمر أو الامتعاض. وعبّر القرآن عن المرأة بلباس الرجل وعن الرجل بلباس المرأة ﴿هُن لباسٌ لكم وانتم لباسٌ لهنَّ﴾[٢]، تعبيراً عن شدة التقارب بين الاثنين وقوة التعاطف والتلاحم فيما بينهما. وتحدث القرآن عن روح المودة والرحمة بين الرجل والمرأة وعدّ المرأة سكناً للرجل ومبعثاً لهدوئه واطمئنانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً﴾[٣].

وهناك العديد من الآيات التي تسلط الضوء على حقوق المرأة بدءاً من مراعاتها في الحمل والارضاع وانتهاءً بضرورة تعيين المهر في مختلف الظروف، واكرامها كزوجة، ورعاية حقوقها كافة حين طلاقها، وعدم منع الزواج المجدد بعد الطلاق. وقد أُعطيت كل هذه الحقوق للمرأة في مجتمع كان يضيق صدره بولادة الانثى، ويبادر الأب الى وأدها بيديه.

ومن أهمّ الآيات التي تمنح المرأة مكانة محترمة، هي الآية رقم ٢٢٨ من سورة البقرة التي تقول: ﴿ولَهُنَّ مِثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروف﴾. فهذا الآية تؤكد على الأمر التالي وهو: مثلما للرجال على النساء حقوق، للنساء على الرجال حقوق ايضاً، وينبغي على كل منهما مراعاة حقوق الآخر كما هو مطلوب.

ولا شك في ان القرآن يأخذ بالتفاوت القائم بين الناس والامم، إلّا انه يعتبر طاعة الله وعبوديته أو ما يعبّر عنه بالتقوى المعيار في التقويم وأساس التفاضل.

---

(١) الاسراء / ٢٣.

(٢) البقرة / ١٨٧.

(٣) الروم / ٢١.

ويمكن القول ان النظرة القرآنية نحو المرأة نظرة انسانية وواقعية قائمة على العدالة وتقود نحو التسامي المعنوي، سيما اذا اخذنا الظروف التي ظهر فيها الاسلام والثقافة الاجتماعية السائدة آنذاك.

ويمكن القول بايجاز ان القرآن قد أوصى الرجال ان يسلكوا مع النساء السلوك الحسن المطلوب المنطبق مع الاصول الانسانية والمعنوية والذي يمكن تلخيصه في كلمة «المعروف». وقد دعا جميع اتباعه لسماع هذا الاعلان الخالد: «عاشروهُنّ بالمعروف».

اما ما يمكن ذكره على صعيد العهد الجديد فهو اختلاف سلوك المسيح ازاء الناس بل وتعارضه الواضح مع الثقافة الاجتماعية آنذاك. فالعصر الذي ظهر فيه السيد المسيح عصر يتسم بالقسوة والتصلب سواء من حيث الاضطرابات الاجتماعية والسياسية أو من حيث النزعة الظاهرية الدينية وانتشار مظاهر العنف. وقد جابه المسيح هذا الوضع برسالة الحب والسلام.

ويمثل التعامل اليهودي مع النساء أحد مظاهر ذلك العنف والسلوك القاسي الذي انتقدته الأناجيل بصراحة، بل ان المسيح قد اعتبر مثل تلك الأحكام ناشئة عن قساوة قلب علماء اليهود مثل تجويزهم للطلاق. وبذلك يكون المسيح قد ابتعد كثيراً عن الثقافة السائدة في عصره.

غير ان هذه النظرة لم يستمر تأثيرها طويلاً، اذ ان ظهور القديس بولس وتبليغه للمسيحية بطريقته الخاصة واقحامه لأفكاره وآرائه الشخصية فيها، أمور عملت على تزريق الأفكار اليهودية السابقة في الديانة المسيحية، سيما وان افكاره قد حظيت من بعده بقبول وثقة معظم النصارى.

ومن هنا ينبغي القول بأن جهود المسيح الهادفة الى تلطيف الروح اليهودية وتهذيبها قد ذهبت أدراج الرياح بتعاليم بولس الذي ادخل النظرة السلبية ازاء المرأة والتي استنبطها من روايات العهد القديم، الى الثقافة المسيحية.

ومن ذلك بالامكان القول بأن القديس بولس لم يستطع أن يفهم روح التعاليم

العيسوية، لاسيما المتعلقة منها بالمرأة، بالشكل الصحيح. ولذلك لجأ الى تقديم الأفكار والرؤى اليهودية في رسائله ولكن بثوب مسيحي.

ولو قارنا تعاليم القرآن الكريم بتعاليم العهد الجديد المتعلقة بالمرأة، لظهر لنا ان كليهما ذو نظرات متحضرة وعالية، وكان يفصلها حين ظهورها فاصل كبير عن الافكار السائدة والثقافة المهيمنة وهو ما يُعد أمراً عظيماً. غير ان الذي يميز بين الاثنين هو ان في القرآن تفصيلاً اكبر في باب الأحكام التي تختلف فيها النساء عن الرجال، وان كان لبولس بعض الأحكام الموجزة بشأن النساء.

والتفوق الذي يقول به القرآن للرجال على النساء في الآية: ﴿الرجالُ قوّامونَ على النساء﴾[1]؛ والآية ﴿وللرجال عليهن درجة﴾[2]، ليس تفوقاً من الناحية الانسانية والمعنوية ولا يتصل بمنشأ خلقة كل منهما، وانما على علاقة بالوظائف الاجتماعية والدرجات الظاهرية.

اما التفوق الذي يتحدث عنه بولس في رسائله، فمردّه ـ من وجهة نظره ـ الى خلقة المرأة والرجل. فبما ان المرأة قد خُلقت من الرجل وخدعته، فلابد ان تكون تابعة للرجل وخاضعة له دائماً. وهناك تفاوت واضح كبير بين تعاليم بولس والقرآن الكريم على هذا الصعيد.

طبعاً النتائج التي يستنبطها بولس من هذا المبدأ الفكري، تنسجم تماماً مع تعاليم العهد القديم بشأن المرأة. فهو لم ينقل عن عيسى شيئاً في هذا المضمار، وانما يستند في كل ما اورده، الى العهد القديم لاسيما سفر التكوين، بالأخص الى خلقة آدم وحواء. ومن هنا يُلاحَظ نوع من الإحياء للثقافة اليهودية ونظرة اليهود الى المرأة، في آثار بولس.

القرآن يتحدث عن الزواج والأزواج والحور العين في عالم الآخرة من خلال الأوصاف المادية والحسية التي يصف بها الجنة وأهلها، بينما تخلو الجنة المسيحية

---

(١) النساء / ٣٤.

(٢) البقرة / ٢٢٨.

من مثل ذلك، وتوصف بأنها مجردة وروحانية.

ورغم تاكيد بولس على تساوي المرأة والرجل في عالم المعنى والايمان بالمسيح، غير ان هذا التأكيد ليس بمقدوره الانسجام مع تعاليمه المتحدثة عن هبوط مستوى المرأة عن الرجل، في حين يؤكد القرآن كثيراً على تساوي المرأة والرجل، والحياة الطيبة والفلاح والسعادة التي تنتظر الجميع رجالاً ونساءً.

الفصل الثاني

تطور نظرة المسلمين والمسيحيين نحو المرأة

أ ـ تطور نظرة المسلمين نحو المرأة

رغم ان الرواية القرآنية للخلق وهبوط آدم وحواء لا تستلزم توجيه أي لوم أو انتقاد لحواء أو القول بعدم تساويها مع آدم من حيث الشأن الانساني، غير ان رواية العهد القديم قد شغلت وللأسف أذهان المفكرين والمتكلمين وحتى الفقهاء المسلمين. وهي رواية ـ وكما هو واضح ـ تحفل بالتناقضات، ويشهد التاريخ على ما خلّفته من آثار ونتائج مرة ومدمرة على الفكر المسيحي وعقائد المسيحيين.

ونجم عن الأخذ بهذا الخطأ التاريخي الذي لا ينسجم مع روح القرآن وتعاليمه ونظرته نحو المرأة، أنْ راح يُنظر الى المرأة كموجود محرض على الفساد وعامل من عوامل الشر، ومخلوق يعيش في الظل وخاضع للرجل وتابع له، وليس سوى واسطة لاستمرار النسل.

وهذا ما يمكن ملاحظته في النماذج التالية:

أورد علاء الدولة السمناني في كتابه: «يقول الحكيم الترمذي (ت ٢٨٥ هـ) رحمه الله بأنه كلما التقى بامرأته بكى في الخلوة واستغفر. فتسأله المرأة: فهل هذا

وقت البكاء؟ وما هو الذنب الذي تستغفر منه؟ فيقول لها: لو لم يكن هناك ذنب، لما سُلِّطتِ علي كي تؤذيني!»[١].

ويُفهم من كلام الحكيم الترمذي ان معاشرة المرأة أو الاختلاط بها بمثابة دفع للغرامة! ويبدو ان امرأة كهذه وسيلة للتكفير عن خطايا الرجل، وليست شخصية مستقلة مختارة ذات هوية خاصة، ولابد من احترامها وتكريمها على هذا الاساس.

وتحدث النظامي الكنجوي وعبد الرحمن في شعرهما عن قصة خلق حواء من ضلع آدم اليسرى[٢].

فهذان الشاعران الايرانيان يؤيدان بالشعر قصة العهد القديم ويعتبران خلق حواء من الضلع الأيسر لآدم أمراً يدل على سوء المرأة.

وأورد كتاب قصص الانبياء[٣] رواية العهد القديم المتحدثة عن خلق حواء من ضلع آدم، مضيفاً اليها بعض العناصر الجديدة مثل حالة اللانوم واللااستيقاظ التي كان عليها آدم حينما انتزع جبرئيل ضلعاً من اضلاعه، وتعلق هذه الضلع بالجانب الأيسر.

وهناك العديد من الأحاديث المختلقة المنسوبة للرسول الاكرم محمد ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام التي تؤيد رواية العهد القديم والنتائج المترتبة عليها. وقد اتخذ البعض من هذه الأحاديث الموضوعة ذريعة لذم المرأة والنيل من شخصيتها.

فاستناداً الى حديث موضوع منسوب للامام علي عليه السلام يقول: «لا تشاور النساء فان رأيهن الى افنٍ وعزيمتهن الى وهن» يقول أبو حيان التوحيدي (القرن ٤ هـ) المعروف بالكذب وقلة الدين وسوء الاعتقاد والمتهم بالزندقة: لا يليق البوح بالسر للنساء، ولا يصح التشاور معهن، فرأيهن خلافاً للصواب في كل ما

(١) السمناني، علاء الدولة، الرسالة الاقبالية، تنقيح نجيب مايل الهروي، ١٩٨٧، ص ١٩٩.

(٢) ستاري، جلال، ملاع المرأة في الثقافة الايرانية، ١٩٩٤، ص ١٠٧.

(٣) قصص الانبياء، تصحيح فريدون تقي زاده طوسي، ١٩٨٣، ص ١٧.

تشاورهن فيه، ولو فعلت ذلك، كنت بعيداً عن الصلاح، ولو اعرضت عنهن لأصبحن عدوات لك، ويُخشى أن يثرن الفتنة التي لا تطفئها حيلة ولا تدبير»[١].

وفي كتاب «سياستنامه» يقول نظام الملك (القرن ٥ هـ) في الفصل الثالث والأربعين بأن النساء هنّ صاحبات الستر وغير الكاملات في العقل، والهدف منهن استمرار جوهرة النسل، وكلما كنّ أكثر ستراً وتقوى، كان ذلك افضل وأحسن.

ويقول أيضاً بأن الرسول ﷺ قد قال «شاوروهنّ وخالفوهن» ثم يستند الى هذا القول ويقول: لو كان عقلهن كاملاً لما طالبنا الرسول ﷺ بالعمل خلافاً لرأيهن؟[٢]

ويقول رشيد الدين فضل الله الهمداني في كتاب بعثه الى ابنه جلال الدين: «لا تصاحب النساء كثيراً لأن القرب منهن مخل بالوقار ومقلل للاعتبار»[٣].

الحديثان المنقولان عن الرسول ﷺ والامام علي عليه السلام واللذين استُند اليهما في الآراء السابقة الخاصة بالمرأة، لا ينسجمان مع ظواهر القرآن. ولا ينطبق الرأي القائل بنقصان عقل المرأة مع أي دليل عقلي أو منطقي. وينم كلام الكتّاب السابقين عن ان المرأة موجود مثير للفتنة والفساد وذات رأي غير صائب ولا سليم، ولا فائدة تُرجى من التشاور مع النساء، ولابد من العمل خلافاً لما يرينه من رأي وما يبدينه من وجهة نظر!

وفي مثل هذه الحال لا يمكن أن يُعلَّق أي امل على المرأة لأن نقص عقلها يبعث على ضعف الرأي، بل ويؤدي الى الانحراف نحو الباطل. ومن جهة اخرى ليس بالامكان تجنب مشاورة المرأة لأنها لو شعرت بعدم الاهتمام بها والتشاور معها

---

(١) المستوفي، ابو الفضل يوسف بن علي، خردنامه، تحقيق اديب برومند، ١٩٦٨، ص ٩٧.

(٢) نظام الملك، سياستنامه، تحقيق عباس اقبال، ١٩٩٠، ص ٢٢٥.

(٣) العقيلي، سيف الدين حاجي بن النظام، آثار الوزراء، تحقيق جلال الدين الحسيني الأرموي، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٣١٣.

لحرّضت على الفتنة والفساد. وفي ظل هذا الوضع المحرج لابد للرجل ان يتظاهر بالاعتراف بأنهن صاحبات عقل وتدبير!

رأي المرأة ـ طبقاً لرأي هؤلاء ـ لا يكشف إلّا عما هو عكس الصواب والصلاح، والتشاور معها انما يُراد به ضرب عصفورين بحجر واحد: التعامل مع المرأة برياء من اجل تجنب ما يمكن ان تُحدثه من فتنة وتثيره من اضطراب، وكذلك معرفة ما هو خلاف الصواب من اجل العمل بالصواب!!

لفيف من المتكلمين عزا وجوب شرط الذكورة في الامام، الى نقص عقل المرأة، دون ان يستند بعضهم الى آية أو حديث في هذا المجال.

فالقاضي عضد الدين الجرجاني يقول في «شرح المواقف» حين تحدثه عن شروط الامام: «يجب ان يكون ذكراً اذ النساء ناقصات عقل ودين»(١).

والتفتازاني (٧١٢ ـ ٧٩٣ هـ) يكتب في بحثه لشرط الامامة: «يشترط في الامام أن يكون ذكراً ... والنساء ناقصات عقل ودين، ممنوعات عن الخروج الى مشاهد الحكم ومعارك الحرب»(٢).

وعزا صاحب «الأساس في عقائد الاكياس» كون الامام ذكراً الى الحديث المروي عن رسول الله ﷺ القائل: «ما أفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة»(٣).

وهكذا نرى ان دليل هؤلاء في ضرورة ان يكون الامام رجلاً هو نقص المرأة عقلياً ودينياً، دون ان يُذكر معنى هذا النقص وما هي الحقيقة التي يستند اليها. اضف الى ذلك ان الحديث المنسوب الى الرسول ﷺ ـ والذي من الواضح انه

---

(١) الجرجاني، عضد الدين، شرح المواقف، طبعة قم، ج ٨، ص ٣٥٠.

(٢) التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد، عالم الكتب، ١٤٠٩، ص ٢٤٣ و٢٤٤.

(٣) قاسم بن محمد بن علي، الأساس في عقائد الأكياس، نقلاً عن موسوعة مصطلحات علم الكلام الاسلامي، الدكتور سميح دغيم، مكتبة لبنان، ١٩٩٨، ج ١، ص ٢١٨. روى ابن ابي الحديد هذا الحديث كما يلي: روي عن رسول الله ﷺ: «ان قوماً يخرجون بعدي من فئة رأسها امرأة لا يفلحون أبداً»، مشيراً بذلك الى واقعة الجمل وخروج عائشة. ومن هذا يتضح ان هذا الحديث يتحدث عن امرأة معينة ولا يشمل جميع النساء.

موضوع، وحتى اذا لم يكن موضوعاً فانه يتحدث عن امرأة معينة[١] ـ قد أُخذ على انه حكم كلي، واستُنبط منه حذف المرأة وإقصاؤها عن جميع المناصب الاجتماعية التي تقتضي نوعاً من الرئاسة والولاية[٢].

غير أن الشيخين الطوسي والصدوق، والتميمي البغدادي، لم يذكروا الذكورة شرطاً من شروط الامامة، وانما اكدوا على شروط اخرى مثل: العدالة، والعصمة، والشجاعة، والتدبير[٣].

ويُعدّ نصير الدين الطوسي (٥٩٧ ـ ٦٧٢ هـ) أحد اولئك الذين تحدثوا بالتفصيل عن المرأة. فبالرغم من انه فيلسوف بارع ومتكلم كبير، ولديه باع في العرفان والتصوف، إلّا انه سقط في موضوع المرأة في ذات الفخ الذي سقط فيه سائر المفكرين. فابتعد بذلك عما اورده القرآن والسنة النبوية بهذا الشأن.

يصف نصير الدين الطوسي في كتابه «اخلاق محتشمي» المرأة بأنها فخ الشيطان، ومظهر من مظاهر الدنيا، وينقل عن الرسول الاكرمﷺ احاديث تقول: «النسَاء حبائل الشيطان، ما تركتُ بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء»، و«من ذا الذي جاور النساء فلم يُفتَن؟»، و«الدنيا أربعة اشياء: البناء، والنساء، والطلاء، والغناء»[٤].

وقد اورد نصير الدين الطوسي هذه الأحاديث الثلاثة عن الرسول دون ان يذكر المصدر الذي أخذها منه.

ولنصير الدين الطوسي كتاب آخر يدعى «أخلاق ناصري» وقد كتبه للرجال، وفيه وصايا تتعلق بالنكاح وطريقة التعامل مع المرأة والتدبير المنزلي.

---

(١) راجع: آية الله جناتي، المرأة ومقتضيات الزمان.

(٢) راجع: العلامة الطهراني، رسالة بديعة، نشر الحكمة، ١٩٨٤.

(٣) الشيخ الطوسي، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، الفصل ٢؛ الشيخ الصدوق، الاعتقادات؛ التميمي البغدادي، اصول الدين، ١٤٠١هـ.

(٤) اخلاق محتشمي، تحقيق محمد تقي دانش بجوه، ١٩٧٠، ص ١٥٧ و٣٤٣و٣٧٧.

وما اورده فيه على صعيد تربية الابناء، يتعلق بالأبناء الذكور فقط، ولم يتحدث عن الاناث إلّا بعض الأسطر.

وعبّر في هذا الكتاب عن اعتقاده بأن الله قد خلق الرجل اولاً ثم رأى انه بحاجة الى بعض الأشياء من اجل الاستمرار في حياته، ومن هذه الحاجات هي استمرار نوعه. كذلك بما انه يخرج من البيت فلابد ان تُحفظ امواله. ولذلك فالرجل بحاجة الى من يحفظ امواله. ولهذا خلق الله له موجوداً يقوم بهذين العملين ويقضي هاتين الحاجتين، وهذا الموجود هو المرأة التي تحفظ استمراره، وتحافظ على امواله[1]. هذه الرؤية وعلى غرار رواية العهد القديم، ترى المرأة تابعة للرجل ومرتبطة به، وليس لها من دور في الحياة سوى العمل على التكاثر واستمرار النسل، والحفاظ على مصالح الزوج.

اذن فهي في هذين الواجبين ليست سوى موجود تبرز موجوديته فقط في ظل تأمين حاجة الرجل. حتى ان نصير الدين الطوسي قد الغى سائر الاغراض التي عادة ما يذكرها البعض للمرأة مثل اشباع الشهوة الطبيعية، ويكتفي فقط بذكر الغرضين السابقين وهما وكما قلنا: طلب الذرية، وحفظ المال.

وعلى هذا الاساس فالمرأة التي لم تتزوج أو لم تنجب طفلاً فلا معنى لوجودها لأنها لم تقم بالمهمة التي خُلقت من اجلها ولم تحقق الهدف من خلقتها.

وبهذه الرؤية ينطلق نصير الدين الطوسي في الفصل الثالث من كتابه للتحدث عن صفات المرأة التي تصلح للزواج فيقول: «المرأة الصالحة شريكة الرجل في المال وقسيمته في تدبير المنزل، ونائبته في وقت الغيبة. وافضل النساء هي المرأة التي تتحلى بالعقل، والدين، والفطنة، والحياء، ورقة القلب، والتودد، وقلة الضرر، وطاعة الزوج، وبذل النفس في خدمته، وايثار رضاه، والوقار والهيبة عند أهلها، وألا تكون عقيماً، وأن تكون قادرة على ترتيب المنزل وحفظه، وباعثة على مؤانسة الرجل وتبديد همومه وجلاء أحزانه بمجاملتها ومداراتها وحسن طبعها

---

(١) اخلاق ناصري، تحقيق مجتبى مينوي، ط ٤، ١٩٩٠، ص ٢٠٦ و ٢١٥.

... ولا ينبغي ان يبعث جمال المرأة على التقدم لطلب يدها، اذ قلما يقارن الجمال العفة، لأن المرأة الجميلة لديها الكثير من الراغبين والطالبين، وضعف عقلها لا يمنع انقيادها نحو الفضائح. والغاية من خطبتها اما فقدان الحميّة والصبر على الفضيحة، وهو ما يشتمل على الشقاء في العالمين، أو اتلاف المال والثروة ومقاساة اصناف الأحزان والهموم. اذن فيجب الاقتصار في الجمال على الاعتدال»[١].

اذن يؤكد نصير الدين الطوسي وكما لاحظنا على الصفات التي تؤمّن الهدفين السابقين المشار اليهما وهما: التكاثر، وحفظ المال. كما يؤكد على ضعف عقل المرأة ويعتبره سبباً في فسادها وافسادها. ويعتبر الجمال عاملاً مساعداً على فسادها.

ولم يقتصر الطوسي على ما سبق، وانما يقدم بعض الوصايا الى الرجال من أجل السيطرة على النساء، وحفظهن بالتالي من انواع المفاسد والرذائل التي توجِد لديها أرضية الاصابة بها: «وحينما تحصل عقدة المواصلة بين الزوج والمرأة، فسبيل الزوج في سياسة المرأة ثلاثة أشياء: الهيبة، والكرامة، واشغال الخاطر. اما الهيبة فهي ان يجعل نفسه مهاباً في عين المرأة، بحيث لا يجيز لها أي اهمال في الامتثال لأوامره ونواهيه، وهذه الخصلة، أعظم شرائط السياسة، لأنه لو طرأ خلل على هذا الشرط، سيُفتح الطريق بوجه المرأة في اتباع الهوى. ولن تقتصر على ذلك بل ستجعل الزوج في طاعتها وتتخذه واسطة لما تريد، وتحقق به مطالبها. وحينذاك يتحول الآمر الى مأمور والمطاع الى مطيع، والمدبِّر الى مدبَّر. والغاية التي سينتهي اليها هذه الحال هي حصول العيب والعار والمذمة والدمار للاثنين معاً، وحدوث الفضائح والشنائع التي ليس بالمقدور تلافيها أو تداركها»[٢].

والنبرة المرتابة في هذه الكلمات، هي اوضح من ان يقدم لها توضيح. فأهم شروط سياسة المرأة وادارتها من وجهة نظر نصير الدين الطوسي هو ان يقوم الرجل ببعض الاعمال التي تجعل له الهيبة في عين زوجته كي لا ينعكس دور المرأة

---

(١) نفس المصدر، ص ٢١٥ و٢١٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٢١٧.

والمتمثل في وجوب أن تكون مطيعة ومأمورة ومدبرة، فتتحول الى مطاعة وآمرة ومدبِّرة!

وكتب في توضيح الأمر الثاني، أي الكرامة، قائلاً بأن الكرامة هي ان يُكرِّم الرجلُ المرأةَ بالأشياء التي تستدر محبتها وشفقتها. ويرى ان انواع الكرامة في هذا المجال ستة وهي: ١ ـ يحفظها في هيئة جميلة، ٢ ـ يبالغ في سترها عن غير المحارم، ولا يدع أي غريب الاطلاع على آثارها وشمائلها وصوتها، ٣ ـ يشاورها في شؤون تدبير المنزل شريطة ان لا تطمع فيه، ٤ ـ يطلق يدها في التصرف بالأقوات على سبيل مصلحة المنزل واستعمال الخدم في المهمات، ٦ ـ ألّا يؤثر عليها امرأة غيرها بعد ان يقف على كفاءتها، حتى وان كانت أشرف منها بالجمال والمال والنسب والأسرة، لأن الغيرة الكامنة في طبائع المرأة ونقص العقل الذي لديها يدفعانها الى القبائح والفضائح وسائر الأعمال التي توجب فساد المنزل وسوء المشاركة ومرارة العيش واثارة الفوضى[1].

وهكذا نلاحظ كيف يوصي ببعض الوصايا التي تهدف في الظاهر الى رضا المرأة، إلّا انها تقوم على نفس التصور الأساسي الذي لديه عنها. ولذلك نراه يؤكد على الخصوصية النفسية للمرأة والمتمثلة بالغيرة وعلى ما نسبه اليها من نقص العقل، في مطالبته الرجل بعدم الزواج باخرى، وذلك من اجل تجنب الوقوع في خطر القبائح والفضائح التي من الممكن ان تنجر المرأة اليها في مثل هذه الاحوال!

وأما عن «إشغال الخاطر» فقال: بأنه عبارة عن مبادرة الزوج الى اشغال خاطر المرأة دائماً بتكفّل شؤون المنزل والنظر في مصالحه والقيام بما يقتضيه نظام المعيشة، لأن النفس الانسانية لا تصبر على التعطيل. والفراغ من الضروريات يبعث على النظر في غير الضروريات. لذلك لو فرغت المرأة من ترتيب المنزل وتربية الأبناء وتفقّد مصالح الخدم، لاهتمت في الأشياء التي تقتضي ايجاد الخلل في وضع المنزل، وانشغلت بالتزيّن من أجل الخروج والنظر الى الرجال الأجانب،

(١) نفس المصدر، ص ٢١٨.

الأمر الذي يؤدي أيضاً الى اسقاط هيبة الزوج، بل واحتقاره واستصغاره بعد رؤيتها لغيره من الرجال، مما يجرئها على القيام بالقبائح، ويحرّض الراغبين على الطلب. وسينجم عن ذلك كله اختلال المعيشة، وذهاب المروءة، وحصول فضيحة الهلاك والشقاء في الدارين[١].

وهذه النصائح التي يقدمها نصير الدين الطوسي للرجال، انما هي في الواقع استمرار لتفكيره السابق ورأيه في النساء. فحينما تنحصر قيمة المرأة من وجهة نظره في اطاعة الزوج وخدمته، فلابد ان يعتبر أي عمل غير هذا خروجاً عن مسار الخلقة، وخدمةً للشيطان! والأدهى من ذلك انه يعتبر فراغ المرأة أمراً يدفعها لأسوأ الأعمال وأشنعها والانشغال بالآخرين عن زوجها والنظر الى زوجها باحتقار واستصغار!

فالمرأة اذن عند نصير الدين الطوسي موجود شيطاني الصفات، ما أن تجد الفرصة المناسبة حتى تجر نفسها والآخرين الذين يحيطون بها الى مأزق الضلال والفضيحة. فهو لا يرى في النساء خيراً عدا ادامة النسل، وخدمة الزوج.

ان تكراره لكلمات مثل الفضيحة، والشقاء، والهلاك، والقبائح، والفضائح، والفساد، والاختلال، والشنيع، والقبيح، وغيرها، في عباراته السابقة لدليل على عمق رؤيته السلبية نحو المرأة، لأنه لم يستخدم في مقابل هذه الصفات المرعبة التي أضفاها على المرأة أية صفة جميلة ولم ينسب اليها أي عمل حسن، مؤكداً على ان نقصان العقل عند المرأة حينما تضاف اليه الرذائل الأخلاقية يؤدي الى وقوع كوارث وفتن عظيمة لا يمكن تداركها. ولربما يمكن مشاهدة أمارات الفكر الأرسطي في مثل هذه الآراء، لأن ارسطو يعتقد بأن الضعف الأخلاقي عند المرأة أكثر من الرجل[٢].

ولم يكتف الطوسي بهذه النصائح، وانما يحذر الرجال من خطر النساء ويقول:

---

(١) نفس المصدر.

(٢) وحتى لو كان هذا الرأي صحيحاً فانه يتحدث عن الواقع وليس بمقدوره ان يرتب حقوقاً خاصة.

الدين الطوسي اية اشارة لذلك، بل ان الوصايا التي اوصى بها لا يمكن ان تؤدي اساساً الى حدوث مودة ورحمة بين الرجل والمرأة.

واذا لم نحاول اساءة الظن به، نقول بأنه قد وقع في آرائه هذه تحت تأثير الروح السائدة في عصره والوضع الذي كان عليه مجتمعه أكثر من تأثره بالقرآن والأحاديث والسيرة النبوية وسيرة الأئمة الاطهار. كما لا يمكن نكران تأثير رواية العهد القديم عليه وعلى الكثيرين غيره. اذ يؤلف الخبران الواردان في العهد القديم ـ أي خلق حواء من ضلع آدم، واغواء حواء لآدم وتحريضه على اكل الفاكهة التي مُنعا منها ـ أساس رأي هذه الفئة من المفكرين بالمرأة.

فبالرغم من الآيات القرآنية جميعاً والأحاديث الصحيحة بشأن المرأة، فقد أدى الرأي القائم على رواية العهد القديم والثقافة الحاصلة عن ذلك، الى سيادة الرأي المناهض للمرأة في المجتمعات الاسلامية[١].

ولا بأس هنا أيضاً من الاشارة الى آراء الاسماعيلية في المرأة وتأويلاتهم بهذا الشأن. وقد انتشرت هذه الآراء منذ القرن السادس الهجري كثيراً بحيث وقفت الى جانب العقائد العامة الشائعة في المجتمع.

يقول القاضي نعمان الاسماعيلي (ت ٣٦٣ هـ) في كتاب «أساس التأويل» بأن البعض قد ربط بين عصيان ابليس وخلقة حواء لأنهم تصوروا بأن المرأة شيطان، في حين ان المرأة (حواء) باطن الدين، وآدم ظاهره. لأن الشيطان بامتناعه عن السجود لآدم قد انتزع القدرة الباطنية الخفية لآدم فأصبح عاجزاً عن ادراك الرموز[٢]، لأن المرأة مظهر الباطنية، وقد أُعطيت السيدة حواء لآدم لتدارك خيانة ابليس الذي أبى السجود لآدم لأنه لم يشاهد فيه الباطنية وكان يقول بأنه مخلوق من الماء والطين .

---

(١) ظ: كديور، جميلة، المرأة، الفصلان الاول والثاني، نشر اطلاعات، ١٩٩٦.

(٢) راجع: نصير الدين الطوسي، التصورات أو روضة التسليم، تحقيق فيلاديمير ايفانوف، ١٩٨٤، ص ٦٣.

اذن يُتعد خلق المرأة من نفس الرجل (من نفس واحدة) طبقاً للتأويلات الاسماعيلية بمعنى خلق الجانب الباطني للدين، والذي ترمز اليه حواء.

ويقول القاضي نعمان في تفسير رأيه بوضوح المعنى الروحاني والسري لخلق حواء من ضلع آدم: لدى آدم اثنا عشر ضلعاً ترمز الى اللواحق أو الملائكة الاثني عشر الذين اختيروا لمساعدة آدم وهم نقباؤه الاثنا عشر. وكان ابليس واحداً منهم، إلّا انه طُرِد بعد عصيانه. ولذلك أُعطيت حواء لآدم للتعويض عن ابليس. وبذلك فقد نقل آدم كل معرفته الباطنية الى حواء فأصبحت حجته.

ومن ذلك نفهم ان المرأة في التأويلات الاسماعيلية تمثل ذات الرجل أو هويته العميقة الخفية وضميره وروحه الباطنية. بل يذهب التأويل إلى ان معنى «اللقاح المطهر» ـ أي حمل الباكر ـ هو ان المرأة باطن الشريعة.

اذن بما أن المرأة وفق التأويلات الاسماعيلية هي الباطن والباطن هو المرأة، ذكر هنري كوربن بأن الشيعة يقيمون مقارنة ذات معنى بين مريم العذراء ـ ام المسيح ـ وبين فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ وأم الائمة المعصومين الأحد عشر، كقول الامام موسى الكاظم عليه السلام خلال حديثه مع الخليفة العباسي:

«انما أُلحقنا بذراري الانبياء عليهم السلام عن طريق مريم عليها السلام وكذلك أُلحقنا بذراري النبي ﷺ من قبل أُمّنا فاطمة عليها السلام».

وعليه فالرسول من وجهة نظر كوربن يتولى مهمة اعلان الشريعة (الظاهر) ويعبّر عن الذكورة، والامام يمثل الباطنية والمعنى الروحاني والسري للشرع ويعبّر عن الانوثة.

ويقول ناصر خسرو: الرجل في الحقيقة رسول قد خلق الله تعالى جميع الخلق له، والجميع بالنسبة اليه كالمرأة. وبما ان طاعة الرجال واجبة على النساء، وطاعة الرسول واجبة على الخلق، ظهر الرجل رسولاً، والخلق بمثابة المرأة[1].

وهكذا نرى ان التأويلات الاسماعيلية تمثل ردة فعل شديدة في مقابل الآراء

(١) جامع الحكمتين، تحقيق هنري كوربن ومحمد معين، ١٩٥٣، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٩.

التي تعتبر المرأة مظهر الدنيا وحبائل الشيطان. فالمرأة في الرؤية الاسماعيلية مظهر الباطن وواسطة للالتفات الى حقيقة الدين، بل ان العلاقة بين الامام والائمة علاقة امومية.

ب ـ تطور نظرة المسيحيين نحو المرأة

لابد من التحفظ كثيراً حين دراسة دور المرأة ومكانتها في تأريخ صدر المسيحية، لأن المصادر قليلة جداً، فضلاً عن انّ كتّاب هذه المصادر، من الرجال الذين نحوا منحىً وعظياً. فبدلاً من الانبراء لوصف الوضع الذي كانت تمر به المرأة، أوصوا بالوضع المطلوب الذي ينبغي ان يكنّ عليه.

التفسير المقبول في العصر الراهن والذي تشهد عليه المصادر المتوفرة هو ان المرأة في صدر المسيحية كان لها نشاط عام ومؤثر الى حد ما. غير ان هذا النشاط أخذ يتضاءل تدريجياً بشكل كبير ويأخذ طابع التحديد. غير ان هذا التحديد ربما كان ناشئاً عن تعاظم النزعة الظاهرية والآثار السلبية للعقائد اليهودية واليونانية، وميل الكنيسة الكاثوليكية نحو تمييز نفسها عن الفئات المبتدعة.

سبق ان علمنا بأن كثيراً من النساء كنّ ضمن أتباع المسيح وتلاميذه، ولم نجد في كلامه وسلوكه ما يشير الى وجود تمايز خاص بين النساء والرجال، حتى على صعيد الوظائف التبليغية والمعنوية. غير اننا نجد نوعاً من الثنائية في آراء القديس بولس. فهو يرسم دوراً فعالاً للمرأة في التبليغ والدعوة للمسيحية، لاسيما في رسالته الى اهل روما، والتي ذكر فيها أسماء الكثير من النساء اللواتي تميزن بدور ايجابي في النهضة المسيحية. فهؤلاء النسوة اما كنّ صاحبات بيوت كان يلتقي فيها المسيحيون الاوائل، أو كنّ صاحبات أموال وثروة، فقمن بدعم الرسل والمبلغين مالياً، أو لعبن مع ازواجهن دوراً مؤثراً في الدعوة للديانة المسيحية[1].

وكانت النساء تشارك الرجال في طقوس العبادة والدعاء، وكن يتنبّأنَ

---

(١) اعمال الرسل، ١٢ / ١٢؛ الرسالة الى اهل رومة، ١٦؛ الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ١٦ / ١٩؛ الى اهل قولسي، ٤ / ١٥؛ الى فيلمون، ٢.

أيضاً[١].

ورغم تحدث كاتب «اعمال الرسل» وكذلك بولس، عن الدور المهم الذي لعبته المرأة في بداية الدعوة المسيحية، إلّا انهما يميلان للتأكيد على انها حامية غير مباشرة للمسيحية أو مضيّفة في احسن الأحوال، أكثر من كونها مبلغة أو زعيمة دينية[٢].

وتكشف الكتب اللاحقة للعهد الجديد، لاسيما رسائل مرحلة الدعوة، عن تحفظ المسيحية المتعاظم ازاء المرأة. فمنذ القرن الثاني، اخذ الكتّاب المسيحيون يقدّمون الدين الجديد لأبناء دينهم بالطريقة التي يمكن بواسطتها تأييد عقائدهم الأولية. فراحوا يوصون المرأة بالاحتفاظ بدورها التقليدي كزوجة وأُم.

وانبرى بولس لأول مرة ومن خلال احدى رسائله، لتبرير عدم السماح للمرأة بالتدريس في الكنيسة أو يكون لديها مقام ارفع من مقام الرجل. ومما قاله في رسالته تلك: «وعلى المرأة ان تتلق التعليم وهي صامتة بكل خضوع * ولا أُجيز للمرأة ان تُعلِّم ولا أن تتسلط على الرجل، بل تحافظ على السكوت * فان آدم هو الذي جُبِل أولاً وبعده حواء * ولم يُغوَ آدم، بل المرأة هي التي أُغويت فوقعت في المعصية * غير ان الخلاص يأتيها من الامومة اذا ثبتت على الايمان والمحبة والقداسة مع الرزانة»[٣].

ويتضح في رسائل اخرى ان الأرامل مجموعة معروفة كانت تستحق الاطراء لأجل عباداتها وأعمالها الدينية، والكنيسة هي التي تدير شؤون حياتها. غير ان « بولس» يضع لهؤلاء النسوة شروطاً، معتبراً «الأرامل الحقيقيات» هن الوحيدات الجديرات بحماية الكنيسة ودعمها[٤]. غير ان هؤلاء الأرامل ورغم ان لهنّ الحق بالاشتراك في الاعمال الخيرية التي تقوم بها الكنيسة، إلّا انهن لا حقّ لهن في بلوغ

(١) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ١١ / ١٥.
(٢) أعمال الرسل، ١٦ / ٥.
(٣) الرسالة الاولى الى طيموتاوس، ٢ / ١١ ـ ١٥.
(٤) الرسالة الى طيموتاوس الأول، ٥ / ١ ـ ٨ و١٤ ـ ١٧.

رتبة رجل الدين المسيحي.

وفي اواخر القرن الميلادي الثالث ومطلع القرن الرابع، تم الاعتراف بالمرأة كشماسة في الكنيسة الشرقية، رغم ان مجمع نيقيا (عام ٣٢٥) لم يعترف بذلك. وتحدثت بعض النصوص عن سلسلة مراتب المرأة الشماسة مثل القانون ١٥ لمجمع كالسدون وذلك في ٤٥١. فكانت المنتميات الى هذا السلك يعُدْنَ المرضى، ويعلمن النساء، ويصحبنهن لزيارة القساوسة، غير ان التعميد كان ممنوعاً عليهن.

اما في الكنيسة الغربية فلا يوجد تقرير قديم يتحدث عن وجود امرأة شماسة فيها.

اذن فقد أخذ ينحسر دور المرأة الذي كانت تمارسه من قبل ويضيق شيئاً فشيئاً بعد تعاظم النزعة الشكلية في أداء الشعائر وانتظام سلسلة المراتب في الكنيسة.

والعامل الآخر الذي أدى الى تقليص دور المرأة وضعف حضورها في الاجتماعات الدينية والكنيسة، هو العقائد الخاصة لأصحاب المذهبين المونتاني[١] والغنوصي حول النساء. فالمذهب الاول كان يولي اهمية اكبر للمرأة، لاسيما وقد ظهرت نبيتان الى جانب مونتانوس زعيم هذا المذهب، وهما بريسيلا، وماكسيميلا. وكانتا تدعيان انهما واقعتان تحت الهام روح القدس المباشر، وتحظيان باحترام كبير في أوساط اتباع هذا المذهب.

وكانت المرأة في «المونتانية» لديها الحق في التعميد واقامة مراسم العشاء

---

(١) Montanists: اتباع مونتانوس Montanus الذي زعم في عام ١٥٦م ظهور اورشليم جديدة في فريجيا. وقد أوجد مجتمعاً دينياً في فريجيا ينتظر خروج المسيح. وشكلت المونتانية والغنوصية تحدياً كبيراً للكنيسة المسيحية في القرن الثاني الميلادي. وقد امتدت هذه الحركة بعد وفاة مونتانوس الى سائر ارجاء الامبراطورية البيزنطينية وكان يؤكد على معايير أخلاقية اعلى من أخلاق الكنيسة السائدة، ويولي أهمية خاصة للشهادة:

Dictionary of Philosophy and Religion, William I. reese, Humanties Press, New Jersey, 1996, p. 493 - 495.

الرباني.

وسمح بعض الغنوصيين للنساء بالخدمة في سلك القساوسة وممارسة التعميد.

ولكي تدحض الكنيسة الكاثوليكية أي شبه بينها وبين هذين المذهبين المبتدعين، بادرت الى منع المرأة الكاثوليكية من طلب مثل تلك الدرجات، وفضلت الاشادة بالنساء ضمن حقلي الشهادة، والرهبانية. غير ان الكنيسة ورغم اطرائها على بعض النساء من ذوات الدرجات المعنوية والروحية العالية، اصرت على عدم اعطاء المرأة اي منصب أو عنوان ضمن سلسلة مراتب الكنيسة ودرجاتها لاسيما على صعيد اداء المراسم الدينية والتبليغية[١].

والعامل الآخر من عوامل تحديد دور المرأة يتمثل في تأثير السنّة اليهودية وانتقال هذه السنة الى المسيحية بواسطة بولس. كما يمكن ان تكون الثنوية منشأ بعض الآراء المسيحية التقليدية.

فالثنوية قد دخلت الى الفكر المسيحي من اليونان، وعملت على بلورته. فالثنوية تنظر الى الروح والجسم كعنصرين منفصلين، بل ومتناقضين. وتعتبر المرأة اكثر جسمانية وشهوانية من الرجل ولذلك يجب أن يُنظر اليها ومثل سائر الاجزاء المتصلة بالجسم، في الدرجة الثانية، ولابد ان تقع تحت الاشراف والمراقبة ويُتعامل معها كموجود تابع.

نلاحظ في رسائل بولس كيف يشيد بالأبكار اللاتي نذرن نذر العفة وصرفن نظرهن عن الزواج، لأنهن لم ينجسن انفسهن بالدنيا. اما المتزوجات فقد هبطن معنوياً وفقدن فرصة الاقبال الباطني على الله.

ويبرر وصاياه الى الرجال بهذا المعيار ايضاً. فهو يمنع المتزوجين من الطلاق أو الانفصال عن نسائهم، إلّا انه يعتبر عدم الزواج افضل من الزواج، ويشيد بالعزاب الذين على غراره، لأنهم يطلبون رضا الله والمسيح بدلاً من رضا نسائهم

---

(١) See: Clark , Elizabeth , (woman), in Encyclopedia of Early Christianity , Vo1.2. pp. 1181 - 1183.

واولادهم[١].

اذن يمتدح بولس بصراحة اولئك الذين يتجاهلون ما تقتضيه أجسامهم، من اجل التعالي الروحي.

وقد اثّرت ظاهرة مقارعة المرأة وسيادة الرجل التي كانت في الدين اليهودي ـ وهي الديانة التي كان عليها بولس من قبل ـ على استنباطات بولس للطريقة التي كان يحيا بها المسيح، وكذلك على اسلوب الدعوة للمسيحية وطريقة تعليم المسيحيين الجدد.

«ترتوليان»[٢] الذي يعد من اعظم علماء المسيحية والمدافعين عنها ـ والذي انضم فيما بعد الى المونتانية ـ قد تأثر بأفكار بولس لاسيما تفسيره لقصة الهبوط، فانبرى الى صبّ جام غضبه على النساء قائلاً: «ان حكم الله في هذا الجنس حي في هذا الزمان، ولابد ان يكون هذا الذنب حياً ايضاً. فأنتن اثنا عشر شيطاناً، وأنتن اللاتي فتحتن رأس وعاء اللعنة لتلك الشجرة. وأنتن اول من أدار ظهره للقانون الالهي. وأنتن قد أقنعتن من لم يستطع الشيطان ان يقنعه»[٣].

والقديس جيروم[٤] الذي كان يدافع بحماس عن البتولة ويثني على تدين

---

(١) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ٧ / ١ ـ ٤٠.

(٢) Tertullian (١٦٠ ـ ٢٢٠ م)، لاهوتي ومنافح عن العقيدة النصرانية. وُلد في قرطاجه، وتدين بالنصرانية عام ١٩٥، ويُعد من اشد المدافعين عن النصرانية في بادئ الامر، ثم وجد المونتانية اكثر انطباقاً مع تفسيره للنصرانية، فانتمى اليها:

Dictionary of Philosophy and Religion, William A. Rece.

(٣) Quoted in Women Defamed and Women Defended: An Anthology of Medieval Texts, ed, Alcuin Blamires, Oxford, 1992, p.51.

(٤) Saint Jerome (٣٤٧ ـ ٤٢٠)، أحد آباء الكنيسة ومن اعظم علمائها. ولد بروما وسافر كثيراً ثم اقام في بيت لحم فأسس صومعة امضى فيها السنوات الأربع الأخيرة من حياته. اشتهر بترجمة الكتاب المقدس الى اللاتينية عن العبرية واليونانية، وتُعرف هذه الترجمة بـ (Vulgate)، وظلت معتبرة الى ما يقرب من الف عام. وكان زاهداً معتكفاً ومن انصار البتولة وعدم الزواج:

Dic. of Philosophy and Religion, Reese.

العذارى، نراه ورغم معارضته الشديدة لبعض المتقدمين والمعاصرين، يتحدث في كتاباته بلهجة جارحة ضد النساء، ويقول مثلاً: «لتمتد يدنا الى الفأس كي نقطع جذور شجرة الزواج العقيمة».

وطالما استُند الى كتاباته في العصور الوسطى كي يُستنبط منها ان المرأة تعني الضعف والشر[١].

ودافع القديس جون كريسوستوم[٢] عن هذا الرأي ايضاً ويقول: «لا يوجد بين جميع الحيوانات الوحشية، ما هو أضر من المرأة».

ومنذ عهد غريغوريوس السادس راح يؤكّد على خطورة المرأة بشكل اكثر جدية. وأخذت كتابات آباء الكنيسة تتحدث عن هبوط درجة المرأة ودناءتها.

وتشبث القديس امبروس[٣] في تبرير تبعية المرأة للرجل بنفس الدليل الذي تشبّث به بولس في رسائله: «حواء هي التي ساقت آدم نحو المعصية وليس آدم هو الذي ساق حواء. لذا من العدل ان تقبل المرأة من قادته الى المعصية حاكماً عليها»[٤].

وسعى مؤلفو القرون الوسطى للبرهنة على ان الدعوة الى المساواة بين المرأة والرجل، كلام كافر. ولابد للزواج ـ الذي يمثل حجر أساس المجتمع ـ ان يعكس

---

(١) Quated in: Mclaughlin, Eleanor, (Equality of Souls, Inequality of Sexes) in Medieval Theology ed. Rosemary Reuther, New York, Simon and Schuster, 1974.

(٢) John Chrysostom (٣٤٧ـ٤٠٧) يعرف بفم الذهب، كان واعظ صدر المسيحية لما كان لديه من تنبؤات ثم اصبح بطريرك القسطنطينية (٣٩٨ـ٤٠٣). له العديد من التفاسير على الكتاب المقدس، ورسالة عنوانها «القسيس»:

Dictionary of Religion, ed. Jonathan Z. Smith, Harpert San Francisco, 1995.

(٣) Ambrose (٣٣٩ـ٣٩٧)، اسقف ميلانو، وأحد آباء الكنيسة الأربعة الى جانب جيروم واوغوسطينوس وغريغوريوس الكبير. وكان واعظاً ومنافحاً مشهوراً عن النصرانية. ولعب دوراً كبيراً في ايصال الفكر اليوناني بالمسيحية. وتعود جل شهرته لنجاحه في تنصير القديس اوغوسطينوس. (Ibid.).

(٤) نقلاً عن: دوبوار، سيمون، الجنس الثاني، ترجمة قاسم صنعوي، ص ١٣٧.

سلسلة مراتب العالم، أي اطاعة المخلوق للخالق. فالشيطان هو الذي عمل بمكره وحيلته على دفع آدم للنظر الى حواء وكأنها تماثله، فأخذ بكلامها وارتكب المعصية.

فنظام العالم من وجهة نظرهم ليس يقوم فقط على مراعاة سلسلة المراتب والدرجات بين المرأة والرجل، وانما يتضمن بالتلميح التفاوت بين طبيعتيهما. فكتاب الخلقة يحكم المرأة باطاعة الرجل. غير ان آباء الكنيسة ذهبوا الى أبعد من ذلك ايضاً فشبهوا المرأة بالحية والشيطان.

وطالما نلاحظ في مواعظ القرن الثاني عشر الميلادي ان المرأة موجود شرير ينزلق كالحية السامة، كما انها فضولية وثرثارة وسيئة الخلق[١].

وورد في حكم مجمع رجال الكنيسة الذي عقد في ماكون[٢] ان المرأة محرومة من جوهر الروح (= ame = مبدأ الحياة، الروح)، وتتحول النساء اللائقات في يوم المعاد الجسماني الى رجال قبل الدخول الى ملكوت السماء[٣]!

يقول أرسطو: ظهر الجنس الانثوي بفعل وجود نقص في الطبائع. وعلينا النظر الى المرأة كموجود يعاني من نقص طبيعي[٤].

وحذا توما الأكويني[٥] حذوه وقال بأن المرأة عبارة عن رجل ناقص[٦]. وهذا هو ذات الشيء الذي ذكره سفر التكوين بصورة رمزية وقال بأن حواء هي عظم

---

(١) Quoted in: Blamires, Ibid, p.146.

(٢) Macon. عقد في عام ٥٨٥ مجمع كان من ضمن الموضوعات التي بحثها هو: هل للمرأة روح وجوهر انساني كالرجل ام لا؟

(٣) نقلاً عن: ستاري، جلال، صورة المرأة في ثقافة ايران، ١٩٩٤، ص ٢٣٨ و ٢٣٩.

(٤) Aristotle, Generation of Animals, iv, 2 (706 - b - 33).

(٥) Thomas Aquinas (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤)، لاهوتي وقديس دومينيكاني في العصر الوسيط. ويعود جل شهرته الى أخذه بفلسفة ارسطو وسعيه لتفسيرها والدفاع عنها. وقد وفّق بينها وبين الفكر المسيحي:

Dic. of Philosophy and Religion, W. Reese.

(٦) Aquinas, Summa Theologica, Vo1. 1, p. 489.

اضافي استُلّ من آدم. فالبشرية وفق هذه النظرة مذكّرة، والرجل ينظر الى المرأة كشيء منتسب اليه وليس كموجود مستقل[١].

وتأثر توما الاكويني بفكرة الكتاب المقدس فاعتبر دور المرأة في الأسرة والمجتمع دوراً تابعاً وهامشياً ويعترف بالدور المقتدر للرجل في المجتمع ويصفه بأنه دور قد فوّضه الله اليه[٢].

الرجال اليهود يرددون في دعائهم الصباحي: «تبارك الله ربنا ورب العالمين لأنه لم يخلقنا اناثاً»، في حين تدعو نساؤهم قائلات: «تبارك الله الذي خلقناكما أراد».

ومن بين الامور التي كان افلاطون يشكر الآلهة من اجلها هي انه لم يُخلق عبداً، ولم يُخلق امرأة[٣].

خلفية الأفكار اليهودية واليونانية وتأثيرها على الفكر المسيحي، أدت الى اعتبار تفوق الرجال على النساء وكأنه حقّ فرضه الله. وقد رسمت الكنيسة المسيحية دور المرأة كالتالي: لابد لها كفرد أن تسعى لكسب الكمال الاخلاقي، ولابد لها كعضو في المجتمع البشري ان تلتحق بالرجل. وبما ان الله قد منح التفوق للرجل طبقاً لكلام بولس الرسول: «الرجل صورة الله ومجده، والمرأة مجد الرجل»[٤]، فالرجل زعيم الاسرة، ولابد من العمل بهذا التفوق في الاسرة. فالرجل قد دُعي بصورة الله لأن لديه القابلية على ان يحكم العالم: «وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على أسماك البحر وطيور السماء والبهائم وجميع وحوش الارض وجميع الحيوانات التي تدب على الارض» (سفر التكوين، ١ / ٢٦).

والمرأة شريكة في هذا التفوق بشكل غير مباشر وذلك تحت اشراف الرجل

---

(١) دوبوار، مصدر سابق، ص ٣١.

(٢) Summa. Theologia, 1, ad 2 um.

(٣) نقلاً عن: دوبوار، مصدر سابق، ص ٤١.

(٤) العهد الجديد، الرسالة الاولى الى أهل قورنتس، ١١ / ٧.

وبصفتها زوجة له وشريكة حياته. ويستنبط بولس مكانة المرأة الاجتماعية في المجتمع المسيحي والكنيسة من هذا الأمر بالذات. وعليه فالمكانة الطبيعية للمرأة لابد أن تنشأ بالضرورة من الاسرة[١].

ورغم هذا فقد كانت هناك نساء بين الشهداء والزهّاد والمتريضين، وقد أثنى رجال الكنيسة الكاثوليك عليهن. فكانت هناك خمس نساء بين شهداء «سكليتان»[٢] الاثني عشر في عام ١٨٠. وكانت هناك جارية باسم بلاندينا[٣] وسيدتها ضمن شهداء ليونز وفينا في عام ١٧٧. وكانت هناك شهيدتان معروفتان في شمال افريقيا باسم بربيتوا وفليسيتاس[٤]. وقد كتبت بربيتوا بعض المعلومات الخاصة بها وبصاحبتها.

ويُعد الزهد والتريض طريقاً آخر للاعتراض على القيم الاجتماعية السائدة. فطبقاً لرأي كتّاب عهد الرسل والمبلغين الدينيين، نظراً لتنصر الامبراطورية الرومانية رسمياً في القرن الرابع، لم يكن بالامكان اختيار طريق الشهادة، ولذلك فتح الزهد صفحة جديدة في مجابهة النصارى للظلم والوان الاستخفاف بالقيم الخلقية.

وحظي هذا الاسلوب بالاشادة من قبل بعض كتّاب صدر المسيحية مثل بولس الرسول[٥]. وأخذ يُنظر الى هذا الاسلوب في بعض البلاد مثل سوريا، على انه اكثر أنماط الدين المسيحي إصالة، وبلغ ذروة ازدهاره في القرن الرابع.

وهناك العديد من الزاهدات في الأدبيات المسيحية، ذُكر انهن قد شيّدن الصوامع والبيع ومنهن: مريم أُخت باتشوميوس[٦]، وملانيا الكبرى، وبولا،

---

(١) See Rossler, William, (Women) in Catholic Encyclopedia, ed. Kevin Knight, 1999.

(٢) Scillitan.

(٣) Blandina.

(٤) Perpetua and Felicitas.

(٥) راجع الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ٧.

(٦) Pachomius.

وماكرينا، وأُخت غريغوريوس النيسائي[١]، وملانيا الصغرى، وقيصريا شقيقة قيصريوس.

فهؤلاء النسوة، ومضافاً الى تشييدهن للصوامع، فقد كنّ يدعمنها مالياً ايضاً.

وحلت الحياة الرهبانية محل الزواج لدى بعض فتيات العوائل الأرستقراطية التي لم يكن أمامها طريق سوى الزواج. واقترن هذا النمط من الحياة بالعبادة، والدراسة العلمية، والسفر، وربما ايضاً اقامة العلاقات الحميمة مع رجال الكنيسة ومديري الصوامع. وبذلك فقد وفّرت بعض جوانب حياة صدر المسيحية للنساء فرصة الاختيار واكتساب الاحترام.

وتوفر مجال ضئيل من الرقي لسائر النساء. فتقبيح الطلاق حتى من الرجال ذوي السلوك المشين، واستنكار الزواج الثاني في جميع الأحوال والاوضاع، وتحريم منع الحمل واجهاض الجنين، والحث على الاستسلام للزوج، قد حدّد حياة المرأة كثيراً، حتى اكثر مما هو متعارف في المجتمعات غير الدينية أو الثقافة اليونانية[٢].

فالكنيسة ترى ان الطبيعة لم تتغير بظهور المسيح، وانما تماثلت الى الشفاء وأصبحت مضيئة. وبذلك فقد استمرت الاختلافات الجوهرية بين المرأة والرجل وكذلك وظائف كل منهما. وبقيت المرأة تابعة للرجل: فهي بمقدورها ان تعزز من مكانتها وشأنها عن طريق الارتباط بالرجل والانصياع له. وبامكانها الاشتراك في النشاطات المدنية بواسطة الزوجية والامومة. وبالنتيجة لم يكن بمقدور المرأة ان تحقق لنفسها الاقتدار والقوة في اطار المسيحية إلّا في بعض الحالات الشاذة النادرة.

فلا وجود لرقي المرأة ضمن اطار مناصب السلك الكهنوتي، ورغم هذا فقد كان هناك نفوذ عظيم وغير مباشر لبعض النساء على الكنيسة[٣] مثل هيلديغراد

---

(١) Gregory of Nyssa.

(٢) See: Clark, Ibid, Encyclopedia of Early Christianity.

(٣) See: Rossler, Ibid, Catholic Encyclopedia.

البينغنية[١]، وكاترين السينوية[٢]، وتريزا الأفيلية[٣].

ويمكن البحث عن مظهر آخر من مظاهر أهمية المرأة في المسيحية في وجهات نظر الكنيسة المتباينة ازاء السيدة مريم أم السيد المسيح. فاحترام المرأة في الواقع يرتفع ويهبط على اساس احترام مريم العذراء. فهي بتول مباركة وأعظم ام من وجهة نظر الكنيسة، وتنظر اليها كـ «ام الله»، والوعاء الذي استقبل روح القدس فأتاح تجسّد الكلمة. وقد استطاع المسيح من خلالها ان يفدي. ولذلك تعتقد الكنيسة بفائدة معنوية في رسم صورتها.

الكنيسة الارثوذكسية تعتقد ان صورة المسيح تعبّر عن الله الذي تجسد في شكل مرئي ومحسوس. وصورة السيدة مريم والقديسين، تكشف عن الالوهية البشرية التي أُتيحت من خلال المسيح. ولذلك ينظر الفن المسيحي الى مريم العذراء كأسمى وأزكى رمز للمرأة والأم[٤].

والمقام الذي تضفيه الالهيات المسيحية والمذهبان الارثوذكسي والكاثوليكي على السيدة مريم، ناشئ ولا شك من كونها «ام المنجي». ولذلك تُعد بين القديسين شخصية بارزة. وقد أُشير اليها مراراً في العهد الجديد، ولعبت دوراً مهماً في انجيل لوقا ويوحنا. وكان لها نصيب كبير في ازدهار الالهيات في صدر المسيحية بعد عصر العهد الجديد.

وفي القرن الثاني ـ الذي يُعد عصر الرسل الدينيين ـ[٥] تمت الاستفادة من جميع مضامين العهد الجديد بشأن مريم، والعمل على شرحها وتفصيلها. غير ان معظم الاهتمام بها في هذا القرن كان يقتصر على دائرة ارتباطها بالمسيح.

---

(١) Hildegrad of Bingen.

(٢) Catherine of Siena.

(٣) Tresa of Avilla.

(٤) See: Dictionary of Religion, Smith, p.821 and 1071.

(٥) Patristic era.

ونلاحظ أقدم من تحدث عنها هو ايغناتيوس[١] في رسائله والذي انبرى للبرهنة بقوة على حقيقة التجسد رداً على الافكار القائلة بأن المسيح لم يتجسد في جسم. وأصر من خلال ذلك على امومة مريم وحقيقة انجابها لعيسى: «ربنا، عيسى المسيح، وُلد من رحم مريم طبقاً للمشيئة الالهية. فهو قد وُلد حقاً كابن لمريم والله».

ويشير «يوستين الشهيد»[٢] ـ والذي كان من أعظم المدافعين عن المسيحية في القرن الثاني ـ الى دور مريم في التجسد، إلّا انه يؤكد بشكل اكبر على دورها في الفداء. ويشير في كتاب «حوار مع تريفو»[٣] الى الدور المتشابه الذي مارسته كل من مريم وحواء، وهو في الواقع تفصيل للمقارنة التي قام بها بولس بين آدم والمسيح. فقد قارن يوستين طاعة مريم بتمرد حواء، وكتب على ضوء انجيل لوقا[٤]: «أصبح المسيح انساناً بواسطة العذراء كي يُقضى على العصيان الناشئ عن الحية بواسطة نفس الاسلوب الذي ظهر به». أي مثلما ظهرت المعصية الالهية عن طريق المرأة التي خدعها الشيطان، لابد ان تزول عن طريق المرأة ايضاً.

ويُعتبر يوستين اول من دعا مريم بالعذراء بعد لوقا[٥].

ووسّع ايرينايوس[٦] ـ وهو اعظم لاهوتي في القرن الثاني ـ الفكرة السابقة، وانبرى لتوضيح التقابل بين مريم وحواء ضمن اطار الهياته التي تقول بتكرار الظهور[٧]. فهو يرى ان جميع الناس منطوون في المسيح بحيث ما كان قد ضاع في آدم ظهر في المسيح ثانية.

---

(١) Ignatius.

(٢) Justin Martyr.

(٣) Dialogue With Trypho.

(٤) انجيل لوقا، ١ / ٢٦ ـ ٣٨.

(٥) انجيل لوقا، ١ / ٢٧.

(٦) Irenaeus.

(٧) Recapitulation.

وتلعب مريم في هذه الفكرة دوراً شبيهاً بدور حواء. فحواء عصت في ذات الوقت الذي لازالت فيه عذراء فكانت سبباً في موتها وموت كافة افراد الجنس البشري. وعَرضَ المسيح الخلاص على بني آدم بواسطة اعادة صورة الله التي ضاعت في آدم. فمثلما تدحرج العنصر البشري في وادي الموت على يد عذراء، تخلص منه على يد عذراء أُخرى. السيدة مريم طبقاً لهذه الرؤية لم تكن اماً عذراء للسيد المسيح فحسب، وانما كانت شفيعة ايضاً:

«لابد ان يظهر آدم ثانيةً في المسيح. فالقابلية على الفناء لابد ان تتبدد في اللافناء. ولابد أن تتبدد حواء في مريم. ومن اجل ان تدافع عذراء عن عذراء اخرى، فلا بد ان يُبدَّد العصيان المحض بالطاعة المحضة. وشراء الذنوب يتم عن طريق المسيح وفيه، وهو الذي وُلد من ام طاهرة وخرج من رحم عفيف وهب الحياة ثانية للانسان ووجهه نحو الله».

ولاحق «ترتوليان» في القرن الثالث موضوع التقابل بين مريم وحواء. فحواء العذراء أصغت لكلام الحية فأوجدت الموت. ومريم العذراء أصغت لكلمة جبرئيل فبعث الله كلمته في رحمها. وقال ترتوليان ايضاً: «مثلما خُلق آدم الاول من التراب البِكر، وهو التراب الذي لم تُزرع فيه بذرة، كذلك خُلق آدم الجديد من ارض مريم البكر».

وانصبت اغلب النقاشات المسيحية منذ القرن الثالث وحتى القرن الخامس، على تجسد السيد المسيح كموجود بشري والهي. ونجم عن هذه المناقشات الالتفات الى امور جديدة على صعيد دور السيدة مريم كأُم.

أُعلن عام ٤٣١ في مجمع افيسوس[١] ان عنوان «مُنجبة الله» عنوان يليق بمريم، وحظي بقبول المسيحيين من اتباع الكنيسة الارثوذكسية في الشرق والغرب. ويُشار الى هذا العنوان بالانجليزية بمفردة (Hippolytus) وباليونانية بمفردة (Theotokas).

---

(١) Council of Ephesus.

ويرى هذا المجمع ان الشخص الذي انجبته مريم هو «الله» حقاً مثلما هو «انسان» حقاً.

وبعد سنوات وحينما وصف القائلون بوحدة طبيعة المسيح عنوان (Theotakas) بأنه بدعة وانكار لبشرية عيسى، اكد اتباع الارثوذكسية من جديد على صحته إلّا انهم أبدلوه الى «ام الله»، وهو ما يعبّر عن امومة مريم المادية والمعنوية. ويعود شيوع هذا العنوان بشكل خاص الى جهود «سيريل الاسكندراني»[١] (ت ٤٤٤)، والذي استعمله خلال مناظراته مع نسطوريوس[٢] (ت ٤٥١).

ولم يوافق نسطوريوس على عنوان (Theotokas) واعتبره غير صحيح، وانما وافق على عنوان (Christotokas).

اما في الغرب، فتتصل مريم غالباً بالكنيسة. فبعد ارينايوس ـ في نهاية القرن الثاني ـ قدّم كثير من آباء الكنيسة مريم ضمن اطار كنيسي. فيرى ارينايوس ان مريم قد هتفت متنبئة باسم الكنيسة، حينما أجابت على تحايا اليصابات بنشيد خاص، كما ورد في انجيل لوقا.

وينظر أريغن الى مريم بصفتها اسوة من حياة المسيح لاسيما من حيث بتولتها. ولديه ايضاً تفسير كنيسي لكلمات المسيح لأمه وهو على خشبة الصلب، طبقاً لانجيل يوحنا[٣]: «يمكن القول بشأن جميع الكاملين بأنهم ليسوا احياء، عدا المسيح الذي هو حيّ فيهم؛ وبالنتيجة يمكن فهم رسالة عيسى الى مريم بشأن تلميذه الحبيب كالتالي: هوذا ابنك المسيح».

فالتلميذ الحبيب من وجهة نظر اريغن ليس ابناً اضافياً، وانما هو الشخص الذي يسكن فيه ابن مريم فقط.

---

(١) Cyril of Alexandria.

(٢) Nestorius.

(٣) انجيل يوحنا، ١٩ / ٢٥ ـ ٢٧.

وهـذا التأكيد على بتولة مريم الدائمة، مضمون يميل اليه «كليمنت الاسكندراني»[١] ايضاً. بل يذهب حتى «اثانازيوس»[٢] لاطلاق اصطلاح «دائمة البتولة»[٣] على مريم. وأخذ بهذه التسمية آباء الكنيسة الارثوذكسية في الشرق والغرب منذ القرن الخامس.

بتولة مريم التي يُنظَر اليها كأسوة للحياة المسيحية، كان يعتقد بها الاسكندرانيون وكذلك الكبدوكيون، بل ونجد الحديث عنها مفصلاً في كتابات امبروسيوس واوغوسطينوس.

يقول اوغوسطينوس ان دور الكنيسة مثل دور مريم وهو ان تحمل على يد روح القدس وتلد ابناء جدد. ويؤكد كثيراً على ايمان مريم ويقول: «لقد آمنت مريم، وعمل فيها ما آمنت به. فتعالوا كي نؤمن، من اجل ان يفيدنا ما تمّ فيها».

ما كان مهماً بالنسبة لاوغوسطينوس هو ان مريم كانت من الحواريين ومن اهل الايمان قبل ان تكون اماً للمسيح. فهي قد بورك فيها لأنها آمنت بالمسيح لا لأنها حملت به. فاذا كان المسيح قد وُلد من رحمها فقط ولم يولد في قلبها فلن يعود ارتباطه المادي بها بأية فائدة عليها.

وعدّ القديس أمبروسيوس مريم كنيسةً انجبت جميع المسيحيين بانجابها للمسيح. فهؤلاء المسيحيون قد تكونوا في رحمها مع المسيح.

وفي القرن السادس راح يدور الحديث في الحلقات الأرثوذكسية عن العروج الجسماني لمريم من قبل غريغوريوس التورسي[٤] (ت ٥٩٤). وكان هذا الرأي قد ورد من قبل ـ لاسيما بعد القرن الرابع ـ في بعض الكتب غير المعتبرة.

ويبدو ان الايمان بعروج مريم كان سائداً في الشرق والغرب ودون أن يثير اية

---

(١) Clement of Alexandria.

(٢) Athanasius.

(٣) Ever Virgin.

(٤) Gregory of Tours.

معارضة، حتى القرن السادس عشر. وكانت فكرة «الحمل الطاهر»[١] لمريم، من الموضوعات التي كان هناك جدال حولها خلال العصور الوسطى.

ففي بريطانيا كتب «ايدمير»[٢] مقالاً للدفاع عن هذه الفكرة إلّا ان استاذه القديس آنسيلم[٣] رفضها. وقد قال ايدمير ان مريم كانت طاهرة ومعصومة منذ لحظة الحمل بدون زواج وبدون أن يلصق بها عار الذنب الذاتي. واستدل على ذلك بقوله: بما ان الله قادر على ذلك وبما ان هذا العمل عمل عظيم، فقد فعله الله[٤].

وانبرى ديونس سكوتس[٥] لتفصيل هذه الفكرة من خلال الاصطلاحات المدرسية، مما ادى الى حدوث نقاش طويل. ثم دافع عنها فيما بعد الفرنسيسكان في مقابل الدومينيكان.

والايمان بشفاعة مريم، ومن ثم الأدعية المباشرة لها، من المحتمل ان يكون أمراً موغلاً في القدم. ولذلك فقد ترسخت ـ بعد مجمع افيسوس ـ عبادة «ام الله»، حتى حل اسم مريم محل اسم الله في نهاية بعض الصلوات الدينية.

غير ان عدم وجود معلومات كافية عن حياتها ـ لاسيما طبيعة وفاتها ـ في العهد الجديد، ادى الى ظهور بعض التقارير غير المعتبرة بشأنها. فقد ظهر كتاب في القرن الثاني عنوانه: (Protevangelium of James) يتحدث عن ولادة مريم بنفس الطريقة التي وُلد بها عيسى، ثم أُضيف فيما بعد الى مريم عروجها الى السماء وذلك منذ نهاية القرن الرابع.

وقد دار الحديث في بادئ الأمر عن عروج روحها فقط.

ومنذ زمان غريغوريس التورسي الذي سجّل العقائد المسيحية بالاستلهام من الآثار غير المعتبرة، شاعت فكرة حمل جسد مريم بواسطة السحاب الى الجنة،

---

(١) Immaculate Conception.

(٢) Eadmer.

(٣) Saint Anselm.

(٤) هذا شبيه ببرهان اللطف في الكلام الاسلامي.

(٥) Duns Scotus.

فانضمت الروح الى الجسد، فأصبحت مريم مسرورة الى جانب المسيح[١].

وهكذا نلاحظ ان تكريم مريم كامرأة انقذت البشرية ـ في مقابل حواء التي جرّت البشرية الى السقوط ـ دليل على ان تلك المرأة التي نُظِر اليها كمشؤومة، بمقدورها ان تكون واسطة للخلاص. ورغم هذا فان الاحترام الذي كانت تحظى به مريم ـ ومن ثم المرأة ـ اخذ يضمحل بمرور الزمن، فأصبحت مريم تدريجياً امرأة ميزتها الانثوية الوحيدة هي انها أمٌّ كثيرة المعاناة، ومنفعلة، وضحية[٢].

---

(١) See: Leverdierre, Eugene. (Mary) in Encyclopedia ot Early Christianity and Art; (Mary) in The Oxford Dictionary of The Christian Church, ed; F.L. Cross and E.A. Livingstone, Oxford University Press, Second Edition, 1988.

(٢) ستاري، مصدر سابق، ص ٦١.

الفصل الثالث

المرأة من منظار العرفاء المسلمين والمسيحيين

العرفاء المسلمون

١ ـ الشيخ أحمد الجامي (٤٤٠ ـ ٥٣٦ هـ)

ابو نصر احمد بن ابي الحسن النامقي الجامي المعروف بـ «زنده بيل»، ولد في نامق التابعة لخراسان. وينتمي الى اسرة عربية من اليمن. من ألقابه: شيخ الاسلام، وقطب الأوتاد، ومعين الدين، ومرشد جام.

بدأ حياته بالبطالة وشرب الخمر، ولم تتوفر له فرصة التعلم. واستمر على هذا المنوال الى ان بلغ الثانية والعشرين من العمر حيث حدث له حادث ادى الى ايجاد تغيير في حياته، فتاب الى الله واعتزل الناس. واستمر في حالة التريض والتفكر ومطالعة الآثار الصوفية الأدبية والعلمية على مدى ثمانية عشر عاماً.

وحينما بلغ الأربعين كسر طوق عزلته وخلوته وانبرى للوعظ والارشاد. وظهر متعصباً في اجراء الاحكام الشرعية وعرض الافكار العرفانية.

توفي في مدينة جام ودفن فيها بالقرب من خانقاهه. آثاره جميعاً مؤلفة بلغة

فارسية بسيطة وسلسة، وتعبّر بشكل واضح عن عقائده الصوفية العرفانية[١].

قيل انه لم يكن زاهداً معتزلاً وتاركاً للذائذ الدنـيا أو واقـعاً في قـبضة الألم والعناء، وانما كان ينتفع بجميع لذائذ الحياة الظاهرية، ويوصي الآخـرين بـالتمتع بجميع النعم الالهية في هذا العالم ضمن حدود الشريعة. فكان لديه ثمـاني نسـاء، تزوج بإحداهن وهو في الثمانين من عمره، وكان لديه أربـعون ابـناً ... غـير ان تعامله مع نسائه كان قاسياً وعنيفاً. فقد أشلّ احداهن لأنها خرجت مع قريبة لها الى بستان العنب بدون اذن منه. وفقأ عين أُخريين لأنهما نظرتا اليه وهو في خلوته من ثقب الباب[٢].

ويمكن ان يكون هذا السلوك العنيف ناجماً عن طبيعة نظرته الى حواء والمرأة والزوجة بشكل عام. فقد حذّر في «مفتاح النجاة» من خطر المـرأة وقـال بأنـه يخشى دائماً ان تلحق الضرر بالرجل مثلما ألحقت حواء ذلك الضرر بآدم. ومـن أفكاره ضمن هذا المجال:

«هكذا هو الانسان لا يعيش بدون مؤنس. لذلك لابد له أن يبحث عن قرين. فإذا ما وجد قريناً حسناً حصل على سعادة الدارين، اما اذا وقع مع قرين سيئ لم يكن له نصيب سوى الهلاك. ... فكل آفة تعترض الرجل، انما تأتي اليه من القرين الطالح، وكل خير يجده، انما يأتي اليه من القرين الصالح. ولا يعتمد صلاح القرين أو عدم صلاحه على الأصل والنسب والقرابة، اذ لم يكن أحـد أقـرب الى آدم صلوات الله عليه من حواء، ولكن ماذا فعلت حواء بآدم؟»[٣].

هذه النبرة التي تحدث بها أحمد الجامي تعبّر عن نوع من عدم الثقة بالمرأة. كما انها تكشف عن أخذه بالرواية المسيحية التي تقول بأن حواء هي التي خـدعت

(١) راجع: احمد جام، مفتاح النجاة، تصحيح علي فاصل، ١٩٦٨، المقدمة.

(٢) الغزنوي، الخواجة سديد الدين محمد، مقامات زنده بيل، تحـقيق حشـمة الله مـؤيد السـنندجي، ١٩٦٦، ص ٤٣ ـ ٤٥.

(٣) مفتاح النجاة، ص ١٨٧ و١٨٨.

آدم، وأن هذا العمل الذي قامت به يطال جميع النساء، أي انه قدّم حواء كنموذج للمرأة التي ألقت زوجها في فخ المحنة.

غير ان الشيخ أحمد كانت لديه تجربة من الحب المجازي التي توفر له الفرصة لادراك حالات الحب الحقيقي. وقد ذكر هذه التجربة ذكراً حسناً. فقال في حبّه لامرأةٍ عبّر عنها بالمستورة، في مطلع شبابه، ما يلي:

«قبل أن اتوب، كان قلبي قد وقع في غلّ مستورة. وبلغ حبي لها بحيث عطّلتني عن كل عمل. كنت اكتم حبي على مدى ثلاث سنوات، ثم غلب عليّ. بقيت خمسة أعوام في حب تلك المستورة. استولى علي النوم في ليلة ما، فنهضت ابكي حتى أُغمي علي. قلت: وا أسفاه! لقد ضعف حبي فهيمن عليّ سلطان النوم. فخلال هذه السنوات الخمس، لم اتنفس بدونها، وكنت احبّ كل ما كان من محلتها وحيّها. كنت أغسل الوجه من اجلها، وارتدي الثوب من اجلها، وأُكرم الآخرين من اجلها، وأُحسِن الى الناس من اجلها، عسى ان يذهب أحدهم اليها ويقول: أحمد نعم الشاب!

كانت مع قلبي في الصلاة، ولم أر في السفر والحضر والخلاء والملاء شيئاً غير خيالها. كلما طرق اذني صوتها غبطت اذني جوارحي السبع. وحينما كان الناس يهجعون ليلاً، كنت أطوف كالخفير حول حيها.

ومن هذه الواقعة فهمت ما هو لونُ عمل أحباء الله. ومن لم يكن لديه حب من هذا النوع، فلن يعرف الحب ولا لذة الحب. فحينما أتيتُ الى الطريق طالما أخذت تنازعني نفسي قائلة: ما هذا؟ فكنت أقول لها: انني حينما احببت تلك المرأة لم أعد انظر في وجه أية امرأة اخرى. فاذا كان الله اقلّ في قربه اليك من تلك المستورة، فهذا كفر مطلق ولابد من اعلان الايمان من جديد»[1].

الشيخ احمد يرى ان هذه التجربة قيّمة الى درجة بحيث ان من لم يجرّب هذا اللون من الحب، لظل جاهلاً بعوالم الحب الحقيقي. وقوة هذا الادراك كانت عظيمة

---

(١) الغزنوي، مصدر سابق، ص ٣٥٠.

لديه بحيث قدّمت لديه الحجة الكاملة في صراعه مع النفس الامارة، لأنه سبق أن ذاب في أتون الحب المجازي، الأمر الذي وفّر له القابلية على دفع نفسه لقطع الطريق.

٢ ـ الامام محمد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ)

يُعد الغزالي من أشهر العلماء والعرفاء المسلمين وذاع صيته في الشرق والغرب، ونال في عصره أعلى المقامات العلمية. وبعد ان شعر بعدم الرضا في نفسه، هاجر من وطنه، ومارس على مدى عشر سنوات تهذيب النفس وصقلها. ثم عاد الى الوطن فانبرى في تأليف الكتب العرفانية.

عُرِف الغزالي في التاريخ الاسلامي كعارف أشعري المسلك ملتزم بالشرع وحفظ السنن والحدود. ووردت معظم وجهات نظره حول المرأة في كتابيه المهمّين «احياء العلوم» و«كيمياء السعادة». واعتمد في معظم آرائه على السنة النبوية والأحاديث. وتجلى في تلك الآراء ايضاً غلبة النظرة العرفية.

وتمثل رواية العهد القديم التي يحوم حولها الشك، اساس الرؤية التي لدى الغزالي للمرأة، فقد أورد ان ابليس قد انطلق يوماً الى موسى عليه السلام وحذّره من ثلاثة أشياء من بينها النساء. كما نقل ايضاً ان عمر بن الخطاب كانت له امرأة يحبها كثيراً إلّا انه طلّقها حينما صار خليفة خوفاً من ان تشفع في شيء ثم لا يجد في نفسه القوة على رفض شفاعتها[١].

وتحدث الغزالي في موضع آخر عن المرأة وكأنها شيطان، أو ان الشيطان هو الذي أخرجها عن الطريق. فحينما تناول الخصال التي عاقب الله بها النساء، قال بأن حواء حينما عصت الله في الجنة عاقب الله النساء بعشرة اشياء. وقال ايضاً بأن النساء على عدة طباع: البعض كالخنزير، والبعض كالقرد، والبعض كالكلب، والبعض كالبغلة، والبعض كالعقرب، والبعض كالفأرة، والبعض كالحمامة، والبعض

(١) الغزالي، كيمياء السعادة، ج ١، ص ٥٤١ و٣٧٢.

كالثعلب، والبعض كالنعجة. ووصف المرأة التي لها طبع النعجة بأنها مباركة لأنها كالنعجة، كل شيء فيها نافع[١].

طبعاً ان العصيان الذي حدث في الجنة لم يكن خاصاً بحواء فقط وانما شمل آدم ايضاً، ما لم يقل الغزالي بأنها هي التي خدعت آدم ودعته الى معصية الله. كما ان الشبه بين الصفات الذميمة والصفة الغالبة على الحيوانات، أمر لا يختص بالنساء فقط، وانما يشمل الرجال ايضاً، ما لم ينظر الغزالي الى تلك العقوبة وكأنها واسعة الى درجة بحيث ادت الى انحطاط جميع النساء!

الغزالي ومن خلال الاستناد الى بعض الأحاديث يعتبر النساء وسائل للشيطان، ويحذر الرجال منهن كثيراً، وينقل عن الرسولﷺ أحاديث يصف فيها النظرة الى المرأة بأنها سهم من سهام ابليس ويحذر من فتنتها. كما ينقل قولاً لابليس يحذر فيه موسى من الاختلاء بالمرأة ويقول له بأنه ما اختلى رجل بامرأة إلّا كان معهما[٢]. ويؤكد بأن كل ما يعاني منه الرجال من المحنة والبلاء والهلاك، انما يلحق به من المرأة، وقلّما يبلغ الرجل منها مراده[٣].

ويرى الغزالي ان المرأة اضعف من الرجل من حيث الجسم والروح، ولهذا فهي آلة في يد الشيطان، ويوصي بضرورة ان تقع تحت سيطرة الرجل، وان تكون عبدة له من اجل الحيلولة دون شرها[٤]. بل يُفهم من كلام الغزالي ان المرأة ليست عبدة الرجل فحسب، وانما يوصي باستعباد الرجل للمرأة ويعتبر هذه العبودية أمراً مطلوباً.

وحينما يتحدث الغزالي عن النكاح، يعلن عن رأيه بشكل أكثر تفصيلاً. ويعبّر عن اعتقاده بأنه غير ضروري للمريد في بادئ الامر، بل يحول دون ترقيه:

---

(١) الغزالي، نصيحة الملوك، ص ٢٧١ و٢٧٣ و٢٧٥.

(٢) الغزالي، كيمياء السعادة، ج ٢، المهلكات، ص ٥٤ و٥٦ و٦١.

(٣) الغزالي، نصيحة الملوك، ص ٢٨٥.

(٤) الغزالي، كيمياء السعادة، ج ١، ص ٣١٦ و٣٢٢.

«اعلم ان المريد في ابتداء امره ينبغي ان لا يشغل نفسه بالتزويج فان ذلك شغلٌ شاغل يمنعه من السلوك ويستجره الى الأنس بالزوجة. ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله، ولا يغرنّه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فانه كان لا يشغل قلبَهُ جميعُ ما في الدنيا عن الله تعالى. فلا تُقاس الملائكة بالحدادين. ولذلك قال ابو سليمان الداراني: من تزوج فقد ركن الى الدنيا، وقال: ما رأيت مريداً تزوج فثبت على حاله الأول ... فشرط المريد الغربة في الابتداء الى ان يقوى في المعرفة. هذا اذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلاً وان قدر على حفظ الفرج، فالنكاح اولى لتسكن الشهوة»[١].

ويتحدث الغزالي في موضع آخر عن آفات النكاح فيقول بأنه يمنع عن طلب الحلال، لاسيا في هذا الزمن الذي يقع فيه المرء في طلب الحرام والشبهة بسبب العيال مما يؤدي الى هلاك دينه وعياله. كما ان القيام بحق العيال امر ليس بامكان احد ان يقوم به إلّا بالخلق الحسن والصبر على محالات العيال وتحمل آلامهم والقيام بتدبير امورهم، وليس بمقدور كل أحد ان يقوم به، مما قد يدفع به الى ايذائهم. كما يبعث النكاح على استغراق القلب والفكر في تدبير امور العيال فيتخلف المرء عن ذكر الله والآخرة والاستعداد لليوم الآخر، وما كان سبباً في الصد عن ذكر الله كان السبب في الهلاك ايضاً[٢].

اذن فالنكاح من وجهة نظر الغزالي يبعث على اشتغال الخاطر والانجرار الى طلب الحرام والوقوع في الشبهة، أو يؤدي الى خسارة الرجل معنوياً من خلال اضطراره الى التعامل السيئ مع المرأة، ولذلك يوصي السالك بالحذر من الزواج وأخذ هذه الآفات بنظر الاعتبار.

ورغم ذلك يرى الغزالي في النكاح فوائد ايضاً منها انه من بين آداب طريق

---

(١) الغزالي، احياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ج ٣، ص ١٠١.

(٢) الغزالي، كيمياء السعادة، ج ١، ص ٣٠٧ و٣٠٨.

الدين كالطعام، كما يعتمد عليه بقاء الجنس الانساني ونسله، وهو أمر لا يتحقق بدون النكاح، ومعنى هذا انه سبب أصل الوجود. وانه ليس من اجل الشهوة وانما خُلقت الشهوة من أجله، كي يستمر النسل ويولد سالكو طريق الدين، ويكثر عباد الحضرة الربوبية وتزداد امة المصطفى ﷺ. ويؤكد الغزالي بعد ذلك على الثواب العظيم الذي يستحقه من يضيف عبداً الى عباد الله، ويقول بأن حق الأب عظيم على الابن لأنه سبب وجوده، كما ان حق الاستاذ عظيم عليه لأنه السبب في معرفته بالطريق[١].

اذن فالغزالي يحصر فائدة النكاح ضمن استمرار النسل والذرية، ويركز على هذا الهدف في توجيهاته للسالك. والواقع هو انه اذا كان الأب سبب الوجود فالأم كذلك ايضاً، غير ان الغزالي لم يشر الى ذلك.

وفي موضع آخر من كلامه لا يعتبر الغزالي الزواج الذي يتم للحصول على الابن، من الدنيا: «ما هو في الدنيا ثلاثة ... الثالث هو من اجل حفظ النفس، ولكن من الممكن ان يكون بقصد الله فلا يكون من الدنيا كالطعام بقصد القوة في العبادة، والزواج بقصد الولد»[٢].

بل حتى حب المرأة اذا كان بهذه النية ولأجل حفظ الرجل من الفساد، يعتبر هذا الحب حباً لله[٣].

ومحصلة ما يذهب اليه الغزالي في مضمار الزواج هو ان اشباع الغريزة الجنسية لا ينبغي ان ينحصر في اطار التناسل، وانما الزواج من زاوية اخرى عبارة عن أمر تذكّر فيه اللذة الجنسية باللذات التي وعد الله بها المؤمنين في الجنة. ومن هنا فاللذائذ الدنيوية مهمة من حيث كونها تهيج الشوق للالتذاذ بلذائذ ذلك العالم

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٠١ و٣٠٢.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٤٤.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٩٤.

الدائمية. وهو ما يجر العبد الى الطاعة والعبادة المستمرة[١].

وتحدث الغزالي في «إحياء العلوم» بالتفصيل عن هذا الموضوع، فقال: «ولعمري في الشهوة حكمة اخرى سوى الارهاق الى الايلاد، وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لو دامت. فهي متشبهة على اللذات الموعودة في الجنان، اذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقاً لا ينفع. فلو رُغّب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة الملك والسلطنة لا ينفع الترغيب. واحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ليكون باعثاً على عبادة الله. فانظر الى الحكمة، ثم الى الرحمة، ثم الى التبعية الالهية كيف عُبِّئت تحت شهوة واحدة حياتان: حياة ظاهرة وحياة باطنة. فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله فانه نوع من دوام الوجود، والحياة الباطنة هي الحياة الاخروية، فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الأنصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام فتستحث على العبادة الموصلة اليها، فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تيسر المواظبة على ما يوصله الى نعيم الجنان»[٢].

وبهذه الكلمات يطرح الغزالي جانباً معنوياً وأخروياً للزواج بامكانه ان يكون عاملاً للترغيب في طاعة الله والحث على عبادته.

وتحدث في كيمياء السعادة عن فوائد النكاح بشكل أوضح وأوسع وحصرها ضمن اطار خمس فوائد: الاولى الولد، والثانية الحفاظ على الدين وردع الشهوة التي هي آلة الشيطان، والثالثة الاستئناس بلقاء النساء، فتعمل الراحة التي تحصل عن ذلك للقلب على تجديد الرغبة في العبادة، لأن المواظبة على العبادة أمر يبعث السأم. ولهذا السبب قال الرسول الأكرمﷺ: «حُبِّب اليّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرّة عيني في الصلاة». والرابعة ان المرأة تكفي الرجل في الطبخ والخياطة والغسيل، لأن الرجل لو انشغل بهذه الامور لتخلّف عن العلم والعمل والعبادة. ولهذا فهي معينة في امور الدين. والخامسة هي ان الصبر على أخلاق

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٠٤.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢٧ ـ ٢٨.

النساء والقيام بمهامها وحفظها في طريق الشرع أمر لا يتحقق إلّا بالجهاد الكامل، ويُعد هذا الجهاد من افضل العبادة(١).

ما يمكن ان يُضاف من هذه الكلمات الى ما سبق ذكره هو انه عدّ اجتماع الرجل بالمرأة باعثاً على انس الرجل وسبباً في راحة قلبه، وهو الأمر الذي حذّر السالك بسببه من الزواج، وكذلك ادارة المرأة لشؤون المنزل وتفرغ الرجل بسبب ذلك الى العبادة والعلم والعمل.

وفائدة الزواج للرجل بشكل عام من وجهة نظر الغزالي هي ان المرأة تنجب له الاولاد، وتنقذه من ألم الشهوة، وتوفر له راحة القلب والاستعداد للعبادة، وتوفر له الوقت للانشغال بالعلم والعمل والعبادة.

وللغزالي وصايا على صعيد اختيار الزوجة، فقال ان المرأة التي يختارها الرجل لابد ان تتوافر فيها الصفات التالية من وجهة نظر السّنة: ١ ـ التقوى؛ ٢ ـ الخُلق الحسن؛ ٣ ـ الجمال الذي يسبب الالفة؛ ٤ ـ المهر القليل؛ ٥ ـ ان تكون ولوداً؛ ٦ ـ أن تكون باكراً؛ ٧ ـ ذات نسب كريم والذي هو الدين والصلاح؛ ٨ ـ ألا تكون من الأقارب(٢).

ولديه وصايا الى الأب الذي يريد ان يزوج ابنته ـ أو الى وليّ امرها ـ ومنها: ان لا يكون الزوج الذي يختاره لها سيئ الخلق، ولا قبيح الوجه، ولا عاجزاً عن النفقة، ولا فاسقاً، وأن يكون على العموم كفواً لها(٣). وهكذا نرى انه يضع تحديد هذه الصفات في يد الأب أو الولي لا في يد الفتاة نفسها.

وتحدث الغزالي عن حق الرجل على المرأة وقال بأن هذا الحق اعظم من حق المرأة على الرجل لأنها من وجهة نظره عبدة أو جارية له، مستنداً في ذلك الى رواية مفادها لو لم يكن السجود إلّا لله لطولبت المرأة بالسجود للرجل.

---

(١) الغزالي، كيمياء السعادة، ج ١، ص ٣٠٢ـ٣٠٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٣١١.

(٣) نفس المصدر، ص ٣١٣.

ومن الحقوق التي ذكرها الغزالي للرجل على المرأة هي ان تجلس في البيت ولا تخرج منه إلّا بأمره، وألّا تجلس امام الباب أو على السطح، وألّا تعاشر الجيران أو تجالسهم أو تتحدث معهم كثيراً، وألّا تقترب منهم إلّا لضرورة، وألّا تذكر زوجها إلّا بخير، وأن تطلب رضاه في جميع الأعمال، وتقتنع بما هو موجود، وألّا تطلب اكثر من ذلك، وترعى حقه اكثر من حق معارفها، وتحفظ نفسها طاهرة عفيفة، وألّا تفتخر عليه بجمالها، وألّا تجحد عمل الخير الذي تجده منه، وألّا تعيب بلا سبب، ولا تغضب، ولا تطالب بالبيع والشراء والطلاق[١].

النقاط التي اوردها الغزالي تدلل على ان المرأة ليست سوى مملوكة للرجل، وانها انما خُلقت من اجل الرجل فقط ومن اجل ان تكون واسطة لاستمرار ذريته. وعليه تتلخص مهمتها التي خُلقت من اجلها في السعي لارضاء زوجها. ويرى الغزالي ان صلاح المرأة في هذا ايضاً وينبغي عليها أن تكون كذلك.

ويوصي الغزالي الرجال بالتعامل الحسن مع النساء، ويستعرض ضمن ذلك بعض النقاط في مضمار علم نفس المرأة، ويطالب الرجل بأن يسلك معها سلوكاً يقوم على اساس هذا العلم. ويروي ضمن هذا الاطار حديثاً يقول بأن النساء مخلوقات من الضعف والعورة، ولذلك يرى ان علاج الضعف هو الصمت، وعلاج العورة هو حبسهن في البيت.

ويحذر الغزالي الرجال من اقامة اية علاقة حميمة مع المرأة ويقول بأن على الرجل ألّا يمزح أو يلعب معهن الى ذلك الحد الذي يودي بهيبته، وألّا يساعدهن على هوى الباطل. ويرى أن الآية التي تقول ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ تجعل من الرجل مسيطراً على المرأة دائماً، وان في النساء اعوجاجاً لابد من علاجه بالسياسة. كما يوصي الرجل بالصبر والاحتمال ناقلاً في ذلك حديثاً يقول بأن المرأة كالضلع اذا قوّمتها انكسرت. كما اورد حديثاً عن النبيﷺ قاله حينما حضرته

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٢٢ و٣٢٣.

الوفاة اوصى فيه بالصلاة، والعبيد، والنساء[١].

وكتب بشأن مشاورة النساء قائلاً: «وقال عمر (رض) خالفوا النساء فان في خلافهن البركة» وقد قيل: شاوروهنّ وخالفوهن[٢].

ويوصي في موضع آخر الرجال بحفظ حق النساء والعطف عليهن والاحسان اليهن، ويقول بأن من الواجب على أرباب العقول الرحمة بالنساء وعدم الحاق الظلم بهن لأن المرأة اسيرة بيد الرجل ومسكينة. كما يجب على الرجل مداراة النساء لأنهن ناقصات العقول، ولذلك عليه ألا يعمل باشارتهن، لأنه لو فعل ذلك لخسر[٣].

ويقول في احياء العلوم: «حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحماً عليهن، لقصور عقلهن»[٤].

وهكذا نرى ان من البواعث التي دعت الغزالي للدعوة الى التعامل مع المرأة وفق اسلوب المداراة هو نقص العقل الذي لديهن والذي يستلزم نوعاً من الإغضاء وكذلك تجاهل رأيهن وتدبيرهن. والغريب في الأمر انه ينظر الى نقص عقل المرأة كأمر لا لبس فيه ولا يحتاج الى البرهنة عليه.

ومن آداب النكاح التي تحدث عنها الغزالي في كتاب كيمياء السعادة هو ان يعمل الرجل ما امكن على عدم خروج المرأة من البيت ولا الجلوس عند عتبة البيت أو على السطح، وألّا يسمح لغير المحارم برؤيتها، كما لا يسمح لها برؤية غير المحارم، ولا يدعها تنظر الى الرجال من النوافذ والشرف، لأن الآفات جميعاً تنطلق من العين، ومن النوافذ والشرف والأبواب والسطوح.

ويرى الغزالي كذلك ان على الزوج ألا يسيء الظن بلا سبب أو يتعنت بلا

---

(١) نفس المصدر، ص ٣١٤و٣١٦.

(٢) احياء علوم الدين، ج ٢، ص ٤٤.

(٣) نصيحة الملوك، ص ٢٧٠ و٢٧٣ و٢٧٥.

(٤) احياء العلوم، ج ٢، ص ٤٢.

التقصير على عاتق حواء. بل ونجده في رواية قصة الهبوط وتفسيرها يكتفي بذكر اسم آدم فقط حتى يبدو وكأنه بطل قصة الهبوط.

نراه يقول في باب الحياء: «اعلم أن الحياء أنواع: حياء من الذلة، كحياء آدم (صلوات الله عليه). فحينما اتضحت تلك المقدورات من كمين الغيب، وامتدت يد آدم الى القمح، تجرد من تاجه وحلّته، فاختنق خجلاً. فسمع هاتفاً من الغيب يقول: يا آدم أتهرب منا؟ فقال: الهي اني خجل ... ايها الدرويش! إعتقد ان آدم لم يخرج من الجنة لأكله للقمح، وانما هو الذي طلب الخروج. فإنه لم ينقض الأحكام، وأحكامه منزهة من التناقض. سيُدخل غداً الف الف صاحب كبيرة الى الجنة، وأُخرج آدم منها بمعصية واحدة»[1].

ويقول ايضاً:

«أسكن آدمعليه السلام في الجنة وأباح نعيمها اليه، لكنه قال له لا تقرب من هذه الشجرة، غير انه ورّط نفسه بها من بين كل تلك النعم. لقد نهاه عنها، إلّا انه لم يطهّر نفسه من حاجته. وما هو غلام في العالم انما هو غلام حاجته ... قيل انه مكتوب في اللوح المحفوظ: يا آدم لا تأكل القمح! وكذلك مكتوب: كُلْهُ! ... ايها الدرويش إعلم عن يقين ان حبة القمح تلك التي وضعها آدم في فمه، انما هي حصن دهرنا ... صنعوا من تلك الحبة حصناً ما لم يقترب منه آدم لا يشعر بالحياء، من اجل ان يُقبل على الاستغفار لا على الاستكبار»[2].

ولم يشر الى حواء إلّا في موضع واحد حين تحدثه عن التقدير الالهي لهبوط آدم، فذكر بأنها كانت وسيلة ايضاً لتحقق الارادة الالهية:

«يا شجرة القمح اظهري عند عرش آدم، ويا شهية القمح اظهري في قلب آدم، ويا ايها الملعون أطلق عنان الوسوسة، ويا حواء ارشدي، ويا آدم لا تأكل

---

(١) السمعاني، احمد بن منصور، روح الارواح في شرح اسماء الملك الفتاح، تصحيح نجيب مايل الهروي، طهران، ١٩٨٩، ص ٣٩ و١٥١.

(٢) نفس المصدر، ص ١٥٦ و٢٠٥.

القمح واصبر، وانت ايها الصبر لا تدُر حول آدم. الهي ما هذا؟ من اجل ان نهبط بآدم من عرش الدلال الى تراب الحاجة، ونكشف عن سر الحب»[١].

يقوم هذا التفسير الشاعري، على نفس النظرة الأساسية التي ترى ان العالم وما فيه يتحرك وفق المشيئة الالهية. لذلك فالهبوط ليس ذنباً لا يغفر كي نبحث عن المذنب الأصلي والعقوبة التي يستحقها. فالسمعاني وأضرابه من العرفاء ينظرون الى الهبوط كحدث يراد منه الكشف عن سر الحب.

ورغم ذلك نرى السمعاني متأثراً بالفكرة السائدة في عصره فينظر الى المرأة كفخ شيطاني، لهذا نجده يتأثر برواية العهد القديم حين تحدثه عن النبي داود فينسب اليه الوقوع في فخ احدى النساء مستنداً في ذلك بحديث يقول «النساء حبائل الشيطان». ونحن نعلم ان هذه المعصية التي تُنسب الى داود، مرفوضة تماماً من وجهة نظر القرآن الكريم والأحاديث المعتبرة. ولا معنى للاستدلال بهذا الحديث في هذا المجال، حتى مع افتراض صحته.

وفي موضع آخر، شبّه المرأة بالنفس وعدّ المتظاهرين أسوأ من النساء اللواتي يخلعن عنهن حجابهن:

«ايها الدرويش! ان المتظاهرين في هذا الطريق بمثابة المخنثين. ولقد أمرت أحكام الشريعة النساء بالتستر، لكن بما ان الأمر يتعلق بأسرار الطريقة واشارات ارباب الحقيقة، يُعد اظهار النفس من اكثر دواعي الاتهام وباعثة اكثر على الفتنة مما لو أُخرجت المخدرات بلا لباس من الحجب وأصبحن على مرأى من الأغيار»[٢].

غير انه حينما يفسّر حديث «حب النساء» يعتبر النساء حجاب رحمة الله وستره:

«لو نظرنا الى جميع العالم، فلن نجد لدار خلوتنا الحقيقية ستاراً أجمل من ستار

---

(١) نفس المصدر، ص ٣١٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٦.

النساء». ويقول بأن الرسول ﷺ انما قال: «انما حُبِّب اليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة»، لأن النساء كُنّ حجاب رحمته[١].

وكما شبّه الحقيقة بالمخدّرة التي لا تكشف عن وجهها لغير أهلها، شبّه العلم الأزلي وعالم الغيب بالمخدرة ايضاً، وقال: «انه قد ضرب مائة الف ستار كي يوصل مخدرة العلم الأزلي مغطاة عن انظار الأغيار الى سرادق الحكمة الأبدية ... ايها الدرويش اذا لم تجعل من الارض غير الطاهرة جولاناً للحب في ميدان سر المحبة، لظل كل ما أُحسِن الينا من جلال الصمدية، في مخدرة الغيب ... فما عدا المقصود، مشقة في طريق المقصود. والمخدرة لا تكشف عن وجهها الجميل بين فضول الأغيار ولا تلقي بنقاب العزة عن وجهها. انها تبحث عن موضع بعيد عن مضايقة الاغيار كي تنزع نقاب الغيرة»[٢].

وحين تحدث السمعاني عن قصة يوسف وزليخا، فإنه يبرئ زليخا من ذنبها، للحب الذي كان لديها، ويعتبر حبّها ليوسف سبباً لغفران معصيتها:

«فنّ زليخا كان حبها، وعيبها انها لم تكن الهية. زليخا لم تخطئ في أصل الحب وأخطأت في طريق الحب. وغفرنا خطأ الفرع بصواب الأصل. فأنت لم تخطئ في اصل التوحيد، وأنا انظر الى صواب الأصل لا الى صلاحية الوصل. اخلع ثوب المعصية والبس ثوب المغفرة. كانت زليخا كافرة فأحبّت حبيبنا ونظرت الينا كعدو، لكننا لم ننظر الى عدائها، بل نظرنا الى انها حبيبة الحبيب، فأعطيناها الايمان. بلقيس كانت كافرة فأحبت سليمان، فأعطيناها الايمان. خديجة كانت كافرة فأحبّت المصطفى ﷺ فأعطيناها الإيمان وانت المؤمن الذي تدمدم بحبنا منذ سبعين عاماً هل نأخذ منك الايمان؟! كلا وحاشا»[٣].

ويبدو ان الرؤية العرفانية للسمعاني الى المرأة قد تغلبت على الافكار السائدة

---

(١) نفس المصدر، ص ٦١٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠ و٥٦١.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٤٤.

في عصره بشأن المرأة. ولهذا نراه يقدم آراء اكثر ايجابية عنها، وينظر اليها في مرآة التجليات الالهية والصور الخيالية، ويستخدمها في تشبيهاته وتمثيلاته لتوضيح أهدافه.

٤ ـ عين القضاة الهمداني (٤٩٢ ـ ٥٢٥ هـ)

عين القضاة المعروف بالقاضي الهمداني، حكيم وعارف ايراني، ولد بهمدان، ولذلك عرف بالهمداني. كما عُرِف بالميانجي ايضاً نظراً لكون أبيه وجده من مدينة «ميانه» في آذربايجان الايرانية.

انبرى عين القضاة لتحصيل العلم منذ صباه، فأصبح له باع في الأدب والحكمة والكلام، وتبحر في الفقه فحصل على عنوان القاضي والمدرس. وأصبح ذا شهرة ونفوذ وهو مازال شاباً ولذلك حسده الفقهاء والمتكلمون.

ادى لقاؤه بالشيخ أحمد الغزالي الى نزعته نحو التصرف والانتقال من المدرسة الى الخانقاه. وكان صريحاً كشيخه الغزالي في التعبير عن آرائه، ولذلك اخذ المتشرعون يسيئون الظن به، وانبرى الفقهاء والمتكلمون الى تكفيره.

سجن بعض الوقت في همدان ثم في بغداد، وأُعيد آخر المطاف الى همدان وصُلِب في المدرسة التي كان يدرِّس فيها، ثم لُفّ جسده بحصير وألقوا عليه الزيت وأشعلت فيه النار، فمات وهو في الثالثة والثلاثين.

تصوفه حافل بالأفكار الجديدة والآراء العرفانية الجديدة الخليطة بمقالات الفلاسفة التي كانت تعصى على فهم اهل عصره.

اهم آثاره: التمهيدات، وزبدة الحقائق، والمكتوبات، وهي حافلة بالآراء والعقائد التي تصطبغ بصبغة التأويل. وهذه الآثار هي التي بعثت سوء الظن به لدى الفقهاء وأهل الظاهر.

سعى الهمداني في رسالته «شكوى الغريب» التي كتبها في سجن بغداد ان

يبرهن على براءته من تلك الظنون السيئة، غير أن ذلك لم يؤثر قط[١].

في آثاره هناك اشارات صريحة للنساء ولكنها نادرة ومبعثرة. فيقول مثلاً في تفسير حديث «حب النساء»: لولا الصلاة والطيب والنساء لم يستقر الرسول ﷺ لحظة واحدة في الدنيا. ولولاها فما له وللدنيا، وما للدنيا وما له؟![٢] فهو يعتبر هذه الاشياء الثلاثة التي كان يحبها الرسول ﷺ، هي التي جعلت روح الرسول العرشية تستقر في هذه الدنيا على مدى عمره الذي استمر ستين عاماً ونيفاً.

غير انه يعتبر أنواع الحب هذه، ومن بينها «حب المرأة» جزءاً من حب الله وضمن اطار هذا الحب، ونقل اضافةً لحديث الحب الذي سبق ان اوردناه، احاديث نبوية اخرى منها قوله ﷺ لعائشة «حبك في قلبي كالعقد في الحبل»، وقوله «اولادنا أكبادنا». ثم اكد بعد ذلك على ان هذا الحب ليس حباً اصلياً بل يراد به التأكيد على حب الله، لأن «الذين آمنوا اشدّ حُباً للـه». فحب الله من علاماته انه يمنع المحبوبات الاخرى، والمحب لله يعزف عن الوان الحب الاخرى مختاراً حب الله فقط.

المرأة والولد والمال والجاه والحياة والوطن جميعها من بين المحبوبات، فلو غلب حبّ هذه الأشياء فانها لن تسمح لظهور الزكاة والحج والصدقة من وجهة نظر الهمداني، وكل منها بمثابة محك وامتحان[٣].

اذن فهو يرى ألّا يغلب أي حب على حب الله وألّا يتعارض معه، بما فيه حب المرأة والبنين، لكن هذا الحب ليس سيّئاً في حد ذاته.

وفي رسالة له الى أحد مريديه اعتبر التأنيث والتذكير صفة للروح لا صفة

---

(١) راجع: دائرة المعارف الفارسية، غلام حسين مصاحب، منشورات فرانكلين، ١٩٧٧؛ زرين كوب، عبد الحسين، قيمة التراث الصوفي، ص ٧١ و٧٢.

(٢) عين القضاة، التمهيدات، تصحيح عفيف عسيران، ١٩٩١، ص ١٠٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٣٨.

للجسم، وقال في تفسير الآية القرآنية «وما خلق الذكر والانثى»، انها صفة الروح لا صفة القالب. فكل من يستولي عليه الشيطان فهو انثوي الصفة، وكل من يسحقه الشيطان فهو مؤنث ايضاً.

ثم يقول بعد ذلك ان الرجل هو الذي تنطبق عليه الآية ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾[١]، والآية ﴿ان عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[٢].

ثم يستعين بقول الرسولﷺ: «السكران عروس الشيطان» ليقول بأن العروس انثى وكل ما كان عروس الشيطان فهو انثوي الصفة، ولا ينطبق عليه اسم الرجل في عالم الملكوت.

ويصف اولئك الذين يعبدون الله من اجل الله لا من اجل هدف أو غرض آخر بأنهم من اصحاب الصفات الرجالية، بينما اولئك الذين يعبدونه من اجل هدف أو غرض بأنهم اقل من النساء[٣].

والحقيقة هي انه يستخدم لفظتي التذكير والتأنيث بنفس المعنى العرفاني الذي يقصده العرفاء، فالتذكير يعادل الاخلاص والطاعة لله، والتأنيث يعادل الشرك وطاعة الشيطان. لذلك لو عصى الرجل أو المرأة الشيطان وأخلصا لله فهما واقعان ضمن دائرة الرجل وفق الرؤية المعنوية، ولو اطاعا الشيطان فهما واقعان ضمن دائرة المرأة، رغم ان عين القضاة يرى الذي يخضع للشيطان وهوى النفس ادنى مستوى من المرأة.

ويتحدث عين القضاة في «رسالة شكوى الغريب» عن بعض النساء الواعظات والعارفات المدرسات ويذكرهن بخير، ومنهن: رابعة العدوية والتي كان يصغي اليها بعض الأكابر مثل سفيان الثوري، وشعوانة الأبلية، وبحرية، وعنيدة جدّة أبي الخير التناني الأقطع والتي كان لديها ألف تلميذ وتلميذة، وعائشة النيشابوري

---

(١) سورة النور / ٣٧.

(٢) سورة الحجر / ٤٢.

(٣) عين القضاة، مكتوباته، ص ٢٢٩ و ٢٣١.

زوجة أحمد بن سري، وفاطمة بنت أبي بكر الكتاني التي كانت تتحدث في الحب، وتوفي معها ثلاثة من الرجال.

وقال في شعوانة انها كانت تتحدث للعبّاد وقد غلبت عليها خشية الله حتى منعتها من العبادة، ثم رأت مناماً سُرَّ قلبها به، فعادت الى العبادة. وقال في بحرية انها بكت حتى عميت. وقال في عائشة النيشابوري انها كانت تتحدث لنساء نيشابور[١].

تنفرد آثار عين القضاة عادة لاستعراض المفاهيم والعقائد العرفانية والكلامية والفلسفية. ولذلك لم تكن قضية المرأة لتحظى باهتمامه، سيما وانه فقيه وقاض بارع، ولابد انه كان على علم برؤية الفقهاء للمرأة وبصير بمشاكل استعراض مثل هذه القضية، ولذلك لم يتعرض لها بشكل مستقل عدا الحالات التي أشرنا اليها والتي تغلب عليها الصبغة العرفانية.

مكتوبات عين القضاة الهمداني عبارة عن رسائله التي كتبها لأحد مريديه ويدعى عز الدين، وكان يعمل في الجهاد الحكومي، والتي حملت اليه توجيهات بهذا الصدد. لذلك لا نجد في مكتوباته أي بحث مستقل بشأن النساء.

٥ ـ العطّار النيشابوري (٥٤٠ ـ ٦١٨ هـ)

يعد الشيخ فريد الدين العطار من أكابر الصوفية، ولديه العدد من المصنفات النثرية والشعرية. انبرى في «تذكرة الأولياء» لترجمة العرفاء والصوفية بدءاً بالامام الصادقعليه السلام وانتهاء بالامام الباقرعليه السلام. ويُعد كتابه «منطق الطير» رائعة من الروائع العرفانية، والذي اتخذ منه الكثير من العرفاء نموذجاً في كتاباتهم. وقد قُتِل حين الغزو المغولي لايران أو على يدهم حسب بعض الآراء.

ورغم انه لم يتحدث في كتبه بصراحة عن المرأة ولم يفرد لها فصولاً مستقلة، ولكن بالامكان استشفاف آرائه من خلال استعانته بالتشبيه واستخدامه للخيال.

---

(١) عين القضاة الهمداني، رسالة شكوى الغريب، جامعة طهران، ١٩٨٣، ص ٢٥ و٥٤ و٥٥.

ما يحظى بالاهتمام في أفكاره هو ان الرجولة في طريق الحق تعني عنده الاستقامة والوفاء بالعهد في طلب البارئ والسير والسلوك العرفاني. لذلك نراه حينما يتحدث عن النساء العارفات ـ مثل رابعة العدوية ـ يعتبرهن رجالاً في طريق الله.

ويتحدث عن «رابعة العدوية» في تذكرة الاخلاص قائلاً: «هذه المخدرة بالخدر الخاص، المستورة بستر الاخلاص، المحترقة بالحب والاشتياق، والمغرمة بالقرب والاحتراق، ضائعة الوصال، مقبولة الرجال، ثانية مريم الصفية، رابعة العدوية رحمة عليها. ولو قال أحد لماذا ذكرتها في وصف الرجال، لقلتُ ان سيد الانبياء عليهم السلام يقول: «ان الله لا ينظر الى صوركم»، فالعمل ليس بالصورة وانما بالنية. كما قال عليه السلام: «يُحشر الناس على نياتهم» ... وبما أن المرأة رجل في طريق الحق فليس بالامكان ان نقول بأنها امرأة. وتقول عباسة الطوسي: حينما يُنادى غداً في عرصات القيامة: يا رجال! فإن أوّل من يقوم هي مريمعليها السلام. فالشخصية التي لو لم تكن حاضرة في مجلس الحسن (البصري) لترك المجلس، يمكن وصفها بين الرجال. بل معنى الحقيقة هو انه مع وجود مثل هؤلاء القوم يفنى الجميع في التوحيد. فلا يبقى في التوحيد وجودي ولا وجودك ناهيك عن الرجل والمرأة.

وقد قال ابو علي الفارمذي (رض): النبوة عين العزة والرفعة. وليس فيها صغير وكبير. والولاية هي هكذا ايضاً، لا سيما رابعة التي لا يماثلها أحد في المعاملة والمعرفة، وذات اعتبار اعظم من جميع كبار عصرها، وكانت حجة قاطعة على أهل دهرها»[1].

ندرك من خلال طبيعة حديث العطار عن العارفة العدوية والصفات التي وصفها بها انها كانت قد تألقت في عصرها واشتهرت بحيث انها كانت تُلقب بـ «مقبولة الرجال». والمدهش في الامر ان العطار نفسه قد وصفها بمريم الثانية.

---

(١) العطار النيشابوري، فريد الدين، تذكرة الأولياء، تحقيق رينولد نيكلسون، ١٩٨٢، ص ٥٩.

ومما يلفت النظر ايضاً في حديث العطار السابق هي اجابته على من يُثار لديه السؤال عن درجها ضمن الرجال وهي امرأة. فتلخصت اجابته في ان العرفان طريق يتعامل مع باطن الانسان. فالذي يبلغ مقام العرفان ويغرق في التوحيد، لن تبق فيه الحدود البشرية وليس هناك حينئذ حديث عن رجل أو امرأة.

اذن فالمسار الذي يسير فيه العطار، أبعد من الجنس والصورة الظاهرية.

ونقل العطار كلاماً عن «بايزيد البسطامي» يقول: ان فاطمة زوجة أحمد الخضروية، رجل في زيّ النساء(١).

وأشار العطار أيضاً الى هذا المضمون في ديوانه «منطق الطير» ضمن العديد من الأبيات(٢). مؤكداً على ان رابعة كانت رجل حق في صورة امرأة. ورجل الحق هو ذلك الذي يطلب ليلاً ونهاراً. ووصفها في شعره بأنها عين الألم وغارقة في بحر التوحيد والفناء.

ومن الجدير بالذكر ان العطار يعتبر ألم الدين مبدأ الطريقة، ويرى ان الجهاد والعمل يوصلان الى عين اليقين(٣).

ويقول في تذكرة الأولياء أيضاً ان الألم يجعل من غير رجل الطريق رجلاً، والرجال أُسُودَ الرجال، وأسودَ الرجال فرداً، ويُصبح الأفراد عين الألم(٤).

اذن فمصطلح رجال الحق أو رجل الحق يدل من وجهة نظر العطار على الخصوصيات الباطنية للانسان الجاد في طريق الله، والذي يبلغ في نهاية المطاف الفناء والتوحيد.

وفي «منطق الطير» إشارات متعددة لهذه الفكرة في العديد من الابيات. فيؤكد في بعضها على الثبات والايثار والصدق والاخلاص في طريق الله، ويعتبر من

(١) العطار النيشابوري، تذكرة الأولياء، تحقيق محمد الاستعلامي، ص ٣٤٩.

(٢) العطار النيشابوري، منطق الطير، تحقيق محمد جواد مشكور، ص ٥ و٣٦.

(٣) زرين كوب، عبد الحسين، قيمة التراث الصوفي، ١٩٩٠، ص ١٤٥.

(٤) نقلاً عن: زرين كوب، عبد الحسين، صوت اجنحة العنقاء، ص ١٦٨.

يفعل ذلك رجلاً، اما من يسعى في هذا الطريق بارادة ضعيفة وروح متزعزعة ولا يتمتع بالثبات والاستقامة فإنه امرأة وليس رجلاً[١].

المرأة والرجل عنده لا يختلفان في قطع طريق الحـق وسلوك مسلك العرفان، واذا كان هناك تفاوت في مقام اللفظ فهو صوري ومجازي[٢].

واكد العطار في بعض الأبيات على ان حواء وُلدت من آدم، وعيسى من مريم، وهذا ما يعكس القوة الروحانية والمقام المعنوي السامي الذي يتمتع به آدم ومريم.

وأورد في تذكرة الأولياء: «قال الحسن البصري: جلست عند رابعة يوماً وليلة دون ان يخطر ببالي انني رجل أو يخطر ببالها انها امرأة. وحينما نهضت آخر الأمر نظرتُ فرأيت نفسي مفلساً ورابعة مخلصة»[٣].

وعبّرت رابعة العدوية بدورها عن تأييدها لهذ الحدث وقالت بأن السـاحة التي عاشت فيها اوسع من الساحة الدنيوية.

ونقل العطار بشأن رابعة ضمن موضوع الزواج ما يلي:

«قال الحسن لرابعة: ألا ترغبين أن نعقد عقدة النكاح؟ فقالت: عقدة النكاح تقع على وجودٍ ما. ولا وجود هنا، اذ فني وجودي في وجوده»[٤].

وأورد ايضاً: حينما سُئلت رابعة: لماذا لا تتزوجين؟ أجابت: أنا أسألكم أسئلة ثلاثاً فاذا اجبتم عليها تزوجت. الاول: حينما اموت هل اخرج سالمة بايماني ام لا؟ وحينما تُنشر الكتب فهل سأحمل كتابي في يميني ام في شمالي؟ وفي تلك الساعة التي يؤخَذ فيها فوج الى اليمين وفوج الى الشمال، فالى أي جهة سيأخذون بي؟ فقالوا لها: لا نعلم. فقالت: فكيف يُقام عرس لمن أمامه مثل هذا المأتم؟[٥]!

---

(١) منطق الطير، ص ٣٨، ٢٧٢، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١، ٤٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٦٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٦٨.

(٣) تذكرة الاولياء، ص ٦٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٦٦.

(٥) نفس المصدر، ص ٦٦.

وأورد العطار بشأنها ايضاً ما يلي: نُقل ان جماعة ارادوا اختبارها فقالوا ان الفضائل جميعاً قد نُثرت على رؤوس الرجال وتاج النبوة قد وُضع على رؤوسهم ايضاً، وحزام الكرامة قد لُفّ على أوساطهم. ونحن لم نر بين الأنبياء امرأة!

فقالت رابعة: هذا صحيح، ولكن لا توجد امرأة قالت «أنا ربكم الأعلى»[١].

رابعة كانت ترى الكرامة الحقيقية في تحطيم ذاتها والاستسلام لارادة الحبيب، وهذا امر يكثر في النساء ويقلّ في الرجال. بل ترى ان تجلي حب الذات وادعاء الربوبية، ظاهرة موجودة عند الرجال دون النساء.

ولم يتحدث العطار في «الهي نامه»[٢] عن النساء إلّا من خلال الاشارة والتشبيه، فيصف في بعض الأبيات الرجل بأنه يميل الى الايثار والابتعاد عن الشهوة، والمرأة بأنها تنزع الى حب الدنيا.

وفي «مصيبت نامه» شبّه الدنيا بالمرأة غير الوفية التي تخدع الرجال بغنجها ثم تقتلهم. اي انها تظهر في بادئ الأمر في صورة امرأة جميلة فاتنة، ثم تكشف عن وجهها الحقيقي فاذا هي عجوز حدباء[٣].

وأهم القصص التي تلعب فيها المرأة دوراً معنوياً هي قصة الشيخ صنعان والفتاة المسيحية. وقد وردت هذه القصة في منطق الطير وتتحدث عن عرفانية الشيخ صنعان وسلوكه، ثم وقوعه في غرام فتاة مسيحية وانصرافه عن السلوك، ثم توبته في آخر المطاف. وهي قصة حافلة بالاشارات والنقاط العرفانية، وعبّرت فيها الفتاة المسيحية عن العقبات الدنيوية والمعنوية التي تعترض طريق المنطلقين نحو الله، فكانت بمثابة وسيلة مهمة من وسائل اختباره.

---

(١) نفس المصدر، ص ٧٠.

(٢) العطار النيشابوري، الهي نامه، تحقيق هلموت ريتر، طوس، ١٩٨٩.

(٣) مصيبت نامه، ١١ / ٩.

راجع: ريتر، هلموت، بحر الروح، ترجمة الدكتور عباس زرياب الخوئي والدكتور مهر آفاق بايبردي، انتشارات الهدى، ١٩٩١، ج ١، ص ٦٨.

اذن تُعد الفتاة المسيحية في الواقع عاملاً لتطهير الشيخ صنعان من الأدران الباطنية التي تحترق بنار الحب. فاستطاع بعد ذلك بواسطة التوبة بلوغ أسمى المراتب والدرجات.

٦ ـ الشيخ نجم الدين كبرى (ت ٦١٨ هـ)

يُعد نجم الدين كبرى من مشاهير العرفاء وأكابرهم، وينتهي اليه العديد من الفرق الصوفية. وكان تلميذاً ومريداً للشيخ روزبهان البقلي.

وتتلمذ على يديه الكثيرون ايضاً وفهم «بهاء الدين ولد» والد العارف جلال الدين المولوي المعروف بالرومي ايضاً. وكان يلقب بالشيخ «ولي تراش» ايضاً.

كان يعيش في خوارزم، واقترنت الايام الأخيرة من حياته بالغزو المغولي، وقد استشهد خلال هذا الغزو دفاعاً عن خوارزم.

في كتابه «فوائح الجمال وفواتح الجلال» الذي انبرى فيه لشرح المكاشفات وتبويبها، لجأ كباقي العرفاء الى استخدام المرأة في التشبيه والتمثيل والايضاح.

ففي موضع من هذا الكتاب يقول بأن الصفات الالهية الجمالية تبدو في ظاهر الأمر متناسبة مع النساء الجميلات والمخدرات الساحرات اللاتي لابد لهن من اخفاء انفسهن وراء ستار الحجاب، كما ان الصفات الالهية الجلالية تبدو متناسبة مع الرجال، اما من حيث المعنى والواقع فالرجال الالهيون يتمتعون بصفات الجمال والفضل والرحمة الالهية، غير أن هذه الصفات مغطاة بستار الجلال والغضب والقهر(١).

ونراه في مؤلف آخر وحين تحدثه عن آفة الصوفي، يشير الى موافقة النساء كآفة من الآفات التي تهدد الصوفي الى جانب آفتين اخريين هما مصاحبة الأحداث، ومجالسة الاضداد(٢).

---

(١) نجم الدين كبرى، فوائح الجمال وفواتح الجلال، ١٩٨٩، ص ١٥٥ و١٥٦.

(٢) نجم الدين كبرى، آداب الصوفية، تحقيق مسعود قاسمي، ١٩٨٤، ص ٣٦.

ولا يبدو الشيخ نجم الدين من تلك الفئة من العرفاء التي تمنع المريدين والسالكين من الزواج والحياة الأسرية.

٧ ـ محيي الدين بن العربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ)

محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الاكبر، عارف عظيم الشأن ومن علماء الصوفية وكبار رجالها، كما يُعد اكبر عارف مسلم، اذ لم يبلغ ما بلغه لا أحد من قبله ولا أحد من بعده. وقد تكامل العرفان النظري على يديه وبلغ ذروته بواسطته.

ابن العربي لم يبلغ بالعرفان مرحلة جديدة فحسب بحيث تأثر به جميع المفكرين الذين جاؤوا من بعده بطريقة واخرى، بل كان هو نفسه انساناً عجيباً وذا مقامات عرفانية سامية ومكاشفات روحانية عجيبة.

من اهم آثاره: فصوص الحكم، والفتوحات المكية. وهما كتابان حافلان بأعمق المفاهيم العرفانية ولطائف الحكمة. وقد رجعتُ الى هذين الكتابين بالذات لاستقراء آرائه حول المرأة والوقوف على موقعها في رؤيته العرفانية.

ففي «فصوص الحكم» وخلال تحدثه عن مقام خاتم الانبياءﷺ في «الفص المحمدي»، انبرى لتقديم صورة واضحة عن نظرته الى المرأة من خلال شرح حديث معروف للرسولﷺ. ويمكن ان يُعد هذا الفص، جوهر رأيه بشأن المرأة، فيما يُعد كل ما ذهب اليه حول المرأة في الكتابين المذكورين بمثابة شرح وايضاح لهذا الرأي.

ونحن نواجه في الواقع نفس المشكلة التي واجهها كل من درس ابن العربي واستقرأ كتاباته. لذلك ومن اجل تجنب الاضطراب في تسجيل آراء ابن العربي ورصد أفكاره، سعينا لتبويب بعض هذه الآراء ووضع كل جزء منها تحت عناوين فرعية تجمع بينها جملة من المضامين المشتركة.

اورد ابن العربي فصلاً في «فصوص الحكم» يحمل عنوان «فص حكمة فردية

في كلمة محمدية»، نقل فيه حديثاً نبوياً، ثم انبرى الى شرحه.

الحديث النبوي هو:

«حُبِّب اليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب والصلاة وجُعلَت قُرّةُ عيني في الصلاة».

وتنقل أدناه نص ما ورد في الفصوص بهذا الشأن[١]، ثم نجزئه بعد ذلك الى اجزاء صغيرة فنشرح كل جزء على حدة مستشهدين في ذلك بما ورد في الفتوحات المكية ايضاً.

«فابتدأ بذكر النساء وأخّر الصلاة، وذلك لأن المرأة جزء من الرجل في أصل ظهور عينها ... فانما حبّب اليه النساء فحنّ اليهنّ لأنه من باب حنين الكل الى جزئه ... فبطن نفس الرحمن فيما كان به الانسان انساناً. ثم اشتق له منه شخصاً على صورته سماه امرأة، فظهرت بصورته فحنّ اليها حنين الشيء الى نفسه، وحنّت اليه حنين الشيء الى وطنه. فحببت اليه النساء ... فحنّ الرجل الى ربه الذي هو أصله حنين المرأة اليه. فحبّب اليه ربه النساء كما أحب الله من هو على صورته ... فما وقع الحب إلّا لمن تكوّن عنه، وقد كان حبه لما تكوّن منه وهو الحق.

فلهذا قال «حُبِّبَ» ولم يقل أحببت من نفسه لتعلّق حبه بربه الذي هو على صورته حتى في محبته لامرأته: فإنه أحبها بحب الله اياه تخلقاً الهياً.

ولما احب الرجل المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوه أجزاءه كلها، ولذلك أُمر بالاغتسال منه، فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصور الشهوة.

فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره، فطهره بالغسل ليرجع بالنظر اليه فيمن فني فيه، اذ لا يكون إلّا ذلك. فاذا شاهد الرجل الحق في المرأة

---

(١) ابن العربي، فصوص الحكم، مع تعليقات أبي العلاء العفيفي، مكتبة الزهراء، ١٩٨٧، ص ٢١٤ ـ ٢٢٦.

كان شهوداً في منفعل، واذا شاهده في نفسه ـ من حيث ظهور المرأة عنه ـ شاهده في فاعل، واذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكوّن عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في المرأة اتم واكمل، لانه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل؛ ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة. فلهذا أحب صلى الله عليه وسلم النساء لكمال شهود الحق فيهن، اذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً، فان الله بالذات غني عن العالمين. واذا كان الامر من هذا الوجه ممتنعاً، ولم تكن الشهادة إلّا في مادة، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله. وأعظم الوصلة النكاح وهو نظير التوجه الالهي على من خلقه على صورته ليخلفه فيرى فيه نفسه فسواه وعدله ونفخ فيه من روحه الذي هو نفسه، فظاهره خلق وباطنه حق.

وسماهن بالنساء وهو جمع لا واحد له من لفظه، ولذلك قال عليه السلام «حبب الي من دنياكم ثلاث: النساء» ولم يقل المرأة، فراعى تأخرهن في الوجود عنه، فإن النسأة هي التأخير، قال تعالى ﴿انما النسيء زيادة في الكفر﴾. والبيع بنسيئة يقول بتأخير، ولذلك ذكر النساء. فما أحبهن إلّا بالمرتبة وأنهن محل الانفعال فهنّ له كالطبيعة للحق التي فتح فيها صور العالم بالتوجه الاداري والامر الالهي الذي هو نكاح في عالم الصور العنصرية، وهمة في عالم الارواح النورية، وترتيب مقدمات في المعاني للنتائج. وكل ذلك نكاح الفردية الاولى في كل وجه من هذه الوجوه.

فمن احب النساء على هذا الحد فهو حب الهي، ومن احبهن على جهة الشهوة الطبيعية خاصة نقصه على هذه الشهوة، فكان صورة بلا روح عنده، وان كانت تلك الصورة في نفس الأمر ذات روح ولكنها غير مشهودة لمن جاء لامرأته ـ أو انثى حيث كانت ـ لمجرد الالتذاذ، ولكن لا يدري لمن ... كذلك هذا أحب الالتذاذ فأحب المحل الذي يكون فيه وهو المرأة، ولكن غاب عنه روح المسألة. فلو علمها لعلم بمن التذ ومن التذ وكان كاملاً.

وكما نزلت المرأة عن درجة الرجل بقوله «وللرجال عليهن درجة» نزل المخلوق على الصورة عن درجة من أنشأه على صورته مع كونه على صورته. فبتلك الدرجة التي تميز بها عنه بها، كان غنياً عن العالمين وفاعلاً اولاً، فان الصورة فاعل ثان. فما له الأولية التي للحق. فتميزت الاعيان بالمراتب: فأعطى كل ذي حق حقه كل عارف. فلهذا كان حب النساء لمحمد صلى الله عليه وسلم عن تحبب الهي وان الله «اعطى كل شيء خلقه» وهو عين حقه.

فما أعطاه إلّا باستحقاق استحقه بمساه، اي بذات ذلك المستحق. وانما قدّم النساء لأنهن محل الانفعال، كما تقدمت الطبيعة على من وجد منها بالصورة ... ثم انه عليه السلام غلب في هذا الخبر التأنيث على التذكير لأنه قصد التهمّم بالنساء فقال «ثلاث» ولم يقل «ثلاثة» بالهاء الذي هو لعدد الذكران، اذ وفيها ذكر الطيب وهو مذكر، وعادة العرب أن تغلب التذكير على التأنيث فتقول «الفواطم وزيد خرجوا» ولا تقول خرجن. فغلبوا التذكير ـ وان كان واحداً ـ على التأنيث وان كن جماعة، وهو عربي، فراعى ﷺ المعنى الذي قصد به في التحبب اليه ما لم يكن يؤثر حبه ...

ثم انه جعل الخاتمة نظيرة الأولى في التأتيث وأدرج بينهما المذكر. فبدأ بالنساء وختم بالصلاة وكلتاهما تأنيث، والطيب بينهما كهو في وجوده، فان الرجل مدرج بين ذات ظهر عنها وبين امرأة ظهرت عنه؛ فهو بين مؤنثين: تأنيث ذات وتأنيث حقيقي. كذلك النساء تأنيث حقيقي والصلاة تأنيث غير حقيقي، والطيب مذكر بينهما كآدم بين الذات الموجود عنها وبين حواء الموجودة عنه وان شئت قلت الصفة فمؤنثة أيضاً، وان شئت قلت القدرة فمؤنثة أيضاً. فكن على اي مذهب شئت، فانك لا تجد إلّا التأنيث يتقدم حتى عند اصحاب العلة الذين جعلوا الحق علة في وجود العالم والعله مونثة.

وأما حكمة الطيب وجعله بعد النساء، فلما في النساء من روائح التكوين، فانه أطيب الطيب عناق الحبيب».

١ ـ المرأة من وجهة نظر ابن العربي

المرأة جزء والرجل كلّ

المقطع الأول من الفصل السابق يقول:

«فابتدأ بذكر النساء وأخّر الصلاة، وذلك لأن المرأة جزء من الرجل في أ
ظهور عينها ... فانما حُبب اليه النساء فحنَّ اليهن لأنه من باب حنين الكل
جزئه ... فبطن نفس الرحمن فيما كان به الانسان انساناً، ثم اشتق له منه شخ
على صورته سماه امرأة، فظهرت بصورته فحنّ اليها حنين الشيء الى نف
وحنت اليه حنين الشيء الى وطنه، فحببت اليه النساء ... فحنّ الرجل الى ر
الذي هو أصله حنين المرأة اليه، فحبب اليه ربه النساء كما أحب الله من هو
صورته ... فما وقع الحب إلّا لمن تكوّن عنه، وقد كان حبه لما تكون منه و
الحق».

في هذا المقطع يؤشر ابن العربي على بعض النقاط:

الاولى، المرأة جزء والرجل كل.

الثانية، الرجل مخلوق على صورة الله والمرأة على صورة الرجل.

الثالثة، الرجل أصل وجود المرأة وموطنها، مثلما ان الله تعالى أصل وج
الرجل وموطنه.

وهذه الامور الثلاثة تُعد عوامل الحب المتبادل بين المرأة والرجل، وه
السبب في حب الرسولﷺ لنسائه، من وجهة نظر ابن العربي.

ابن العربي لم يذكر في الفصوص الدليل الذي استند اليه فيما ذهب له، عدا ق
بأن الله تعالى خلق الرجل على صورته ثم اشتق منه موجوداً على صورته
المرأة. وهذه الفكرة التي يطرحها ابن العربي تذكّرنا برواية العهد القديم التي ت
باقتطاع ضلع من الرجل وخلق المرأة منها.

وفي الفتوحات عبارات تؤكد على اطلاع ابن العربي على رواية العهد الق

وأخذه بهـا، كقوله: «ولأن المكان الذي في الرجل الذي استُخرجت مـنه المـرأة، عمره الله بالميل اليها. فحنينه الى المرأة حنين الكبير، وحُنوه على الصغير»[١]، لأن الكل اكبر من الجزء دائماً، والاستيعاب الوجـودي للكـل يـفوق الاسـتيعاب الوجودي للجزء.

ويشير في موضع آخر بصراحة الى رواية العهد القديم فيقول: «ولما انفصلت حواء من آدم عمر (الله) موضعها منه بـالشهوة النكـاحية اليهـا، التي وقـع بهـا الغشيان لظهور التناسل والتوالد. وكان الهواء الخارج الذي عَمر موضعَهُ جـسمُ حواء عند خروجها، اذ لا خلاء في العالم. فطلب ذلك الجزءُ الهوائي موضعه الذي أخذته حواء بشخصيتها فحرّك (الله) آدم لطلب موضعه فوجده مـعموراً بهـواء فوقع عليها»[٢].

ويتحدث ابن العربي حول هذه الفكرة في موضع آخر فيقول:

«فحنوّ الرجل على المرأة، حنوه على نفسه لأنها جزء منه ... وعمر اللهُ الموضع من آدم الذي خرجت منه حواء بالشهوة اليها، اذ لا يبقى في الوجود خلاء، فلما عمره بالهواء، حنّ (آدم) اليها، حنينه الى نفسه، لأنها جزء منه»[٣].

في هذه العبارات الثلاث الأخيرة يقول ابن العربي انه حينما اقتُطعت ضلع آدم كي تُخلق منها حواء، امتلأ موضعها الخالي بالهواء اذ من المحال ان يبقى في الوجود خلاء. وبما ان «الهواء» و«الهوى» من اصل واحد باللغة العـربية، يسـتنتج ابـن العربي ان امتلاء الموضع الخالي من آدم بالهواء يرمز الى امتلاء وجود آدم بالحب، وهو الحب الذي وجد متعلقه في وجود حواء، فأصبح محباً لها، وهو نفسه حب الكل للجزء.

---

(١) ابن العربي، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى وابراهـيم مـدكور، المكـتبة العـربية، ١٤٠٥ هـ ج ١٤، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٢٩ و ٣٠٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٤٨.

وهكذا نلاحظ ان ابن العربي لم يقدم دليلاً أو برهاناً يثبت به فكرته، ويمكن ان نقول بأن لغته الجميلة وتعابيره المستحسنة قد حلت محل الدليل.

ونفس هذا التفسير، يمكن ملاحظته خلال تبريره لميل المرأة نحو الرجل:

أولاً، المرأة تميل للرجل لأن حواء جزء من وجود آدم: «وهي (المرأة) تحن اليه (الرجل) وتحبه حنين الجزء الى الكل»[(١)].

ثانياً، تميل اليه لأنه موطن المرأة: «وحنّت حواء اليه (أي آدم) لكونه موطنها الذي نشأت فيه فحُبُّ حواء (هو) حب الموطن»[(٢)].

ثالثاً، بما أن حواء قد خُلقت من ضلع آدم فهي تحنو عليه لانحناء الضلع: «وكانت (حواء) من الضلع للانحناء الذي في الضلوع، لتحنو بذلك على ولدها وزوجها»[(٣)].

والطريف في الأمر قول ابن العربي التالي:

«حواء خُلِقت من القُصَيْرى فقَصُرَتْ، وعَوَجُها (هو) استقامتها. فانحناؤها (هو) حنّوها على أبنائها، وعلى ما لَهُ (أي لزوجها) من الخزائن، مثل انحناء الأضلاع على ما في جوف من الأحشاء والأمعاء المختزنة فيه، لصلاح صاحبه. فاعوجاجها (هو) عين استقامتها التي اريدت لها. ولهذا اعوجاج القوس (هو) عين استقامته»[(٤)].

وهكذا نرى ان ابن العربي يتخذ في المقطع اعلاه من المعاني اللغوية للألفاظ العربية وسيلة للتعبير عن فكرته. فبما أن الضلع تُدعى بالقصيرى ايضاً، وبما أن القصيرى والقصر كلمتان ذاتا أصل واحد، فمعنى هذا ان المرأة قاصرة العقل. وبما أن استقامة الضلع بانحنائها، وبما ان الانحناء والحنوّ كلمتان ذاتا منشأ واحد،

---

(١) نفس المصدر، ج ١٠، ص ١٤٢.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٤٨ و٢٤٩.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٤٨.

(٤) نفس المصدر، ج ١٠، ص ١٤٧.

فالمرأة اذن ـ بحكم الخلقة ـ من أهل الحب، ولابد ان ينعكس حبها هـذا عـلى ابنائها وزوجها.

والاستيحاء الآخر الذي يستوحيه ابن العربي من رواية الخلق هو ان المـرأة أوطأ درجة من الرجل. ولذلك نراه يقول: «ولما ظهر جسم آدم، كما ذكرناه، ولم تكن فيه شهوة نكاح، وكان قد سبق في عالم الحق ايجاد التوالد والتناسل والنكاح في هذه الدار ـ والنكاح في هذه الدار انما هو لبقاء النوع ـ فاستخرج من ضلع آدم القُصيرى حواء، فقصرت (المـرأة) بـذلك عـن درجـة الرجـل كـما قـال تـعالى ﴿وللرجال عليهن درجة﴾، فما تلحق (النساء) بهم (اي بالرجال) أبداً»[١].

وقال في موضع آخر:

«فاعلم ان الرجل يزيد على المرأة درجة»[٢].

من وجهة نظر ابن العربي، بما ان الرجل متقدم وجودياً على المرأة وبما ان المرأة جزء من الرجل، تُعد المرأة ناقصة ازاء الرجل الذي هو الأصل الوجودي للمرأة، بذلك نراه يقول:

«لما كان الكمال غير محجور على النساء وان كانت المرأة انقص درجـة مـن الرجل فتلك درجة الايجاد لأنها وُجدت عنه، وذلك لا يقدح في الكمال»[٣].

ويتحدث عن مريم وآسية ضمن نفس اطار هذا الاستدلال ويـقول: «وأمـا اختياره (تعالى) مريم وآسية فهو الحاقهما بالكمـال الذي للـرجـال، مـع وجـود «الدرجة» التي «للرجال عليهن» فان تلك الدرجة وجودية، فلا تزول»[٤].

ورغم اعتقاد ابن العربي بأن درجة المرأة اقل من درجة الرجل مـن المـنظار الوجودي، إلّا انه يعتقد بامكانية كمالها، ولا يعتبر التأخر الوجودي عاملاً يحول

(١) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٤٨.
(٢) نفس المصدر، ج ٥، ص ٢٩٣.
(٣) نفس المصدر، ج ١٠، ص ٣٤٨.
(٤) نفس المصدر، ج ١٣، ص ٥٠٨.

دونها ودون الكمال. وقد اكد على هذه الفكرة في مواضع عديدة من الفتوحات كقوله:

«شهد رسول الله ﷺ لبعض النساء بالكمال، كما شهد لبعض الرجال ـ وان كانوا اكثر من النساء ـ في الكمال، وهو النبوة»[١].

وقال ايضاً:

«وقد تبلغ المرأة في الكمال درجة الرجال»[٢].

وتحدث عن هذا الموضوع ايضاً تحت عنوان «الانسانية وصف مشترك للرجل والمرأة»، فقال:

«من اعتبر الانسانية، ألحق النساءَ بالرجال كما الحقهن رسول الله ﷺ بالرجال في الكمال. ومن اعتبر الذكورة والانوثة وقول الله تعالى: «وللرجال عليهن درجة»، وغلّب الفاعل على المنفعل، فرّق بين الرجال والنساء»[٣].

وقال ايضاً:

«وقد شهد رسول الله ﷺ بالكمال لمريم وآسية»[٤].

وقال في موضع آخر من الفتوحات بعد استعراضه لمراتب الواصلين الى الله كأبي يزيد البسطامي وأبي عقال المغربي:

«فانه قد يكون منهم النساء»[٥].

وأورد الجامي كلاماً آخر عن ابن العربي يعتبر فيه النساء جزءاً من الأبدال أيضاً: «يقول صاحب الفتوحات رحمة الله تعالى عليه في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات وبعد ذكره لطبقات الرجال: والكلام الذي نتكلم به عن هؤلاء

---

(١) نفس المصدر، ج ٦، ص ٤٢٨.

(٢) نفس المصدر، ج ١٠، ص ١٤٣.

(٣) نفس المصدر، ج ٧، ص ٢٣٦.

(٤) نفس المصدر، ج ١٠، ص ٣٤٩.

(٥) نفس المصدر، ج ٤، ص ١٠٨ و١٠٩.

الرجال نأتي به باسم الرجل، في حين ان بعضهم من النساء. والسبب في ذكرنا لهن باسم الرجل لغلبة ذكر الرجل لا لشيء آخر. وقد قيل لأحد رجال الله: كم عدد الأبدال؟ قال: اربعون شخصاً. قالوا: لم لا تقول اربعون رجلاً؟ قال: لأن بعضهم نساء»[١].

لذلك يمكن القول ان ابن العربي ورغم اعتقاده بنقص المرأة بالنسبة للرجل، من الناحية الوجودية، إلّا انه لا يرى هذا الامر مانعاً دون قطعها لطريق العرفان وتساميها في المقامات العرفانية، ولا فرق بين الرجل والمرأة على هذا الصعيد. بل انه يقول:

«وقد ينزل الرجل في النقص الى ما هو أقل من درجة النقص الذي للمرأة»[٢]. ولا شك في ان هذا النقص، نقص أخلاقي وروحي ـ أو في الانسانية كما يعبّر عنه ابن العربي ـ حيث يتساوى الرجل والمرأة ضمن هذا الاطار في مجال النمو أو الانحطاط.

ورغم ذلك يبدو انه لا يستطيع ان يتجاهل تفوق الرجل على المرأة، لذلك نراه يقول:

«ولهذا قال رسول الله ﷺ كَمُل من الرجال كثيرون ولم يكمل من النساء إلّا مريم وآسية»[٣].

ولا يخلو كلام ابن العربي ضمن هذا المجال من اضطراب وتضارب.

ورغم ان الكلمات التي نقلناها عنه في مضمار نقص النساء درجة عن الرجال، توحي بأن هذا النقص يدور ضمن اطار طريقة خلق المرأة، كما أُشير الى ذلك في الفصوص، غير ان النتيجة الاخرى التي يستنتجها من هذا التأخر الوجودي هي: نقص الدين والعقل لدى المرأة! ومما قاله بهذا الشأن:

---

(١) الجامي، عبد الرحمن، نفحات الأنس من حضرات القدس، تحقيق مهدي توحيدي بور، ص ٦١٥.

(٢) الفتوحات، ج ١٠، ص ١٤٣.

(٣) نفس المصدر، ج ١٢، ص ٢٦٩.

«ان الغالب فضل عقل الرجل على عقل المرأة، لأنه عَقَل عن الله قبل عقل المرأة (عن الله)، لأنه تقدمها في الوجود. والأمر الالهي لا يتكرر. فالمشهد الذي حصل للمتقدم لا سبيل أن يحصل للمتأخر ... وهذه هي الدرجة التي يزيد بها الرجل على المرأة. وأين الكل من الجزء؟ ... فما كل جزء يلحق بالكل في كل الدرجات»[١].

ولتوضيح فكرة ابن العربي هذه نقول: بما انه يأخذ بقاعدة امكان الأشرف، يرى ان حركة تكوين كل كائنات عالم الوجود تجري بواسطة العقل. فالله تعالى يخلق العقل الأول بتعقله لذاته، والعقل الأول يُظهِر العقل الثاني بتعقلين: تعقله لذاته، وتعقله لله ... الخ. وبهذه الطريقة تظهر العقول السماوية، والنفوس السماوية، والأجرام السماوية (او الفلكية)، والموجودات الارضية (او ما تحت القمرية). وكل موجود في هذه السلسلة كلما كان اقرب الى الله، كانت درجته الوجودية والكمالية أعظم.

وعلى صعيد آخر فقد خُلق آدم اولاً في سلسلة الوجود، ثم ظهرت حواء من آدم. ومعنى هذا ان آدم يتمتع بعقل أكبر[٢].

ويستند ابن العربي الى ما يذهب اليه ضمن هذا الاطار بآية من القرآن الكريم ويقول: «ولم يردّ (الله) على العزيز (عزيز مصر) في قوله «ان كيدكُنّ عظيم» ولا أكذبه، مع ضعف عقل المرأة عن عقل الرجل، فإن النساء ناقصات عقل ودين»[٣].

ولازالت هناك نتيجة اخرى لابد من الاشارة اليها. فقد ورد في الفصوص ـ وكما تقدم ـ ان آدم خُلق على صورة الله، وحواء خُلقت على صورة آدم. وكما حنّ

---

(١) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٣ و ١٤٤.

(٢) وردت قاعدة امكان الأشرف في معظم الكتب الفلسفية الاسلامية، وأُشير الى ما يقوم عليها من علوم كعلم الكون والفلك.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٨٧.

الرجل الى ربه لأنه اصله، فقد حنّت المرأة الى الرجل لأنه اصلها، فحبّب اليه ربه النساء كما أحب الله من هو على صورته. ويعتبر ابن العربي هذا الأمر أحد العوامل الكامنة خلف الحب القائم بين المرأة والرجل وأحد اسباب ميل الرجل اليها.

ويستنبط ابن العربي من كلامه هذا كلاماً آخر يوجب تفوق الرجل على المرأة: «ان الرجل ـ وهو آدم ـ خُلِق على صورته (صورة الله)، وخُلقت حواء على صورة آدم، وخُلق البنون من امتزاج الأبوين، لا من واحد منهما، بل من المجموع حساً ووهماً ... فإنّ الرجل وإن كان خُلق من مركب فهو من البسائط أقرب، فهو أقرب الأقربين. والمرأة خُلقت من مركب محقق، فانها خُلقت من الرجل فبعدت من البسائط اكثر من بعد الرجل ... لأنها جزء منه، وإن اجتمعا في الانسانية»[١].

فطبقاً لقاعدة إمكان الأشرف، كلما بَعُد فاصل الصدور عن الله، قلّ الكمال. ففي سلسلة الموجودات: الموجود الأقرب الى الله، بساطته اكثر وتركّبه أقل. وقد خُلقت المرأة بعد الرجل، لذلك فهي أبعد عن الله في هذه السلسلة.

وهناك شواهد اخرى في الفتوحات تدلل على ان ابن العربي ينظر الى المرأة في درجة ادنى من الرجل. ففي توضيحه لبعض الأحكام الفقهية يعتبر المرأة في حكم المريد والرجل في حكم الشيخ والمراد[٢]. ويعبر في موضع آخر عن المرأة بالتلميذ، وعن الرجل بالعارف[٣].

كما نراه يقول في أحكام الغسل:

«ومن رأى ان المرأة تغسل الرجل، وهو غسل الناقص للكامل، فللناقص ان يطهِّر الكامل اذا تحقق ان الكامل وقع في شبهة ولابد»[٤].

---

(١) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٢ و١٤٤ و١٤٥.

(٢) نفس المصدر، ج ٧، ص ٥٠٠ ـ ٥٠٣.

(٣) نفس المصدر، ج ٧، ص ٤٩١ ـ ٤٩٥.

(٤) نفس المصدر، ج ٧، ص ٤٩٧.

ويذكر ابن العربي في مواضع اخرى نقاط ضعف اخرى للمرأة كقوله بأنهـنّ اكثر أهل النار:

«وأما أخذ الأرفاق منهن، فإنه (أي العارف) يأخذ منهن لهنّ، كما أخذه رسول الله ﷺ حين أمرهنّ أن يتصدقن، لأنه يسعى في خلاصهنّ لما رآهن اكثر أهل النار، فأشفق عليهن حيث كُنَّ منه»[١].

والعلة التي ذكرها ابن العربي وراء اخذ الرسول ﷺ للصدقات من النساء، لا دليل له عليها، وانما أوردها من عنده.

ويرى ابن العربي في موضع آخر ان كلام النساء مثير للشهوة حيث يقول:

«فإن كلام المرأة يثير الشهوة بالطبع، ولا سيما إن كان في كلامها خضوع وانكسار. وفي خيال السامع أنها أُنثى، وفي قلبه مرض. والله قد نهاهن عن الخضوع في القول فقال ﴿ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقُلن قولاً معروفاً﴾. ففي هذه الآية اباحة كلام النساء للرجال على وجه خاص»[٢].

ولا شك في ان هذه الآية توجه خطابها لنساء النبي ﷺ، وقد ورد في مطلعها ﴿يا نساءَ النبي لستُنّ كأحدٍ من النساء﴾، غير ان ابن العربي عدّ مضمونها حكماً كلياً يشمل جميع النساء.

والمدهش في الأمر ان للقديس بولس رأياً شبيهاً برأي ابن العربي في هذا المضمار، اشرنا اليه في موضعه. فقد منع حديث المرأة حتى بين مجاميع المؤمنين والكنائس، ودعا الى صمت المرأة حتى حين التعليم[٣].

حب المرأة حب الله

ضمن شرح ابن العربي للحديث المنقول عن النبي ﷺ في مضمار حب النساء،

---

(١) نفس المصدر، ج ١٤، ص ٦٧.

(٢) نفس المصدر، ج ٧، ص ٢٣٧.

(٣) الرسالة الاولى الى طيموتاوس، ٢ / ١١ و١٢.

والطيب، والصلاة، قال: «فلهذا قال (الرسول): حُبِّبَ، ولم يقل أحببتُ من نفسه لتعلق حبه بربه الذي هو على صورته حتى في محبته لامرأته، فإنه أحبها بحب الله اياه تخلقاً الهياً»[١].

ويقول الخوارزمي في شرح هذا المقطع من كلام ابن العربي: «ان رسول الله ﷺ كان محباً لله فقط، إلّا ان الله جعله محباً للنساء أيضاً. ومعنى هذا ان حبه للمرأة نتيجة من نتائج الحب الالهي المنغرس في جبلّته وذاته. فالمرأة مظهر من المظاهر الكلية التي تتفرع منها مظاهر كثيرة. وبما ان ظهور هذا الحب في الرسول ﷺ بواسطة حب الله، قال الشيخ الاكبر ان الرسول ﷺ احب المرأة بحب الله اياه. ولا جرم في ان حب الرسول ﷺ للمرأة منبعث من التخلق بالخلق الالهي، لأن الله يحب من هو على صورته وما هو متفرع منه. ولذلك نزلت في الرسول ﷺ الآية ﴿وانك لعلى خُلُق عظيم﴾ لكمال تخلقه بالأخلاق الالهية»[٢].

وأشار ابن العربي الى هذا الأمر في الفتوحات المكية ايضاً وقال: «قال رسول الله ﷺ: «حُبِّب الي من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»، فذكر النساء. اتُرى حُبِّب اليه ما يبعده عن ربه؟ لا! والله! بل حُبِّب اليه ما يُقرّبه من ربه ... فمن عرف قدر النساء وسرّهُنّ لم يزهد في حبهن ... فإنه ميراث نبوي وحبّ الهي. فإنه قال ﷺ «حُبِّب الي» فلم ينسب حبه فيهن إلّا الى الله تعالى ... فحبهنّ فريضة واقتداء به ﷺ ... فإنه ميراث نبوي وحب الهي»[٣].

ويقول أيضاً: «فحنين العارفين اليهن (هو) حنين الكل الى جزئه»[٤].

ولم يكتف بهذا، بل عد حبهن كمال العارفين:

---

(١) ابن العربي، الفصوص، ص ٢١٧.

(٢) الخوارزمي، تاج الدين، شرح فصوص الحكم، تحقيق نجيب مايل الهروي، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٧٨٦.

(٣) الفتوحات، ج ١٤، ص ٦٧ ـ ٦٩.

(٤) نفس المصدر، ص ٦٦.

«فمن عرف قدر النساء وسرّهنّ لم يزهد في حبهنّ، بل كمال العارفين حبهنّ»[١].

اذن يعتبر ابن العربي حب المرأة ميراثاً نبوياً، ويعدّه ضرورياً اقتداءً بسنة الرسولﷺ، ويوصي العرفاء بعدم حرمان أنفسهم من هذا الحب وهم الذين يقتدون بالرسولﷺ في الظاهر والباطن.

وهذه المحبة تبدو بالتحليل الذي يقدمه ابن العربي محبة الهية وطبيعية لأن الله تعالى هو الذي القى حب النساء في قلب الرسولﷺ، ولان الكل يميل الى جزئه، وبما أن المرأة جزء من وجود الرجل، والرجل أصل لوجودها، فلابد له من حب المرأة.

واعتبر ابن العربي في موضع آخر جمال المرأة عاملاً من عوامل حبها فقال:

«فحبّب اليه النساء، فأحبهن، فكانﷺ يحبهن بكون الله حببهن اليه. خرّج مسلم في «صحيحه» في ابواب الايمان: «ان رجلاً قال لرسول اللهﷺ: اني احب ان تكون نعلي حسناء وثوبي حسناً. فقال رسول اللهﷺ: ان الله جميل يحب الجمال».

ثم اضاف ابن العربي في اعقاب ذلك:

«المختص بمحمدﷺ انه ما ورد قط عن نبي من الأنبياء انه «حُبب اليه النساء» إلّا محمدﷺ، وإن كانوا رزقوا منهن كثيراً كسليمان﵇ وغيره. ولكن كلامنا في كونه «حُبِّب اليه» وذلك انهﷺ «كان نبياً وآدم بين الماء والطين» ... فكان مقتطعاً الى ربه لا ينظر معه الى كون من الأكوان لشغله بالله عنه. فإن النبي مشغول بالتلقي عن الله ومراعاة الأدب، فلا يتفرغ الى شيء من دونه. «فحبب اليه النساء» فأحبهن عناية من الله بهن، فكانﷺ يحبهن بكون الله حببهن اليه»[٢].

ويعتمد تفسير ابن العربي لوقوع حب النساء في قلب الرسولﷺ، على

---

(١) نفس المصدر، ص ٦٩.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٣٩ و ٣٤٠.

شخصية الرسولﷺ، وكذلك على الهـية هـذا الحب، لأن الرسـولﷺ قـال «حُبِّبَ الي» مما يدل على كون هذا الحب امراً مقدراً من الله.

وعلى صعيد آخر، بما ان الرسولﷺ غارق في الذكر الالهي، فلابد ان يقع ما يحبه ضمن توجهه الدائم نحو الله، ولابد ان يكون حبه عاملاً من عوامل تقرّبه الى الله.

وفي القرآن آية تمنع الرسولﷺ من الزواج المجدد وهي: ﴿**لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من ازواج ولو أعجبك حسنهن إلّا ما ملكت يمينك**﴾[1]، وقد اعتبر ابن العربي هذه الآية من أشق الآيات التي نزلت على الرسولﷺ:

(فأبق عليه رحمة ربه لما جعل في قلبه من حب النساء، ملك اليمين. وهذه من أشق آية نزلت على رسول اللهﷺ، فقالت عائشة: «ما كان الله ليـعذّب قـلب نبيهﷺ. والله ما مات رسول اللهﷺ حتى أُحِلّ»)[2].

طبعاً يعتبر ابن العربي الميل نحو النساء والوقوع في حبهن، امراً ضاراً بالنسبة للمريد الذي لازال في بداية الطريق، ما لم ينل درجة العرفان، أي غاية الطريق. وانطلاقاً من ذلك ينهى المريدين من قبول هدية المرأة ويقول:

«واعلموا أن الشيوخ إنّما حُذِّروا من أخذ الارفاق من النساء ... لما ذكرناه من الميل الطبيعي.

فلا ينبغي للمريد أن يأخذ رِفْقاً من النساء حتى يرجع هو في نفسه امرأة، فاذا تأنّث والتحق بالعالم الأسفل ورأى تعشق العالم الأعلى، وشهد نفسه في كل حالٍ ووقتٍ ووارِدٍ منكوحاً دائماً ولا يبصر لنفسه في كشفه الصوري وحاله ذَكَراً ولا انه رجل أصلاً، بل أُنوثة محضة، ويحمل من ذلك النكاح ويلد، حينئذ يجوز أخذ الرفق من النساء ولا يضره الميل اليهن وحبهن. وأما أخذ العارفين فـطلق لأن

(١) سورة الأحزاب / ٥٢.

(٢) الفتوحات، ج ١٤، ص ٦٨.

مشهودهم اليد الالهية المقدسة المطلقة في الأخذ والعطاء»[١].

النكاح

انبرى ابن العربي في مقطع آخر من الفص المحمدي للتحدث عن أسرار النكاح من وجهة النظر العرفانية فقال:

«ولما أحب الرجلُ المرأةَ طلب الوصلة، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة. فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم من وصلة النكاح، ولهذا تعمّ الشهوة أجزاءه كلها. ولذلك أُمر بالاغتسال منه، فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة»[٢].

بعد أن يكشف ابن العربي عن اسباب ميل الرجل للمرأة وميل المرأة للرجل، يعتبر طلب الوصال نتيجة لذلك الميل. ونظراً لتحقق أرفع انواع تجسد الوصال في النكاح وذلك في عالم الظاهر، يلجأ الرجل والمرأة الى طلب النكاح. غير ان الرجل خلال النكاح يتجه الى حد ما الى غير الله ـ أي الى المرأة ـ وتبعث الشهوة للمرأة على فنائه فيها. وبما أن هذا الفناء يأخذ الطابع التام الكامل، لذلك يجب الاغتسال كي تعم الطهارة جميع اجزاء البدن ويزول عنه ذلك الفناء الذي حصل بفعل الشهوة[٣].

ويتابع ابن العربي بعد ذلك هذا الموضوع قائلاً:

«فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فطهره بالغسل ليرجع بالنظر اليه فيمن فنى فيه، اذ لا يكون إلّا ذلك. فاذا شاهد الرجلُ الحقَّ في المرأة كان شهوداً في منفعل. واذا شاهده في نفسه ـ من حيث ظهور المرأة عنه ـ شاهده في فاعل. واذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكوّن عنه كان شهوده

---

(١) نفس المصدر، ج ١٤، ص ٨١ و٨٢.

(٢) الفصوص، ص ٢١٧.

(٣) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٨٧.

في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في المـرأة أتم وأكمل لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل؛ ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة. فلهذا أحب ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن، اذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً، فان الله بالذات غنيّ عن العالمين. واذا كان هذا الأمر من هذا الوجه ممتنعاً، ولم تكن الشهادة إلّا في مادة، فشهود الحق في النساء أعـظم الشهـود وأكـمله. وأعظم الوصلة النكاح وهو نظير التوجه الالهي على من خـلقه عـلى صـورته ليخلفه فيرى فيه نفسه فسوّاه وعدله ونفخ فيه من روحه الذي هو نفسه، فظاهره (اي الانسان) خلق وباطنه حق»[١].

في هذا المقطع نلاحظ استمرار تفسير ابن العربي العرفاني للنكاح. فهو يرى ان حكم الغسل قد تقرر كي يتجه العبد الى الله من جديد، لأنه يفنى خلال النكاح في المرأة فيتوهم انه قد التذ بها دون الله، في حين ان الله تعالى غيور ولا يقبل مثل هذا التوهم لعبده.

ولتفسير كيف يمكن للرجل ان يشاهد الله في المرأة، قدم ابن العربي مبدأً في هذا المضمار هو «المرأة منفعلة والرجل فاعل». وقال بأن لهذا الانفعال جانباً وجودياً، أي ان المرأة محل انفعال الرجل.

ويقول ابن العربي في الفتوحات ضمن هذا السياق:

«وخُلقت المرأة منفعلة عن الرجل ليحن اليها حنين من ظهرت سيادته بهـا. فهو يحبها محبة من أعطاه درجة السيادة»[٢].

ويؤكد على حقيقة انفعالية المرأة وفاعلية الرجل في موضع آخر قائلاً:

«ومن اعتبر الذكورة والانوثة وقوله تعالى «وللرجال عليهنّ درجة»، وغلَّب الفاعل على المنفعل، فرّق بين النساء»[٣].

---

(١) الفصوص، ص ٢١٧ و٢١٨.

(٢) الفتوحات، ج ١٠، ص ١٤٢.

(٣) نفس المصدر، ج ٧، ص ٢٣٧.

ويقول الخوارزمي في شرح هذا المقطع من كلام ابن العربي قائلاً:

«اما وجه فاعلية المرأة فهو ان الحق الظاهر صورة المرأة يتصرف تصرفاً كلياً في نفس الرجل ويجعله منقاداً ومحباً لنفسه. وأما وجه منفعليتها هو انها في تلك الحالة ستكون موضع تصرف الرجل وواقعة تحت يده ومنقاده لأمره ونهيه. لذلك لا شك في ان شهود الرجل للحق في المرأة، شهود للحق في الفاعلية والمنفعلية. وعليه فهي اكمل»(١).

وبعد هذا التفسير العجيب لطريقة شهود الحق في المرأة واختلافه عن شهوده في الرجل، يستنتج ابن العربي من ذلك ان الرسول ﷺ قد احب النساء لأن شهود الحق فيهن يبلغ أكمل الوجوه.

ثم يطرح بعد ذلك دليلاً أعم وهو ان الله تعالى لا يمكن ملاحظته بصورة مجردة عن المواد قط. لذلك ومن اجل الظهور في عالم المحسوس لابد أن يظهر في محل لديه مادة، ويُعد وجود المرأة هو المحل الذي يظهر فيه الله تعالى في اكمل وجه. ولربما يُعد هذا أسمى مقام يعترف به ابن العربي للمرأة في عالم الخلق والسير والسلوك العرفانيين.

وضمن اطراده في حديثه يعتبر ابن العربي النكاح «أعظم وصلة»، أي اكبر اتحاد والتحام، ويعتبره نظير التوجه الالهي على من خلقه على صورته. ويعلق الكاشاني على فكرة ابن العربي هذه بقوله ان الناكح يلتفت أيضاً لايجاد ولد على صورته فينفخ فيه من روحه بواسطة نطفته كي يشاهد نفسه وعينه في مرآة ولده وليكون خليفته من بعده. فهذا النكاح اذن نظير النكاح الأصلي الأزلي(٢).

مكانة المرأة في مراتب الوجود

ويتحدث ابن العربي ضمن ذلك الفص عن لفظة «النساء» ويقدم بعض

---

(١) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٨٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٧٨٩.

الاستنباطات التي استنبطها من هذه اللفظة، ويقول:

«وسمّاهن بالنساء وهو جمع لا واحد له من لفظه. ولذلك قال عليه السلام: «حُبِّبَ الي من دنياكم ثلاث: النساء ...» ولم يقل المرأة، فراعى تأخرهن في الوجود عنه، فان النسأة هي التأخير. قال تعالى: ﴿انما النسيء زيادة في الكفر﴾[١]. والبيع بنسيئة يقول بتأخير، ولذلك ذكر النساء. فما احبهن إلّا بالمرتبة وأنهن محل الانفعال. فهن له كالطبيعة للحق التي فتح فيها صور العالم بالتوجه الاداري والأمر الالهي الذي هو نكاح في عالم الصور العنصرية وهمّة في عالم الارواح النورانية، وترتيب مقدمات في المعاني للنتائج. وكل ذلك نكاح الفردية الاولى في كل وجه من هذه الوجوه»[٢].

وهكذا نرى ان ابن العربي يعتقد بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد استخدم لفظة النساء ليدل على التأخر الوجودي الذي لديهن عن الرجال. وقد استشهد لدعم رأيه هذا بآية من القرآن الكريم وردت فيها كلمة «النسيء». وقيل في تفسير هذه الآية ان الكفار كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم الى غيرها، فيمارسون القتل والنهب في هذه الأشهر الحرم. وقد وصف الله تعالى هذا التأخير الذي عبّر عنه بـ «النسيء» بأنه زيادة في الكفر. لأنهم يبدلون خلال ذلك الحلال الى حرام والحرام الى حلال[٣].

ويؤكد ابن العربي بعد ذلك على الطبيعة المنفعلة للمرأة ويشبهها بالطبيعة الكلية التي تصرف فيها الله تعالى بتوجهه وارادته. وهذا النوع من التأثير والتصرف من وجهة نظره هو ذات النكاح في عالم المادة، والهمة في عالم المعنى، وتنظيم المقدمات للحصول على النتائج في عالم الذهن.

يقول ابن العربي في الفتوحات:

---

(١) سورة التوبة / ٣٧.

(٢) الفصوص، ص ٢١٨.

(٣) راجع الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٩٠.

«وكان من سنته النكاح لا التبتل. وجعل النكاح عبادة للسر الالهي الذي اودع فيه، وليس (هذا السر) إلّا في النساء. وذلك ظهور الأعيان للثلاثة أحكام التي تقدم ذكرها في الانتاج عن المقدمتين، والرابط الذي جعله علة الانتاج. فهذا الفضل وما شاكله مما اختص به محمدﷺ»[1]. أي مثلما تحصل مقدمتان في نكاح المعاني، يحصل الأبناء في نكاح الاجسام من زواج الآباء والامهات. وبهذا التفسير يعتبر ابن العربي الهدف من الزواج هو بقاء النوع:

«والنكاح في هذه الدار انما هو لبقاء النوع ... فقامت (حواء) حية، ناطقة، أُنثى، ليجعلها محلاً للزراعة والحرث لوجود الإنبات الذي هو التناسل»[2].

ولهذا السبب بالذات يعتبر المرأة محل التكوين:

«النساء محل التكوين، فهن الى المكوّن أقرب. فهم (فهنّ) أولى بالقبلة من الرجال. وإنْ وقع التكوين في الرجال مرة واحدة ـ ولم يكن سوى تكوين حواء من آدم ـ فالحكم للغالب. ولاسيا وقد جُعل في مقابلة تكوين حواء من آدم، تكوين عيسى من مريم من غير فحل. وبقي الغالب في الاناث انهن محل التكوين»[3].

ورغم اننا قد نقلنا من قبل عن ابن العربي اعتقاده بأن النساء ابعد عن البساطة الالهية وأنقص من الرجال لتأخرهن الوجودي، إلّا انه يعتبرهن هنا اقرب الى الله من حيث الدور الذي يلعبنه في عالم الخلق كمحل للتكوين.

اذن فالنكاح أو «الحب» عند ابن العربي يمثل أسمى صورة يُعبد الله فيها، لأن النكاح المتعارف، نظير النكاح الأصلي الأزلي. فالله لا يُلاحظ قط بصورة غير مادية، لذلك تُعد مشاهدته في المرأة أكمل انواع المشاهدة»[4].

---

(١) الفتوحات، ج ٢، ص ٣٤٠.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٤٨ و٢٤٩.

(٣) نفس المصدر، ج ٨، ص ٨٩.

(٤) نيكلسون، رينولد، ملاحظات حول فصوص الحكم، ترجمة أوانس أوانسيان، ١٩٨٤،

تجلي الله في المرأة

يقول ابن العربي:

«فمن أحب النساء على هذا الحد فهو حب الهي، ومن أحبهن على جهة الشهوة الطبيعية خاصة نقصه على هذه الشهوة، فكان صورة بلا روح عنده، وان كانت تلك الصورة في نفس الأمر ذات روح ولكنها غير مشهودة لمن جاء لامرأته ـ أو انثى حيث كانت ـ لمجرد الالتذاذ ولكن لا يدري لمن ... كذلك هذا أحب الالتذاذ فأحب المحل الذي يكون فيه وهو المرأة، ولكن غاب عنه روح المسألة. فلو علمها لعلم بمن التذ ومن التذ وكان كاملاً»[١].

في هذا المقطع يسلط ابن العربي الضوء على سر حب المرأة من المنظارين الظاهري والباطني. فالظاهري الذي يحب الالتذاذ يحب المحل الذي يلتذ فيه وهو المرأة. والباطني فانه يرى التجلي الالهي في نفسه التي تتلذذ وفي المرأة التي هي محل اللذة، ولذلك يختلف العالم عن الجاهل في هذا المضمار في ان العالم يرى نفسه مظهراً من مظاهر الحق تعالى، ولذلك يعلم من هو الذي يلتذ، ويرى المرأة تجلياً للحق تعالى فيدرك بمن التذ. وفي مثل هذه الحالة يشاهد الحق بصورة كاملة في نفسه وفي محبوبه[٢].

النسبة فيما بين المرأة والرجل

تحدث ابن العربي ضمن هذا الاطار قائلاً:

«وكما نزلت المرأة عن درجة الرجل بقوله ﴿وللرجال عليهن درجة﴾[٣]، نزل المخلوق على الصورة عن درجة من أنشأه على صورته مع كونه على صورته.

← ص ٦٦ـ٦٧.

(١) الفصوص، ص ٢١٨ و٢١٩.

(٢) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٩٢ و٧٩٣.

(٣) البقرة / ٢٢٨.

فبتلك الدرجة التي تميز بها عنه، بها كان غنياً عن العالمين وفاعلاً اولاً، فان الصورة فاعل ثان. فما له الأولية التي للحق. فتميزت الأعيان بالمراتب: فأعطى كل ذي حق حقه كل عارف. فلهذا كان حب النساء لمحمدﷺ عن تحبب الهي وان الله ﴿أعطى كل شيء خلقه﴾[1] وهو عين حقه»[2].

اذن فحب الرسولﷺ للنساء عين حقه لأن أعيان الرجال تقتضي حب النساء، رغم ان الرجل يُعد على وجه آخر محبوب المرأة ومعشوقها، وتُعد المرأة محبة وعاشقة. وقد جُمعت في كل من المرأة والرجل صفتا العاشقية والمعشوقية معاً. ولذلك فقد حصل بينهما ارتباط، وسرت المحبة الى جميع المظاهر. اذن فكل من المحب والمحبوب، عاشق من وجه ومعشوق من وجه آخر. مثلما ان الحق محب من وجه ومحبوب من وجه آخر. ولا شك في ان المحبة هي الرابطة التي تربط بين الحق والخلق[3].

وهكذا نرى ان ابن العربي قد سلط في هذا المقطع الضوء على سر ثنائية الحب بين الرجل والمرأة، والحق والانسان، وهو الامر الذي سبق ان اشار اليه في المقاطع السابقة أيضاً. وسنفرد حقلاً خاصاً للحديث عن رأي ابن العربي في الحبين الانساني والالهي، ونتناول هذا الموضوع بشكل مفصل.

مدى اهتمام النبيﷺ بالنساء

يستند المقطع الآخر من كلام ابن العربي على بحث لغوي ونحوي، فهو يقول:

«فما أعطاه إلّا باستحقاق استحقه بمسماه، أي بذات ذلك المستحق. وانما قدم النساء لأنهن محل الانفعال، كما تقدمت الطبيعة على من وجد منها بالصورة ... ثم انهﷺ غلّب في هذا الخبر التأنيث على التذكير لأنه قصد التهمم بالنساء فقال

---

(١) طه / ٥٠.

(٢) الفصوص، ص ٢١٩.

(٣) راجع: الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٩٤.

«ثلاث» ولم يقل «ثلاثة» بالهاء الذي هو لعدد الذكران، اذ وفيها ذكر الطيب وهو مذكر، وعادة العرب أن تغلّب التذكير على التأنيث فنقول «الفواطم وزيد خرجوا» ولا نقول «خرجن». فغلبوا التذكير ـ وان كان واحداً ـ على التأنيث وان كن جماعة، وهو عربي فراعى ﷺ المعنى الذي قصد به في التحبب اليه ما لم يكن يؤثر حبه»[١]، لأن الله تعالى قد كشف له عن سر تحبب النساء، لذلك راعى جانب التأنيث من أجل الاشعار بالمقصود.

دور المرأة في عالم الوجود

وبعد بيان ابن العربي لسر عدول الرسول ﷺ عن لفظ التذكير الى لفظ التأنيث، نجده يتناول موضوعاً مهماً آخر وهو دور التأنيث في الوجود:

«ثم انه (النبي) جعل الخاتمة نظيرة الاولى في التأنيث وأدرج بينهما المذكر. فبدأ بالنساء وختم بالصلاة وكلتاهما تأنيث، والطيب بينهما كهو في وجوده. فان الرجل مدرج بين ذات ظهر عنها وبين امرأة ظهرت عنه. فهو بين مؤنثين: تأنيث ذات، وتأنيث حقيقي. كذلك النساء تأنيث حقيقي والصلاة تأنيث غير حقيقي، والطيب مذكر بينهما كآدم بين الذات الموجود عنها وبين حواء الموجودة عنه. وإن شئت قلت الصفة فمؤنثة ايضاً، وإن شئت قلت القدرة فمؤنثة ايضاً. فكن على أي مذهب شئت، فإنك لا تجد إلّا التأنيث يتقدم حتى عند اصحاب العلة الذين جعلوا الحق علة في وجود العالم والعلة مؤنثة»[٢].

ويقول الخوارزمي في شرح هذا المقطع: «حاصل الكلام هو ان الشيخ قدس الله سره يشير بلسان الذوق الى ان الخاتمة ازلية نظيرة السابقة، لأن آدم الحقيقي الغيبي وآدم الشهادة كلاً منهما مذكر وواقع بين المؤنث غير الحقيقي الذي هو لفظ الذات وبين المؤنث الحقيقي الذي هو حواء.

---

(١) الفصوص، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) الفصوص، ص ٢٢٠.

اذن فإذا عبّرت عن الذات بالحقيقة الأصلية والعين الالهية، فهي مؤنثة. واذا جعلت الصفة وهي القدرة سبباً لوجود آدم، واعتبرت الصفة مغايرة للذات ـ كما هو مذهب المتكلمين ـ أو عين الذات ـ كما هو مذهب الحكماء ـ أو اعتبرت الذات من حيث هي هي بدون اعتبار الصفة، علة لوجود العالم، فالحكم في التأنيث بنفس الترتيب الذي قيل. وبما ان رسول الله ﷺ أفصح فصحاء العرب، وأعلم علماء أهل العالم، فقد أشار في كلامه الى الكيفية التي عليها حال الوجود، كي يفطن الى ذلك أهل الذوق والشهود»[١].

وكتب البروفسور «ايزوتسو» في شرح رأي ابن العربي حول اهمية العنصر المؤنث في الخلق قائلاً:

«من الامور التي سلطت الضوء على آراء ابن العربي في العالم، تأكيده على الدور الأساسي الذي يلعبه العنصر المؤنث في خلق العالم ... فالخلقة بأجمعها من وجهة نظره عبارة عن حركة تقع تحت حكم المبدأ المؤنث. ونقطة البداية في فكره حول هذه المسألة تتمثل في الحديث النبوي الشهير (حديث حب النساء). فيرى ان الرسول ﷺ قد استخدم كلمة «ثلاث» عن عمد (رغم ان ذلك مخالف للقاعدة النحوية العربية). فنظراً لوجود كلمة «الطيب» المذكرة بين كلمتين مؤنثتين، فلابد ان يغلب المذكر على المؤنث، وبما ان العدد يخالف المعدود، فلابد أن يقال «ثلاثة» بدلاً من «ثلاث» طبقاً للقواعد العربية. غير ان هذا السلوك النبوي يعبر عن رمز عميق ويكشف عن ان جميع العوامل الأساسية المتظافرة في الخلق، هي عوامل مؤنثة، ووقوع جميع حركة الخلق تحت تأثير التأنيث. ويرى ابن العربي ان طريقة ظهور الرجل تحظى بالاهتمام:

يقع الرجل بين الذات الالهية التي ظهر منها، وبين المرأة التي ظهرت منه، فهو اذن بين مؤنثين: الاولى الذات المؤنثة، والاخرى المؤنث الحقيقي.

فالذات التي هي مبدأ جميع الوجود، اسم مؤنث. والأرضية الاولى لظهور جميع

---

(١) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٩٧.

صور الوجود ـ أي الصفات ـ هي اسم مؤنث ايضاً. وقدرة الخلق التي لدى الباريً تعالى، هي اسم مؤنث. وعليه لو نظر الانسان الى الخلق من أية زاوية لشاهد اسماً مؤنثاً. ويضيف ابن العربي انه حتى الفلاسفة الذين يقلدون الفلسفة اليونانية تقليداً أعمى ويعتبرون الله علة لوجود العالم، استخدموا كلمة «العلة» المؤنثة أيضاً في تعريف أصل خلق العالم»[١].

وبحث الكاشاني[٢] هذه الفكرة بحثاً فلسفياً، فقال:

«ان اصل كل شيء الأم، لأن الأم تتفرع عنها الفروع: ألا ترى قوله ﴿وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ وهي مؤنثة، مع ان النفس الواحدة المخلوق منها ايضاً مؤنثة. وكذلك أصل الاصول الذي ليس فوقه فوق يعبّر عنه بالحقيقة ... وكذا العين والذات «تباركت وتعالت»، وكل هذه الألفاظ مؤنث. فمراده (اي ابن العربي) من التغليب الاعتناء بحال النساء لما فيها من معنى الاصالة للتفرع كما في الطبيعة بل في الحقيقة؛ فان الحقيقة وان كان أباً للكل لأنه الفاعل المطلق فهي أم أيضاً لأنها الجامعة بين الفعل والانفعال، فهي عين المنفعل في صورة المنفعل، كما انها عين الفاعل في صورة الفاعل لأنها بحقيقتها تقتضي الجمع بين التعيّن واللاتعيّن. فهي المتعينة بكل تعيّن ذكراً وأنثى، كما انها هي المنزهة عن كل تعيّن. ومن حيث انها متعينة بالتعين الأول فهي العين الواحدة المقتضية للاستواء والاعتدال بين الفعل والانفعال والظهور والبطون ... كل متعين فهو باعتبار الحقيقة مع قطع النظر عن القيد المطلق. فالمتعين مستند الى المطلق متقوم به فهو منفعل من حيث ذلك الأصل المطلق ومظهر له، وذلك الأصل فاعل فيه مستتر فيه منفعل من حيث انه متعين من نفسه من حيث انه مطلق، مع ان العين واحدة ... فالحقيقة اينما

---

(١) ايزوتسو، توشيهيكو، الصوفية والطاوية، ترجمة الدكتور محمد جواد الجوهري، طهران، ١٩٩٩، ص ٢١٤ و٢١٦ و٢١٧.

(٢) عبد الرزاق الكاشاني (ت ٧٣٦ هـ)، عارف ايراني شهير، لديه شرح على فصوص الحكم لابن العربي.

سُلكت وفي أي وجه ظهرت فلها الفعل والانفعال والابوه والامومة. فلهذا صح التأنيث في الحقيقة والعين والذات»[١].

ويقول ايزوتسو:

«الحق الذي هو المبدأ الحقيقي والنهائي للخلق، لديه عنصر انثوي اذ يُشار اليه بـ «الذات» التي هي اسم مؤنث. اضف الى ذلك اننا لو درسنا التركيبة الوجودية لاسلوب الخلق لوجدنا حتى في تلك المرحلة الاولى (التعيّن الأول) كيف التحم الأصل المؤنث اي (الامومة) مع الأصل المذكر أي (الابوة). وعليه فالذات الالهية، أُم كل شيء، أي انها تمثل عنصر الانفعال في جميع صور الوجود»[٢].

«وعليه يقع آدم (الرجل) بين أصلين مؤنثين؛ فامرأة آدم مؤنثة، والنفس الاولى التي خُلق منها آدم مؤنثة ايضاً. أي ان آدم قائم بين أصلين مؤنثين. وعليه فالمؤنث (المرأة) فعال ومنفعل. ولابد للخالق ان يقوم بدورين ايضاً. فهو منفعل ازاء الصور التي يقبلها، وفعال ازاء ما يخلقه. وعليه تظهر الصور العينية كي يكون بالامكان مشاهدة الأمر الالهي فيها.

ففي فكرة ابن العربي صُوِّرت النسبة بين الحق والخلق والنسبة بين الرجل والمرأة على هذا المنوال وفُسِّرت على هذا الأساس ... كذلك الانسان يبصر ذات الحق بصورة الفاعلة (أي العاشق في الشعر الصوفي) وكذلك بصورته المنفعلة (أي المعشوق في الشعر الصوفي) أو بكلا الصورتين في ذات الوقت وتوأمين ... وعليه فالصورة الانسانية كَونٌ جامع يجمع تنويتين متمايزتين: ثنوية باطنية، وثنوية ظاهرية.

الرجل والمرأة متماثلان في الثنوية الباطنية. فالأصلان المذكر والمؤنث أي الروح والنفس، موجودان في كليهما بصرف النظر عن الصورة الظاهرية. والاختلاف بين الأفراد عبارة عن الاختلاف في الاستيعابات والاستعدادت.

---

(١) الكاشاني، شرح فصوص الحكم، ص ٣٣٦.

(٢) ايزوتسو، مصدر سابق، ص ٢١٨.

الثنوية الظاهرية تشمل الصورتين الماديتين لكل من الرجل والمرأة. والصورة المادية للمرأة من وجهة نظر ابن العربي تمثل اروع صور الجمال الأرضي. وهذا الجمال الارضي ليس سوى تجل وانعكاس للصفات الالهية التي تتجلى في اكمل وجه لها في الصورة الانسانية، وفي صورة المرأة بالذات، وان كانت صورة الرجل هي الاخرى بمثابة تجل للصفات الالهية ايضاً، غير ان صورة المرأة تمثل تجلياً اكبر»[١].

وهكذا نقف على ذروة آراء ابن العربي في المرأة. فابن العربي وبعد تحليله لدور المرأة في تكوين الأبناء، وشرحه لمفهوم النكاح والوصال، وتسليط الضوء على كيفية التجلي الالهي في المرأة، ينظر الى اسلوب الخلقة ومسارها، كاسلوب انثوي ومسارٍ مؤنث، فيعتبر المرأة مظهر جميع الفعل والانفعال في صورة مادية.

ويؤكد ابن العربي كذلك على وجود عنصري الفعل والانفعال في الحق وفي الرجل، ويحصر سر حب الرسول ﷺ للنساء ضمن اطار هذا التجلي الالهي في المرأة، ويسمي هذا السر بـ «سر قدر المرأة».

ولا شك في ان هذا التفسير للحديث النبوي وربطه بأسرار التجلي الالهي، تفسير رائع وعجيب ولا نظير له بين تفاسير وشروح المفكرين. ولم يقدم حتى الذين جاؤوا من بعده تفسيراً أسمى منه في مكانة المرأة في الرؤية العرفانية للكون. واذا ما وُجِد كلام رائع ضمن هذا الاطار فإنه مستوحىً من كلام ابن العربي.

فالدكتور مارتين لنيغز قد تأثر بتفسير ابن العربي لتجلي الأسماء الالهية في موضوع مبدأ القرابة والتكميلية في عالم الوجود، لذلك يقول بهذا الشأن: «ان تقسيم الصفات الالهية الى جلالية وجمالية عبارة عن اتفاق ثنائي قائم على الشبه وعدم الشبه، والقرابة والتكميلية. فكل من الجلال والجمال، امر لا متناه وسرمدي، وبينهما قرابة، غير ان احدهما كمال فعّال، والآخر كمال منفعل، ولذلك يكمل كل

---

(١) Bakhtiar, Laleh, Sufi Expressions of The Mystic Quest, Thames and Hudson, England pp. 21 - 22.

منهما الآخر. وفي الارض هناك قرابة بين الزوجين الانسانيين عن طريق الخلافة الالهية، حيث يكمل أحدهما الآخر من خلال التأنيث والتذكير. والانسجام العالمي قائم على التشابهات والاختلافات التي ليس بين الافراد فحسب وانما بين العوالم ايضاً»[١].

ولذلك فالقيم المقدسة والرمزية للمرأة مفيدة ومؤثرة في حفظ التوازن العالمي والتعادل المعنوي. وهذه القيم قد تحولت في يد ابن العربي الى مبادئ ماوراء طبيعية مناسبة للسير من الباطن الى الظاهر، وتوضيح وتبرير الأحكام الظاهرية. وقد أوّل بعض أحكام الشريعة تأويلاً عرفانياً بحيث بدت متسقة ومتناسقة مع مبادئ ماوراء الطبيعة المذكورة التي يؤمن بها.

المرأة طيب الوجود

وتحدث ابن العربي عن حكمة الطيب وجعله بعد النساء فقال: «وأما حكمة الطيب وجعله بعد النساء، فلما في النساء من روائح التكوين، فانه: اطيب الطيب عناق الحبيب».

يقول ابن العربي: تأتي من النساء رائحة التكوين والوجود، لأن للمرأة رتبة الامومة، ووجود الاولاد بواسطة هذه الرتبة. ومَن هو من اصحاب الكشف بامكانه ان يستشم من النساء روائح وجود الأولاد. ولذلك فقوله «اطيب الطيب عناق الحبيب» هو ان المحب يجد في عناق الحبيب رائحة عينه وحقيقته[٢].

يقول ابن العربي في الفتوحات تحت عنوان «الانسان ابن امه حقيقةً»: «فالانسان ابن امه حقيقةً بلا شك. فالروح ابن طبيعة بدنه، وهي امه التي ارضعته، ونشأ في بطنها، وتغذّى بدمها»[٣].

---

(١) الفصوص، ص ٢٢٠.

(٢) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٩٧ و٧٩٨.

(٣) الفتوحات، ج ٢، ص ٢٤٧.

فالابن علاقته بامه تفوق علاقته بأبيه، لأنه ينشأ في بطنها ويتغذى على دمها ويرضع من لبنها. ثم بامكان أي أحد ان يساوره شك في الأب، اما الام فلا يحوم الشك حولها. اذن فتكوين الابن ونموه، دور منحصر بالأم، فهي التي تعلمه درساً خاصاً في عالم الوجود على علاقة باسم المكون والخالق.

٢ ـ آراء ابن العربي الخاصة في فضائل المرأة ودرجاتها

فضلاً عن المباحث النظرية والماوراء طبيعية، انطلق ابن العربي بنفس هذه الرؤية نحو أحكام الشريعة، فقدم لها تأويل عرفانية استطاع من خلالها ان يجد لها معان أسمى، مع عرض تفسير متفاوت لتشريع الاحكام.

وبفضل هذا الاسلوب استطاع ابن العربي ان يبدي وجهات نظر خاصة في فضائل المرأة ودرجاتها، وأجاز لها من الامور ما لم يجزه غيره من الفقهاء.

فابن العربي يؤمن على سبيل المثال ان المرأة بمقدورها بلوغ مقام النبوة، ولديها حق التشريع في بعض الأحيان، وبامكانها الامامة في الصلاة. ومن ذلك قوله:

«شهد رسول الله ﷺ لبعض النساء بالكمال، كما شهد لبعض الرجال ـ وان كانوا اكثر من النساء ـ بالكمال، وهو النبوة»[١].

ولم يذكر ابن العربي الدليل الذي استدل به على ان الكمال الذي يقصده النبي ﷺ هو النبوة، ولكن ربما كان مستنداً في ذلك الى ان النبي هو الوحيد الذي يبلغ الكمال، أو ان الكمال هدف لا يبلغه سوى الانبياء.

كما قال ضمن هذا الاطار في موضع آخر:

«وقد شهد رسول الله ﷺ بالكمال لمريم وآسية؛ (نقول) فلما اعتبر الله هذا في المرأة، جعل لها أصلاً في التشريع من حيث لم تقصد (هي ذلك)، فطافت بين الصفا والمروة هاجر ام اسماعيل عليه السلام، وهرولت في بطن الوادي سبع مرات تنظر الى من يُقبل من اجل الماء ... والحديث مشهور. فجعلها الله، أعني جعل فعل هاجر من

(١) نفس المصدر، ج ٦، ص ٤٢٨.

السعي بين الصفا والمروة، وقرّره شرعاً من مناسك الحج»[١].

اي ان هاجر لم تقصد ان تُصبح هرولتها بين الصفا والمروة حكماً شرعياً، وانما فعلت ذلك بحثاً عن الماء لولدها، غير ان الله تعالى أوجب عملها هذا كرمز أبدي على كل من يحج.

وقد أجاز ابن العربي كما ذكرنا امامة المـرأة، وانبرى لتـبيان المـعنى البـاطني والعرفاني لهذا الحكم الظاهري والفقهي:

«فمن الناس من أجاز امامة المرأة على الاطلاق، بالرجال والنساء، وبه أقول. ومنهم من منع امامتها على الاطلاق. ومـنهم مـن أجـاز امـامتها بـالنساء دون الرجال. الاعتبار في ذلك: «شهد رسول الله ﷺ لبعض النساء بالكمال. كما شهد لبعض الرجال ـ وان كانوا اكثر من النساء ـ بالكمال» وهو النبوة. والنبوة امامة. فصحّت امامة المرأة. والأصل اجازة امامتها. فـمن ادعى منع ذلك من غير دليل، فلا يُسمع له، ولا نص للمانع في ذلك»[٢].

اذن فقد اورد ابن العربي دليلين على صحة الامامة الظاهرية والباطنية للمرأة: الاول ان بمقدورها نيل مقام النبوة، وبما ان النبوة عنده نوع من الإمامة، فبامكانها الامامة. والثاني هو عدم وجود أي دليل عقلي أو نقلي على عدم جواز امامتها.

ولابن العربي وجهات نظر خاصة في بعض النساء، من المناسب استعراضهـا ضمن هذا البحث، ومنهن:

مريم

يُعدّ الفصّ العيسوي أوسع فصّ عبّر فيه ابن العربي عن رأيه في السيدة مريم. فخلال حديثه عن طبيعة ولادة السيد المسيح وتكوّنه، عرج على شخصية مريم ايضاً. وقد بدأ هذا الفص بعدة ابيات شعرية تتحدث عن خصوصيات نـبي الله

---

(١) نفس المصدر، ج ١٠، ص ٣٤٩.

(٢) الفتوحات، ج ٦، ص ٤٢٨ و٤٢٩.

عيسى‌عليه السلام ووالدته مريم:

عن ماء مريم أو عن نفخ جبرينِ في صورة البشر الموجود من طينِ
تكـوّن الروحُ في ذاتٍ مطهرةٍ من الطبيعة تدعوها بسجّينِ
لأجل ذلك قد طالت اقامته فيها فزادَ على ألفٍ بتعيينِ
روحٌ من الله لا مِن غيره فلذا أحيا المواتَ وأنشا الطير من طينِ
حتى يصحّ له من ريشه نَسبٌ به يؤثّر في العالي وفي الدونِ
الله طهّره جسماً ونزّهَهُ روحاً وصيّرهُ مِثلاً بتكوينِ

ويقول الخوارزمي في شرح هذه الأبيات:

«كانت جسمانية عيسى‌عليه السلام من ماء مريم، وروحانيته من نفخ جبريل الذي تلق تلك النفخة من الله بدون واسطة وألقاها الى مريم. والذات المطهرة (في البيت الثاني) يمكن ان يراد بها مريم التي حصلت لها الطهارة من غلبة أحكام الطبيعة الواقعة في المرتبة السفلى التي هي عالم الكون والفساد، وليس مطلق الطبيعة. وتطهير مريم من هذه الطبيعة هو خروجها من أحكام عالم التضاد الى غلبة النورية. ولربما المراد بالذات المطهرة هي الذات العيسوية التي تتعلق بها الروح العيسوية.

(وحول البيت الثالث) بما ان مريم ـ التي نُفخ فيها جسم عيسى ـ ذات طاهرة من غلبة أحكام الطبيعة، فقد أصبحت اقامة عيسى في السماء طويلة، لأن طهارة جسم الوالدين توجب طهارة الابن. (وحول البيت الاخير) لربما يراد ان الحق تعالى خلق عيسى مماثلاً لآدم، لأن كليهما بدون أب. قال الله تعالى: ﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾[1]»[2].

الاشارات الى مريم في هذه الأبيات تأخذ طابع الشرح والتفصيل خلال عبارات الفص. فيقول ابن العربي بشأن تمثل جبريل لمريم بالاستيحاء من القرآن

(١) آل عمران، ٥٩.

(٢) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٤٩١ـ٤٩٢.

الكريم:

«فلما تمثل الروح الأمين الذي هو جبريل لمريم عليها السلام بشراً سوياً تخيلت انه بشر يريد مواقعتها، فاستعاذت بالله منه استعاذة بجمعية منه ليخلصها الله منه لما تعلم ان ذلك مما لا يجوز، فحصل لها حضور تام مع الله وهو الروح المعنوي. فلو نفخ فيها في ذلك الوقت على هذه الحالة لخرج عيسى لا يطيقه أحد لشكاسة خلقه لحال أمه. فلما قال لها «انما انا رسول ربك» جئتُ «لأهب لكِ غلاماً زكياً»، انبسطت عن ذلك القبض وانشرح صدرها فنفخ فيها في ذلك الحين، فخرج عيسى. فكان جبريل ناقلاً كلمة الله لمريم كما ينقل الرسول كلام الله لأمته. وهو قوله ﴿وكلمته القاها الى مريم وروح منه﴾[1]»[2].

انبرى ابن العربي في هذا المقطع لتفسير طبيعة حمل مريم بعيسى من خلال اضافة جزئيات اكبر الى هذه القصة. وأهم كلمة لابن العربي بهذا الخصوص هو انه اعتبرها في مقام تلقي كلمة الله كالرسول الذي يتلق الكلمات الالهية، مع فارق يتمثل في ان الكلمة الالهية التي أُلقيت الى مريم كانت عيسى عليه السلام الذي هو المصداق التام لكلمة الله، في حين ان الكلمات الالهية التي تلقاها الرسول هي الفاظ تدل على كلمات الله الحقيقية.

وعلى هذا الضوء قيل ان مريم كانت نبيّة لأن جبريل لا يظهر لغير الأنبياء.

وفي هذا التشبيه يناظر البطن الطاهر لمريم الذي هو موضع القاء الكلمة الالهية، القلب الطاهر للرسول الذي هو موضع القاء الوحي. لذلك يُعد ظهور عيسى معجزة، وظهور القرآن معجزة ايضاً[3].

---

(١) النساء / ١٧١.

(٢) الفصوص، ص ١٣٨ و ١٣٩.

(٣) يعد عيسى المسيح وحلول كلمة الله تعالى في جسم مريم بحسب القرآن (النساء / ١٧١) من الرموز العالية وفق وجهة النظر الصوفية. فالمتصوفة ترى انطباق رموز الحق، والحقيقة، وولادة الكلمة من مريم العذراء، مع ولادة الكلمة في الرسول الأمي. فالقرآن هو الاعجاز في الاسلام، وروح الله المسيح هو ←

وقال ابن العربي ايضاً:

«فسرت الشهوة في مريم، فخلق جسم عيسى من ماء محقق من مريم ومن ماء متوهم من جبريل، سرى في رطوبة ذلك النفخ لأن النفخ من الجسم الحيواني رطب لما فيه من ركن الماء. فتكون جسم عيسى من ماء متوهم وماء محقق. وخرج على صورة البشر من أجل أمه، ومن أجل تمثل جبريل في صورة البشر حتى لا يقع التكوين في هذا النوع الانساني إلّا على الحكم المعتاد»[1].

وقال الخوارزمي في شرح هذا المقطع من كلام ابن العربي:

«الشهوة عبارة عن الميل التام، وهي المحبة الذاتية التي هي سبب وجود العالم. اذن حينما تعلقت ارادة الحق بخلق عيسى، تحركت الشهوة الكامنة في مريم بالأمر الالهي، فنفخ فيها الروح الأمين وهو في حالة التمثل بالصورة البشرية. وكان في تلك النفخة ماء شبيه بالبخار. وبذلك خُلق جسم عيسى من ماء مريم المحقق ومن ماء جبريل المتوهم ... اذن بولادة عيسى بلا أب تمت الاقسام الأربعة للولادات الصحيحة: حصول الولد بدون والدين (آدم)، وحصوله بالوالدين، وحصوله من الذكر فقط (حواء)، وحصوله بالانثى فقط (عيسى)، فسبحان الذي هو على كل شيء قدير ... فالقدرة المطلقة قادرة على الايجاد بدون الوالدين كآدم وعزير، وبدون وجود المرأة كحواء من آدم»[2].

نلاحظ في هذا الرأي ان الخوارزمي يأخذ برأي ابن العربي في تكون حواء من آدم ويعتبره نموذجاً على الولادة من دون ام.

ويشير ابن العربي بعد ذلك في الفص العيسوي اشارات اخرى الى مريم، فيقول عنها حين تحدثه عن صفات عيسى وخصوصياته:

← الاعجاز في المسيحية. راجع:

Nasr, S,H, Islam, Perspectives et Realites, 1975, pp. 49 - 81.

(١) الفصوص، ص ١٣٩.

(٢) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٤٩٨ و٤٩٩.

«وخرج عيسى من التواضع ... هذا له من جهة امه، اذ المرأة لها السفل، فلها التواضع لأنها تحت الرجل حكماً وحساً»[١].

والذي يبعث على الدهشة في هذا الرأي انه يعتبر المرأة في مرتبة سفلى معللاً ذلك بقوله «لأنها تحت حكم الرجل حكماً وحساً»! ان استدلال ابن العربي هذا شبيه بالاستنتاج الذي سبق ان نقلناه عنه من قبل، حيث يعزو نزول درجتها عن الرجل الى تأخرها الوجودي عنه.

نظراً لوجود نوع من التفوق للرجل في أحكام الشريعة، واعطائه نوعاً من الملكية وحق التصرف من المنظار الظاهري، فقد اعتبر ابن العربي هذه الامور الظاهرية دليلاً على ان التواضع يمثل الوضع الروحي للمرأة المنسجم مع هذا الوضع.

آسية

تحدث ابن العربي في الفص الموسوي عن آسية زوجة فرعون، حين تحدثه عن موسى عليه السلام:

«فأراد (فرعون) قتله، فقالت امرأته ـ وكانت منطقة بالنطق الالهي ـ فيما قالت لفرعون، اذا كان الله خلقها للكمال كما قال عليه السلام عنها حيث شهد لها ولمريم بنت عمران بالكمال الذي هو للذكران، فقالت لفرعون في حق موسى: «انه قرّة عين لي ولك»، فبه قرّت عينها بالكمال الذي حصل لها كما قلنا»[٢].

ويقول الخوارزمي في تعليقه على ذلك: «قال الرسول صلى الله عليه وآله: كملت من النساء أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة رضي الله عنهن». ولأجل هذا الكمال قال الله في مريم ﴿وكانت من القانتين﴾[٣]، ومعنى هذا ان الله

---

(١) الفصوص، ص ١٤٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠١.

(٣) التحريم / ١٢.

وضعها ضمن طائفة الرجال، أي انه تعالى ذكرها في فئة الرجال عن طريق تغليب صيغة الذكور وذلك للكمال الذي كانت عليه.

كذلك نظراً لتكلم الحق على لسان آسية وقالت بأن موسى قرة عين لها ولفرعون، لزم أن يكون الأمر كذلك في الواقع»[١].

ورغم استعانة ابن العربي بحديث يقر بكمال آسية ومريم، غير ان الخوارزمي يستعين بحديث يقر أيضاً بكمال خديجة الكبرى، وفاطمة الزهراء.

ويعتبر ابن العربي في موضع آخر هذا الكمال هو النبوة بذاتها دون ان يستعين بدليل على ذلك.

وأثنى ابن العربي في الفص اليحيوي على الأدب الذي كان لآسية خلال مناجاتها لله، وشبهها ضمن هذا الاطار بزكريا، وعدّ مناجاتها دليلاً على علو مقامها، وسمو معرفتها لله، لأنها حينما خاطبت الله قائلة ﴿ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة﴾[٢] قدمت ذكر الجار على البيت. بالضبط كما فعل زكريا حينما خاطب الله تعالى قائلاً ﴿هب لي من لدنك ولياً﴾[٣] حيث قدم الله على الابن[٤].

٣ ـ المرأة في تصوير ابن العربي الخيالي

نلاحظ في الفصوص والفتوحات نماذج للاستخدام الرمزي للمرأة. فهناك العديد من الموارد التي يستخدم فيها المرأة للتعبير عن النفس، والعديد من الموارد التي يعبر فيها من خلال مفردة المرأة عن العقل، فضلاً عن عدة استخدامات مجازية اخرى.

ومن نماذج هذه الاستخدامات:

«ذكر مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصوم المرأة وبعلها

---

(١) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٧٣١ و٧٣٢.

(٢) التحريم / ١١.

(٣) مريم / ٥.

(٤) الفصوص، ص ٦٣٧.

شاهد الا بإذنه»، الاتفاق على وجود صوم رمضان، ولهذا زاد ابو داود في هذا الحديث: «وغير رمضان». فاعلم ان «المرأة» هي النفس المؤمنة، و«بعلها» المتحكم فيها هو ايمانها بالشرع لا الشرع. ثم الشارع يشرع لايمانها به ما شاء ان يشرع. فلا تدخل في فعل ولا تشرع في عمل إلّا باذنه، أي بحكمة»[١].

وقال ايضاً:

«والمرأة هي النفس»[٢].

وقال بشأن الحديث النبوي في وجوب الزكاة على الرجل والمرأة:

«اعتباره في الذكر، العقلُ؛ وفي الانثى، النفسُ»[٣].

ويقول في الحكم الفقهي الذي يمنع الجمع بين الاعتكاف ومباشرة النساء:

«مباشرة المرأة (هو) رجوع العقل عن الله الى مشاهدة النفس، سواء جعلها دليلاً (على الله) أو غير دليل»[٤].

وهكذا نلاحظ كيف انه أول المباشرة في هذه العبارة الأخيرة تأويلاً عرفانياً واعتبرها عبارة عن رجوع العقل (اي الرجل) الى مشاهدة النفس (اي المرأة).

وقال في ايضاح أسرار الحج وأحكام المرأة:

«فأباح الشارع للمرأة في هذا الحديث التزين بزينة الله؛ وزينة الله أسماؤه. والمرأة في الاعتبار، نفس الانسان. فن تخلق بأسماء الله وصفاته فقد تحلى بزينة الله التي أخرج لعباده»[٥].

وتحدث عن امامة المرأة قائلاً:

«في مثل هذا الموطن تجوز امامة النفس، وهي امامة المرأة. وامامة العقل

---

(١) الفتوحات، ج ٩، ص ٤٠١.

(٢) نفس المصدر، ج ٦، ص ١٨٠.

(٣) نفس المصدر، ج ٨، ص ٣٤٨.

(٤) نفس المصدر، ج ٩، ص ٤٥٦.

(٥) نفس المصدر، ج ١١، ص ١٠٦.

بمنزلة امامة الرجل، المسلم، البالغ، العالم، الولد الحلال»(١).

ومما يجدر ذكره ان ابن العربي اورد ثلاثة آراء في امامة المرأة:

١ ـ جواز امامتها على الاطلاق بالرجال والنساء.

٢ ـ منع امامتها على الاطلاق.

٣ ـ جواز امامتها بالنساء دون الرجال.

ويذهب ابن العربي نفسه الى جواز امامتها على الاطلاق بالرجال والنساء، مفسراً ذلك تفسيراً عرفانياً معتبراً المرأة بمنزلة النفس؛ والنفس حينما تنهكها العبادة والطاعة، لا بأس باتباعها في الامور المباحة، والاشتغال باللذة المشروعة بدلاً من العبادة.

وقال حين حديثه عن غطاء رأس المرأة:

«واعلم ان المرأة لما كانت، في الاعتبار، النفس، والرأس من الرئاسة؛ والنفس تحب الظهور في العالم برئاستها لحجابها عن رئاسة سيدها عليها وطلب تفوقها على امثالها، ولهذا قيل: «آخر من يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة»، أُمرت النفس (المرأة) ان تغطي رأسها، أي تستر رئاستها، فإنها في الصلاة بين يدي ربها. ولا شك ان الرئيس بين يدي الملك، في محل الافتقار، فاذا خرج الى من هو دونه، أظهر رئاسته، فلهذا أُمرت النفس المملوكة أن تغطي رأسها في الصلاة»(٢).

في موارد الفتوحات المكية التي اوردناها، اعتبر ابن العربي المرأة بمنزلة النفس، والزوج بمنزلة العقل. ونلاحظ مثل هذا الاستخدام في مواضع من فصوص الحكم ايضاً. ففي الفص النوحي وحين تفسيره لدعاء نوح عليه السلام الوارد في القرآن الكريم: ﴿ربِّ اغفر لي ولوالديّ﴾، يقول: «ولوالديّ: من كنتُ نتيجةً عنهما وهما العقل والطبيعة».

---

(١) نفس المصدر، ج ٦، ص ٤٢٨ و ٤٢٩.

(٢) نفس المصدر، ج ٦، ص ١٨٦.

ويقول الخوارزمي في شرح هذه العبارة:

«فسر الشيخ قدس الله سره الوالدين بالعقل والطبيعة، لأنهما مظهر حقيقة آدم وحواء في العالم الروحاني. والعقل من حيث كونه فعالاً، خاص بالابوة؛ والطبيعة من حيث كونها منفعلة، متعينة بالاومومة»(١).

وفي هذا الفص أيضاً، يفسر ابن العربي الرجال المؤمنين بالعقول، والنساء المؤمنات بالنفوس. وانبرى الخوارزمي لشرح ذلك قائلاً:

«فسر المؤمنين بالعقول، أي بالمجردات، لأن نفوس المؤمنين فعّالة في نفوس الآخرين بطريق الهمة. بل لهمتهم تأثير ظاهر على جميع العالم بقدر قوة الحق وبحجم النصيب من اسم «القادر». وللعقول هذا الأثر أيضاً. وفسر المؤمنات بالنفوس، أي النفوس المنطبعة المطمئنة. فطبقاً لاصطلاح هذه الطائفة: بما ان هذه النفوس معقولة، فهي تنفعل بالروح اولاً، ثم تنفعل بواسطتها الطبيعة الجسمية والبدن»(٢).

وفي أحد المواضع يؤول ابن العربي «الزوج» تأويلين حين تستأذنه المرأة في أمر الحج: في أحدهما يعتبره عقلاً، وفي الثاني يعتبره شرعاً. وفي كلا الحالتين، يعتبر المرأة نفساً، حيث تعرف النفسُ الله اما عن طريق العقل أو عن طريق الشرع(٣).

وفي بحث آخر بشأن الكفارة التي ينبغي للمرأة ان تدفعها حينما تلبي رغبة زوجها في الجماع وهي صائمة في شهر رمضان، يعتبر ابن العربي المرأة بمنزلة النفس، والزوج بمنزلة الهوى، وقال اذا تبعت النفس الهوى فلابد ان تذوق العقوبة(٤).

---

(١) الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٢٠٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠٥.

(٣) الفتوحات، ج ١١، ص ٨٧ـ ٨٩.

(٤) نفس المصدر، ج ٩، ص ٢١٨.

وفي موضع آخر عد ابن العربي المرأة بمنزلة العالم بالعلوم الطبيعية، والرجل بمنزلة العالم بالعلوم الالهية، وذلك حينما انبرى لتوضيح حديث نبوي يوجب الزكاة على الغني والفقير والحر والعبد والذكر والأُنثى والصغير والكبير:

«ويُعتبر فيها ايضاً: في الذكر، الناظر في العلم الالهي، وفي الأنثى، الناظر في علم الطبيعة. فنَسبُ كل ناظرٍ (انما هو بالقياس) الى مناسبة، من جهة ما هو ناظرٌ فيه»[١].

اي بما أن الله مذكّر، فالذكر بمثابة العالم بالعلوم الالهية. وبما ان الطبيعة مؤنثة، فالأنثى بمثابة العالم بالعلوم الطبيعية! وهكذا نراه قد استخدم قواعد اللغة العربية لاستنتاج ما يرومه من نتائج.

اما بشأن جعل المرأة بمنزلة النفس، والرجل بمنزلة العقل، فلا بأس بملاحظة ايضاح داود القيصري ـ شارح الفصوص، بهذا الشأن.

القيصري خلال بحثه لمراتب التنزلات الوجودية والحضرات الخمس الالهية[٢] في كتاب «التوحيد والنبوة والولاية»، عبّر عن رفضه لرأي المشائين القائل بأن العقل والنفس شيئان، وأكد على ان العقل الكلي والنفس الكلية وجهان لشيء واحد، معتبراً النفس من مراتب العقل. ثم انبرى بعد ذلك لتشبيه النسبة بين الاثنين بالذكورة والأنوثة:

«قلنا: النفس الكلية التي هذه النفوس الناطقة جزئياتها، ليست مباينة بالحقيقة للعقل الكلي المسمى بالروح الكلي، بل المباينة بينهما باعتبار التعلق واللاتعلق. والصفتان الخارجتان عن حقيقة الشيء لا توجبان المغايرة والمباينة بالحقيقة، كما ان الذكورة والانوثة في الانسان وباقي الحيوانات لا توجب أن يكون لكل من موصوفها حقيقة مغايرة للآخر.

---

(١) نفس المصدر، ج ٨، ص ٣٤٨.

(٢) وهي عبارة عن: عالم الأعيان الثابتة أو الغيب المطلق، والجبروت، والملكوت، والملك، والانسان الكامل.

وفي الحقيقة العقل الأول هو آدم الحقيقي، والنفس الكلية هي حواء الحقيقية، والعقول والنفوس الناتجة منهما أولادهما لا غير. وآدم ابو البشر وحواء صورتا ما في عالم العقول والنفوس المجردة المسمى بعالم الجبروت في عالم الملك والشهادة المطلقة. كما ان لكل ما في العالمين صورة في العالم المثالي»[١].

ولتوضيح ذلك نقول:

اذا كانت صفتا (أ) و(ب)، جزءاً من ذاتيات موجودين، أي جزءاً من اجزاء تعريف هذين الموجودين، فمجرد تغاير هاتين الصفتين، يؤدي الى تغاير الموجودين، أي ان يكون لكل منهما ماهية نوعية تختلف عن الآخر.

اما اذا كانت هاتان الصفتان من أعراض الموجودين، فإن مجرد تغايرهما لا يوجب تغايراً في الماهية النوعية لكل منهما.

والذكورة والانوثة، من هذا القسم الثاني، أي انهما ليستا من ذاتيات الانسان، لذلك لا يصح القول بما انهما متغايرتان، فالذكر والأنثى متغايران.

القيصري يقول بأن العقل الاول ـ الذي هو التجلي الاول للبارئ تعالى ـ هو آدم الحقيقي المذكور في لسان الشرع. والنفس الكلية ـ التي هي اول موجود متشعب عن العقل الاول ـ هي حواء الحقيقية. وانطلاقاً من الايضاح اعلاه لا يختلف العقل الاول (او العقل الكلي أو الروح الكلي) أي اختلاف حقيقي عن النفس الكلية، وانما يختلفان في امر لا يتعلق بذات كل منهما.

وعلى هذا الأساس لا يظهر أي تفاوت ذاتي أو ماهوي بين الاثنين وانما يقتصر التفاوت على عدم تعلق العقل بالغير، في حين تتعلق النفس بالبدن.

وكما ظهر سائر الناس من آدم وحواء، ظهرت سائر الموجودات من العقل الأول والنفس الكلية.

وعلى هذا الضوء يمكن أن نقول بأن آدم وحواء، هما الصورة السفلية

---

(١) القيصري، داود، رسائل القيصري، مع حواشي محمد رضا القمشئي وتعليقات جلال الدين الآشتياني، اصدارات جمعية الحكمة والفلسفة، ١٩٧٨، الفصل الثاني، ص ١٤ ـ ١٧.

لموجودات عالم العقول والنفوس المجردة.

بتعبير آخر: الصورة المُلكية ـ أي المتعلقة بعالم المُلك والشهادة المطلقة ـ للموجودات الجبروتية، هي هذان الانسانان اللذان عبرت عنهما الكتب السماوية بآدم وحواء.

وأورد الخوارزمي في نظير هذا التفسير أيضاً في «شرح الفصوص» خلال شرحه لكلمة ابن العربي التالية: «فآدم هو النفس الواحدة التي خُلق منها هذا النوع الانساني»(١).

وانطلاقاً مما سبق يمكن ان نقول بأن ذهاب ابن العربي الى اعتبار المرأة بمنزلة النفس، والرجل بمنزلة العقل، متأثر ولا شك باصول اكبر انبرى القيصري لتبيانها.

ولكن مما يجدر ذكره هو ان هذا الحكم لا يتمتع بثقل قيمي اذا كان قائماً على اساس تلك الاصول والنتائج. وانما لابد ان يعتمد هذا الحكم على سلسلة مراتب الوجود وايضاح طريقة صدور الموجودات عن الخالق الواحد، أي من خلال تقويم منطلق من علم الوجود(٢) لا من علم القيم(٣).

٤ ـ نقد آراء ابن العربي في المرأة

انبرى نصر حامد أبو زيد ـ وهو من المفكرين المعاصرين ـ في كتابه «دوائر الخوف» لنقد آراء ابن العربي في المرأة والتي وردت في كتابه «الفصوص». وتتلخص فكرة ابن العربي في ان المرأة اوطأ في المرتبة من الرجل لأن الرجل أصل وفاعل، والمرأة فرع ومنفعل.

ويرى ابو زيد ان الذين يقولون بأن «حب المرأة» يمثل أساس وحدة الوجود

---

(١) راجع: الخوارزمي، شرح الفصوص، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) Ontology.

(٣) Axiology.

عند ابن العربي، يستدلون بثلاثة أدلة:

١ ـ انه يولي المرأة اهمية كبيرة.

٢ ـ يرى ان حب الله يجب ان يقوم على حب الانسان.

٣ ـ يعتقد ان حب المرأة من الصفات الكمالية.

ورغم ذلك لم يعتبر ابن العربي الانوثة بمستوى الرجولة لأن تجربة الحب ـ من وجهة نظره ـ ناتجة عن فعالية الرجل وانفعالية المرأة. فهو يعتبر الرجل أصلاً والمرأة فرعاً وجزءاً. وتتضح أصلية الرجل عند ابن العربي في موضعين:

الأول، حين حديثه ضمن اطار التجلي الالهي في عمل الخلقة.

الثاني، حين حديثه عن معراج الانسان وتساميه الى مبدئه الروحاني المعنوي.

ففي بادئ الأمر، لم تكن هناك سوى أحدية الذات الالهية التي كانت في عماء مطلق؛ ولم تظهر الأسماء والصفات الالهية إلّا بعد تجلي تلك الأحدية، أي انها ظهرت من بطون الأحدية. وما بعث على التجلي هو الحب. فبالحب برز البارئ تعالى من حالة الكمون، كحواء التي برزت من كمون آدم. وبما ان الحب الانساني شرط لتذوق الحب الالهي، فاتصال الرجل بالمرأة يثير في الرجل معرفة الحب الالهي. ومعنى هذا ان المرأة تلعب دوراً في السير النزولي للخلقة والسير الصعودي نحو الحب الالهي، غير انه دور انفعالي وليس فاعلياً[1].

٥ ـ الحبّان الانساني والالهي عند ابن العربي

«الحقيقة هي انه قد ظهرت ردود فعل عظيمة ازاء استصغار شأن المرأة، بل ومن اجل تداركه، وقد نمت ردود الفعل هذه في التصوف الجمالي أو العرفان العاشق. وهذا اللون من العرفان أو التصوف ليس ناجماً عن مثل هذه المقتضيات والأحوال، غير ان تسامي الحب وانصقال الجوهر الانثوي ـ وليس الانصراف

(١) يراجع: ابو زيد، نصر حامد، دوائر الخوف (قراءة في خطاب المرأة)، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٢ ـ ٣٦.

عن المرأة ـ قد مهّد الأرضية لمعرفة المرأة وتكريم أمرها واعلاء شأنها.

فالعرفان ليس تجنب المرأة وانما هو حافل بالدعوة الى تطهيرها وتهذيبها. ولا شك في ان خطر الاستغراق والانهماك في الحياة النزوية الذي يتهدد العارف في هذا الطريق، قليل جداً، لأن هدفه هو لقاء الحق تعالى في الخلوة، واقامة علاقة شخصية ووجدانية معه.

العارف يبذل كل حبه لله، وهو ما يعمل على تهذيب غريزته الجنسية وتعديلها. وورد في الحديث: «من عشق وعفّ وكتم ومات، مات شهيداً»، وهو حديث طالما استُند اليه في كتب العرفاء. فشرطا العفّة والكتمان اللازمان للشهادة، يتيحان امكانية تحول الحب الانساني الى الحب العرفاني.

ابن العربي وجميع العرفاء الذين يؤمنون بأن المجاز قنطرة الحقيقة، والحب الانساني منهاج الحب الرباني، والدعاة لنيل هدف الحب العرفاني من مبدأ الحب الجسماني، يؤمنون أيضاً ان بالامكان تسلق سلّم الشريعة للوصول الى سقف الربوبية بدعم من الحب الانساني وفي ظل هداية الله وعنايته.

ففاطمة بنت ابن المثنى المدعوة بأم الزهراء، وبنت مكين الدين الاصفهاني المقيم بمكة المسماة بالنظام عين الشمس، كانت كل منهما لابن العربي ـ الذي هو رائد طلاب كعبة الآمال ـ حباً عرفانياً من مقام الحب الجسماني.

فالحب الانساني اذن في السلوك العرفاني لدى ابن العربي يمثل بداية الطريق، والحب الروحاني يمثل نهايته، وبواسطة الحب الانساني يمكن العروج من الأرض الى السماء»[١].

ورغم هذا يبدو ان اجتياز الحب الجسماني وبلوغ الحب الروحاني، ليس انتقالاً من موضوع ومحمول الى موضوع ومحمول غيرهما، بل هو مقتضى تبدل المزاج واستحالة وكيميا، والذي يمكن جعله محسوساً بمثال تغيير الكمية الى الكيفية أو التغيير الكيفي للكمية.

---

(١) ستاري، صورة المرأة في ثقافة ايران، ص ٢٦٠ و ٢٦١.

وتحدث ابن سينا في النمط التاسع من الاشارات عن الرياضة وأهدافها وقال من اهدافها تلطيف السر، وعدّ الحب العفيف من الوسائل المهمة والمؤثرة لبا هذا الهدف. وهذا الحب العفيف ـ والذي يصفه ابن سينا بأنه حب لشمائل الحب وخصوصياته الروحانية ويظهر من الشبه المعنوي بين الروحين ـ يبعث على ا تغييرات نوعية في باطن الانسان تدفع بالسالك الى بلوغ المنزل المطلوب بسر مذهلة(١).

«فالعرفان لدية صبغة انسانية، وهو في الواقع مثابرة من أجل نجاح عـا الحب. فالجانبان الترابي والفلكي موجودان في الحبين الانساني والالهي، ومث الأعلى كالشجرة الرمزية التي ذكرها ابن العربي: حبها لك كحب الجذر للاغص وحبك لها كحب الأغصان للجذور.

فالمرأة هنا مظهر الحُسن الالهي حيث يمكن ان يُلاحظ في مرآة وجودها ة الحق تعالى. فاذا كان من الممكن ان يتجلى الحق في مظهر بشري ـ وهو الأ الذي يراه ابن العربي ضرورياً لأن الحق مطلق، ولا يظهر للانسان إلّا في و مقيد ومادي ـ فينبغي ان يُعدّ الحبيب مرآة الحق، ولا ينبغي النـظر اليـه بـال العنصرية من عالم التراب.

والحب الحقيقي الذي هو الحب الأكبر، شوق للـقاء الحـق. ولا يمكـن اد كمون نور الربوبية في ستار البشرية إلّا بتغير المزاج الروحاني. والسبب في ذ هو ان الحب لديه جوهر وحيد، لكنه يتجلى في صورتين: انسانية والهية. و يتلطف الحب الانساني ويتهذب يُصبح حباً معنوياً وروحانياً.

وعليه فالتصوف الذي شعاره الحب الالهي، عبارة عن اجتياز الحب الناس الى الحب اللاهوتي، ويمكن ملاحظة أمارات ذلك في آثار ابن العربي.

ابن العربي يعتقد ان الرسول ﷺ قد وحّد في ذاته المقدسة بين الحب الجس والحب الالهي. ويرى ان الرسول ﷺ هو المثل الأعلى والمظهر الكامل للات

(١) راجع: ابن سينا، الاشارات والتنبيهات، طهران، ١٩٨٤، ص ٤٤٧.

بين هذين النوعين من الحب. ومن هنا فحب المرأة عند الرسول ﷺ اذا لم يكن بالأساس شيئاً واحداً مع الشوق الى العبادة، فانه على الاقل منسجم معه.

اذن فكل من الحب الانساني والحب الالهي يطلب أحدهما الآخر، وبينهما علاقة معقدة ومتلاحمة. وعلى هذا الأساس نفهم معنى تأكيد الدين على كون كل من المرأة والرجل مكملاً أحدهما للآخر، والانسجام القائم بينهما، والتآلف الطبيعي الموجود بين الاثنين، والحب الذي يقود نحو الحق»[١].

ويشير ابن العربي في مقدمة ديوان «ترجمان الأشواق» الى تجربته العجيبة المدهشة في الحب الانساني، ويقول:

«فإني لما نزلت مكة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ألفيتُ بها جماعة من الفضلاء، وعصابة من الأكابر الأدباء، والعلماء بين رجال خضارمة ونساء ولم أر فيهم مع فضلهم مشغولاً بنفسه، مشغوفاً بالنظر فيما بين يومه وأمسه، مثل الشيخ العالم الامام، بمقام ابراهيم ﷺ، نزيل البلد الأمين، مكين الدين ابي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجا الأصبهاني رحمة الله تعالى عليه ... فسمعنا عليه كتاب أبي عيسى الترمذي في الحديث وكثيراً من الأجزاء في جماعة من الفضلاء ...

وكان لهذا الشيخ (رض) بنت عذراء، طفلة هيفاء، تقيد النواظر، وتزيّن المحاضر، وتسر المُحاضر، وتحيّر المُناظر، تُسمى بالنظام وتُلقّب بعين الشمس والبهاء، من العالمات العابدات، السائحات الزاهدات، شيخة الحرمين، وتربية البلد الأمين الأعظم بلا مين، ساحرة الطرف، عراقية الظرف، ان اسهبت اتعبت، وان اوجزت اعجزت، وان أفصحت اوضحت، ان نطقت خرس قس بن ساعدة، وان كرمت خنس معن بن زائدة، وان وفت قصر السَّمَوْأَلُ خطاه واعرورى ظهر العذر وامتطاه. ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض، السيئة الأعراض، لأخذتُ في شرح ما اودع الله في خَلْقها من الحسن وفي خُلُقها، التي هي روضة المزن ... فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان نسيب رائق، وعبارات

---

(١) ستاري، مصدر سابق، ص ٢٦٩ و٢٧٠.

الغزل اللائق، ولم ابلغ بذلك بعض ما تجده النفس، ويثيره الأنس، من كريم ودّها، وقديم عهدها، ولطافة معناها، وطهارة مغناها، اذ هي السؤل والمأمول، والعذراء البتول. ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق، من تلك الذخائر والأعلاق، فأعربتُ عن نفس تواقة، ونبهت على ما عندنا من العلاقة، اهتماماً بالعهد القديم، وايثاراً بالمجلس الكريم.

فكل اسم اذكره في هذا الجزء فعنها أكني، وكل دار أندبها فدارها أعني. ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء من الايماء الى الواردات الالهية، والتنزيلات الروحانية، والمناسبات العلوية، جرياً على طريقتنا المُثلى، فان الآخرة خير من الاولى، ولعلمها رضي الله عنها لما اليه أُشير، ولا ينبئك مثل خبير، والله يعصم قارئ هذا الجزء وسائر الديوان من سبق خاطره الى ما لا يليق بالنفوس الأبية والهمم العلية المتعلقة بالامور السماوية. آمين بعزّته لا رب غيره»[١].

هذه الفتاة وفي ذات الوقت الذي كانت جذابة وساحرة ظاهرياً ومعنوياً، كانت بالنسبة لابن العربي منبعاً للإلهام بأدقّ معنى الكلمة.

وقد انبرى ابن العربي في «ترجمان الأشواق» لتسجيل تجربته واندهاشه في مواجهته لفتاة اجتمع فيها بشكل مذهل الجمال الظاهري والبلوغ العقلي والحكمة المعنوية.

لقد تركت النظام تأثيراً فريداً وخالداً على ابن العربي، حتى ان البعض يعتبر ذلك اللقاء فيما بين الاثنين أحد اهم الأحداث التي مرّ بها في حياته، واستطاعت ان تبلور أفكاره ورؤاه حول الأبعاد الأنثوية في الخلق والتجلي البشري للمرأة، ودفعته لكي تكون لدية وجهة نظر لطيفة وعميقة بشأن التجلي الالهي في صورة المرأة. وهذه التجربة المعنوية التي عاشها ابن العربي في ظل الحب الانساني قد أُغنيت جداً بادراكه[٢] العميق للبعد الانثوي.

---

(١) ابن العربي، ترجمان الأشواق، شرح رينولد نيكلسون، ص ٤٩ ـ ٥١.

(٢) See: Austin, R.W.J. The Feminie Dimensions in Ibn Arabi's thought, in The

ولا شك في ان كلام ابن العربي هذا بشأن المـرأة والحب الانسـاني وأبـعاده العرفانية، كان يتسم بالخطورة ويثير الشبهات في المجتمع كان يـعيش فـيه ابـن العربي آنذاك والذي كان يربط المرأة بالدنيا والجسم والذنب، بل وحتى بالشيطان.

ورغم ان ابن العربي قدّم أفكاره بشأن المرأة في قالب عرفاني وماوراء طبيعي وعلى ضوء المبادئ الالهية، إلّا انه لم يستطع أن يتخلص من مؤاخذات الظاهريين واداناتهم. ولذلك أدت آثاره الى استياء اولئك الذين ما كان بامكانهـم ادراك ما هو واقع خارج مدى نظراتهم المحدودة.

وبعد أن تعرض ابن العربي للطعن والادانـة، أمسك بـاليراع وكـتب شرحاً عرفانياً على شعر «ترجمة الأشواق»، أسماه «الذخائر والأعلاق في شرح ترجمان الأشواق».

وذكر ابن العربي في مقدمة هذا الكتاب انه كتبه نزولاً عـند رغـبة صـديقه اسماعيل بن سودكين الذي سمع أحد المتكلمين يشكك فيما ذكره ابـن العـربي في مقدمة «ترجمان الأشواق» من أن أشعار الحب في هذا الديوان عبارة عن اشارات للعلوم والحقائق العرفانية. وقد اتهم هذا المتكلمُ ابنَ العربي بأنه قد ذكر ذلك من أجل تبرئة نفسه من اتهامه بنظم أشعار الحب والغزل بينما هو معروف لدى الناس بالدين والتقوى[١].

والسؤال الذي يثير نفسه: هل شعر ابن العربي ذو الظاهر الغزلي، ذو مفاهيم عرفانية حقاً؟

يرى نيكلسون ان من يقرأ شعر ابن العربي والشرح الذي كتبه عليه بـدون تحيّز، يدرك ان ديوان «ترجمـان الأشواق» بأسره نابع من شعور عميق وبـاطن لطيف ونزعة سماوية، وسيجد فيه الكثير من الأبيات العرفانية الصريحة التي تفسر الأبيات الاخرى وتشرحها.

→ Muhyiddin Ibn Arabi, Society Journal, Vol.2, 1994, pp. 5 - 14.

(١) ابن العربي، ترجمان الاشواق، مقدمة نيكلسون، ص ٤٢ و٤٣.

ويرى نيكلسون أيضاً ان من الضروري تقديم الشكر لاولئك الذين اعترضوا على ابن العربي واتهموه، لأنهم هم الذين دفعوه لكتابة شرح على ديوانه «ترجمان الأشواق». فبعض أبيات هذا الديوان يكتنفها الغموض والابهام بحيث لا يُتاح لأحد فهمها إلّا بمساعدة ابن العربي نفسه[1].

ومع ذلك لم يسلم ابن العربي حتى مع هذا الشرح من استمرار انتقادات الظاهريين وذوي الافكار السقيمة. فالقارئ ومن أجل أن يدرك فحوى أبيات شعره على الوجه الصحيح، بحاجة الى معرفة بالمبادئ الفكرية عند ابن العربي وبصيرة برؤيته العرفانية.

ابن العربي ومن أجل التأكيد على الكمالات الروحية عند «النظام» والنزعة المعنوية التي كانت لديه، نقل الحكاية الرائعة التالية في مطلع «ترجمان الأشواق»:

«فمن ذلك حكاية جرت لي في الطواف. كنتُ أطوف ذات ليلة بالبيت، فطاب وقتي وهزّني حال كنت أعرفه. فخرجتُ من البلاط من أجل الناس وطفتُ على أرمل، فحضرتني أبيات، فأنشدتها أسمع بها نفسي ومن يليني لو كان هناك أحد:

ليت شعري هل دروا أيَّ قلبٍ ملكوا
وفؤادي لو درى ايَّ شِعبٍ سلكوا
أتراهُم سَلِموا أم تراهم هلكوا
حارَ أربابُ الهوى في الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلّا بضربة بين كتفيّ ألين من الخز. فالتفتُّ فاذا أنا بجارية من بنات الروم لم أر أحسن منها وجهاً ولا أعذب منها منطقاً ولا أرقّ حاشية ولا ألطف معنى ولا أدق اشارة ولا أظرف محاورة منها. فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالاً ومعرفة. فقالت: يا سيدي كيف قلت؟

فقلتُ:

ليت شعري هل دروا أيَّ قلب ملكوا

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٤ و ٤٥.

فقالت:

عجباً منك، وأنت عارفُ زمانك تقول مثل هـذا القـول. أليس كـل مملوك معروفاً؟ وهل تصح الملك إلّا بعد المعرفة، وتمني الشعور يؤذن بعدمها، والطريق لسان صدق، فكيف يتجوّز مثلك؟ قل يا سيدي ما قلتَ بعده؟

فقلتُ:

وفـؤادي لو درى أي شعب سلكوا

فقالت:

يا سيدي الشعب الذي بين الشغاف والفؤاد، وهو المانع له من المعرفة، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول اليه، والطريق لسان صدق فكيف يتجوز مثلك؟ يا سيدي ماذا قلت بعده؟

فقلت:

أتـراهـم سـلموا أم تراهم هـلكوا

فقالت:

أما هم فسلموا، ولكن عنك ينبغي أن تسأل نفسك، هل سلمت أم هلكت؟ يا سيدي فماذا قلت بعده؟

فقلت:

حار أربـابُ الهـوى في الهـوى وارتـبكوا

فصاحت وقالت:

وا عجبا! كيف ينبغي للمشغوف فضلة يحار بها، والهوى شأنه التعميم، يخدّر الحواس ويُذهب العقول ويُدهش الخواطر ويذهب بصاحبه في الذاهبين. فأيـن الحيرة ومَن هنا باقٍ، فيحار والطريق لسان صدق، والتجوّز من مثلك غير لائق؟

فقلتُ: يا بنت الخالة ما اسمكِ؟

قالت: قُرّة العين[١].

فقلتُ: لي.

ثم سلّمتُ وانصرفتُ.

ثم اني عرفتها بعد ذلك وعاشرتها فرأيت عندها من لطائف المعرفة ما لا يصفه واصف»[٢].

٨ ـ مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي (المعروف بالمولوي) (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ)

يعد جلال الدين الرومي من أعظم العرفاء المسلمين. وذاع صيت مثنوياته في أرجاء العالم، وهي بحر من الحكمة والمعرفة والظرائف والدقائق العرفانية والمعنوية، ووصفها البعض بأنها تفسير القرآن.

وبعد ان تعرف جلال الدين الرومي على شمس والتأثير الذي طرأ عليه بسبب ذلك، أقبل على الشعر العرفاني للتعبير عن خلجاته ومواعظه.

وتكشف مثنوياته وكذلك «ديوان شمس» ـ الذي انشده تكريماً لشمس ـ عن براعته في الشعر، وهما حافلان ولا شك بالتعاليم العرفانية السامية.

ومن أجل استقراء آراء هذا العارف الكبير في المرأة، راجعنا جميع آثاره المتوفرة، عدا ديوان شمس. ومن الواضح ان «المثنوي» يحمل بين طياته أهم آرائه وأوسعها، وهو مزيج بالتمثيلات، والتشبيهات.

ويمكن العثور في آثاره الاخرى على بعض آرائه في المرأة موزّعة هنا وهناك والتي تكشف عن موقع المرأة في رؤيته العرفانية للعالم.

ومن أجل ان تقدم دراسة منسجمة عن آراء هذا الشاعر العارف الكبير، من المناسب ان نعرض هذه الآراء من خلال عدة محاور:

---

(١) لقب النظام.

(٢) ترجمان الأشواق، ص ٥٢ ـ ٥٤.

تساوي المرأة والرجل في الانسانية وطريق التكامل

يتحدث المولوي في الأبيات الاولى من «المثنوي» عن تساوي المرأة والرجل في طلب الألم المعنوي وامتلاكه.

كما يتحدث في ابيات اخرى عن تساوي الرجال والنساء في الانحرافات والحرمان المعنوي. وتعرض الاثنين للحسد وسائر الرذائل الأخلاقية.

ويؤكد في شعره على أن التعرض لألطاف الحق، أمر غير مشروط بالذكر والانثى ولا علاقة له بجنس الفرد. كما يقول بأن الله تعالى يمتحن الاثنين أيضاً بنفس المستوى.

والساحة الروحية من وجهة نظره، ساحة لا تميّز الذكر عن الانثى، ولا وجود فيها للجنس. فالتأنيث والتذكير لا وجود له إلّا في ساحة المادة والماديات وليس في جميع ساحات الانسان الوجودية، وبامكان الانسان أن يسمو على كل من الرجل والمرأة.

المرأة تجلي البارئ تعالى

يعتقد جلال الدين البلخي ان الحب لابد وأن ينتهي في نهاية المطاف الى المعرفة الالهية، سواء كان حباً للانسان أو لله. فمن أحب شخصاً وأنس به، فحبه في حقيقة الأمر لله تعالى، لأن جميع الجمالات الأرضية ليست سوى انعكاس لجمال السماء والجمال الالهي. ويعتبر البلخي المرأة أروع أنواع الجمال الأرضي، فهي جمال أرضي يتجلى فيه البارئ تعالى، وتمثل مظهراً تاماً وتماماً للجمال الالهي.

ويشير البلخي في بعض الأبيات الى ان ابليس طلب من الله ان يكشف له عن الوسيلة التي يوسوس بها للناس بحيث يعجزون عن مقاومتها، فكشف له الله عن جمال المرأة، فانذهل ابليس من العظمة الالهية التي رآها في المرأة، وبدا وكأنه يرى الله من خلف ستارة رقيقة.

مولانا، يرى في وجه المرأة، الجمال الأزلي الذي يوحي بالحب. ويعتبرها في ذاتها الأصيلة، وسيلة متعالية يشع من خلالها الجمال الأزلي. وبهذه الرؤية، تُعد المرأة من وجهة نظره تجلياً الهياً. ومن الممكن النظر اليها كشعاع للقوة الواهبة للحياة[١].

ويفسر في بعض أبيات المثنوي الآية القرآنية ﴿زُيِّنَ للناس حُبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾[٢]، ويرى ان تزينها بالجمال الالهي أمر مقدر من قبل الله تعالى. فكما هي مبعث السكن والهدوء، كذلك هي أمر مقدر من قبل الله وآية من آياته.

وعليه لا يعتبر مولانا جمال المرأة واسطة للإغواء والإضلال، وانما هي مرآة جمال الحق. «فهو قد أزاح ستار الظاهر فشاهد في جسمها جمالاً خالداً. وعدّها موحية بالحب ومراده. ونظر الى طبيعة المرأة الأصيلة واسطة يتجلى فيها جمال الله. وذهب ابن العربي الى أبعد من ذلك فقال: لا يدرك أكمل تصور لوجود الله سوى اولئك الذين يتفكرون في الله من خلال جسم المرأة»[٣].

ويلمح في بعض أبياته الشعرية لحديث يقول: «انهن يغلبن العاقل ويغلبهن الجاهل»[٤]، ويتساءل: الم يقل الرسولﷺ ان النساء يغلبن القائل؟ «فهو ومن خلال هذا الحديث يقدم وصفاً للنساء اللاتي يوجدن الحب والعاطفة، ويؤكد على ان الرقة واللطف من الصفات الانسانية العليا، في حين لدى الرجل صاحب الغضب والشهوة صفات حيوانية اكبر من مثل هذه المرأة الحنون العطوفة»[٥].

---

(١) اقبال، افضل، تأثير مولانا على الثقافة الاسلامية، ص ١٢٧.

(٢) سورة آل عمران / ١٤.

(٣) مقدمة الرومي وتفسير المثنوي المعنوي، ترجمة وتعليق اوانس اوانسيان، ص ٥٨.

(٤) نُسب هذا الحديث الوارد في المثنوي مع اختلاف يسير الى الحكماء، كما نُسب أيضاً الى معاوية. ويبدو انه ليس حديثاً نبوياً كما ذهب الى ذلك مولانا. راجع: زرين كوب، عبد الحسين، سر النّي. ١٩٨٩، ج ١، ص ٤١٠ و٤١١.

(٥) شيمل، آن ماري، عظمة شمس، ترجمة حسن لاهوتي، ١٩٩١، ص ٣٦٠.

وينبري في أبيات اخرى لتقديم تفسير عجيب لدور النساء اللواتي يعكسن رحمة ا لله في أفضل وجه، ويعتبرهن خالقاً لبعض الاعتبارات، اذ مثلما يرعى الله المخلوق الذي يخلقه، ترعى المرأة الطفل الذي تنجبه[١].

وتفسير مولانا للحديث النبوي السابق، يكشف عن ان غلبة الرجل أمر ظاهر، في حين غلبة المرأة امر باطن، أي انها تستولي على القلب والروح. ويقول بعد ذلك ان المغلوبية خاصية انسانية لأن الحب ـ بالمعنى الأوسع للكلمة ـ من اختصاصات الانسان، ولذلك نراه يستمر فيه، وتنتج منه الكثير من الآثار العجيبة.

الحيوانات هي الاخرى لديها حب غريزي، لكنه حب غير دائم ولا ثابت. فالحالة المؤقتة للحب عند الحيوان، وليدة مداركها ومشاعرها، في حين تنطلق الحالة المستمرة للحب في الانسان من الكمال الانساني.

ويشبّه مولانا في شعره الرجل والمرأة بالماء والنار، حيث يُطفئُ الماء النار لو لامسها مباشرة، في حين يغلي هذا الماء لو كانت هناك واسطة بينه وبين النار كالاناء. فقوة الرجل كالماء، وقوة المرأة كالنار، ولو كانت هناك واسطة بين الرجل والمرأة كالحب والعلاقة الزوجية، فانه سيُغلب امام المرأة رغم كل ما لديه من قوة وغلبة.

اذن فالقوة التي لدى الرجال، ظاهرية؛ والقوة التي لدى النساء، باطنية وخفية. وجذور هذه القوة والغلبة التي لدى النساء كامنة في الحب الذي هو من الصفات الانسانية السامية. وبهذه الطريقة يخضع الرجل العاقل لغلبة المرأة ويستسلم لهيمنتها، في حين لا يخضع الجهلاء من الرجال للمرأة، بل يسعون لاخضاعها وغلبتها.

فالفئة الاولى قد بلغت كمال الانسانية، والفئة الثانية سقطت في حضيض الحيوانية. وعليه يمكن القول بأن معيار صفاء الروح عند مولانا هو حب المرأة

(١) نفس المصدر.

واطاعتها، ومعيار الحيوانية هو التمرد عليها والحاق الأذى بها[١].

اذن فسرّ غلبة المرأة للرجل عند جلال الدين الرومي هو الحب: حب التجلي الالهي الذي ينعكس في المرأة. ويوحي تفسيره الشعري العرفاني للحديث السابق بحديث نبوي آخر يقول: «ما أكرم النساء إلّا كريم ولا أهانهن إلّا لئيم»[٢].

لمولانا بيت شعري يقول:

انه ليس حبيباً، بل شعاع الحق وليس مخلوقاً، بل كأنه خالق

وحذا بعض شرّاح المثنوي حذو ابن العربي[٣] فقالوا بأن ظهور الحب في المرأة أقوى، لأن حب الرجل يظهر من خلال مشاهدة الحق في نفسه من حيث الفاعلية، بينما يمكن مشاهدة الحق في المرأة من حيث الفاعلية والانفعالية، حيث تستقبل المرأة نطفة الرجل، وتربّي هذه النطفة. وبذلك تصبح مشاهدة الحق في مظهر المرأة الجامعة للفاعلية والانفعالية، اتم وأكمل.

ويمكن القول في تفسير هذا البيت من حيث المنظار الصوفي هو ان من غير الممكن للبشر ادراك الحق بحسب الذات لأنه حقيقة مطلقة. وليس بالامكان رؤيته إلّا في المظاهر. ولذلك فالمرأة مظهر جمال الله ولطفه. والفتنة والحسن الذي لديها، من آثار ظهور الجمال الالهي الذي يتجلى فيه مظهر اللطف. ويدعو المتصوفة هذا اللون من الحب بـ «الحب الآثاري»[٤].

مولانا يجد ـ على أي حال ـ تجلي الحق في المرأة عظيماً الى درجة بحيث يقول باندهاش وتعجب: يبدو ان هذا الموجود ليس مخلوقاً، بل كأنه خالق!

ورغم ان دور المرأة كأم شبيه بالخلاقية الالهية، غير ان دورها الملهم في فضاء الحب ومقام الحبيب بامكانه ان يكون آية أسطع على الجمال الالهي والخلق

---

(١) فروزا نفر، بديع الزمان، شرح المثنوي الشريف، ج ٣، ص ٩٢٨ و٩٢٩ و ١٠٣١.

(٢) الجامع الصغير، ٢ / ١٠.

(٣) في الفص المحمدي من فصوص الحكم.

(٤) فروزانفر، شرح المثنوي الشريف، ج ٣، ص ٢٢٦ و١٠٣٥ و١٠٣٦.

الرباني.

النكاح، وصايا وتفاسير

يعتبر مولانا جليل الدين البلخي الرومي النكاح واسطة للابتعاد عن شر الشيطان والنجاة من أسر الشهوة. ويرى ان هناك جاذبية بين المرأة والرجل ليس بالامكان التخلص منها، ولكن يمكن ترشيدها وتوجيهها.

وينظر في بعض شعره الى النكاح كتجلّ للحبيب والمحبوب ايضاً. ويعتبر الحب امراً ثنائياً، سواء كان هذا الحب لله أو لانسان آخر. ويرى ان هذه الثنائية من علائم المشيئة الالهية السارية في عالم الوجود.

يقول في «المكتوبات»:

«الحب في الواقع، من الجانبين، ولابد ان ينطلق محرك الشوق وداعية التوق من كلا الطرفين، لأن الحب للحق والخلق لا يمكن ان يكون من جانب واحد ... «يحبهم ويحبونه»»[1].

اذن فالحب من وجهة نظر مولانا «أمر ذو جانبين بالذات، ويبدأ من كلا الجانبين. ويُدعى الله تعالى في القرآن بالودود[2]، كما قال تعالى: ﴿فاذكروني اذكركم﴾[3]، وقال ايضاً: ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾[4]. فحياة جميع الموجودات قائمة ـ من وجهة نظر مولانا ـ على الحب. فجاذبية الحب جارية في جميع عوالم الوجود، وحالة الجذب والانجذاب قائمة دائماً ما بين جميع الموجودات.

وجاذبية الحب السارية غير المرئية هي التي أبقت على عالم الوجود حياً وحافظت على استمراريته، وربطت بين حلقات سلسلة الموجودات، بحيث لو

---

(١) الرومي، مولانا جلال الدين، المكتوبات، ص ١٩٥.

(٢) سورة البروج / ١٤.

(٣) البقرة / ١٥٢.

(٤) آل عمران / ٣١.

طرأ أدنى خلل على هذا الارتباط، لانفصمت عُرى هذه السلسلة، ولما بـقي في نظام عالم الوجود قوام ولا دوام»[١].

اذن فنظام الأسرة الذي يقوم على الحب الذي يتجلى في جميع العالم، يُعد جميلاً ومقدساً من وجهة نظر مولانا.

وقد اكد مولانا في رسالته لابنه «سلطان ولد» بشأن ابنة صلاح الدين زركوب التي تزوج بها، على اهمية صرح الحب وضرورة الحفاظ عليه.

ففي هذه الرسالة التي كتبها برغبة فائضة عد المرأة أمانة الهية اودعها الله عند الرجل لاخضاعه لامتحان عظيم، طالباً من ولده باصرار ألا يعمل قط على ايذاء زوجته أو الاساءة اليها بشيء. وأقسم عليه «بالله» فيها ثماني مرات أن يحترمها ويُكرم مقامها، والا يتصور كالظاهريين انه لا حاجة بعد ذلك الى التعامل مـعها بلطف ووجه طليق، واصفاً الظاهريين بأنهم «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا»، بل عليه ان يتعامل معها دائماً كتعامله معها في اليوم الأول وليلة الزفاف[٢].

وهكذا نرى كيف انه اشار في رسالته لولده الى بـعض النـقاط التي حـظيت بالتجاهل والنسيان في تلك الفترة. كما نلاحظه في كتاباته الاخرى ينبري لتوجيه الانتقاد الى بعض الأعراف والتقاليد ويعتبرها غير مبررة مـن حـيث السـلوك الانساني.

وله كلام آخر في غيرة الرجال على نسائهم ويرى ـ على العكس من العرف السائد ـ ان منع المرأة من الظهور في المجتمع ليس لا يؤثر على انـتشار الفسـاد فحسب، وانما له مردود عكسي أيضاً حيث يزيد في رغبة كلّ مـن الطـرفين في الآخر. ثم اذا كانت جوهرة العفة موجودة في أحد أو غير موجودة فانها لا تتغير بالمنع وعدم المنع. ولذلك ينطلق مولانا ومن خلال تحـليل نفسي لهـذه القـضية، بدعوة الرجال الى الابتعاد عن الغيرة التي لا مبرر لها، لأنها سـتؤدي في نهـاية

(١) همائي، جلال الدين، مولوي نامه، القسم الأول، ص ٤٠٧.

(٢) جلال الدين الرومي، مكتوبات، ص ١١.

المطاف الى نتائج غير مطلوبة، مؤكداً على ان حبس المرأة أمر لا معنى له بل ويلحق الضرر بالمجتمع سيما وان الانسان حريص على ما مُنع[١].

وعلى صعيد آخر يوصي مولانا الرجال بالتعامل الحسن مع النساء وتوفير الأرضية لتهذيب أنفسهم من خلال تحمل طلباتهن. ويؤكد على ان سيرة النبي الاكرم ﷺ كانت هي الزواج ومداراة الزوجة، ويرى ضرورة الصبر والتحمل من أجل الانسجام مع الزوجة، لأن ذلك يوفّر الأرضية لزوال الرذائل الأخلاقية.

مولانا وعلى العكس من بعض المفكرين الذين يوصون بإخضاع المرأة والتعامل معها من منطق الهيمنة والقوة، يوصي بعدم اتخاذ مثل هذا النهج ويرى انه يؤدي الى ظهور الصفات غير الحميدة في الرجال ويعمل على الاساءة للنساء وسحقهن. ويوصي بدلاً من ذلك باللين في التعامل مع المرأة، ومداراتها، وهو ما يؤدي الى ظهور الصفات الحميدة وتبلور السجايا الاخلاقية المطلوبة، كما يمثل هذا اللون من السلوك اقتداءً بسنة الرسول الاكرم ﷺ[٢].

ويعتبر مولانا المرأة التي تؤازر الدين، من أعظم النعم الالهية، ويستشهد في هذا المقام بزوجة النبي أيوب عليه السلام التي وقفت الى جانبه مع كل ما تعرض اليه من بلاء لا يطيق المرء حتى سماعه، فكانت تشاطره في ذلك البلاء والألم وتشد أزره في الدين، وتغيثه في المحنة[٣].

ورأي مولانا فيما يتعلق باختيار المرأة، رأي عالمي. فهو يعتقد ان الآية القرآنية ﴿الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين ...﴾ بمثابة تبيان الخالق الواحد لقانون عالمي، ويوصي بأن يعثر كل أحد على زوجه المناسب، اذ لابد أن يحدث الجذب والانجذاب بين من يتشابهون من حيث الصفات.

ويصف حالة الميل والرغبة بين المرأة والرجل بأنها تهدف الى البقاء واستكمال

---

(١) راجع: الرومي، مولانا جلال الدين، فيه ما فيه، تحقيق جعفر مدرس الصادقي، ص ٧٧ و٧٨.

(٢) راجع نفس المصدر، ص ٢٩ و ٣٠.

(٣) المولوي، مكتوبات، ص ٣.

كل منهما بواسطة الآخر. ويضيف بأن هذا الأمر لا يختص بالانسان، اذ يوجد هذا الميل نحو البقاء والكمال في جميع الموجودات والكائنات.

المرأة في خيال مولانا

استخدم جلال الدين الرومي رمزي «المرأة» و«الأم» في العديد من التشبيهات والتمثيلات التي اوردها في «المثنوي» محاولاً من خلال ذلك عرض فكرته الأساسية التي يحرص على تقديمها سهلة وواضحة. وخلال هذه المواضع نجده يبحث عن الكلمة أو الرمز المناسب من اجل ان يقدم من خلاله الحقيقة الى المخاطب. ولذلك لا نلاحظ في كلماته وشعره أية فكرة تفوح منها رائحة التشاؤم أو سوء الظن أو التشكيك بالمرأة ومكانتها في نظام الخلقة والمجتمع.

والحقيقة هي ان مستوى الافكار التي يعرضها أرفع من الامور الظاهرية والمادية، ويُلاحق في معظم الأحيان المعاني السامية الدقيقة، والتي يجد في «المرأة» و«الأم» وغيرها من المفردات المماثلة، الرموز المناسبة للتعبير عنها.

لمولانا بيت شعري يشبّه فيه الدنيا بالمرأة الساحرة التي ليس بمقدور الناس العاديين إبطال سحرها. ولديه بيت آخر في موضع آخر يطالب فيه بعدم الركون الى الدنيا وألّا نضع وجودنا بأسره بين يدي الماديات، بل لابد من الاهتمام بالقضايا المعنوية والروحانية.

ومن ذلك ندرك ان مولانا لا يريد بالدنيا الحياة العادية، واشباع اللذات المشروعة، والمال، والمرأة، والولد، وانما يريد بها عبادة الدنيا والغفلة عن الله تعالى. أي ان الغفلة عن الله والمعنويات، تمثل مصداق الاهتمام بالدنيا والانغماس فيها، وليس التمتع بالنعم الدنيوية، والتي من بينها المرأة[1].

ومن تشبيهاته في المثنوي، تشبيه العقل بالزوج والنفس بالمرأة في بعض الأبيات وبالأم في ابيات اخرى.

---

(١) راجع: همائي، مولوي نامه، القسم الاول، ص ١٦٢.

وشبّه في ابيات اخرى الله تعالى بالأم اذ وجد في الأمـومة تشـبيها مـناسباً
بير عن العلاقة بين الله والخلق. كما نراه قد شبه الأرض بالمرأة والسماء بالرجل
أبيات اخرى لأن المرأة تربي في حجرها نطفة الرجل.
وفي «المجالس السبعة» شبّه مولانا الرجل والمرأة بالروح والبدن وذلك حـين
يره للآية ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقونَ به بين المرء وزوجه﴾[1] والتي تتحدث
، هاروت وماروت. وقال بأن اهل الظاهر يفسرون المرء وزوجه في هذه الآية
جل والمرأة، في حين يفسرهما أهل التحقيق بالروح والجسم.
وقدّم مولانا خلال ذلك، تفسيراً باطنياً لهذه الآية وعرض بعض الايضاحات
ئعة حول الزوج والزوجية، ناقلاً كلاً من المرأة والرجل الى معان أسمى[2].
ولم يكتف بهذا المستوى من التشبيه، بل انطلق أبـعد مـن ذلك فشـبّه مـريم
سم وعيسى بالجوهرة الخفية، وقدّم لقصة مريم وعـيسى القـرآنـية تـفسيراً
وياً[3].
وتصرف نفس هذا التصرف ازاء قصة سليمان وبلقيس، فـقال بأن المـقصود
ليمان هو الحق تعالى، والمقصود ببلقيس هي النفس الأمارة، والمقصود بالهدهد
العقل[4].
ان عناصر كل قصة بإمكانهـا ان تتحول على يدي مولانا الى عناصر لطيفة
ريفة في الطريق المعنوي والسلوك العرفاني.
ونجده في بعض الأبيات الشعرية يتحدث عن بلقيس الحقيقية ويـثني عـليها
ن ان يقدم لها تأويلاً، لأنها قد اعطاها الله تعالى عقل مـائة رجـل، ولذلك لم
نف بظاهر الهدهد والكتاب الذي حمله اليها من سليمان، وانما استعانت بالعقل

البقرة / ١٠٢.
راجع: الرومي، جلال الدين، المجالس السبعة، تحقيق فريدون نافذ، ١٩٨٤، ص ٢٣.
راجع: الرومي، فيه ما فيه، ص ٩٧.
راجع: الرومي، المجالس، ص ٦٢.

ونفذت الى اعماق ذلك الكتاب، ثم اتخذت قرارها على أساس ما توصلت اليه بعقلها.

المهم عند مولانا هو ان يقدم الفكرة التي يريدها، وليس مهماً لديه القالب والقصة والتشبيه.

ولديه أبيات شعرية اخرى يشبّه فيها الأم الفاسدة بالنفس الأمارة.

والتشبيه الرائع لمولانا يمكن ملاحظته خلال تحدثه عن رموز الحب وكشف أسراره. في هذا التشبيه يتسامى كلام مولانا حيث يستعين بالحب الأرضي ـ حيث تمثل المرأة أسمى نماذج الحبيب الأرضي ـ للانطلاق نحو الحب الالهي.

طالما استعرض مولانا في المثنوي قصة ليلى والمجنون، فعرض ليلى على انها مرآة تعكس الحق تعالى للمجنون، اذ أن المعشوق لدى كل عاشق هو مظهر للحق وموصل اليه.

يقول في «فيه ما فيه»[١]:

«كانت في أيام المجنون نساء أجمل من ليلى، إلّا انه لم يقع في غرام أية واحدة منهن. فكانوا يقولون له: أ نأتيك بمن هي أجمل من ليلى؟ فكان يقول: انا لا احب ليلى لوجهها، فليلى في يدي كالقدح، وأنا مغرم بالراح الذي في القدح، وأنتم تنظرون الى القدح وغافلون عن الراح».

فالمعشوق أو الحبيب من وجهة نظره ليس سوى ذريعة بيد العاشق كي يستطيع من خلاله مشاهدة مظهر الحق، وينشغل بذكره. غير ان هذا المعنى غائب عن ذهن اولئك الذين يهتمون بالظاهر ويغفلون عن الباطن. ولذلك نرى مولانا يؤول حتى ذلك الحديث الذي يدعو الى مشاورة النساء ثم العمل خلاف مشورتهن، ويقول بأن المرأة في هذا الحديث ترمز الى النفس الأمارة ولا يراد بها المرأة الحقيقية.

وعلّق «زرين كوب» على الأبيات الشعرية التي اوّل فيها مولانا مفردة

---

(١) ص ٦٠.

«النساء» الواردة في الحديث المذكور، قائلاً:

«يشير مولانا في هذه الأبيات ضمنياً الى الحديث «شاوروهنّ وخالفوهن» مؤكداً على ان المراد هو مخالفة هوى النفس. فبما ان الهوى يُضل الرجل عن طريق الحق، فمن الضروري مخالفته. فهو يؤكد ان النفس أسوأ من المرأة، لأن المرأة جزء من الشر، في حين تمثل النفس كل الشر.

اذن ما يجب ان تعمل خلافاً له، هو نفسك: «اذ ان الكمال، في العمل خلافاً لاشارتها». ورغم ان مولانا يستنبط من هذا الحديث لزوم مخالفة النفس، غير ان ظاهره يؤيِّد من قبل هذا التأويل أيضاً، لأن النفس وان كانت كل الشر ولابد من مخالفة هواها، الا ان المرأة التي هي جزء من هذا الكل أيضاً ينبغي ان تُشمل بهذا الحكم، ولابد على هذا الأساس من مخالفة مرادها.

ورغم ذلك فهذا الكلام عند مولانا، يقصد ذلك الجانب من وجود المرأة المرتبط بعالم الأنس والالفة، ولا يعتقد ان الاشارة القرآنية «لتسكنوا اليها» على صلة بهذا الأمر، اذ يوصى فيها بلزوم التعامل مع المرأة بالمودة والرحمة»[1].

اذن فاتباع الهوى هو الذي يبعث على الضلال وليس مشاورة المرأة أو حبها والاستئناس بها. ويرى مولانا في القول بأن مشاورة المرأة تقود الى الضلال والانحراف، مصدراً اساسياً نحو الضلال الانساني. واذا كان البعض من النساء مصداقاً لهذا الكلام بسبب اتّباع النفس الأمارة، فهذا المصداق جزئي ولا ينبغي أن يأخذ طابع الكلية، فضلاً عن ان الرجل ينبغي ألّا يُطاع ايضاً، اذا كان تابعاً لهواه ومنقاداً لنفسه.

سوء الظن وملاحظات عرفية

رأينا فيما سبق كيف عبّر مولانا عن رفضه لبعض العقائد والأفكار العرفية المتداولة والمنسوب بعضها الى السنّة، أو انبرى لتأويلها عرفانياً. كما رأينا كيف

(١) زرين كوب، عبد الحسين، سر النّي، ج ١، ص ٤١٠ و٤١١.

اكد على ان حسن السلوك والتعامل مع المرأة دليل على الآدمية، واعتبره المعيار الذي يميز الانسان عن الحيوان، ووصف الجهلاء بالحيوانات التي لا تعرف سوى الغضب والشهوة، نظراً لغلبة الطبع الحيواني عليهم، ولذلك لا يتعاملون مع المرأة بالرقة واللطف.

كذلك بما أن الله خلق المرأة للسكن والهدوء، فإن الابتعاد عنها أو إلحاق الأذى بها، سلوك يحول دون التنعم بهذه النعمة.

وانطلاقاً من ذلك نشاهد مولانا يوصي ولده في رسالته اليه باحترام المرأة وحسن التعامل معها، ويحذر الرجال من كل ما يسيء الى النساء ويثير استياءهن، بما في ذلك الغيرة.

ورغم هذا كله، نلاحظ في المثنوي وكتابات مولانا الاخرى بعض المضامين التي تحمل طابع سوء الظن بالمرأة، وتطرح بعض العقائد العرفية، وتضفي عليها التأييد والصحة. في بعض أبياته الشعرية ينطلق لتأييد رواية العهد القديم المتحدثة عن الهبوط، مؤكداً على ان كيد المرأة يقف خلف ذلك الهبوط من الجنة الى الارض، وكذلك خلف الانحطاط الاخلاقي والروحي الذي تشهده الأرض!

ويتحدث مولانا في شعره أيضاً عن المرأة كواسطة لتنفيذ مآرب الشيطان، فيقول بأن الشيطان قد سأل الله ان يدله على الوسيلة التي يتمكن بها من اضلال الانسان، فدلّه على جمال المرأة، فرقص الشيطان فرحاً وطرباً.

ويوسع مولانا رقعة مكر المرأة من حواء وآدم الى هابيل وقابيل، وحتى الى نوح وزوجته، ويرى في جميع هذه الاحداث آثار مكر المرأة، ويقول بأن مكر النساء لا نهاية له.

ويقول أيضاً بأن المرأة مصدر الشر مستدلاً في ذلك بنفس الدليل التقليدي الذي استدل به غيره وهو نقصان عقل المرأة واستيلاء الهوى عليها، ونزعتها نحو الدنيا.

ويرى ان السبب في تفوق الرجل على المرأة هو انصياع الرجل للعقل. ويصف الشخص الذي لا يغلب عنده العقل وتغلب النفس بأنه امرأة من الناحية الباطنية

حتى وان كان رجلاً في الظاهر. لذلك يقول: في عالم الباطن، المنصاع للعقل، رجل؛ والمنصاع لهوى النفس، امرأة.

ويصف المرأة بأنها ليست حسنة بحد ذاتها في تفسيره للآية الكريمة ﴿زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنين﴾[١]، ويقول بأن الله قال «زُيِّن»، ومعنى ذلك ان الزينة فيها بمثابة العارية والأمر الطارئ، وليس جزءاً أصيلاً فيها[٢].

ورغم ذلك نجده يقول في موضع آخر وفي بيت شعري:

الله هو الذي زيَّنَ للناس وهل يمكن التملص مما زيّن الله

والحقيقة هي ان مولانا لا يوافق ـ مثل الكثير من أصحاب الأفكار النيرة ـ على ان المرأة حبائل الشيطان، بل يعتبر جمال المرأة جمالاً الهياً وانعكاساً لجماله تعالى[٣].

وأورد مولانا حكاية في «المجالس السبعة» تحت عنوان «وجه المرأة الجميلة مصيدة الخلق» خلاصتها ان ابليس قد قال لأبنائه يوماً ليس بمقدور أي أحد منكم ان ينقذني من هذه الغصة التي أنا فيها ويوقع هذا الرجل ـ ويقصد به برصيصا العابد ـ في الفخ. فقال له أحدهم: ليس هناك فخ كفخ وجه المرأة الجميلة. فلو وقعتَ في غرام الذهب، فالذهب لا حياة فيه ولهذا لا يقع في غرامك ولا يبحث عنك ولا يحدثك. اما اذا عشِقتَ المرأة المليحة، فالعشق من جانبين: فأنت عاشقها وطالبها، وهي عاشقتك وطالبتك. وأنت تحتال كي تسرقها، وهي تحتال كي تسرقك. فالجدار الذي يُحفَر من جانب واحد لا يُثقب بنفس السرعة التي يُحفر فيها من جانبين، والحجاب القائم بين الرجل والمرأة ـ أي حجاب الخوف من الخصماء والعُذّال ـ كالجدار، فلو أخذ الرجل بحفره من هذا الجانب بالمكر، وأخذت المرأة بحفره من الجانب الآخر بالحيلة فلابد ان يلتقي أحدهما

(١) آل عمران / ١٤.

(٢) مولوي، فيه ما فيه، ص ١٠.

(٣) ستاري، صورة المرأة في ثقافة ايران، ص ١٠٧.

بالآخر[١].

ولجلال الدين الرومي أبيات شعرية يعزو فيها عدم اشتراك المرأة في الجهاد الأصغر الى عدم نجاحها في الجهاد الأكبر.

ومن المناسب في نهاية هذا البحث ان نستعرض آراء بعض المحققين ولمحات من حياة مولانا.

فبما ان كلام مولانا ومثل أي كلام معنوي عال، مبطّن وغامض وقابل للتأويل، لابد من امعان النظر كثيراً في آرائه وسلوكياته.

فلماذا يرفع مكانة المرأة الى مكانة الخالق ضمن اطار الحب في موضع ما، ثم يوجّه اليها تهمة الهبوط من الجنة واضلال النسل البشري في موضع آخر؟

وقد قيل في تفسير هذا الموقف الثاني ازاء المرأة: «لربما يعود ذلك الى كون الرومي لم يتعلق بأية امرأة قط. والجميع على علم بتعلقه بشمس التبريزي ثم من بعد ذلك بصلاح الدين زركوب، وحسام الدين الجلبي. فألف هؤلاء الرجال الثلاثة مركز حب الرومي واهتمامه. وقد سعى من خلال هؤلاء للعثور على الانسان الكامل الذي يؤلف صلب موضوع «ديوان شمس» و«المثنوي»»[٢].

غير ان مثل هذه الأفكار المتناثرة لا تؤلف في الواقع حصيلة رأيه في المرأة أو صفوة موقفه منها. ويُعد الاكتفاء بهذه الافكار امراً لا يمت الى العدالة بصلة، بل ومن غير الانصاف أن تُتخذ معياراً في تقويمه.

فلابد أن يُنظر الى جميع ما لديه من كلمات وآراء ومواقف ازاء المرأة، فضلاً عن ضرورة التوقف عند طبيعة تعامله مع نساء عصره. وقد ورد ان تعامله مع نساء عصره كان تعاملاً فريداً لا سابقة له. وكانت هناك مجموعة كبيرة من النساء تميل اليه كثيراً وتنظر اليه باحترام يفوق الوصف، مثل غوماج خاتون زوجة السلطان ركن الدين، وغرجي خاتون زوجة معين الدين بروانة، وغيرهما.

---

(١) مولوي، المجالس السبعة، ص ٣٢.

(٢) اقبال، تأثير مولانا على الثقافة الاسلامية، ص ٢١٨ و ٢١٩.

وورد ان غرجي خاتون حينما عزمت على الذهاب الى «قيصريه رود» كانت لا تجد في نفسها طاقة تحمل فراق مولانا، فأمرت رساماً يدعى عين الدولة الرومي ان يرسم لها صورته لتحملها معها[١].

ولم تكن مريدات الرومي من أوساط الطبقة المرفهة فقط، بل كانت لديه مريدات بين الطبقات الدنيا ايضاً، فكن يعقدن المجالس من اجله ويوجهن اليه الدعوة لحضورها. وحينما كان يحضر، كنّ ينثرن عليه الورد، ثم ينطلقن معه للسماع.

وكانت نساء قونية يجتمعن في منزل أمين الدين ميكائيل ـ النائب الخاص للسلطان ـ في ليالي الجمعة من أجل السماع، فكنّ يخلعن كل ما لديهن من حلي ويضعنه في حذائه علّه يأخذ شيئاً منه، إلّا انه لم يلتفت الى أي شيء منه، فكان يصلي فيهن صلاة الصبح ثم يخرج[٢].

«كانت مواجهته للفكرة السائدة التي تعتبر المرأة أدنى مستوى من الرجل، تنطلق من كونه لم يكن يعتبرها اكثر من أنها تكرار للعرف. فكان يولي المرأة اهمية كبرى انطلاقاً من ايمان أصيل بهذه الفكرة. وقد برهن بحياته على أن افكاره كانت تترشح من فكر سليم وغير مستندة الى هوى النفس والشهوة.

فلم يعش مولانا مع زوجتين قط. تزوج مرة واحدة، ثم توفيت زوجته فتزوج بأخرى توفيت قبله، وهي التي تُعدّ امّ مريديه. ولم تكن لديه جارية.

وعبّر عن آرائه بالزواج والحياة الأسرية في الرسالة التي كتبها لولده «سلطان ولد» حين زواجه ببنت صلاح الدين.

ان عارفاً مثله، لم يكن بمقدوره ان يتجاهل المرأة في ابداعه الفكري. ولم يكن ـ كالمتصوفة الباطنية ـ يسمح للنساء لحضور الاجتماعات بشكل خفي، بل كان يعلن

---

(١) الأفلاكي، مناقب العارفين، ص ٤٢٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٩٠ و٤٩١.

بصراحة عن عدم فائدة اخفاء النساء وحجبهن»[١].

«لقد اعترف مولانا بالمرأة كعنصر اجتماعي. وكان يعارض حجب النساء أو ابقاءهن بعيداً عن الاجتماعات. فكان لديه في زمانه عدد كبير من المريدات. وكان يحضر مجالس سماع النساء فكنّ ينثرن عليه الورود حين سماعه.

كان يوصي بحب النساء، وظل يعيش مع امرأة واحدة حتى نهاية عمره. والنساء اللاتي كنّ من الأسرة المولوية وعلى علاقة به، طالما كن يعاشرن كبار رجال المولوية. وورد في شجرة النسب الواردة في نهاية كتاب الأفلاكي أن شرف خاتون بنت سلطان ولد، كان لديها الكثير من المريدين ...

نلاحظ ان المرأة في المراحل المولوية الاولى لم تكن لتختلف عن الرجل، حتى انها كان يُعطى لها مقام الخلافة، فكانت أعظم من الكثير من الرجال الذين ينتسبون اليها. واستمر هذا التساوي بين المرأة والرجل حتى القرن الحادي عشر الهجري.

وصفوة القول هي ان المرأة في الدورة المولوية الاولى، لم تُطرد من بين صفوف الجماعات المولوية، ولم تُلاحظ المرأة أدنى مستوى من الرجل سيما بعد ان انتشرت المولوية الى القرى، وظهرت القرى المولوية الى الوجود. ولذلك كانت النساء القرويات يشتركن في مجالس السماع ايضاً»[٢].

«وبعد مولانا بفترة طويلة كانت تُلاحظ النساء السالكات والمرشدات في الطريقة المولوية، اذا كانت هذه الطريقة معروفة في التعامل الحسن مع النساء، تأثراً بالتراث المعنوي الذي خلفه مولانا.

وسعت بعض السيدات مثل «بنت سلطان ولد» لتطوير الطريقة المولوية وحققن نجاحاً كبيراً على هذا الصعيد. غير ان حسن النظر هذا نحو المرأة لم يستمر

---

(١) غولبينارلي، عبد الباقي، مولانا جلال الدين، ترجمة الدكتور توفيق سبحاني، ١٩٩١، ص ٣٦٦ـ ٣٦٨.

(٢) راجع: غولبينارلي، عبد الباقي، المولوية بعد مولانا، ترجمة توفيق سبحاني، ص ٣٤١ـ ٣٤٥.

سوى الى القرن الحادي عشر.

فبعد اعتماد المولوية على الحكومات من خلال الأوقاف، والتهادن مع الحاكمين، وانتقال الخانقاهات المولوية وأتباعها من القرى الى القصبات والمدن، والانقطاع عن عامة الناس والالتحاق بالطبقة المثقفة، تعرضت الحرية المعطاة للمرأة للتهديد، فلم نعد نجد أثراً للمولوية في القرى، ولا أثراً للمرأة بين خلفائها»[١].

وفيما يتعلق برأي مولانا بالمرأة، تقول السيدة شيمل: «لابد من دراسة رأيه بالمرأة بالمقارنة مع الآراء السائدة في زمانه، أي القرن السابع الهجري. ففي تلك الفترة لم تكن هناك نظرة ايجابية نحو المرأة، إلّا ان رأي مولانا بالمرأة لم يكن سلبياً بشكل عام، بل كان هذا الرأي يزداد ايجابية كلما تقدم الى الأمام.

ففي كتاب «فيه ما فيه» نرى رأيه بالمرأة انتقادياً ومتأثراً بالاعتقادات السائدة في زمانه. فيرى الزواج مثلاً باعثاً على خلق المشاكل للرجال.

وأعتقد أن رأيه قد تغير تماماً في «المثنوي» حتى بلغ به الأمر كي يقول «المرأة ليست مخلوقاً بل خالق». ولابد من أخذ الفترة التي اعترف بها بهذه المكانة للمرأة بنظر الاعتبار. فوجهة النظر هذه التي أوردها في المثنوي تكشف بما لا يقبل الشك عن انه قد أكرم المرأة.

المرأة قد لعبت في قصص المثنوي دوراً مهماً. ولمولانا أشعار جميلة في وصف المرأة، وقدّم عنها صورة انسانية. والصورة التي رسمها لزليخا، من أروع صور المثنوي. فقد اعتبر زليخا مظهراً للحب الأرضي، وقال بأنها قد غرقت في بحر الحب بحيث باتت تستعين باسم يوسف في كل شيء»[٢].

العرفاء المسيحيون

١ ـ اوغوسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠)

وُلد اوغوسطينوس في ثاغاست (Thagaste) الواقعة في افريقيا الشمالية، ثم

(١) راجع: شيمل، عظمة الشمس، ص ٥٥؛ غولبينارلي، المولوية بعد مولانا، ص ٣٤٥.

(٢) راجع: مجلة «زنان ـ أي النساء ـ» العدد ٥٧، السنة الثامنة، لقاء مع السيدة ماري شيمل.

اصبح اسقف مدينة هيبو (Hippo) في عام ٣٩٦. وتحدث في كتابه «الاعترافات» ـ الذي يُعد من اروع ما ترجمه شخص لنفسه ـ عن حياته منذ ولادته والى ان أصبح اسقفاً.

ويبدو ان مرحلة طفولته كانت مرحلة بريئة لم يَشُبْها سوى سرقته لثمرة كمثرى. لكنه قال في كتابه المذكور انه وقع في مخمصة التلوثات في مرحلة صباه وشبابه، كالطيش، وكثرة اللعب، والتعامل مع المومسات، وامتلاك العشيقات، واعتناق المانية، والنزعة نحو الافلاطونية الحديثة، وتدريس فنون الفصاحة والبلاغة. غير انه انتهى الى نهاية حميدة وهي نزعته الى المسيحية.

فحينما كان في الثانية والثلاثين من العمر سمع نداء يقول: «خذ الكتاب المقدس واقرأه». ففتح الكتاب المقدس فوجد امام عينه كلاماً للقديس بولس، فقرأه، فأحدث فيه تحولاً عجيباً.

ومن العوامل التي أثّرت في اعتناقه للمسيحية هي مواعظ القديس امبروس (٣٤٠ ـ ٣٩٧)، وكان من آباء الكنيسة، وأسقف مدينة ميلانو الايطالية، واكبر من اوغوسطينوس بأربعة عشر عاماً فقط.

اهم آثاره: في الاختيار[١]، فيما يتعلق بالمعلم[٢]، الاعترافات[٣]، في العقيدة المسيحية[٤]، كتاب في الايمان والأمل والحب[٥]، في التثليث[٦]، مدينة الله[٧].

ومن هم آرائه في المرأة:

---

(١) On Free Will.

(٢) Concerning The Teacher.

(٣) The Confessions.

(٤) On The Christian Doctrine.

(٥) The Enchiridion on Faith, Hope, And Love.

(٦) On The Trinity.

(٧) The City Of God.

١ ـ المرأة خُلقت للرجل

لابد أولاً من انعام النظر في الاسس النظرية للقديس اوغـوسطينوس قـبل استعراض آرائه. فهو يأخذ بنظرية العهد القديم بشأن الخلقة وهبوط آدم وحواء من الجنة، ويبادر الى تبريرها واستخراج العديد من وجهات النظر منها.

يقول في الاعترافات: «نرى الانسان في آخر المطاف قد خُلق على صورتك وشبيهاً لك، ويحكم جميع الحيوانات التي لا عقل لها. ولهذا الســبب خُـلق عـلى صورتك وشبيهاً لك، أي لأنّ لديه قوة العقل والفهم. وكما ان هناك قوتين في نفس الانسان احداهما مهيمنة لأنها تفكر والاخرى مطيعة لأنها مشمولة بهذه الهداية، كذلك المرأة خُلقت للرجل من حيث الجسم. فالمرأة من حيث الذهن لديها طبيعة مماثلة للرجل، ومن حيث الجنس والجانب الجسماني فانها تابعة للرجل. وبنفس الطريقة يجب ان تخضع فيها حركاتنا الطبيعية للقوة الذهنية الاستدلالية، من اجل ان تقع تلك الأعمال التي تتم بواسطتها تلك الحركات، تحت الهام اصول السلوك الحميد»[١].

وهكذا نراه يعتبر المرأة بمثابة الميول والنزعات الجسمية، والرجل بمثابة القوة الاستدلالية للذهن، ثم يصل الى النتيجة التالية: لابد للمرأة ان تكون تابعة للرجل كتبعية القوى الباطنية للعقل.

واستدلاله الآخر ضمن اطار هذه الفكرة هو ان الرجل ذو عقل أقوى، لذلك فالمرأة ـ التي لديها عقل أضعف ـ لابد لها من اطاعة الرجل.

والمـدهش في الامر هو انه يعتبر هذا الأمر طبيعياً ومتفقاً مع النظام الكوني، ويقول:

---

(١) St. Augustine, Confessions, Tr. By R.S. Pine - Coffin (harmondsworth, 1961)., B. 13/Ch. 39/ P.344.

«يلاحظ وجود نظام طبيعي بين الناس وهو ان على النساء خدمة الرجال، وعلى الأبناء خدمة الآباء والامهات، وذلك لضرورة ان يخدم صاحبُ العقل الأضعف صاحب العقل الأقوى»[١].

ونراه يخاطب الله أيضاً قائلاً:

«انت جعلتَ النشاط العقلي تابعاً لقانون العقل مثلما خلقت المرأة تابعة للرجل»[٢].

اذن فتبعية المرأة للرجل من وجهة نظر القديس اوغوسطينوس أمر تفرضه طبيعة الوجود من جهة، وكونه قانوناً الهياً من جهة اخرى.

وحينما يتحدث عن امه في كتابه «الاعترافات» يؤكد على هذه الخصوصية عند المرأة أيضاً ويقول:

«كانت تطيع زوجها دائماً لأن طاعتها له طاعة لله»[٣].

وتحدث عنها ايضاً:

«حينما بلغت السن المناسبة زوّجها أبواها لرجل اخذت تخدمه كسيّد لها»[٤].

وقال بشأنها أيضاً انها كانت تقول للنساء اللاتي كنّ يتذمرن من ازواجهن:

«ينبغي عليهن النظر الى النكاح كالعقد الذي يملي عليهن خدمة أزواجهن، وعليهن ان يعرفن منذ ذلك الحين ماذا هن، وألّا يعصين ساداتهن»[٥].

مما سبق يمكن ان نقول جازمين بأن اوغوسطينوس يعتقد تماماً بتبعية المرأة للرجل ويرى ان هذه التبعية منطبقة تماماً مع القانون الكوني والمشيئة الالهية. وعلى هذا الضوء قدّم أُمه نموذجاً لمثل هذا السلوك وقدوة في مضمار تبعية المرأة

---

(١) Quoted In: Woman Defamed And Woman Defended: An Anthology Of Medieval Texts, Ed. AlcuinBlamires, Oxford Clarendon Press, 1992, p.77.

(٢) Confessions, B, 13/Ch. 34/ p.345.

(٣) Ibid, B, 1/Ch. 11/ p.32.

(٤) Ibid, B, 9/Ch, 9/ p.194.

(٥) Ibid, B. 9 / Ch. 9/ p.195.

للرجل وانصياعها له.

ولا شك في وجود نوع من عدم الانسجام في كلمات اوغوسطينوس. فهو يعتبر المرأة والرجل متساويين ذهنياً وعقلياً، كما سبق ان اشرنا الى ذلك، بل ويراهما متساويين أيضاً من حيث التمتع بالألطاف الالهية: «فأنت الذي خلقت الذكر والانثى، غير انهما متماثلان من حيث التمتع بلطفك وبركتك الروحانية. فلطفك لم يفرق بين الاثنين من حيث الجنس، مثلما لا يفرق بين اليهودي واليوناني أو العبد والحر»[١].

اذن اذا كانت المرأة مساوية للرجل من حيث العقل، ومن حيث الانتفاع بالفيض الالهي واللطف الرباني، فلماذا يجب ان تكون تابعة للرجل؟ وكيف يمكن تبرير مثل هذه التبعية؟ وكيف يمكن استنباطها؟ وما هي طبيعتها؟

فاذا كان الضعف العقلي هو المعيار في التبعية، فبامكان هذا الضعف ان يظهر في الرجل أيضاً سيما وان اوغوسطينوس قد ذهب الى تساوي المرأة والرجل من حيث العقل. واذا كان الجنس هو المعيار، ففي هذه الحال يكون اوغوسطينوس قد ناقض نفسه لأنه عدّ المرأة والرجل بمستوى واحد من حيث التمتع باللطف الالهي. ولا نجد اجابة مقنعة من اجل رفع هذا اللاانسجام في كتاباته.

٢ ـ الزواج

يرى اوغوسطينوس ـ وعلى غرار بولس ـ الزواج شراً لابد منه لاولئك الذين من الممكن ان يخرجوا من طريق التقوى بفعل الأهواء النفسانية. ويرى ان الهدف الوحيد منه هو التكاثر لا غير. وكتب في «الاعترافات» حين تحدثه عن نفسه في مرحلة ما قبل توبته وتنصره:

«ان هذا الموج (الوساوس النفسية) كان بامكانه ان يهدأ بالتكاثر الذي جعلته

---

(١) Ibid, B. 13/ Ch. 23 / p.333.

شريعتك يا الهي هدفاً للزواج»[١].

وكتب عن حياته المشتركة مع عشيقته بدون عقد شرعي قائلاً: «خلال الحياة معها أدركت بتجربتي التفاوت بين محدودية عقد الزواج الذي يهدف الى امتلاك الابن، وبين منفعة الشهوة التي يُكره فيها ولادة الابن»[٢].

وهذا النحو من الاطراء على الزواج، لم يمنعه من التحدث عن آفاته على غرار القديس بولس. فقد خاطب الله تعالى في كتابه «الاعترافات» قائلاً: «لابد لي من سماع ندائك من فوق السحب باهتمام اكبر حين قلتَ في اولئك الذين يتزوجون انهم سيعانون من معضلات ظاهرية، اما أنت فسأدعك حراً»[٣].

ثم استشهد بعد ذلك بكلمات بطرس التالية: «بودي لو كنتم من دون هم فان غير المتزوج يصرف همه الى امور الرب والوسائل التي يُرضي بها الرب. والمتزوج يصرف همه الى امور العالم والوسائل التي يُرضي بها امرأته»[٤].

اذن فهو يفكر في الزواج على غرار تفكير بولس الرسول ويرى ان من الافضل الابتعاد عن النساء، لأن الزواج يجعل المرء دنيوياً، والعزوبة تجعله الهياً.

ويقول بعد ذلك:

«هذه كلمات (كلمات بولس) كان يجب ان اصغي لها باهتمام اكبر. واذا كنتُ قد خصيتُ نفسي حباً لملكوت السماوات، فأنا بانتظار ان اعانقك بفرح اكبر»[٥]. (اشارة الى ما ورد في انجيل متى، ١٩ / ١٢: «فهناك خِصيان وُلدوا من بطون أُمهاتهم على هذه الحال، وهناك خِصيان خصاهم الناس، وهناك خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمن استطاع أن يفهم فليفهم!»).

---

(١) Ibid. B2 / Ch. 2 / p.44.

(٢) Ibid, B. 4 / Ch. 2 / P.72.

(٣) Ibid, B. 2 / Ch. 2 / P.44.

(٤) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس، ٧ / ٣٢ و٣٣.

(٥) Confessions, B. 2 / Ch. 2/ P.44.

٢ ـ توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤)

يُعد توما الأكويني أعظم الفلاسفة وعلماء اللاهوت في العصر الوسيط. ولد في ضواحي مدينة نابولي بايطاليا. انـضم الى البـنيديكتية والدومـينيكانية في عـام ١٢٤٣ بعد ان درس تعاليمها. وتتلمذ على البرت الكبير في باريس عام ١٢٤٥. واستمر في دراسته في كولن (١٢٤٨ ـ ١٢٥٢).

وأخذ يدرّس بجامعة بـاريس خـلال الفـترة (١٢٥٢ ـ ١٢٥٩). ثم اصـبح مستشاراً للبابا بروما خلال الفترة (١٢٥٩ ـ ١٢٦٨).

وأمضى الفترة (١٢٦٩ ـ ١٢٧٢) في باريس، والفـترة (١٢٧٢ ـ ١٢٧٤) في نابولي. وفي عام ١٣٢٣ اعتبره الفاتيكان قديساً.

كان نشاطه الفلسفي يتركز على توضيح وتفسير النظام الفكـري الأرسـطي والدفاع عنه، فضلاً عن جعله منسجماً مع متطلبات القرن الثالث عشر. ويـعبِّر عنه البعض بأنه قد غسل أرسطو بماء المعمودية، أي انه أضفى على آراء أرسطو وأفكاره الصبغة المسيحية. وقد وجد الاكويني نظاماً فكرياً يُعد قيّماً بحـد ذاته. وفي عام ١٨٧٩ اكتسبت فلسفته طابعاً قدسياً رسمياً على يد البابا لويس الثالث عشر.

أهم آثاره: في الوجود والماهية[١]، في الحـقيقة[٢]، في القـوة[٣]، في مـواجـهة المشركين[٤]، في الأسماء الالهية[٥]، الخلاصة اللاهوتية[٦]. ولديه العديد من الآثار

---

(١) On Being And Essence.

(٢) On Truth.

(٣) On Potency.

(٤) Summa Contra Gentiles.

(٥) On Divine Names.

(٦) Summa Theologica.

الموجزة الاخرى، وشرح آثار ارسطو وبعض اجزاء الكتاب المقدس[١].

ولابد في بادئ الأمر من تقديم لمحة عن كتاب «الخلاصة اللاهوتية».

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام[٢]، وكل قسم من بعض الرسائل[٣]، وكل رسالة من بعض المسائل[٤].

القسم الاول: يتألف من سبع رسائل في: الله، والتثليث، والخلقة، والملائكة، والعمل خلال ستة ايام، والانسان، والحكم الالهي.

القسم الثاني: يتألف من ثماني رسائل ضمن قسمين ثانويين: الأول وجرى فيه البحث عن: الغاية القصوى، والافعال الانسانية، والعادات، والشريعة، واللطف. والثاني، وجرى فيه بحث الايمان، والأمل، والحب، والحياة الفاعلة ومراحلها.

القسم الثالث: يتألف من رسالتين في: التجسد الالهي، والشعائر والمناسك. وهذا القسم ملحق مؤلف من رسالتين في: البعث، والامور الاخروية.

واسلوب الأكويني في كل مسألة هو ان يقسمها الى عدة مقالات[٥]، ثم يحلها من خلال استعراض تلك المقالات، وما يجلب الاهتمام هو اسلوبه في كل مقالة. فهو يبدأ كل مقالة بسؤال، ويطرح السؤال بطريقة بحيث يكون جوابه عليه بالايجاب. ثم ينسّق الجواب المنفي على ذلك السؤال ويأتي بأدلة من أجاب بالنفي عليه تحت عنوان «إشكال». وبعد ان يثير الاشكال أو الاشكالات، ينقل كلاماً من الكتاب المقدس أو أحد كبار رجال الكنيسة بما يخالف تلك الاجابة المنفية ويتفق مع الاجابة الايجابية على سؤال المقال. وبعد ذلك ينطلق لتقديم اجابته على السؤال، مدعمة بالدليل أو الأدلة. ثم ينبري بعد ذلك لتفنيد أدلة من أجاب بالنفي

---

(١) See: Dictionary Of Philosophy And Religion, William L. Reese, New Jersey, 1996.

(٢) Parts.

(٣) Treatises.

(٤) Questions.

(٥) Articles.

على السؤال، تحت عنوان «الرد على الإشكال»[١].

ومن آرائه التي تتعلق بالمرأة بنحو من الانحاء ما يلي:

الاختلاف بين المرأة والرجل[٢]

«بعد ذلك لابد من دراسة خلقة المرأة. وهناك أربعة تساؤلات يمكن دراستها تحت هذا العنوان:

١ ـ هل كان يجب ان تُخلق المرأة في المرحلة الاولى لخلق الاشياء؟

٢ ـ هل كان يجب ان تُخلق المرأة من الرجل؟

٣ ـ هل كان يجب ان تُخلق المرأة من ضلع الرجل؟

٤ ـ هل صُنعت المرأة بيد الله مباشرة؟

مقال ١: هل كان يجب ان تُخلق المرأة في المرحلة الاولى لخلق الأشياء؟ اولئك الذين يقولون ان المرأة ما كان ينبغي ان تُخلق في المرحلة الاولى لخلق الاشياء، وأجابوا على هذا السؤال بالنفي، قدموا بعض الأدلة:

الإشكال (او الدليل) ١ ـ لأن ذلك الفيلسوف الفذّ (= أرسطو) يقول «ان الجنس الذكري يعيب الجنس الانثوي[٣]، والشيء المعيب لا ينبغي ان يُخلق في تلك المرحلة الاولى التي خُلقت فيها الاشياء. وعليه ما كان ينبغي ان تُخلق المرأة في تلك المرحلة.

الإشكال ٢ ـ ثم ان الانقياد والشعور بالنقص، من نتائج الذنب والمعصية، اذ ان

---

(١) الكتاب الذي تم الاستناد اليه في هذا الحقل هو:

Saint Thomas Aquinas, The Summa Theologica, Tr. By Fathers Of The English Dominican Province With Burns, Oates And Washbourne Ltd. London - New York, 1975, In Two Volumes.

(٢) الخلاصة اللاهوتية، القسم الاول، الرسالة ٦، المسألة ٩٢، ج ١، ص ٤٨٨ ـ ٤٩١.

(٣) Aristotle, Generation Of Animals, 11, 3 (737 - a - 27).

المرأة خوطبت بعد المعصية: «والى رَجُلِك تنقاد أشواقُكِ وهو يسودكِ»[١]. وقال غريغوريوس:

«حينما لا يوجد ذنب لا يوجد عدم مساواة»[٢]. غير ان المرأة لديها عادة قوة وكرامة أقل من الرجل، لأن الفاعل أشرف من القابل دائماً، كما يقول اوغوسطينوس[٣]. وعليه ما كان يجب ان تُخلق المرأة في المرحلة الاولى من خلق الأشياء.

الإشكال ٣: ثم لابد من ازالة موجبات المعصية. غير ان الله يعلم بأن المرأة من موجبات معصية الرجل. ولذلك ما كان ينبغي ان يخلق الله المرأة.

ولكن على العكس (اي على العكس من هذا الاشكال) ورد: «وقال الرب الاله: لا يحسن ان يكون الانسان وحده، فلأصنعنّ له عوناً يناسبه»[٤].

واجابتي هي: ينبغي ان تكون المرأة ـ وكما ورد في الكتاب المقدس ـ عوناً للرجل، ولكن ليس في جميع الأعمال كما يرى البعض، اذ لو كان رجلاً آخر عوناً للرجل في الأعمال الاخرى، لكان عونه اكثر نفعاً. فالعون المقصود هو العون في التكاثر. ويمكن توضيح هذا الموضوع من خلال دراسة طريقة التكاثر في مختلف الكائنات الحية.

فبعض الكائنات الحية ليس لديها القدرة على التكاثر بنفسها، بل لابد من وجود عامل من نوع آخر. فبعض النباتات والحيوانات تتكاثر من مادة مناسبة بتأثير الأجرام السماوية وليس من البذور والمني. والبعض الآخر من الكائنات الحية لديه القابلية على التكاثر الفعال وكذلك التكاثر المنفعل، كما هو الحال في النباتات التي تتكاثر بالبذور. فبما أن اشرف شأن حياتي للنباتات هو التكاثر،

---

(١) سفر التكوين، ٣ / ١٦.

(٢) Cregory The Great (Saint Gergorios 1), Morals On The Book Of Job, Tr. By J. Bliss, 3 Vol., Oxford, 1850, Xxi, 15 (Pl 76, 203).

(٣) Augustine, Aurelius, De Genesi Ad Litteram Libri Xii, 16.

(٤) سفر التكوين، ٢ / ١٨.

نلاحظ وجود القدرة الفعالة للتكاثر في هذه النباتات الى جانب القدرة المنفعلة.

في الحيوانات الكاملة، القدرة الفعالة للتكاثر، متعلقة بالجنس الذكري، والقدرة المنفعلة متعلقة بالجنس الانثوي. ونظراً لوجود فعالية حياتية أشرف من التكاثر لدى الحيوانات، لذلك لا يتحد الجنس الذكري في الحيوانات الكاملة مع الجنس الانثوي دائماً، وانما يتحقق مثل هذا الاتحاد خلال الاتصال الجنسي فقط.

فنلاحظ ان الرجل والمرأة يتحدان عن طريق الجماع، في حين نـلاحظ هـذا الاتحاد دائمياً في النباتات، رغم غلبة أحدهما في بعض الحالات، وغلبة الآخر في حالات اخرى. غير ان الانسان مأمور بعمل حياتي أشرف وهو الفهم والادراك. لذلك هناك دليل أعظم على انفصال هاتين القوتين في الانسان بحيث كان لابد من خلق المرأة منفصلة عن الرجل، وإن اتحدا جسمياً من أجل التكاثر. لذلك قـيل بعد تكوّن المرأة مباشرة: «فيصيران جسداً واحداً»[(١)].

الرد على الإشكال ١: المرأة ناقصة ومعيبة من حيث الطبيعة الخاصة، لأن القوة الفعالة في مني الرجل تخلق شبيهاً للجنس الذكري (اي تعمل على ان يكون الابن ذكراً ما لم يحدث خلل يؤدي الى ان يكون أنثى)، في حين ينشأ ظهور المرأة عن النقص في القوة الفعالة أو عن حالة اللااستعداد المادي، بل وحتى نوع من التغيّر الخارجي، كـالتغير في مـناخ الجـنوب الرطب، كـما أشـار الى هـذا الأمـر ذلك الفيلسوف الفذ (= ارسطو)[(٢)].

وعلى صعيد آخر فالمرأة ليست معيبة من حيث الطبيعة العامة وانما مندرجة في الهدف من صنع الطبيعة، لأنها مأمورة بعمل التكاثر وحفظ النسل. فـالهدف العام للطبيعة يعتمد على الله باعتباره صانع الطبيعة. وعليه فالله باعتباره الصانع للطبيعة، لم يخلق الرجل فقط وانما خلق المرأة ايضاً.

الرد على الإشكال ٢: للانقياد وجهان: الاول هو العبودية والتي يـنتفع فـيها

(١) سفر التكوين، ٢ / ٢٤.

(٢) Aristotle, Generation, Iv, 2 (766 - b - 33).

الشخص القائد من الشخص المنقاد في تحقيق منافعه. ويحصل هذا النوع من الانقياد حتى ما قبل الذنب، لأنه اذا لم يُحكم البعض من قبل البعض الآخر الذين هم أعقل منهم، لاضطرب النظام البشري الحسن. وعليه فالمرأة منقادة للرجل، اذ تغلب على الرجل قوة التشخيص العقلي. أضف الى ذلك ان حالة البراءة لا تقضي على حالة اللاتساوي بين الناس.

الرد على الإشكال ٣: لو كان الله قد خلق العالم خالياً من كل ما بامكانه ان يوجِب المعصية، لكان العالم ناقصاً. وليس من الصحيح أيضاً ان يُقضى على الخير والصلاح العامين من أجل تجنب الشر الفردي، سيما وأن الله قادر الى درجة بحيث بامكانه ان يوصل كل سوء الى غاية خيّرة.

المقال ٢: هل كان يجب أن تُخلق المرأة من الرجل؟

وأدلة اولئك الذين يقولون ان المرأة ما كان يجب ان تُخلق من الرجل كالتالي:

الإشكال ١: لأن الجنس يتعلق بالانسان والحيوان، وبما ان الانثى في الحيوانات لم تُخلق من الذكر، لذلك لا يجب ان تُخلق المرأة من الرجل ايضاً.

الإشكال ٢: ثم، ان الاشياء المتعلقة بنوع واحد، متعلقة بمادة واحدة ايضاً. غير ان الرجل والمرأة متعلقان بنوع واحد. لذلك بما ان الرجل مخلوق من طين الارض، لابد ان تكون المرأة مخلوقة منه ايضاً، لا من الرجل.

الإشكال ٣: ثم، ان المرأة قد خُلقت كي تدعم الرجل في عملية التكاثر والتناسل، غير ان هذا الارتباط الوثيق لا يؤهل الشخص لهذه المهمة. ولهذا مُنع الاقرباء الأقربون من التزاوج فيما بينهم، لذلك ورد في الكتاب المقدس: «لا يقترب أي رجل من ذات قرابته لكشف عورتها»[1]، وعليه لا ينبغي ان تكون المرأة مخلوقة من الرجل.

ولكن على العكس، فقد ورد: «خلق الله منه معاضداً شبيهاً به»[2]، أي المرأة.

---

(١) سفر الاحبار، ١٨ / ٦.

(٢) العهد القديم، يشوع بن سيراخ، ١٧ / ٣.

واجابتي هي: أنْ تُخلق المرأة من الرجل حين ظهور الأشياء لأول مرة اكثر سباً مما هو في سائر الحيوانات وذلك اولاً لاعطاء الكرامة للرجل الأول. فمثلما الله مبدأ كل العالم، كذلك الرجل الأول مبدأ كل النوع البشري. ولذلك يقول س: «فقد صنع جميع الأمم البشرية من أصل واحد»[١]. ثانياً حينما يعلم الرجل المرأة مخلوقة منه فانه سيزداد حباً لها ويعظم التصاقه بها، ولذلك ورد: «هذه مى امرأة لأنها من امرئ أُخذت. ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم أته»[٢].

وهذا الأمر اكثر لزوماً في المرأة والرجل اللذين يعيشان معاً الى آخر العمر، مما عليه الحال في الحيوانات.

ثالثاً، يقول ذلك الفيلسوف الفذ: «لا تتحد المرأة والرجل من اجل التناسل ـ كما هو الحال في الحيوانات ـ وانما من اجل الحياة الأسرية ايضاً، وهي ياة التي يعرف كل أحد ما هو واجبه الخاص فيها، ويمارس الرجل دور يس»[٣]. ولذلك من المناسب أن تُخلق المرأة من الرجل، لتكون موجوداً وقاً من اصله ومبدئه.

رابعاً، لهذا الأمر دليل سري ورمزي، فهو يوحي بأن الكنيسة تمثل منشأ يح. ولذلك يقول الحواري (القديس بولس): «ان هذا السر لعظيم واني اقول في أمر المسيح والكنيسة»[٤].

الرد على الإشكال ١: واضح مما سبق ذكره.

الرد على الاشكال ٢: المادة هي ذلك الشيء المصنوع من شيء آخر. والطبيعة وقة لها مبدأ متعين. وبما انها مختصة بشيء ما فلديها طريقة صدور وظهور

اعمال الرسول، ١٧ / ٢٦.

سفر التكوين، ٢ / ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) Aristotle, Ethics, VIII, 12 (1162 - a - 19).

الرسالة الى اهل افسس، ٥ / ٣٢. الآية التي قبلها هي: «ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ير الاثنان جسداً واحداً».

معينة. وعليه يظهر من المادة المعينة شيء من نوع معين. وبما ان قدرة الله تعالى غير متناهية فبمقدورها ان تخلق اشياء ذات نوع معين من كل مادة، كما بامكانها ان تخلق رجلاً من الطين وامرأة من الرجل.

الرد على الاشكال ٣: تظهر من التناسل قرابة خاصة تحول دون الزواج. غير ان المرأة لم تخلق من الرجل عن طريق التناسل أو التكاثر الطبيعي، وانما ظهرت ببركة القدرة القدرة الالهية. وبذلك لا تُدعى حواء ابنة آدم، وعليه لا يثبت هذا الادعاء.

المقال ٣: هل كان يجب أن تُخلق المرأة من ضلع الرجل؟

اولئك الذين يرون ان المرأة ما كان يجب ان تُخلق من ضلع الرجل، يقيمون الأدلة التالية:

الإشكال ١: لأن الضلع أصغر بكثير من جسم المرأة. ويمكن صناعة الشيء الأكبر من الشيء الأصغر إما من خلال اضافة شيء ما وبذلك يمكن القول بأن المرأة خُلقت من ذلك الشيء الاضافي وليس من الضلع نفسها، أو من خلال التخفيف، كما قال اوغوسطينوس: «لا يزداد حجم جسم ما إلّا بتخفيفه»[1]. غير ان جسم المرأة ليس اخفّ أو ارقّ من جسم الرجل، أو على الاقل ليس رقيقاً بالدرجة التي تقتضيها نسبة الضلع الى بدن حواء. وبذلك لم تُخلق حواء من ضلع آدم.

الإشكال ٢: ثم انه لا وجود للشيء الاضافي في تلك الاشياء التي خُلقت لأول مرة. وعليه كانت ضلع آدم لازمة لجميع جسمه. فلو اقتُطعت منه الضلع لعانى جسمه من النقص. وعليه يظهر هذا الافتراض غير معقول.

الإشكال ٣: ثم لا يمكن اقتطاع الضلع بدون أن يُصاحبه ألم، ولكن لا وجود للألم قبل المعصية، لذلك ليس صحيحاً اقتطاع ضلع من الانسان كي تُخلق حواء منها.

---

(١) Augustine, Gen, Ad Lit, X, Ch. 26.

ولكن على العكس فقد ورد «وبنى الربُّ الاله الضلعَ التي اخذ من الانسان، امرأة»[١].

واجابتي هي: الصحيح هو ان المرأة مخلوقة من ضلع الرجل، اولاً، لكي تتم الاشارة الى الاتحاد الاجتماعي بين الرجل والمرأة لأن المرأة لا ينبغي ان تكون لديها ولاية على الرجل، ولذلك لم تُخلق من رأس الرجل، ولا ينبغي أيضاً ان تكون عرضةً لاهانة الرجل وعدم احترامه أو ان ينظر اليها كعبدة له ولذلك لم تُخلق من قدم آدم. ثانياً للتدليل على معنىً رمزي وخفيّ، فقد سالت من ضلع المسيح الراقد على الصليب أسرار وتعاليم ـ أي الدم والماء ـ شُيِّدت عليها الكنيسة.

الرد على الإشكال ١: يقول البعض ان جسم المرأة قد صُنع بزيادة مادية بدون أن يُضاف شيء اليه، مثلما كثَّر ربنا (= السيد المسيح) أقراص الخبز الخمسة. غير ان هذا أمر غير ممكن لأن مثل هذه الزيادة المادية تجري إما من خلال تغيير جوهرة المادة أو ابعادها. ولا تتحقق الزيادة بتغيير جوهر المادة لأن المادة لو لوحظت في ذاتها، لكانت غير قابلة للتغيير من حيث المجموع، لأن لديها وجوداً بالقوة، ولا شأن لها سوى وقوعها كمحل، أي انها قابل محض ولا فاعلية لها قط. ولذلك لا علاقة للتكثير والزيادة بذات المادة. وعليه يُعد تكثير المادة امراً غير معقول، شريطة ان تبقى المادة نفسها على حالها بدون أن يُضاف اليها شيء. ما لم تأخذ ابعاداً عظيمة، وهذا امر يستلزم التخفيف. وقد قال الفيلسوف الفذ: ليس هناك شيء سوى الأبعاد العظيمة لوجود المادة[٢]. اذن فالقول بأن المادة قد تكثرت دون ان تحصل لها عملية التخفيف، ضرب من الجمع بين النقيضين.

اذن نظراً لعدم وجود تخفيف واضح في مثل هذا التكثير، فلابد لنا من القبول بزيادة المادة اما بالخلق أو بالتبديل، والثاني اكثر احتمالاً. ولهذا يقول

(١) سفر التكوين، ٢ / ٢٢.

(٢) Aristotle, Physics, iv, 9 (217 - a - 25).

اوغوسطينوس: «أشبع المسيح خمسة آلاف انسان بخمسة أقراص من الخبز، مثلما يخلق الله من عدة بذور بيدراً من القمح»[١]، أي عن طريق تبديل المواد الغذائية. وبذلك نقول بأن تلك الجماعة الكبيرة قد تغذت على خمسة اقراص خبز، والمرأة قد خُلقت من ضلع الرجل، اذ أُضيف شيء الى المادة الموجودة في أقراص الخبز، والضلع.

الرد على الإشكال ٢: الضلع تؤمّن كمال آدم ليس كفرد بل كمبدأ وأصل للنوع البشري، مثلما يتصل المني بكمال الأب ويحدث انزاله ضمن فعالية طبيعية باعثة على اللذة. وعليه من الأولى ان يُخلق جسم المرأة من ضلع الرجل بالقدرة الالهية بدون ان ينجم عن ذلك أي الم. وهذا الرد، رد على الإشكال الثالث ايضاً.

مقال ٤: هل خُلقت المرأة بيد الله مباشرة؟

اولئك الذين يرون ان المرأة لم تُخلق بيد الله مباشرة، يأتون بالأدلة التالية:

الإشكال ١: لأن أي فرد لم يخلق بيد الله من فرد آخر مباشرة، في حين خُلقت المرأة من رجل من نفس النوع. ولذلك فهي لم تُخلق مباشرة بيد الله.

الإشكال ٢: ويقول اوغوسطينوس ان سيطرة الله على الامور الجسمانية تتم عن طريق الملائكة[٢]. وجسم المرأة مصنوع من المادة الجسمانية. وعليه فهي مصنوعة بواسطة الملائكة وليس بيد الله مباشرة.

الإشكال ٣: تلك الأشياء من المخلوقات التي تتقدم وجودياً على مبادئها العلية، تُصنع بواسطة قدرة مخلوق ما وليس بيد الله مباشرة. وجسم المرأة قد صُنع من حيث المبادئ العليّة بين أوائل الآثار المخلوقة، كما يذهب الى ذلك اوغوسطينوس ايضاً. ومن هنا لم تُصنع المرأة مباشرة بيد الله.

ولكن على العكس، يقول اوغوسطينوس في أثره هذا: ان الله الذي تقوم كل

---

(١) Tract, xxiv, In Joan, 35, 1593.

(٢) On The Trinity, In Vol, 111, Select Library, iii. 4.

الطبيعة به هو الوحيد الذي بمقدوره ان يصنع المرأة أو يبنيها من ضلع الرجل[١].

واجابتي هي، مثلما قيل من قبل (المقال ١، الرد ٢) فإن التناسل الطبيعي لأي نوع يتم من مادة معينة. والمادة التي ينتج الانسان منها عادة هي المني. وعليه فالفرد المتعلق بالنوع الانساني ليس بمقدوره ان ينشأ عن مادة اخرى. وبمقدور الله فقط ـ باعتباره صانع الطبيعة ـ ان يخلق شيئاً خارج مسار الطبيعة العادي. لذلك فالله هو الوحيد الذي يمكنه ان يصنع الرجل من الطين والمرأة من ضلع الرجل.

الرد على الاشكال ١: هذ الدليل بمقدوره ان يكون صحيحاً حينما يُخلق الفرد بواسطة التكاثر الطبيعي من شيء شبيه له ومن نفس نوعه.

الرد على الاشكال ٢: كما يقول اوغوسطينوس، نحن لا نعلم هل استخدم الله الملائكة في خلق المرأة ام لا[٢]. غير اننا نعلم عن يقين: بما ان جسم الرجل لم يُخلق من الطين بواسطة الملائكة، فلم يُخلق جسم المرأة بواسطتهم من ضلع الرجل.

الرد على الاشكال ٣: كما قال اوغوسطينوس: «الخلقة الاولى للامور لا تستلزم ان تُخلق المرأة بنفس الطريقة، بل ان هذه الطريقة توحي بالخلق فقط»[٣]، وعليه لابد لجسم المرأة ان يكون لديه وجود سابق في المبادئ العليّة، أي الاشياء التي خُلقت لأول مرة، ولكن ليس من حيث القوة الفعالة وانما من حيث القوة المشمولة بالقوة الفعالة للخالق.

وفي مقال آخر، يناقش توما الأكويني السؤال التالي:

هل توجد صورة الله في كل انسان؟[٤]

وأحد الأدلة التي يقدمها المعارضون لاثبات وجهة نظرهم هي:

---

(١) Gen. Ad Lit, Ix, 15.

(٢) Ibid, 15, Ix.

(٣) Ibid, 18.

(٤) الخلاصة اللاهوتية، ج ١، المسألة ١٩٣، المقال ٤، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

الاشكال ١: (يبدو ان صورة الله لا توجد في كل انسان) لأن الحواري (= بولس) يقول: الرجل صورة الله ومجده، واما المرأة فهي مجد الرجل[١]. وبما ان المرأة أحد افراد النوع الانساني، من الواضح ليس كل فرد بصورة الله.

الرد على الاشكال ١: صورة الله من حيث دلالتها الأصلية ـ أي طبيعتها العقلانية ـ توجد في الرجل وكذلك في المرأة. لذلك جاء بعد كلمات «فخلق الله الانسان على صورته» ما يلي: «ذكراً وأنثى خلقهم»[٢].

مضافاً الى ذلك، فقد اكد اوغوسطينوس انه قد تم التعبير عنهما بصيغة الجمع «خلقهم» كي لا يتصور أحد ان الجنسين قد اتحدا في فرد واحد. غير ان صورة الله توجد في الرجل لا في المرأة لأن الرجل مبدأ والمرأة مقصد، مثلما ان الله مبدأ، وكل مخلوق مقصد. لذلك حينما يقول الحواري (بولس) ان الرجل صورة الله ومجده والمرأة مجد الرجل، فإنه يعلل ذلك قائلاً: «فليس الرجل من المرأة، بل المرأة من الرجل. ولم يُخلق الرجل من اجل المرأة، بل خُلقت المرأة من الرجل»[٣].

وفي مقال آخر، يناقش توما الأكويني السؤال التالي:

هل صورة الله في الانسان، من حيث الذهن فقط؟، أي هل شبه الانسان لله شبه ذهني فقط ام شبه جسمي ايضاً؟[٤]

وأحد ادلة المعارضين هو:

الاشكال ٢: (يبدو أن صورة الله في الانسان ليست من حيث الذهن فقط) اذ ورد: «فخلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأُنثى خلقهم»[٥]، غير ان التمايز بين الرجل والمرأة يتحدد في الجسم. وعليه فصورة الله، في الجسم أيضاً وليس في الذهن فقط.

---

(١) الرسالة الى اهل قورنتس، ١١ / ٧.

(٢) سفر التكوين، ١ / ٢٧.

(٣) الرسالة الى أهل قورنتس، ١١ / ٨و ٩.

(٤) الخلاصة اللاهوتية، ج ١، المسألة ٩٣، المقال ٦، ص ٤٩٦.

(٥) سفر التكوين، ١ / ٢٧.

الرد على الاشكال ٢: مثلما يقول اوغوسطينوس[١]، يتصور البعض ان صورة الله في الانسان ليست صورة فردية وانما صورة جماعية. فهؤلاء يقولون: «الرجل مظهر لشخص الأب (في التثليث)، وهؤلاء الذين ظهروا من الرجل يدلّون على شخص الابن (في التثليث)، والمرأة هي الشخص الثالث (في التثليث) من حيث انها تشابه روح القدس، لأنها قد نشأت من الرجل ليست على شكل ابنه أو ابنته».

وهذا الكلام تافه ولا معنى له اولاً لأنه يعني ان روح القدس مبدأ الابن، مثلما ان المرأة مبدأ الذرية والأبناء؛ ثانياً لأن الرجل صورة شخص واحد؛ ثالثاً لأنه لو كان كذلك لما كان ينبغي للكتاب المقدس ان يذكر صورة الله في الرجل بعد ذكر ولادة ذريته.

وعليه ينبغي ان نفهم حينما يقول الكتاب المقدس: «على صورة الله خلقه» ثم يضيف بعد ذلك قائلاً «ذكراً وانثى خلقهم»، انه لا يريد ان يقول بأن صورة الله قد ظهرت عن طريق التفكيك الجنسي، وانما يشير الى ان صورة الله مشتركة في كلا الجنسين، لأنها في الذهن، ولا وجود للتفكيك الجنسي في الذهن.

وعليه فالحواري (= بولس) وبعد ان قال «على صورة خالقه» أضاف: فلم تبق هناك امرأة أو رجل (أو: يوناني أو يهودي)[٢].

وفي المسألة ٩٦ [٣] يطرح توما الأكويني السؤال التالي:

هل الجميع متساوون عند البراءة ام هناك اختلاف بينهم؟

أدلة القائلين بعدم وجود الاختلاف كالتالي:

الاشكال ١: لأن غريغوريوس يقول: «حينما لا يوجد ذنب، لا توجد عدم

---

(١) On The Trinity, xii, 5.

(٢) الرسالة الى أهل قولسي، ٣ / ١٠ و١١: «ولبستم الانسان الجديد، ذلك الذي يُجدَّد على صورة خالقه ليصل الى المعرفة. فلم يبق هناك يوناني أو يهودي، ولا خِتانٌ أو قَلَف، ولا أعجمي أو إسكوتي، ولا عبد أو حر، بل المسيح الذي هو كل شيء وفي كل شيء».

(٣) الخلاصة اللاهوتية، ج ١، المسألة ٩٦، المقال ٣، ص ٥١٢.

مساواة»[١]. وفي حالة البراءة لا يوجد ذنب، ولذلك فالجميع متساوون.

الاشكال ٢: ثم أن المساواة دليل على الحب المتبادل: وكل حيوان يحب شبيهه ومن يساويه. وكل انسان يحب من هو أقرب اليه. ففي مثل هذه الحالة يوجد حب كبير بين الناس يضمن السلام والأمن. وفي مثل هذه الحالة يتساوى الجميع حين البراءة.

الاشكال ٣: ثم ان العلة حينما تنعدم، ينعدم المعلوم أيضاً. ولكن يبدو ان علة عدم التساوي بين الناس ناشئة عن ان الله يثيب البعض لكفاءتهم ويعاقب البعض الآخر، وكذلك ناشئة من ولادة بعض هؤلاء ضعفاء وناقصين بسبب نقص الطبيعة، وبعضهم أقوياء وكاملين، في حين لا توجد هاتان الحالتان في الوضع الابتدائي (اي قبل المعصية).

ولكن على العكس: «فلا سلطة إلّا من عند الله، والسلطات القائمة هو الذي أقامها»[٢]. غير ان هذه الاقامة عبارة عن اللامساواة لأن اوغوسطينوس يقول: «اقامة الأشياء وترتيبها عبارة عن وضع المساوي واللامساوي في موضعها الصحيح»[٣]. وعليه كانت هناك لا مساواة أيضاً في الحالة الابتدائية التي هي منظمة جداً.

واجابتي هي: لابد من الاعتراف بوجود اللامساواة في الحالة الابتدائية (قبل المعصية). أو ان هذه اللامساواة موجودة على الأقل من حيث الجنسية، لأن التكاثر متوقف على التفاوت الجنسي. وكذلك الأمر بالنسبة للسن اذ ان البعض متولد عن البعض الآخر.

اضف الى ذلك، ان اللامساواة ـ من حيث النفس ـ موجودة في مضمار العدالة، لأن الانسان يعمل لا بدافع الضرورة والاضطرار بل انطلاقاً من الاختيار.

---

(١) Moral, xxi.

(٢) الرسالة الى اهل رومة، ١٣ / ١.

(٣) City Of God, xix, 13.

وبامكانه من خلال الاختيار ان يدفع نفسه للعمل أو الارادة أو المعرفة، وبذلك يتقدم البعض على البعض الآخر في العدالة والمعرفة.

وهناك تنوع واختلاف بدني أيضاً، لأن البدن الانساني غير خارج بصورة كاملة عن شمول القوانين الطبيعية بحيث يتسنى له عدم الاستعانة بالمصادر الخارجية، اذ انه مرتبط ارتباطاً جاداً بالغذاء من اجل ان يحافظ على حياته.

وعليه يمكن القول أن البعض وتأثراً بالأوضاع الاقليمية أو حركات النجوم يتفوقون على غيرهم من حيث السلامة والهيكل والجمال، ورغم ذلك لا نجد عند اولئك الذين ليسوا بمستوى هؤلاء، أي نقص أو خطأ نفسي أو جسمي.

الرد على الاشكال ١: ان غريغوريوس يريد بهذا الكلام ان ينفي وجود اللامساواة الموجودة بين العدل والمعصية والتي ينتج عنها انقياد البعض بسبب العقوبة الى البعض الآخر.

الرد على الاشكال ٢: المساواة سبب للتساوي في الحب المتبادل. ومع ذلك يمكن أن يظهر بين غير المتساوين حب أعظم من الحب بين المتساوين، رغم انه قد لا تظهر ردة فعل التساوي. فحب الأب للابن اعظم ولا شك من حب الأخ للأخ، رغم ان الابن قد لا يحب اباه كما يحبه ابوه.

الرد على الاشكال ٣: قد تكون علة اللامساواة منبعثة من الله، لكن ليس من حيث انه يثيب البعض ويعاقب البعض الآخر، وانما من حيث انه يمتدح البعض ويرفع من مكانتهم، بحيث يتألق جمال نظام الطبيعة بين الناس على احسن ما يكون. واللاتساوي قد يظهر من جانب نظام الطبيعة بدون ان يؤدي الى حدوث نقص في الطبيعة».

وفي مقال آخر أثار الأكويني السؤال التالي:

«هل وُلدت النساء في الحالة الابتدائية؟[1]

ويجيب البعض بالنفي، للأدلة التالية:

---

(١) الخلاصة اللاهوتية، القسم ١، المسألة ٩٩، المقال ٢، ج ١، ص ٥٢٠.

الاشكال ١: لأن ذلك الفيلسوف الفذ (= أرسطو) يقول «المرأة رجل معيب»، وكأنه مصنوع خارج اطار هدف الطبيعة ومشروعها. اما في تلك الحالة (الابتدائية)، لم يكن أي شيء غير طبيعي في النسل الانساني. وفي تلك الحالة اذن وُلدت النساء.

الاشكال ٢: ثم ان كل عامل يُنتج شبيهه ما لم تكن قدرته غير كافية أو ان استعداد المادة ليس في حد الكفاية، فيحول هذان الأمران دون ذلك العامل. فالنار القليلة مثلاً ليس بوسعها ان تشعل العود الأخضر. والقوة الفعالة الخاصة بالتناسل موجودة في الرجل. وبما أن هذه القوة لم تتعرض للنقص في حالة البراءة، ولم يكن استعداد المرأة غير كافٍ، يبدو ان الرجال كانوا يولدون دائماً.

الاشكال ٣: اضف الى ذلك ان الهدف من التكاثر في حالة البراءة هو تكثير النوع البشري، غير ان الرجل والمرأة الأولين قد كثّرا النوع البشري بما فيه الكفاية، لأنهما كانا يعيشان الى الأبد. وعليه لم تكن هناك حاجة في حالة البراءة لولادة النساء.

ولكن بالعكس فإن حركة الطبيعة في الانتاج والتكاثر متسقة مع نمط بنائها على يد الله، غير ان الله قد خلق المرأة والرجل في الطبيعة الانسانية كما هو منقول[1]. لذلك كانت المرأة والرجل مخلوقين في حالة البراءة ايضاً.

واجابتي هي: في حالة البراءة، لم يكن أي شيء متعلق بكمال الطبيعة الانسانية مفقوداً. ومثلما تتدخل مختلف المراتب والدرجات في كمال العالم، يتدخل التباين الجنسي في كمال الطبيعة الانسانية أيضاً. ولذلك فقد وُلد الجنسان في حالة البراءة.

الرد على الاشكال ١: قيل ان المرأة رجل معيب، وكأنها مصنوعة خارج اطار هدف الطبيعة ومشروعها، غير انه اطار فردي خاص وليس اطار الطبيعة هدف الطبيعة ومشروعها العام. وقد سبق ايضاح هذا الامر (في المسألة ٩٢، المقال ١، الرد على الاشكال ٢).

---

(١) سفر التكوين، الاصحاحان الاول والثاني.

الرد على الاشكال ٢: ان ظهور المرأة ليس معلولاً لنقص القوة الفعالة أو للاستعداد غير الكافي، كما يفترض ذلك صاحب الإشكال، وانما هو معلول أحياناً لعلة عرضية خارجية. فيقول ذلك الفيلسوف الفذ: «الريح الشمالية تساعد على انتاج الرجال والريح الجنوبية تساعد على انتاج النساء»[١]. وقد يكون معلولاً للتأثر النفسي بحيث ينعكس عنه تأثير سريع على البدن، سيما وأن الوضع كان على هذا المنوال في حالة البراءة لأن البدن كان في تلك ا لحالة اكثر انقياداً للنفس، بحيث كان يتغير جنس الذرية تبعاً لمشيئة الأب أو الأم.

الرد على الاشكال ٣: كانت الذرية تحظى بحياة حيوانية من حيث التغذية والتناسل. ولذلك كان من المناسب ان تتكاثر جميعاً وليس الأب والام الأوليان فقط. ويبدو ان ما ينتج عن ذلك هو تعادل عدد الرجال والنساء».

وفي مقال آخر أثار الاكويني السؤال التالي:

«هل الأجرام السماوية علة لما يظهر في الاجسام الأرضية؟ ...[٢]

الإشكال ٤: (يستدل المجيبون بالنفي على رأيهم بقولهم) لأن اوغوسطينوس يقول: «ليس هناك شيء اكثر جسمانية من الجنس»[٣] والجنس ليس معلولاً للأجرام السماوية. وما يشهد على هذا الكلام هو التوأمان اللذان يولدان في برج واحد إلّا ان احدهما ذكر والآخر انثى. لذلك لا تُعد الأجرام السماوية علةً للأشياء التي تظهر في الأجسام الأرضية.

الرد على الاشكال ٤: تُستلم أفعال الأجرام السماوية بصور مختلفة في الأجسام التحتية، وهذا أمر يعتمد على مختلف استعدادات المادة. وقد يحدث أحياناً ان مادة النطفة الانسانية غير مستعدة بشكل كامل للجنس الذكري. وعليه قد تظهر بصورة الذكر وقد تظهر بصورة البنت في بعض الأحيان. وتتفاوت آثار الافلاك

---

(١) Aristotle, History Of Animals, v1, 191 (574 - a - 1).

(٢) الخلاصة اللاهوتية، القسم الاول، المسألة ١٥، المقال ٣، ج ١، ص ٥٨٨ و٥٨٩.

(٣) City Of God, v,6.

والنجوم حتى في الأشياء الجسمانية، وهذا يعتمد على مختلف استعدادات المادة».

وفي مقال آخر يثير توماس الأكويني السؤال التالي:

«هل كل اولئك الذين سيحيون من جديد، رجال؟»[١]

اولئك الذين يعتقدون بأن جميع الذين يحيون من جديد، رجال، يستدلون بالأدلة التالية:

الاشكال ١: لأنه ورد: «ونصيرُ الانسانَ الراشد»[٢] لذلك لا يمكن ان يوجد أحد غير الرجل فقط.

الاشكال ٢: ثم ان كل تفوق سيزول في العالم الآخر، كما ورد في أحد شروح الآية ٢٤، الاصحاح ١٥، من الرسالة الاولى الى اهل قورنتس. غير ان المرأة منقادة للرجل في النظام الطبيعي، ولذلك سوف تحيا النساء في صورة الرجل لا في صورة المرأة.

الاشكال ٣: ثم ان الشيء الذي ظهر بشكل عارض الى جانب هدف الطبيعة، لن يحيى مرة اخرى، لأن كل خطأ سيزول في يوم البعث. وقد ظهر الجنس الانثوي الى جانب هدف الطبيعة وحين وقوع الخطأ في القدرة الخلّاقة للمني، حيث لم يستطع ان يُظهِر مادة الجنين بالصورة الذكرية. ولذلك يقول ذلك الفيلسوف الفذ: «المرأة رجل معيب». وعليه فلن يُعاد إحياء جنس المرأة ثانية.

ولكن على العكس يقول اوغوسطينوس: «يبدو ان اولئك الذين لا يشكّون في ان كلا الجنسين سيحيون ثانية، اكثر حكمة»[٣].

ثم ان الله سيُعيد الانسان في يوم البعث بنفس الصورة التي صنعها أثناء الخلق. ونعلم انه خلق المرأة من ضلع الرجل[٤]. وعليه فانه سيُحيي جنس المرأة ثانية

---

(١) الخلاصة اللاهوتية، القسم ٣، المسألة ٨١، ج ٢، ص ٩٦٦.

(٢) الرسالة الى اهل افسس، ٤ / ١٣.

(٣) City Of God, xx11, 17.

(٤) سفر التكوين، ٢ / ٢٢.

يث البعث.

واجابتي هي: مثلما ان الكمية المتفاوتة ـ من حيث طبيعة الفرد ـ معلولة ناس المتفاوتين، كذلك الجنسية المتفاوتة ـ من حيث طبيعة الفرد ـ معلولة ناس المتفاوتين. مضافاً الى ذلك ان هذا التنوع والاختلاف ينتهي الى كمال النوع ي تظهر مراتبه المختلفة بنفس ذلك التفاوت في الجنسية والكمية.

وعليه فمثلما سيحيا الناس بقامات مختلفة، سيحيون أيضاً بأجناس مختلفة. غم وجود الاختلاف في الجنس إلّا ان رؤية البعض للبعض الآخر لا يبعث ى الحياء، لأنه لا وجود حينذاك للشهوة التي تحرض على الأعمال المخجلة.

الرد على الاشكال ١: حينما يقال بأننا جميعاً نصل الى انسان كامل بمستوى سيح، فهذا لا يراد به الجنس الذكري، وانما القوة النفسية التي توجد في الجميع عالاً ونساءً.

الرد على الاشكال ٢: نظراً للضعف الذي عليه المرأة بفعل الضعف والنقص لبيعي ـ سواء من حيث الصلابة النفسانية، أو من حيث القوة الجسمانية ـ فلابد تتبع الرجل وتنقاد اليه. اما بعد البعث، فلا وجود للتفاوت في مثل هذه الامور ى أساس التفاوت الجنسي، وانما سيكون على اساس التفاوت في الكفاءة. وعليه تحصل النتيجة التي يريدها صاحب الإشكال.

الرد على الاشكال ٣: مع ان تكاثر المرأة ليس الى جانب قصد طبيعة خاصة، ر انها الى جانب قصد طبيعة كليّة، لأن الطبيعة الكلية تقتضي الجنسين من أجل ال النوع الانساني. ولا يحصل أي نقص في الجنس ايضاً، مثلما أشرنا في الاجابة ى الاشكال ٢».

وفي مقال آخر، يطرح الاكويني السؤال التالي:

«هل قَبِل ابنُ الله الجسمَ بواسطة النفس؟[1]...

الاشكال ٣: (المجيبون بالنفي يستدلون على ذلك بقولهم) لأنه لو زالت الواسطة،

---

(1) الخلاصة اللاهوتية، القسم ٣، المسألة ٦، المقالة ١، ج ٢، ص ٧٤١.

فإن ما اتصل عن طريق تلك الواسطة، سينفرط ايضاً. فلو أُزيل سطح الجسم، فسيزول اللون من الجسم ايضاً، لأن اللون موجود في الجسم بواسطة السطح. فبالرغم من انفصال النفس عن البدن خلال الموت، غير ان اتحاد الكلمة الالهية مع البدن ظل على حاله، مثلما سيُبرهَن على ذلك (المسألة ٥٠، المقالتان ٢ و٣). وعليه فالكلمة الالهية لم تتصل بالجسم بواسطة النفس.

الاجابة على الاشكال ٣

ليس بامكان أي شيء ان يحول دون ان يكون شيء علةً لقبول شيء آخر والانسجام معه، حتى لو أُزيل ذلك الشيء وبقي الآخر، لأنه وان كانت صيرورة شيء ما معتمدة على شيء آخر، إلّا انه حينما يوجد ينتفي ذلك الاعتماد. فالحب الذي يحصل بين اثنين على يد أحدهما، فانه سيبقى حتى وان فارق ذلك الشخص الحياة. كذلك لو كان جمال امرأة ما هو السبب في زواج الرجل بها، غير ان هذا الزواج يظل باقياً على حاله حتى وان ذهب جمال تلك المرأة. وينطبق هذا الأمر على النفس، فانها حينما تنفصل، يبقى اتحاد الكلمة الالهية مع الجسم على حاله».

وفي مقال آخر يطرح توما الأكويني السؤال التالي:

«هل الأحكام والقواعد القضائية على صعيد العلاقات بين انسان وآخر، مدوّنة بصورة مناسبة؟[1] ...

الاشكال ٢: (يستدل المجيبون بالنفي على رأيهم قائلين) لأن من عوامل سقوط الحكومات هو امتلاك النساء لحق الملكية، ويذهب الى هذا الرأي أيضاً ذلك الفيلسوف الفذ[2]. غير ان هذا الحق في الملكية شرّعته الشريعة القديمة اذ ورد فيها «أيُّ رجل مات وليس له ابن فانقلوا ميراثه الى ابنته»[3]، وعليه فهذه الشريعة لم يكن لديها تنبؤ مناسب من اجل سعادة الامم.

---

(١) الخلاصة اللاهوتية، القسم ٢، الفصل ١، الرسالة ٤، المسألة ١٠٥، المقال ٢، ج ٢، ص ٣١٠ و٣١٢.

(٢) Aristotle, Politics, 11, 9 (1270 - a - 23).

(٣) سفر العدد، ٢٧ / ٨.

الرد على الاشكال ٢: الشريعة لم تحكم باستيلاء النساء على ممتلكات آبائهن، إلّا اذا لم يكن لدى الأب ابناء من الذكور. وإلّا لكان لزاماً ـ من اجل راحة بال الاب ـ أن تتعلق ثروته بأعقاب اناثه لأنه لا يروق له ان تصل ثروته الى الأجانب (اي ازواج بناته). ورغم هذا فقد تحفظت الشريعة حتى في هذا المجال أيضاً لأنها اشترطت على النساء اللاتي يرثن ثروة آبائهن الزواج بأفراد نفس القبيلة، كي لا تختلط ممتلكات القبائل. وقد ورد هذا الأمر في سفر العدد، الاصحاح ٣٦ / ٧ و٨.

خلاصة آراء توما الأكويني

١ ـ المرأة مخلوقة منفصلة عن الرجل.

٢ ـ المرأة مخلوقة كي تساعد الرجل في التناسل.

٣ ـ خلق المرأة واقع ضمن التدبير الالهي الكلي، ولذلك فانها لم تُخلق تبعاً للرجل.

٤ ـ تغلب على الرجل قوة التشخيص العقلي، والمرأة ليست كذلك، أي ان الرجل اعقل من المرأة.

٥ ـ لابد للمرأة من الانقياد الى الرجل لكون الرجل أعقل منها.

٦ ـ خُلقت المرأة من الرجل لكي يقوم بينهما حب متبادل.

٧ ـ لا ينبغي ان تكون للمرأة ولاية على الرجل، كما لا ينبغي ان تُمتهن أو تُحتقر أو تُستعبد من قبله.

٨ ـ خُلقت المرأة من ضلع الرجل بالقدرة الالهية.

٩ ـ خُلقت المرأة بيد الله مباشرة.

١٠ ـ توجد صورة الله في كل انسان، رجلاً كان أو امرأة.

١١ ـ كان هناك تباين بين آدم وحواء قبل أن يعصيا. ولذلك لا يُعد اللاتساوي بين الرجل والمرأة معلولاً للمعصية، وانما هو شيء طبيعي.

١٢ ـ اللاتساوي بين الرجل والمرأة، أمر شاءه الله.

١٣ ـ خُلق الرجل وكذلك المرأة، قبل المعصية.

١٤ ـ ظهور المرأة ليس معلولاً لنقص القوة الفعالة أو بسبب الاستعداد غير الكافي للمادة وانما قد يكون معلولاً لعلة خارجية عارضة كالأحوال الجوية وطريقة وقوع الأجرام السماوية.

١٥ ـ تحيى النساء أيضاً حين البعث.

١٦ ـ انقياد المرأة للرجل، يعود الى الضعف النفساني والجسماني، وليس الى ضعف طبيعي.

١٧ ـ تحظى الحياة الأسرية بأهمية اكبر من التناسل الصرف أو الانتفاع بالجمال الظاهري الدنيوي.

١٨ ـ للمرأة حق الملكية والارث، ولكن لابد لها من اخذ رأي الذكور بنظر الاعتبار حين الانفاق منه.

اذن وضمن اخذ توما الأكويني بجميع ما ورد في العهدين القديم والجديد فيما يتعلق بخلق المرأة والأحكام المتعلقة بها، سعى لاتخاذ رأي معتدل من خلال تحليل ودراسة مختلف الآراء. وقد استلزم هذا الموقف ان يتخذ في بعض الأحيان آراء متعارضة مع رأي استاذه الحبيب ـ أي ارسطو ـ والآخرين الذين يعتمد عليهم مثل اوغوسطينوس او غريغوريوس، رغم انه اعتمد في احيان اخرى على آرائهم للبرهنة على رأيه.

وبشكل عام فقد اختار توما الاكويني للمرأة نفس الدور التقليدي أي الانقياد للرجل. واعتبر هذا الدور ليس مجرد وضع طبيعي أو مشتق من نظام الخلقة فحسب، وانما هو افضل وضع متصوَّر، فهو لا يفرق بين الرجل والمرأة في الانسانية والمخلوقية ومن حيث الروح والفكر، ولا يتفق مع اولئك الذين يعتبرون المرأة خارج اطار التدبير الالهي الأولي للخلق، وينظرون اليها كموجود معيب وناقص، ولا يعدونها تجلياً للصورة الالهية.

الفصل الرابع
أشهر العارفات في التاريخ الاسلامي والمسيحي

أ ـ أشهر العارفات في التاريخ الاسلامي

الصوفية والنساء

يعتقد بعض الباحثين ان المرأة لعبت دوراً عظيماً وبارزاً في العرفان الاسلامي. فرابعة العدوية (ت ١٨٠ أو ١٨٥ هـ) على سبيل المثال قدمت تفسيراً جديداً للحب الالهي حتى لقّبها العرفاء بلقب «رجل الله». ومن الواضح ان المراد بالرجل في القاموس العرفاني هو الانسان الكامل.

ومن جانب آخر فالنساء العارفات في الثقافة الاسلامية لا يعتزلن الدنيا أو يقبلن على الرهبنة كما هو الحال في المسيحية. وعليه نرى ان معظم النساء اللاتي سلكن وادي العرفان قد تزوجن وكان لهن تأثير كبير على أُسرهن وأبنائهن كزوجات وأُمهات وهو ما كان له تأثير على ازدهار العرفان الاسلامي[1].

وما أروع ما قال ضياء الدين النخشبي عارف القرن الثامن: «يا من وضعت قدماً في طريق الرجال، لو أخبرتك بلمحة من مناقب اولئك النسوة اللاتي انطلقن في هذا الطريق كالرجال، لشعرت بالخجل. عزيزي! حينما يدوّي غداً هتاف «يا

---

(١) راجع: مجلة «زنان»، السنة الثامنة، العدد ٥٧، ١٩٩٩، ص ٢٥، مقابلة مع السيدة شيمل.

أيها الرجال» في ميدان معركة رجال الدين، فأول من يضع قدمه في هذا الطريق هي مريم»[١].

طبعاً مثلما تُعد الذكورة في طريق الحق أمراً مستحسناً، تُعد صفة الانوثة امراً لا يليق بالسالك. ويمكن ملاحظة ذلك في كلام السيد علي الهمداني (٧١٤ ـ ٧٨٦ هـ) التالي:

«الدنيا بكل ما فيها من نعمة ليست سوى لون ورائحة، والتعلق باللون والرائحة من صفات النساء. ومن تغلب عليه هذه الخاصية فهو امرأة في حقيقة الامر وان كان على صورة رجل»[٢].

ووصف شهاب الدين عمر السهروردي الفلاسفة بأنهم «مخانيث الرجال»، أي انهم خارجون عن دائرة الرجال وأوطأ من مرتبة النساء[٣].

ما يُراد في مثل هذه التعابير هو الصفة والحال الباطنية الغالية التي تقتضي نوعاً من التسمية. فالعرفاء يؤكدون ان الصورة الظاهرية لا تكشف عن شيء ما، بل ان الصدق في طريق الله هو الذي يجعل كلاً من الرجل والمرأة على المحك.

فالقشيري ـ مثلاً ـ حين تفسيره للآية ﴿الرجال قوّامون على النساء﴾ يقول: «والعبرة بالقلوب والهمم لا بالنفوس والجثث»[٤].

وحتى اولئك الذين تأثروا بالأحاديث والكلمات السائدة فعدّوا المرأة ناقصة من حيث العقل والدين، عدّوا هذه الخصوصية عامة، فاعتبروا كل من يتبع هواه ويقلد الآخرين «امرأة».

---

(١) النخشبي، ضياء الدين، سلك السلوك، تحقيق غلام علي آريا، ص ٣١ و٤٩. ونقل العطار عين هذه العبارة عن عباسة الطوسي بشأن مريم، راجع: تذكرة الأولياء، ج ١، ص ٥٩.

(٢) الهمداني، السيد علي، رسالة ذكرية، تحقيق فريدون زاده طوسي، طهران، ١٩٩١، ص ١٣.

(٣) السهروردي، شهاب الدين عمر، رشف النصائح الايمانية وكشف الفضائح اليونانية، تحقيق نجيب مايل الهروي، ١٩٨٦، ص ٣٧٧.

(٤) الامام القشيري، لطائف الاشارات، تقديم الدكتور ابراهيم البسيوني، مركز تحقيق التراث، مصر، ١٩٨١، ج ١، ص ٣٣٠.

فالشيخ محمود الشبستري (٦٨٧ ـ ٧٢٠ هـ) يكرر العيب المنسوب الى المرأة، وهو قلة العقل والدين، في بعض أبياته الشعرية[١]. ويقول الشيخ محمد اللاهيجي (ت ٩١٢ هـ) في شرحها: «ورد في الحديث النبوي «هن ناقصات العقل والدين، عليكم بدين العجائز»، ولكن ليس المراد اتباع العجائز في الدين، لأنهن ناقصات في الدين ايضاً، بل المراد هو ان عليكم ان تكونوا كالعجائز في الانقياد للأوامر والنواهي وعدم التأويل وفق الهوى. وكل ما لا يستقيم في عقلك فاعلم بأنك قاصر عن ادراك حقيقته ... وبما انه ﷺ قال بأن النساء ناقصات الدين، فلا ينبغي للرجال اتخاذ طريقهن ولا التواري مثلهن خلف ستار التقليد. فإذا كنت رجلاً لم تغلب عليك صفة الانوثة ـ وهي الاختفاء في زاوية التقليد والطبع ـ فتهيأ للسفر الى عالم المعنى والقرب من حضرة المولى، واخرج من مقام التقليد وطبع النفس وهواها الذي يوجب السكون والكآبة، واسلك في طريق الطلب كل ما أمامك من مراتب الدنيا والعقبى، ولا تتوقف عند مرتبة من المراتب ومنزل من المنازل»[٢].

وللشبستري بيت شعري ينتقد فيه بعض السالكين ويشبههم بالنساء:

جلستم كالنساء في زقاق الادبار   دون ان تشعروا بما في جهلكم من عار

ويقول اللاهيجي في شرح هذا البيت:

«اي انكم أدرتم ظهركم كالنساء لكنز المعرفة وأقبلتم على ما يقتضيه هوى النفس، مختارين زقاق الادبار والتعاسة منزلاً، ومغرمين باللون والرائحة، غير منطلقين لطلب الكمالات المعنوية، وغير خجلين من جهلكم»[٣].

وبذلك فقد ذُمَّ الاقبال على الدنيا والقناعة بصورة الظاهر، في قالب «الانوثة». ونجد «المرأة» مرآة لعكس الموضوعات الأخلاقية وتوضيح رموز الطريقة، في

(١) الشبستري، الشيخ محمود، غلشن راز «روضة الأسرار»، ص ٢٦.

(٢) اللاهيجي، شمس الدين محمد، مفاتيح الاعجاز، ١٩٩٢، ص ١٢٦ و١٢٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٢٥.

التشبيهات والتمثيلات المستخدمة في آثار الصوفية.

بابا أفضل الكاشاني (٦٠٧ ـ ٦٤٤) يشبّه في أحد آثاره الطبع بالمرأة، والعقل بالأب، ثم يقارن بين الاثنين قائلاً: «العقل للنفس كالأب، والطبع كالمرأة. والنفس تنزع نحو الجهتين: تنزع نحو العقل أحياناً على غرار العلاقة بين الابن والأب، وهذا عقل طبيعي وحقيقي. وتنزع نحو الطبيعة في أحيان اخرى على غرار العلاقة بين الرجل وزوجته، وهذا عقل عرضي زائل. اذن فكّري ايتها النفس! فحينما يختلي الرجل بالمرأة فكيف ستلعب معه المرأة وتضحك وتتملق، وتخدعه بالكلام الرقيق الهادئ، وتخفي بالظاهر الذي تتقمصه الباطن الذي هي عليه، من اجل ان تستعبد الرجل وتحمله الى أماكن الهلاك.

اذن فانظري ايتها النفس كيف تمزج المرأة السم بالعسل، وانظري في عمل الرجل، فانه حينما يخلو الأب بالابن فانه يعنّفه ويلومه ويظهر له (من العنف) ما ليس في باطنه (من الحب). وغايته من هذا اللوم والتعنيف هي عزة ابنه ومنفعته.

اذن فقولُه المر كالدواء المر في الظاهر والذي يُخفي وراءه الصحة والحياة ...

ايتها النفس، الطبيعة امرأتك، والعقل أبوك، وضربة الأب أفضل وأنفع لك من عزف المرأة.

ايتها النفس، ليس بمقدوركِ ان تجدي بديلاً للأب، وليس بمقدور أحد ان يقتطعك منه أو يجر خط البطلان على علاقتك به: لا الفرقة، ولا الاجتماع، ولا الرضا، ولا الغضب، بل ان هذه العلاقة ثابتة ولا يمكن ان تنقطع، بينما بامكان المرء ان يتخلى عن المرأة ويقطع علاقته بها ويختار امرأة اخرى بدلاً منها. اما الأب فليس بالمستطاع اختيار آخر بدلاً منه أو الالتحاق بأب غيره»[١].

وهذا النوع من التشبيهات الذي يراد به ايضاح المضامين الأخلاقية والعرفانية، طالما يلاحظ في كتب العرفاء.

---

(١) الكاشاني، افضل الدين محمد المرقي، المصنفات، تصحيح مجتبى مينوي ويحيى مهدوي، ص ٣٥٥ و٣٥٦.

النساء المتصوفات وخانقاهاتهنّ

كان ظهور وليّات الله، سريعاً في التاريخ الاسلامي. وقد اكتسبن شأن الولاية الى جانب الرجل دون ان يكون هناك أدنى تمييز بين الاثنين.

ان ظهور العرفان والتصوف في العالم الاسلامي هو الذي وفّر الفرصة للمرأة من اجل نيل مقام «ولي الله» العظيم. والهدف الذي يلاحقه المتصوفة من خلال السير والسلوك هو الاتحاد مع الله. فالصوفي الذي يطلب الله، يعزف عن الدنيا واغراءاتها، ويتطهر من النفس والأهواء النفسية.

فشوق حب الله تعالى متّقد في نفسه باستمرار ويدفعه للانطلاق الى الامام ويجعل هدفه النهائي امام عينيه دائماً. فينطلق في حياته في أجواء الاشراق والجذبة والخلسة، فتتبلور لديه حياة مقترنة بالمراقبة والمكاشفة حتى يبلغ العرفان الالهي في نهاية المطاف، وتحصل لديه الرؤية الالهية. وفي هذه الرؤية يتحد العاشق بالمعشوق، فيفنى فيه ويبق به الى الأبد.

مثل هذه الصورة عن العلاقة بين ولي الله والبارئ تعالى لا تبقي أي مجال للتفرقة بين الذكر والانثى. في الحياة المعنوية «ليس هناك رجل ولا مرأة»[1]. فجميع اولئك الذين يختارهم الله اولياء له بمقدورهم الاتحاد به بعد طيّ الطريق. وجميع اولئك الذين يبلغون مرحلة الاتحاد، يحظون في الآخرة بمقام «الروحانية» الرفيع.

وقد برهن العطار على ان الولاية توجد في النساء بنفس الدرجة التي توجد لدى الرجال، ناقلاً عن ابي علي الفارمذي قوله: «النبوة عين العزة والرفعة، ليس فيها كبير ولا صغير. وعليه فالولاية هي هكذا أيضاً»[2].

اذن فقد كان يُمنح عنوان «ولي الله» للنساء مثلما يُمنح للرجال. وبما ان الاسلام

---

(١) الشبستري، مصدر سابق، البيت ٤٤٨.

(٢) العطار، تذكرة الأولياء، ص ٧٢.

ليس فيه مؤسسة منظمة باسم رجال الدين كما هو الحال في المسيحية، لذلك لم يكن هناك أي عائق يحول دون بلوغ المرأة لأعلى المقامات الدينية في سلسلة درجات اولياء الله. ولذلك يعتبر بعض علماء الدين السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، القطب الأول في تلك السلسلة.

ويقول الجامي نقلاً عن ابن العربي: سُئِل أحدهم:

ـ كم هو عدد الأبدال؟

أجاب: أربعون شخصاً.

فقيل له: لم لا تقول أربعون رجلاً؟

فأجاب: لوجود النساء بينهم[١].

والتراجم التي استعرضت حياة أولياء الله كحلية الأولياء لأبي نُعيم، وتذكرة الأولياء للعطار، وصفوة الصفوة لابن الجوزي، ونفحات الأنس للجامي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، حافلة بذكر النساء المتصوفات، وحياتهن المتسمة بالقدسية، وأعمالهن الحسنة، وما كان لديهن من كشف وكرامات.

ويمكن عن هذا الطريق اثبات التأثير الذي كان لدى وليات الله طوال حياتهن وما بعد ذلك. وقد انبرى علماء الدين المسلمون المعارضون لحركة التصوف، لادانة هؤلاء النسوة ورفض تقديس المسلمين لهن.

ويمكن ادراك المكانة السامية للمرأة المتصوفة من خلال اعطاء المتصوفة المركز الأول في العرفان الاسلامي لاحدى النساء، وهي رابعة العدوية، حيث يعتبرونها ممثلة اولى مراحل تطور العرفان في الاسلام، أي تحوله من عرفان الزهد والخوف الى عرفان الحب[٢].

(١) الجامي، نفحات الأنس، ص ٦١٥.

(٢) See: Smith, Margaret, Rabia The Mystic, Philo Press, Amsterdam, 1974, pp. 1 - 3.

تعتقد السيدة ماري شيمل ان رابعة العدوية قدمت معنىً جديداً للحب الالهي. وفضلاً عن رابعة قيل

←

ومن الاعتقادات الصوفية الأساسية هي ان الرجال والنساء بامكانهم التسامي في المقامات المعنوية ونيل الوصال أو لقاء الله. وفي ذات الوقت الذي لم يبلغ فيه بعض العرفاء من الرجال هذا المقام، نجد بين النساء عارفات بلغن هذا المقام وسبقن الرجال في الفناء في الله والذي يمثل أعلى مقام عرفاني.

فكان للنساء موضع في المجالس الصوفية، وكانت بين أهل التصوف نساء كثيرات كنّ يحظين باحترام الرجال[1].

ويشهد التاريخ على وجود نساء بلغن مقام الارشاد، فكنّ يُلبِسن خرق التصوف للرجال[2]. بل حتى كان بعض النسوة من المتصوفة يحضرن حلقة الرجال للسماع والرقص[3].

اذن تعتقد الصوفية بأن الجنس من خصوصيات الجسم، في حين يُتاح الكمال المعنوي عن طريق التحول الروحي، وهذا ما أدى الى ايجاد حركة معنوية في الوسط النسوي، ولم تعد المرأة تجد أمامها عائقاً يعرقل حركتها المعنوية وسيرها العرفاني.

ومنذ القرن الثاني الهجري حين ظهور التصوف، انفتح طريق جديد امام السلوك العرفاني النسوي من خلال رابعة العدوية (ت ١٨٥ هـ)، وظهرت بعض النسوة الصوفيات في عالم الاسلام. وقد قال البسطامي في فاطمة الخضروية (ت ٢٤٠ هـ): «اذا أراد أحد النظر الى رجل في زيّ النساء فلينظر الى فاطمة»[4].

وأعظم العوامل التي دفعت المرأة للتصوف في صدر الاسلام هي القرابة والرابطة الأسرية. فأخوات بشر الحافي، وميمونة أخت ابراهيم بن أحمد

← ان فاطمة النيشابوري كانت امرأة ذات تأثير كبير ايضاً. وهناك أسماء نسوية عرفانية مقدسة في تركيا ومصر والهند والمغرب. راجع: مجلة «زنان»، العدد ٥٧.

(١) غولبينارلي، مولانا جلال الدين، ص ٣٦٥.

(٢) فروزانفر، بديع الزمان، شرح المثنوي، الجزء الثالث من المجلد الاول، ص ٨١٤.

(٣) مناقب أوحد الدين الكرماني، تحقيق بديع الدين فروزانفر، ١٩٦٩، ص ١٨٥.

(٤) الهجويري، كشف المحجوب، ص ١٥٠.

الخواص، وأُخريات غيرهن، كنّ من بين النساء الشهيرات اللاتي انجذبن للتصوف من خلال آصرة القرابة[١].

وتوفرت مراكز خاصة للمتصوفات في القرون اللاحقة. ولم يكن للمرأة المسلمة في القرون الاولى مركز مستقل للتجمع ونشر الأفكار. وغالباً ما كانت تمارس عباداتها ورياضاتها في بيتها. ومنذ القرن الخامس الهجري وبعد اتساع التصوف وشعبيته، اخذت تظهر بعض الأماكن الخاصة بتجمع النساء.

وذكر سبط ابن الجوزي (ت ٤٥٦ هـ) ان فاطمة بنت الحسين بن فضلويه الرازي (ت ٥٢١ هـ) كانت امرأة واعظة متعبدة ولديها رباط كانت النساء تجتمع فيه[٢].

وجاء في كتاب «تحفة العرفان» كان في بغداد خانقاه لامرأة تدعى جوهرية وذلك في مطلع القرن السادس الهجري[٣].

وقيل في احدى بنات أوحد الدين الكرماني (ت ٦٣٥ هـ) أنها بعد طلاقها من زوجها، أخذت تدعو في الشام وحظيت دعوتها بالقبول، ونالت منصب الزعامة في سبعة عشر خانقاهاً.

وكانت ستي الكارزياني ـ مريدة الشيخ أبي اسحاق الكازروني ـ وليّة ايضاً، وقد شيدت خانقاهاً في كارزيات فارس، وطفقت في خدمة الدراويش[٤].

ويستشف من الحكايات الواردة في «أسرار التوحيد» ان زوجة ابي سعيد ابي الخير (القرن ٥ هـ) كانت تُلبس الخرقة للنسوة المريدات. كما يُفهم منها ان النساء كنّ يخدمن في سلك المتصوفة[٥].

---

(١) عد الخطيب البغدادي هؤلاء النسوة من العابدات العارفات. راجع: تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٩.

(٢) سبط الجوزي، مرآة الزمان، القسم الاول من الجزء الثامن، طبعة مصر، ١٩٤٨، ص ١٢٦.

(٣) راجع: تحفة العرفان، ضمن رسالة «روزبهان نامه»، ص ٢٧.

(٤) راجع: مناقب أوحد الدين الكرماني، ص ٦٤.

(٥) محمد بن منور، أسرار التوحيد، ص ٨٢ و٨٣.

من الطبيعي ان مثل هذه المؤسسات الخاصة بالنساء، كانت قليلة، فضلاً عن قلة عدد مثل هؤلاء النسوة، وذلك فضلاً عن العقبات الاجتماعية، كان بعض رجال التصوف يعارضون نشاط المرأة ولربما لا يؤمنون بقابليتها على مجابهة اهواء النفس وتحقيق نجاح في طريق السلوك والعرفان.

السنائي الغزنوي (ت ٥٢٥ أو ٥٣٥ هـ)، يعتبر بيت الزوج خانقاه المرأة، وعملها هو التسبيح والغزل[١].

ويقول جلال الدين الرومي بشأن جهاد المرأة: «حينما لا يوجد أمر في جهاد المرأة الأصغر، فكيف بامكانها الدخول الى الجهاد الاكبر والنجاح فيه؟»[٢].

ورغم هذا كله فقد انطلقت المرأة في طريق السلوك والعرفان، وحازت على مراتب عرفانية عليا وشيّدت الزوايا والرباطات. ويقول السخاوي في رباط بنت الخواص بأن حُجَره كانت شبيهة بحُجر نساء النبيﷺ. وقد شُيّد في بادئ الأمر على يد الخواص للأيامى والعجائز، ثم تولت اموره من بعده ابنته المتصوفة فعُرِف باسم رباط بنت الخواص[٣].

ومن الجدير بالذكر ان خانقاه المرأة المسلمة لا يشبه دير وصومعة الراهبة المسيحية، وكانت ترتاده في معظم الاحيان النساء اللاتي لا أزواج لهن للتفرغ للعبادة. وقد سعى بعض رجال السياسة وأزواجهم لتأسيس مثل هذه الأماكن من اجل احتضان مثل هؤلاء النسوة.

وتحدث ابن الفوطي عن قيام بعض الشخصيات الحكومية لتشييد أماكن لتجمع النساء تُدار من قبل شخصيات نسوية ايضاً. وقال بأن المستعصم العباسي (ت ٦٥٦ هـ) قد شيّد رباطاً للنساء يدعى «دار الشط» كانت تديره بنت

---

(١) مثنويات الحكيم السنائي، ص ١٥٩.

(٢) المثنوي، المجلد السادس.

(٣) السخاوي، ابو الحسن علي، تحفة الأحباب، ص ١٨٠.

المهتدي[١].

وتحدث المقريزي عن قيام «تذكار باي خاتون» بنت الملك الظاهر بتشييد رباط البغدادية في القاهرة للمرشدة زينب بنت أبي البركات. وكانت هذه المرأة تعيش في هذا الرباط مع مجموعة من النساء الصالحات. وكانت تأوي اليه النساء المطلقات للعبادة ما دمن بدون ازواج[٢].

وورد في مناقب أوحد الدين الكرماني ان بعض النسوة كنّ يحضرن لسماع المتصوفين، ويبادرن للسماع بعيداً عن أعين الرجال. وكنّ يبعثن عصائبهن الى المرشد بدلاً من الخرقة[٣].

العزوبة والزواج عند الصوفية

لا تُعد العزوبة بين الصوفية من ضروريات الطريقة، بل وتُعتبر الأسرة امتحاناً الهياً. وكان لكثير من مشايخ الصوفية نساء وأولاد. وقيل ان الشيخ ابا الحسن الخرقاني (٣٥١ ـ ٤٢٥) كان يعاني من زوجته كثيراً وقد قيل ان ابن سينا سمع بشهرته، فقدم «خرقان» لرؤيته، فلم يجده. فسأل عنه فقالت زوجته: ماذا تريد من هذا الشيخ الكذاب؟! وعلم بأنه خرج الى الصحراء، فانطلق خلفه فلقيه وقد وضع حطباً على ظهر الأسد! فقال ابن سينا: ما هذا يا شيخ؟ فأجابه: لو لم نتحمل حمل ذلك الذئب (يقصد امرأته)، لما تحمل الأسدُ حملنا»[٤].

وكانت لأوحد الدين الكرماني (ت ٦٣٥) جارية سيئة الأخلاق وبذيئة اللسان، وطالما كانت تسيء الى الشيخ وضيوفه. وقد ابتاع الشيخ هذه الجارية من أجل ان يختبر نفسه من خلال تحمل سوء أخلاقها وقبح سلوكها، وكذلك من

---

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٤.

(٢) المقريزي، الخطط، ص ٢٩٣.

(٣) راجع: مناقب أوحد الدين الكرماني، ص ١٨٤؛ كياني، محسن، تاريخ الخانقاه في ايران، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٧.

(٤) العطار، فريد الدين، تذكرة الأولياء، تحقيق محمد الاستعلامي، ١٩٦٧، ص ٦٦٧ و٦٦٨.

أجل ان يحطم غروره وأنانيته[١].

وطالما ورد في الآثار الصوفية ان تحمل اذى المرأة وجفائها امر يبعث على الكمال. وقد أشار البخاري الى هذا الموضوع أيضاً في تفسير حديث حب النساء، وقال بأن الصلاة من نصيب الله، والطيب من نصيب الملائكة، والنساء من نصيب الآدميين. وقد اختار للرجال حب النساء لأنهن سيئات الأخلاق، ومرافقة سيئ الخلق من الكرم[٢].

وهذا التفسير كما هو واضح يسيء الظن بالمرأة الى حد كبير ويقدم عنها صورة مشوّهة. والغريب في الأمر انه قد اورد عن الرسول ﷺ حديثين قبل حديث حب النساء هما:

«حب النساء من سنن المرسلين».

و«من أخلاق الانبياء حب النساء»[٣].

ورغم ذلك يعزو حب الرسول للنساء الى سوء اخلاقهن!

العرفان الاسلامي، وعلى العكس من المسيحية، لا وجود فيه بالأساس للرهبانية والعزوبة ـ عدا بعض الحالات النادرة ـ وليست العزوبة شرطاً للدخول الى الطريقة.

جلال الدين الرومي لا يقترح العزوبة إلّا على ذلك الذي لا يستطيع الانطلاق في طريق الرسول ﷺ، وإلّا فطريق الرسول ﷺ واضح للعرفاء، لأنه يستحسن الزواج ويحث عليه ويراه موجباً للكمال[٤].

«وعليه فالعرفاء المسلمون وعلى العكس من الرهبان النصارى، لا يؤمنون

---

(١) ديوان رباعيات اوحد الدين الكرماني، ص ٤٨.

(٢) البخاري، ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد المستملي، شرح التعرف لمذهب التصوف، ١٩٨٤، ص ١٣١.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الرومي، فيه ما فيه، ص ٢٩.

بقمع الغرائز الطبيعية والجسمية ولا تحطيمها، ولا يتجاهلون هذه الغرائز انطلاقاً مما لديهم من بصيرة ورؤية واقعية، ولذلك يوصون بتهذيبها وتلطيفها.

فالعواطف السامية اللطيفة كالحب، والغيرة، والهمة، لديها جذور في غرائز كالغضب والهوى. ومعنى هذا ان تجاهل هذه العواطف المنبعثة من الفطرة الانسانية، أمر يفرز الكثير من الأضرار والسلبيات. بل من الضروري ان تظهر حالة من التوازن بين الغرائز الطبيعية والجسمانية والقوى النفسانية، ولابد من تربية هذه الغرائز وتهذيبها، اذ ان في ذلك ضمان سلامة الروح، وليس جزافاً وصف التصوف بالطب الروحاني»[1].

وكانت لمعظم كبار العرفاء المسلمين حياة أسرية نابضة بالسرور والسعادة. فكان لأبي سعيد ابي الخير (٣٥٧ ـ ٤٤٠ هـ) زوجة وأبناء، وللشيخ أحمد الجامي ما يربو على أربعين ابناً، ولعبد القادر الجيلاني (٤٧١ ـ ٥٦١ هـ) أبناء كانوا سبباً في نشر الطريقة الجيلانية. وكان لجلال الدين الرومي، والشيخ صفي الدين الأردبيلي (٦٥٠ ـ ٧٣٥ هـ) وشاه نعمة الله ولي (٧٣٠ ـ ٨٣٤) زوجات وأبناء.

اذن كان معظم مشايخ الصوفية والعرفاء ينظرون الى الزواج كسنّة نبوية، وحذوا حذو الرسول ﷺ في هذا الأمر. وقد تزوج اغلب المتصوفين ناحين في ذلك منحى شيوخهم الذين كتبوا الرسائل في أسرار الزواج وواجبات الدرويش السالك في أداء حق المرأة[2].

ورغم ذلك كان هناك القليلون الذين يعتبرون العزوبة تحرراً من جميع المتعلقات. وقال ابراهيم الأدهم (ت ١٦٠ أو ١٦٦ هـ): «الدرويش الذي يتزوج يركب السفينة، وحينما يصبح أباً يغرق»[3].

ولأبي اسحاق شهريار الكازروني (ت ٤٢٦ هـ) كلام بهذا الشأن يوحي

---

(١) ستاري، صورة المرأة في ثقافة ايران، ص ١٩٥.

(٢) الجندي، مؤيد الدين، نفحة الروح وتحفة الفتوح، تحقيق نجيب مايل الهروي، ص ١٢١ ـ ١٢٣.

(٣) العطار، تذكرة الأولياء، ص ١١١.

بكلام القديس بولس في رسالته الى اهل قورنتس، وهذا الكلام هو: «من يغلب عليه هوى الشهوة ينبغي عليه ان يتزوج كي لا يسقط في الفتنة. واذا لم يكن الجدار والمرأة عندي شيئاً واحداً لتزوجتُ»(١).

ونفهم من كلامه انه يبيح الزواج عند الاضطرار، فهو ومن هم على شاكلته من العرفاء يرون ان الزوجة والابناء يعملون على تشويش الخاطر واضطراب الروح. لذلك ومن اجل صفاء الخاطر وهدوء الروح، من الأفضل اختيار العزوبة. ولذلك نلاحظ بعض المتصوفة يلجأون الى البراري من اجل المحافظة على دينهم من وساوس الشيطان، وغالباً ما يختارون حياة العزلة والانفراد بدون فراش وبدون زوجة(٢).

بعض المتصوفة ينظرون الى الزواج نظرة اكثر تشاؤمية، فيقترحون العزوبة ليس على المبتدئين فحسب وانما على كل المنتمين الى الطريقة. فيقول ضياء الدين ابو النجيب السهروردي (٤٩٠ ـ ٥٦٣ هـ) في كتاب ألفه في آداب النفس: «في هذا الزمان، من الأولى عدم الزواج، وكسر النفس بالرياضة والجوع والسهر والسفر»(٣).

ويقول الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي (٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ) في «عوارف المعارف» ضمن باب عنوانه «في بيان شرح العزّاب والمتزوجين»: «الزواج اكبر حجاب لأرباب السلوك لأن طلب المرأة يبعث على الاضطراب والتشوش، ومادة للشرور والفتن ... ومن دقائق علم المتصوفة انهم يتزوجون من اجل مخالفة النفس، فيخالفون النفس بحيث لا تبق لديهم مخالفة عدا الزواج»(٤).

ويعلل بعد ذلك اعتبار الزواج سبباً في الاضطراب والتشوش ويقدم العلاج،

---

(١) نفس المصدر، ص ٧٧٠.

(٢) زرين كوب، عبد الحسين، تاريخ ايران بعد الاسلام، ١٩٦٤، ص ٥٠١ و٥٠٢.

(٣) راجع: السهروردي، ضياء الدين، آداب المريدين، ١٩٨٤، ص ١٥٥ ـ ١٥٨.

(٤) راجع السهروردي، شهاب الدين، عوارف المعارف، ص ٨٦ و٨٧.

فيقول: «هناك فتنة متعلقة بأرباب القلوب وهي ان النفس ممتزجة، وبسبب هذا الامتزاج تتقوى بمجالستهن ومخالطتهن، فيبدأ الطغيان. فنار الطبيعة عند السالك والتي خمدت بكثرة الرياضة والمجاهدة والمخالفة، تبدأ بالاشتعال من جديد، فينفذ اليه القصور والاحتباس. فعلاج هذا الداء اذن هو النظر الى المرأة حين مجالستها بعينين: واحدة في الباطن، وواحدة في الظاهر. بعين الباطن يشاهد الشاهد الأزلي، وبعين الظاهر ينظر المنظور الحاضر»(١).

طبقاً لهذا التفسير، السالك الذي بمقدوره المشاهدة بعين الباطن، سيشاهد في الزواج التجلي الالهي. ولذلك يمكن القول بأن نهي بعض المتصوفة عن الزواج لا يشمل سوى اولئك الذين لم يبلغوا الكمال في الطريقة أو يعانون من بعض نقاط الضعف، أو ان عينهم الظاهرية تحول عن طريق معاشرة النساء دون وحدة القلب والنظر الى الجمال الالهي.

غير ان كل هذا ليس سوى كلام لا يتجاوز حدود النصح والارشاد ولا يأخذ طابع الالزام والعمومية، لأن الحب الجسماني الذي يشاهد من خلاله السالك الحبيب الأزلي، لا يحمل الطابع الدنيوي، وانما هو حب جسماني قد تحول الى حب روحاني ومعنوي(٢).

العارفات المسلمات

١ ـ رابعة العدوية (ت ١٨٥ هـ)

معلوماتنا المؤكدة أو القاطعة عن حياة رابعة العدوية قليلة جداً، رغم انها

---

(١) نفس المصدر، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) يقول فريتيوف شوان: طبقاً للحديث النبوي، الهدف من النكاح ـ فضلاً عن التناسل ـ هو انه مدرسة لتعلم الكرامة والصبر أيضاً وعليه يتميز بمردود عرفاني، لأنه تصوير مسبق للسعادة الاخروية في الجنة. كذلك يتعزز لدى الانسان الاهتمام بالمعنى الذي لا يتناهى بمقدار ما لديه من نظر ومشاهدة. ولا يقصد الجنيد من كلامه «انه بحاجة الى المرأة كحاجته الى الغذاء» مجرد الاتصال الجنسي والضرورة الحياتية للحب، وانما لادراك بركة الاتصال الجنسي، وهذه البركة مهمة لديه بمقدار أهمية الطعام. راجع:
F. Schoun, Approches Du Phenomena Religieux, 1984, p.115.

أعظم متصوفة في تاريخ الاسلام. ولا تتجاوز هذه المعلومات ما يـلي: وُلدت في مدينة البصرة من عائلة فقيرة. امضت فترة شبابها أمةً، ثم أُعتقت ممضيةً عمرها كله في البصرة.

وكانت تدعو لنفس الأهداف التي كان يدعو اليها الحسن البصري ويعتبرها شعار الدعوة الحقيقية للتصوف وهي: الفقر، وكـفّ النـفس، والعـزوبة، وطـلب الآخرة.

ورغم انها كانت من أهل الزهد والرياضة، إلّا انها اول من طرح مفهوم الحب الالهي في تاريخ التصوف الاسلامي. وكان المتصوفة يطرحون قبل ذلك: الشوق أو الخلّة. وبذلك تكون رابعة قد ذهبت أبعد منهم كثيراً، وراح يُنظر اليها كأول من بدأ بتسجيل عرفان الحب في تاريخ التصوف.

ورد ان رابعة سُئلت يوماً: هل تحبين الله؟ فأجابت: نعم. فقيل لها: هل تعادين الشيطان؟ قالت: «أشغلني حب الرحمن عن عداء الشيطان».

وقيل أيضاً انها رأت رسول الله ﷺ في المنام، فسألها: يا رابعة! هل تحبيني؟ أجابت: يا رسول الله! وهل هناك أحد لا يحبك؟ غير ان حب الله قد استولى عليّ بحيث لم يبق في قلبي حب ولا عداء لغيره!

وقدّمت رابعة أروع وصف لحبها الالهي في الأبيات الشعرية التالية:

أُحِـبُّكَ حُـبَّين، حُبَّ الهـوى ... وحُـبّاً لأنك أهـلٌ لذاكـا

فأمـا الذي هـو حبُّ الهوى ... فشغلي بـذكرك عـمَّن سـواكـا

وأمـا الذي أنت أهـلٌ لهُ ... فكشفك للـحجبِ حـتى أراكـا

فـلا الحـمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا(١)

وأفرد العطار في تذكرة الأولياء اربع عشرة صفحة للحديث عن حالات رابعة العدوية ومقاماتها، وقد وصفها في صف الرجـال لقـوله ﷺ: (الله لا يـنظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم)، والمرأة اذا كانت في طريق الله فانها رجل وليس

(١) بدوي، عبد الرحمن، رابعة العدوية، شهيدة الحب الالهي، ص ١٤١.

بالامكان ان يُقال لها «مرأة».

واعتبرها العطار كذلك لا مثيل لها في التعامل مع الله ومعرفتها له، وقال بأن جميع فضلاء عصرها قد اعترفوا بها، وكانت حجة قاطعة على اهل زمانها(١).

وأورد البخاري في «شرح التعرف» ان جماعة قدموا لعيادتها فسألوها عن حالها فأقسمت لهم انها قد شاهدت الجنة(٢).

ونستشف من كل ما سبق انها كانت ذات اخلاص لله منقطع النظير وحب الهي فريد، الأمر الذي ميّزها عن جميع رجال التصوف والعرفان الذين اتخذوا طريق الخوف والزهد، أي انهم كانوا يطيعون الله بالدرجة الاولى خوفاً من العقوبة.

وتحدث العطار عن وفاتها فقال بأنها حينما حانت وفاتها، خرج الرجال فسمعوا صوتاً يقول ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضية﴾. وحينما فتحوا الباب وجدوا رابعة قد ماتت.

وقيل فيها: وُلدت رابعة وماتت ولم تتجرأ على الحق ولم تطلب منه شيئاً، ولم تقل اجعلني كذا وكذا، ناهيك عن طلب شيء من الخلق(٣).

كانت مشهورة بتواضعها لله وخضوعها له، وكان يتحدث بذلك العام والخاص.

وأورد العطار في «الهي نامه» العديد من الحكايات بشأنها، وعدّها اسوةً لعباد الله الصالحين وقدوةً للمؤمنين. وله قصيدة في هذا الكتاب يتحدث فيها عن لسانها عن الحرقة الالهية والحب الالهي(٤).

كما اورد في «منطق الطير» مناجاة شعرية عن لسانها تعبّر فيها عن حبها

---

(١) راجع: العطار، تذكرة الأولياء، تحقيق نيكلسون، ج ١، ص ٥٩ ـ ٧٣.

(٢) مستملي البخاري، شرح التعرّف، ص ١٣١٢.

(٣) العطار، تذكرة الأولياء، ج ١، ص ٧٣.

(٤) عطار نامه، تحقيق ريتر، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

الخالص لله.

والعطار هو الوحيد الذي تحدث بالتفصيل عن رابعة في كتبه النثرية والشعرية. ولم ينقل فيها عن الآخرين بشأنها سوى القليل.

ويعتقد عبد الرحمن بدوي ان رابعة من بين المتصوفة الذين يعتقدون كالحسن البصري بعدم امكانية الجمع بين التصوف والمرأة. ولذلك يعد نصيبها في تدوين قانون العزوبة بين أهل الطريقة كبيراً جداً.

وهذا الفريق من المتصوفة قد جاء بالكثير من الأدلة لتأييد وجهة نظره هذه فحينما سُئل ابراهيم الأدهم عن سبب عدم زواجه قال: انا أسعى لطلاق نفسي وتحريرها، وأنا اشد حاجة الى ذلك مني الى الزواج[١].

وجاء في «عوارف المعارف» انه قيل لبشر: الناس يتكلمون فيك. فقال: في أي شيء؟ قالوا: يقولون انك تركت سنّة مؤكدة (أي الزواج) فقال: قولوا لهم لقد شغله الفرض عن السنّة.

ومن هذا ندرك انهم كانوا ينظرون الى الزواج كأمر مستحب لا واجب. اما بالنسبة لرابعة فالوضع يختلف. فهي امرأة والزواج للمرأة اهم بكثير من الزواج للرجل. غير ان رابعة ليست لم تبد أدنى رغبة بالزواج فحسب، بل كانت تصر على عزوبتها أيضاً.

ورد انها خُطبت مرتين إلّا انها رفضت ذلك قائلة انها قد انقطعت عن الدنيا وانشغلت بالله. ونفهم من هذا انها قد نذرت نفسها لله، لأن الزواج الحقيقي هو الزواج النابع من الحب، ولم يكن لها حبيب غير الله، فكيف تتخذ لها زوجاً؟

كانت رابعة أول من استخدم الحب الالهي بمعناه الحقيقي، ولم تكتف بمجرد الاستخدام الظاهري لهذه اللفظة[٢].

---

(١) راجع: العطار، تذكرة الأولياء، ذكر ابراهيم الأدهم.

(٢) راجع: بدوي، مصدر سابق، ص ٦٢ ـ ٧٣.

صفوة كلامها في الحب الالهي

اولاً، يجب ان يطرد هذا الحب كل أحد غير الحبيب. أي ان على ولي الله ان يدير ظهره للدنيا وما فيها من جاذبيات، وينقطع عن كل ما سوى الله. وليحذر ان تشغله المخلوقات عن الخالق. وعليه ان يتخلى حتى عن رغباته النفسية ولا يسمح للذة والألم بصرف اهتمامه عن الله الى جهات اخرى.

ترى رابعة ان الله غيور ولا يطيق ان يرى عبده وقد أهدى الحب الذي يليق به فقط لأحد غيره.

ثانياً، ان هذا الحب الذي يُراد به الله فقط وينفي أي شيء آخر، لا يجب ان يكون الهدف منه طلب أي نفع ولا يُبتغى به أي مرام، أي ليس الهدف منه الحصول على ثواب او التخلص من عقاب، بل لتحقيق الارادة الالهية والعمل على كل ما يحقق الرضا الالهي. فهو حب لتقديس الله وتسبيحه. وبهذه الطريقة يتحول حب العبد الى حب علوي يليق بالحبيب المعشوق.

وحينما يكون حب العبد لله بهذا المستوى، يكشف الله عن نفسه لعبده في منتهى الجمال وكمال الروعة. وعن هذا الطريق فقط بامكان روح العاشق ان تتحد بمعشوقها وتجد الهدوء والسكون في مشيئته[١].

مكانة رابعة بين المتصوفة

تتميز تعاليم رابعة العدوية بأهمية عظيمة في مضمار العرفان وتطور واستكمال المذهب الصوفي. ولدينا معلومات كثيرة عن تعاليمها على العكس من حياتها.

وقد حظيت رابعة باحترام عظيم من قبل المتصوفة وكانوا ينظرون اليها كأحد أساتذة العرفان ومرشدي الطريقة، وطالما تحدث كبار الصوفية عن تعاليمها وأوردوا اقوالها وأشاروا الى أفكارها، ووصفوها بأنها ذات أعلى درجات

---

(١) Smith, Ibid, pp. 108 - 109.

الولاية. ومن هؤلاء: ابو طالب المكي الذي يُعد أحد أوائل من كتب رسالة منظمة في التعاليم الصوفية، والقشيري الذي لديه رسالة في هذا الموضوع، والغزالي المتكلم الاسلامي الكبير، والسهروردي الذي يُعد من مشاهير كتّاب التصوف والعرفان.

فهؤلاء وغيرهم تحدثوا عن تعاليم رابعة الصوفية وعقائدها العرفانية، وقاموا بشرح كلماتها وعقائدها مؤكدين على مدى تأثيرها على الآخرين وسيرهم وسلوكهم، والأثر الكبير الذي تركه على حياتها تعليم ما تعلمته من الطريقة والسير والسلوك للآخرين.

ومما يجدر ذكره انه لا يتوفر لدينا ما يدل على أنها قد أخذت عن أحد المشايخ أو تتلمذت على أحد كبار اساتذة العرفان[١].

تلميذاتها وصاحباتها

كان لديها الكثير من التلامذة من الرجال، وما ورد على صعيد تلميذاتها فهو قليل جداً. وورد اسم معاذة العدوية ـ وهي امرأة زاهدة وورعة ـ وليلى القيسية، ضمن صاحباتها القريبات منها[٢].

وطالما يُذكر اسم رابعة الى جانب اسم ام الدرداء، غير ان هذه المرأة يجب ان تكون اكبر في العمر منها بكثير[٣].

وورد أيضاً اسم اثنتين من خدماتها، وهما من النساء المتدينات الزاهدات أيضاً احداهما هي مريم البصري وكانت تحب رابعة كثيراً وعاشت بعد وفاة رابعة قليلاً. وكانت تصغي الى كلامها في الحب الاهي وتشترك في المباحثات التي تدور ضمن هذا المجال، فتقع تحت تأثير تلك الكلمات والمباحثات الى درجة انها كانت

---

(١) Smith, Ibid, p.47.

(٢) محمد بن حسن عماد الدين، حياة القلوب (في حاشية قوت القلوب لابي طالب المكي، طبعة القاهرة، ١٣١٠ هـ)، ج ٢، ص ١٩٦.

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان، طبعة القاهرة، ١٣٢٤ هـ ج ١، ص ٧٨.

تفقد وعيها أحياناً. وحضرت مرةً حلقة صوفية كان يجري فيها الحديث عن الحب الالهي، فتأثرت تأثراً عميقاً حتى انها لفظت انفاسها في تلك الحلقة. كانت تقول انها لم تُخلق لكي تُشغل نفسها بالخبز ولا لكي تجهد نفسها في طلبه لأن الله تعالى يقول ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[١].

والاخرى هي عبدة بنت شوال، ووُصفت بأنها احدى خادمات الله الفاضلات، ووردت في الكتب بعض القصص عنها وعن خدماتها لرابعة. وكانت عند رأس رابعة حين وفاتها[٢].

٢ ـ أم حرام

كانت هناك نساء كثيرات في زمان رابعة ومن بعدها يُحسبن من أولياء الله. وقبل ان يظهر التصوف كانت هناك نسوة من اولياء الله أيضاً مثل آمنة ام النبي ﷺ وفاطمة الزهراء عليها السلام ابنته. وحظيت هاتان المرأتان باحترام جميع المسلمين وتكريمهم. وعدا هاتين المرأتين، تُعد «ام حرام» اولى امرأة مسلمة من اولياء الله.

قبرها في لارناكا بقبرص. وقد تحدث عنها بعض قدماء الكتاب العرب. وكانت تمت الى الرسول بصلة القرابة. زوجها يدعى عبيدة بن الصامت. وكانت ترغب في ان يكون لها نصيب في الجهاد مع المسلمين. فبشرها الرسول ﷺ بعد رؤيا رآها انها ستكون في طليعة المساهمين في معركة بحرية وأذن لها بالاشتراك فيها.

وفي عام ٢٧ هـ أذن عثمان بن عفان للمسلمين بشن حرب بحرية. فانطلق عبيدة بن الصامت مع زوجته ام حرام الى جانب مجموعة من اصحاب النبي ﷺ من المدينة الى دمشق ثم الى بيت المقدس، ثم انطلقوا من طرابلس الى قبرص.

---

(١) الجامي، نفحات الأنس، ص ٦١٧.

(٢) See: Smith, Ibid, pp. 18 - 19.

وحينما نزل المسلمون في قبرص توفيت فيها بعد أن سقطت من البغلة التي كانت تمتطيها. ويُطلق على قبرها اسم «قبر المرأة المقدس»[١] وقد حُسبت شهيدة لأن وفاتها كانت في اثناء خروجها للجهاد[٢].

٣ ـ رابعة بنت اسماعيل[٣]

تعد رابعة بنت اسماعيل السوري والتي يدعوها بعض الكتاب بـ «رائـعة»[٤]، احدى النساء المقدسات. زوجها أحمد بن ابي الحواري (١٦٤ ـ ٢٤٦ هـ)، أحد الزهاد المعروفين وخادم ابي سليمان، الذي هو من الشخصيات الزاهدة ايضاً.

وحينما خطب احمد رابعة ـ وكانت أرملة ـ قال لهـا: لا شغل لي بـالمرأة لأني مشغول بحالاتي المعنوية عن الرغبة في النساء.

فأجابته رابعة: انا كذلك مشغولة بحالاتي المعنوية اكثر من انشغالك بحالاتك المعنوية ولا رغبة لي في الرجال، غير اني قد ورثت من زوجي المتوفى ثـلاثمائة الف دينار حصل عليها مـن الكسب الحـلال، وبـودي ان اهب هـذا المـال لك ولإخوتك في الدين، لأني اعلم انكم اناس متدينون ومتقون، واعتقد انه سيُصرف في سبيل الله.

فذهب احمد الى مرشده وسيده ابي سليمان وأخبره بما قالت رابعة. وكان أبو سليمان يحذّر أحمد قبل ذلك من الزواج، ويقول له «لم يتزوج واحد من احبائنا إلّا وانحط وضعه المعنوي».

وحينما سمع ابو سليمان ما قاله احمد، طأطأ رأسه مفكراً ثم رفـعه وقـال: «يـا أحمد، تزوج بها لأنها ولية مـن أوليـاء الله، وكـلامها هـذا كـلام الصـادقين في

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، طبع ليدن، ص ١٥٣ و٣٧٧.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، طبع ليدن، ج ١، ص ٩٥.

(٣) See: Smith, Ibid, pp. 140 - 143.

(٤) اليافعي الشافعي، روض الرياحين، ص ١٤٠؛ جمال الدين بـن عـلي الجـوزي، صـفوة الصـفوة، ص ١٤٢.

القول»[١].

وتزوجها احمد، ولكن يبدو انه لم تكن بين الاثنين تلك العلاقة التي هي بين الزوج والزوجة.

قيل ان رابعة قالت لزوجها أحمد يوماً: اني لا احبك كما تحب المرأة زوجها، وانما احبك كما تحب الاخت أخاها. ويُعجبني ان اخدمك فقط[٢].

وتعاملت مع زوجها في منتهى الطيبة والاحترام رغم انه كان لديه ثلاث زوجات اخرى. ويقول أحمد بأنها كانت تطبخ له الطعام وتقول له: تناول الطعام وتلذذ بمصاحبة أزواجك[٣]. كما كانت تقول له: كل من هذا الطعام فإني كنت أحمد الله وأُسبحه طوال الفترة التي كنت أطبخه فيها[٤].

كان الجميع يتحدثون عن مناجاتها وصيامها وصلاتها. وكانت تسهر الليل بأسره تدعو وتتضرع وتناجي ربها، وتُنهك نفسها بالرياضات، حتى ان زوجها ومعارفها كانوا قلقين لحالها[٥].

قيل انها كانت ترى الجن بوضوح. وقد اشتهر عنها الأحوال العرفانية التي كانت عليها. وكان يغلب عليها الحب في بعض الأحيان، والأنس في احيان اخرى، والخوف أحياناً.

وكانت تحظى باحترام كبير من قبل متصوفة زمانها، وكانوا يطلبون منها النصح والارشاد، ويكسبون منها العلم في مضمار الأحوال العرفانية.

ويمكن القول بأنها كانت من اوائل العرفاء المسلمين لأن الخصوصية التي تميز بها متصوفو عصرها هي الزهد، بينما كان الحب هو الذي يغلب عليها.

---

(١) ابو طالب المكي، قوت القلوب، ١٣١٠ هـ ج ٢، ص ٢٤٧.

(٢) الجامي، نفحات الأنس، ص ٦١٨ و٦١٩.

(٣) ابو طالب المكي، مصدر سابق، ص ٢٤٧.

(٤) الجامي، نفحات الأنس، ص ٦١٨.

(٥) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ص ١٤٣.

ويقول ابن خلكان بأن قبرها يُزار من قبل الناس[١]. ويقول ابو طالب المكي ان مقام رابعة بنت اسماعيل عند السوريين كمقام رابعة العدوية عند البصريين[٢].

٤ ـ معاذة العدوية

كانت تشتهر بالزهد أيضاً في مطلع التاريخ الاسلامي. وعاصرت رابعة العدوية، وتنتمي اليها في النسب. وهي بنت عبد الله العدوي، وكنيتها ام الصهباء، وكانت في سلك سالكي الطريقة بالبصرة.

يقول الجامي انها لم ترفع رأسها الى السماء على مدى أربعين عاماً تواضعاً. ولم تأكل شيئاً في النهار، ولم تنم في الليل قط. وقد قيل لها: انكِ ترهقين نفسك كثيراً. فقالت: أي ارهاق؟! انني اؤجل نوم الليل الى النهار، وطعام النهار الى الليل[٣].

تحدث محمد بن فضيل عنها قائلاً: حينما يطلع النهار تقول: هذا النهار الذي سأموت فيه. وحينما يحل الليل تقول: هذه الليلة التي سأموت فيها فلا تنام الى الصباح. وحينما يبرد الجو ترتدي ثوباً خفيفاً كي يحول البرد دون نومها.

ونقلت خادمتها عنها انها قد اعتادت على احياء الليل بالدعاء والمناجاة حتى يحين الصباح. وحينما كان النعاس يغلب عليها، كانت تنهض متمشية في ساحة الدار وهي تخاطب نفسها قائلة: ايتها النفس ان النوم أمامك. فاذا متُّ فما اطول الموت الذي ينتظرك في القبر!

وتقول ايضاً: انها كانت تصلي ستمائة ركعة في اليوم الواحد وهي تقول: عجباً من العين التي تنام وهي تعلم طول نومة القبر.

وحينما توفي زوجها وولدها في الحرب، قدمت عليها النساء لتعزيتها بهما. فقالت لهن: اذا كان قدومكن للتهنئة فأهلاً وسهلاً، واذا كان لأمر آخر، فعُدنَ من

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٥١٦.

(٢) ابو طالب المكي، مصدر سابق، ص ٢٤٧.

(٣) الجامي، نفحات الأنس، ص ٦١٧.

حيث اتيتُن[١].

قيل انها أقبلت بعد وفاة زوجها على الرياضة وكفّ النفس، بحيث انها لم تضع رأسها على وسادة حتى وفاتها[٢].

تُعدّ معاذة من الممثلات الحقيقيات لمدرسة الحسن البصري التي تنطبع بطابع الزهد والرياضة اكثر من انطباعها بطابع الحب. وكانت تعتقد ان كف النفس والرياضة البدنية في الدنيا، بمثابة الأمل الكبير بالنجاة في الآخرة.

ويبدو ان ايمانها من نوع الايمان الذي كان عند الحسن البصري والواقع تحت تأثير الخوف من الله والخشية من الغضب الالهي. ويظهر ان صلتها برابعة العدوية لم تدفعها لطلب الله من خلال طريق الحب، لذلك لم تبلغ الابتهاج الذي كانت عليه رابعة البصرية ورابعة السورية[٣].

٥ ـ شعوانة

سميت بهذا الاسم لكثرة ما كانت عليه من الحزن الالهي.

قال يحيى بن بسطام:

«كنت أشهد مجلس شعوانة، فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء. فقلت لصاحب لي: لو أتيناها اذ دخلت فأمرناها بالرفق بنفسها.

فقال: انت وذاك.

فأتيناها، فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً، فكان لك أقوى على ما تريدين.

فبكت ثم قالت: والله لوددت ان ابكي حتى تنفد دموعي، ثم أبكي دماً حتى لا تبق قطرة من دم في جارحة من جوارحي، وأنّى لي بالبكاء، وأنّى لي بالبكاء.

---

(١) تقي الدين الحسني، سير الصالحات، ص ٢٤.

(٢) عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، طبعة القاهرة، ١٢٩٩ هـ ص ٨٦.

(٣) See: Smith, Ibid, pp. 143 - 145.

فلم تزل تردد «وأنّى لي بالبكاء» حتى غشي عليها[١].

كانت تقول: دع اولئك الذين لا يستطيعون البكاء، أن يتأسفوا على اولئك الذين يبكون، لأن الذي يبكي انما يبكي لأنه يعرف نفسه، وذنوبه، ومن هو متجه اليه.

وكانت تقول ايضاً: العيون الممنوعة من النظر الى الحبيب فلا يليق بها ان تلقاه وهي غير باكية.

ويقول البعض ان الحزن كان يغلب عليها الى درجة بحيث كانت تنسى الصلاة والعبادة.

ولا شك في انها تحتل مكاناً بين العرفاء، فضلاً عن مكانها بين الزهاد والمرتاضين، لأن أدعيتها تكشف بوضوح عن انها كانت تطوي طريق الحب ايضاً، على غرار رابعة العدوية. ولم تكن عيونها تمتلئْ بدموع التوبة والانابة فقط، وانما كانت تتألق أيضاً بجمال الحبيب وروعته. والأمل الوحيد الذي كان لديها هو ان تلتقي بربها وتتطلع الى كمال جماله[٢].

تكشف تضرعاتها وأدعيتها انها كان لديها طوال حياتها اتحاد معنوي واع بالله، وكانت تشعر انها دائماً في حضرته. وهذا اللون من الارتباط، لم يجرؤ أي أحد من متصوفة الزهد والرياضة على تمنيه.

وقد أصبحت معلمة معروفة ومرشدة روحانية لرجال التصوف في زمانها بعد ان ادركوا انها ذات بصيرة عرفانية وملازمة لله ملازمة دائمة وحقيقية[٣].

٦ ـ نفيسة (١٤٥ ـ ٢٠٨ هـ)

وتُعد من عظام اولياء الله، لكنها من نمط آخر يختلف عن نمط العارفات في

---

(١) الغزالي، احياء علوم الدين، طبع القاهرة، ج ٤، ص ٣٥٣.

(٢) الجامي، نفحات الأنس، ص ٦١٧ و٦١٨.

(٣) See: Smith, Ibid, pp. 145 - 148.

صدر الاسلام.

نفيسة من أحفاد الامام الحسن بن عليعليه السلام. وُلدت بمكة المكرمة وترعرعت بالمدينة المنورة. واقترنت حياتها بالأعمال الصالحة والعبادة.

تزوجت باسحاق المؤتمن ابن الامام جعفر الصادقعليه السلام، وانجبت له ابنين هما: القاسم، وام كلثوم[1].

كانت في كل ايامها تصوم في النهار وتحيي الليل بالعبادة. وقيل انها كانت تحفظ القرآن الكريم وتفسيره. وكانت بارعة في علوم الدين حتى ان الامام الشافعي كان يحضر عندها ويستمع لكلامها، ويتباحث معها.

وورد ان الشافعي كان يؤدي عبادات شهر رمضان الى جانبها، ومن هذا نستشف مدى الاحترام الذي كان يكنّه الشافعي لعلم هذه المرأة المقدسة وولايتها المعنوية.

توفيت بالقاهرة في رمضان عام ٢٠٨ هـ[2].

كانت صائمة حين احتضارها. وحاول الذين كانوا الى جانبها ان يحملوها على الافطار، لكنها أبت ذلك وقالت: انه لعمل عجيب! فمنذ ثلاثين عاماً وأنا أسأل الله تعالى ان ألقاه وأنا صائمة، فكيف افطر؟!

ثم أخذت تقرأ سورة الأنعام. وحينما بلغت الآية: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾[3]، فارقت روحها الحياة.

قيل انها حفرت قبرها بيدها، وكانت تلقي بنفسها فيه بين الحين والحين متضرعة وقارئة للقرآن، حتى انها ختمت في داخله القرآن ستة آلاف مرة.

حينما توفيت، اجتمع عند جثمانها خلق كثير، وأخذوا يدعون لها ويشهدون أن احداً لم ير لها مثيلاً. ودُفنت في ذات القبر الذي حفرته.

---

(١) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٦٨.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٩٠.

(٣) الأنعام /الآية ١٢٧.

قيل ان زوجها اراد حمل جثمانها الى المدينة لدفنها هناك، غير ان اهالي القاهرة سألوه أن يدفنها في مدينتهم[١]. فصار قبرها مزاراً يزوره الناس من كل حدب وصوب[٢].

٧ ـ ايشي نيلي

ورد في أسرار التوحيد انها كانت في نيشابور وكانت معروفة بالعبادة والزهد، ومن اسرة كبيرة، وكان يتقرب اليها النيشابوريون. لم تخرج من دارها على مدى اربعين عاماً، وكانت تخدمها مرضعتها.

وحينما ذاع صيت الشيخ ابي سعيد أبي الخير في نيشابور قالت ايشي لمرضعتها: انهضي واحضري مجلس الشيخ ثم احفظي ما يقوله وعودي الي وأطلعيني عليه.

وحضرت المرضعة مجلس الشيخ فلم تحفظ منه سوى بيت شعري واحد. وحينما عادت الى ايشي قرأت عليها ذلك البيت. فاستاءت ايشي منه وقالت لها: انهضي واغسلي فمك فوراً! فهل هذا كلام المفكرين والزاهدين؟! فمضت المرضعة وغسلت فمها.

ونامت ايشي في تلك الليلة، فرأت كابوساً مرعباً. فنهضت من النوم والألم ينبعث من عينيها. وكانت معروفة بصناعة الدواء لعيون الناس، فصنعت دواءً لعينها إلّا انه لم يؤثر.

وأخذت تراجع الأطباء واحداً بعد آخر إلّا انها لم تتماثل للشفاء. واخذت تعاني من ذلك الألم وتصرخ من شدته على مدى عشرين يوماً.

في ليلة ما رأت في المنام من يقول لها: اذا اردت الشفاء لعينك فاطلبي رضا الشيخ. وفي صباح اليوم التالي ناولت ايشي لمرضعتها كيساً فيه الف درهم وقالت لها: احمليه الى الشيخ.

وحينما انتهى الشيخ من مجلسه جيء له كعادته بالخبز وعود الخلال، فأقبلت

---

(١) محمد بن علي المقريزي، الخطط، القاهرة، ١٩٢٢، ص ٤٤١.

(٢) See: Smith, Ibid, 148 - 150.

عليه المرضعة ووضعت بين يديه كيس الدراهم. ثم ارادت ان تعود، ناداها الشيخ قائلاً: تعالي وخذي عود الخلال هذا لسيدة البيت وقولي لها ان تغسله بالماء، ثم تمسح بذلك الماء عينيها فانها ستشفى. وعليها ان تغسل قلبها أيضاً من انكار هذه الطائفة كي تشفى عين سريرتها أيضاً.

وفعلت ايشي ما اوصاها الشيخ ابو سعيد فشفيت عينها في الحال بقدرة الله، وحملت في اليوم التالي كل ما كان عندها من ذهب وجواهر ولباس الى الشيخ وقالت له:

ها أنا تائبة ايها الشيخ وقد أخرجت ما في قلبي من انكار. فقال لها الشيخ: بارك الله فيكِ.

ثم أمر الشيخ ان تؤخَذ الى والدة ابي طاهر كي تُلبسها الخرقة، وأمرها ان تلازم طائفتهم. فلبست ايشي الخرقة واختارت خدمة الطائفة الصوفية، وانفقت كل ما لديها[١].

ويتضح من هذه الحكاية ان النساء كن يلبسن الخرقة أيضاً في زمان ابي سعيد أبي الخير (٣٥٧ ـ ٤٤٠ هـ)، ويسارعن في خدمة رجال الصوفية.

العارفات والوليات اللاتي أشرنا اليهن، هُن جزء من كثير من العارفات ووليات الله المسلمات اللاتي يقعن ضمن اطار الفترة الزمنية التي نبحثها. وهذه النماذج النسوية العارفة كافية للتدليل على ان المرأة استطاعت ان تقف في طليعة العرفاء المسلمين، رغم محاربتها من قبل جمهور المسلمين ـ عواماً وخواصاً ـ ورغم العقلية السائدة آنذاك التي كانت تعتبر المرأة ناقصة من حيث العقل والايمان.

ولربما يدّعي البعض ـ وقد يكون ادعاؤهم صحيحاً ـ ان الصفات الاستثنائية الخاصة التي اتصفت بها هؤلاء النسوة العارفات قد عتّمت على طبيعتهن الانثوية،

---

(١) محمد بن منور، اسرار التوحيد في مقامات الشيخ ابي سعيد، تحقيق ذبيح الله صفا، ١٩٧٥، ص ٨٢ و٨٣.

ودفعت الرجال بالتالي الى الاعتراف بفضلهن وكمالهن وعظمتهن. ولكن يبدو ان هناك عاملاً آخر مؤثراً على هذا الصعيد وهو انه لا يوجد في المسلك العرفاني شيء باسم الهوية الجنسية(١)، لأن الغاية القصوى للتصوف أو العرفان الاسلامي هي فناء النفس والاتحاد مع الحبيب الأزلي، والبقاء بالله.

فخلال هذا الفناء تذوب جميع آثار وعلائم الأنانية والهوية الشخصية بما فيها الهوية الجنسية حتى لا يبق سوى الله فقط.

بتعبير آخر: فناء النفس يستلزم فناء الهوية الجنسية، لأن الهوية الجنسية ليست سوى وجه من وجوه بقاء النفس.

اذن بما ان مفهوم الهوية الجنسية لا وجود له في العرفان الاسلامي، فبامكان النساء الانضواء في صفوف أولياء الله والاشارة اليهن برجال الله.

واذا ما التفت علماء الدين الى هذا الأمر الدقيق وصبوا لتحقيق هدف ماوراء الجنسية، فعلى الأقوى أن بامكانهم تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة بحيث: أولاً، لا تتعرض المرأة لأي ظلم أو اضطهاد جنسي. ثانياً، ليس من الضروري اللجوء الى نظرية المساواة الغربية لاحقاق حقوق النساء الضائعة طوال التاريخ، لأنها لا تنسجم في كثير من خصوصياتها مع ثقافتنا الدينية.

ب ـ العارفات في التاريخ المسيحي

العرفان المسيحي

للاطلاع على موقع المرأة في العرفان المسيحي والدور الذي لعبته في بلورته وتكامله، من الضروري الاطلاع على تأريخ هذا العرفان.وبعض المفاهيم الخاصة به. فحضور المرأة العارفة في مختلف المذاهب والفرق المسيحية وآثارها المكتوبة في مضمار المفاهيم والحالات العرفانية، له تأثير عظيم على العرفان المذكور.

فتقسيم الحياة الرهبانية مثلاً الى صورتين: ناشطة، وتأملية(٢) (او عملية

---

(١) Gender Identity.

(٢) Active And Contemplative.

ونظرية)، مستنبط في الواقع من حياة وسلوك اثنتين من النساء في مقابل عيسى المسيح، واللتين كانتا اختين وردت روايتها في الانجيل، أو من مفهوم «النكاح العرفاني» الذي استُخدم اساساً من قبيل القديسات المسيحيات.

كما ان الكتب والتراجم والتقارير التي كتبتها العارفات بصدد الكشف والشهود، قدّمت مساعدة كبيرة في شرح وتوضيح المفاهيم العرفانية وتسليط الضوء على حالاتها ومقاماتها العرفانية السامية.

«العرفان بشكل عام معرفة مباشرة بالله قابلة للحصول في هذا العالم عن طريق التجربة الدينية الشخصية. وهو في الأصل حالة من الدعاء والتضرع. وبما انه كذلك فلديه مراتب متنوعة بدءاً بالاتصالات الالهية القصيرة النادرة وانتهاء بالاتحاد العملي بالله أو ما يُدعى بالنكاح العرفاني.

والدليل القاطع الذي اقامه العرفاء لاثبات اصالة تجربتهم هو الآثار العظيمة التي تتركها مثل: زيادة التواضع، والاحسان، وحب التألم. والعرفان بهذا المعنى عبارة عن تجربة شائعة ليس في المسيحية فحسب وانما في الأديان الأخرى ايضاً، ووجود طلاب له من الرجال والنساء.

ويتميز العرفان المسيحي في التأكيد على عنصرين لا يوجدان في عرفان آخر غالباً: أولاً، تؤمن المسيحية بأن تلك الحقيقة المطلقة التي تنفذ اليها، أبعد من النفس الانسانية والعالم المادي، أي انها متعالية. ثانياً، تنظر المسيحية الى اتحاد الانسان والخالق (= الاتصال العرفاني) كنوع من اتحاد الحب والارادة والذي يُحفظ فيه التمايز فيما بين الخالق والمخلوق. وعليه فالمسيحية ترفض مفهوم انجذاب الروح الانسانية في الامر الالهي، والحلول، والاتحاد بمعنى ذوبان الحدود بين المتناهي واللامتناهي.

ورغم ان الظواهر النفسية الجسمية المختلفة كالأحلام، والخطابات الارتجالية، والخلس، والمكاشفات، والجذبات، طالما أُشير الى انها مقترنة بالتجارب العرفانية، غير ان الكتّاب المسيحيين المعنويين لا يعتقدون بأنها ملازمة للتجربة

العرفانية، بل قد تُعد في بعض الأحيان معرقلة لتحققها الصحيح، حتى نراها تختفي في اسمى المقامات العرفانية، أي النكاح المعنوي»[١].

ولا تُلاحظ كلمة (Mysticism) ـ أي العرفان ـ في المتون المقدسة أو الأدبيات المسيحية في عصر الرسل والمبلغين. غير ان الكتّاب المسيحيين يستخدمون اشتقاقاتها على صعيد التعاليم المتصلة بالانكشاف الالهي، والمساهمة في الأسرار المسيحية، ومراسم التشرف بالمسيحية[٢].

وتظهر الجذور العرفانية المسيحية، في العهد الجديد لاسيما في تعاليم بولس ويوحنا، والمتصلة بالاتحاد المعنوي مع المسيح وتجربة حضور الله وحبه.

ان تأثير كتابات يوحنا على العرفان المسيحي اكبر بكثير من تأثير أي كاتب آخر في العهد الجديد. ويتعلق اصطلاح «العارف» بيوحنا أكثر من تعلقه ببولس.

هناك مقطوعات في انجيل يوحنا ـ فضلاً عن مكاشفة يوحنا ـ تكشف عن تمتع الكاتب بتجربة عرفانية.

يوحنا القديس بالأساس عالم لاهوتي، إلّا انه وبعد لقائه بالمسيح، انجذب للأهمية الأبدية لتجسد الكلمة الالهية. وتوجد في كتاباته الكثير من المؤشرات التي تدل على تأثره بالأفكار الافلاطونية.

من وجهة نظر هذين يوحنا وافلاطون هناك عالمان: عالم علوي، وهو عالم صحيح وحقيقي، وعالم سفلي وهو ظلمة وظل. وشر. ولولا المسيح، لما كان بامكان أي شيء ان يكشف عن الله بالوجه الصحيح أو يقدم خبراً عنه.

فالمسيح بالصورة الأبدية، من الله ومن العالم العلوي. وقد ظهرت فيه الحقيقة والحياة بتألق خالص. وتجسده في هذا العالم، تعبير عن ظل الطبع الباطني للعالم

---

(١) See: (Mysticism) In The Oxford Dictionary Of The Christian Church, Oxford Univirsity Press, Second Edition, Ed. F.L. Cross And E. A. Livingstone, 1988, p.952.

(٢) See:Dragas, George, (Mysticism) In Encyclopedia Of Early Christianity, Vol. 2, pp 791 - 792.

العلوي. وعليه ليس بامكان الناس الذين هم على شاكلتنا الانتفاع بـالحياة إلّا بواسطة المسيح.

فالحياة المعنوية أو الحياة الالهية ليست فينا أو منا، بـل هـي مـن الأعـلى، وتقتضي الايمان والمعرفة.

وحينما يقرأ المرء كتابات يوحنا، يقع تحت تأثير عمق تجربته الباطنية، ويحصل لديه الاطمئنان انه كان على تماس مع المسيح في الظاهر والباطن.

ورغم ان هذه الكتابات كانت مرشدة وموجهة طوال التاريخ لحـياة بـاطنية أعمق، إلّا انها في الغالب تفسير لاهوتي للمسيح بعنوان «طريق».

غير ان «بولس» يشير في رسائله الى «تجربة الحضور الالهي» والتي هي تجربة شخصية مباشرة. وقد اكد على الآثار الجازمة لهذه التجربة على حياته بمختلف العبارات[١].

وفي رسائل بولس مؤشرات دالة على تجربته العرفانية ايـضاً. فـتجربته التي عاشها بنفسه وشهد أحداثها، تُعد أهم مصدر للايمان بالحضور الالهـي المـباشر المحيط والذي بامكان الناس أن يعيشوا فيه وينتفعوا بالحياة.

وتُعد «الحياة في المسيح»[٢] من وجهة نظره بمثابة العيش في الحياة ذات الأهمية المعنوية، أي الانتفاع بالطبع الالهي الذي يستلزم ظهور انسان جديد، أي انسان وجد الحياة من جديد.

والسر الجوهري للمسيحية من وجهة نظره، هو تجربة المسـيح عـن الحـياة الباطنية مع الطلب، والتغلب على الذنب، وخلق روح من الحب[٣].

يعتقد بولس ان الانسان يعثر على حياة جديدة بفضل التجربة العرفانية. وهذه

---

(١) مثل رسالته الى اهل غلاطية، ١ / ١٥ و١٦، ٢ / ٢٠، ٤ / ٦؛ والرسالة الثانية الى اهل قورنتس ٣ / ١٨، ٤ / ٦، ١٢ / ١ ـ ٤؛ والرسالة الى اهل رومة، ٨ / ٢؛ والرسالة الى اهل افسس، ٣ / ١٤ ـ ٢١.

(٢) الرسالة الى أهل فيلبي، ١ / ٢١.

(٣) الرسالة الى أهل قولسي ١ / ٢٧.

التجربة العرفانية ناشئة من روح الهية سارية وجارية في العالم، سواء دُعيت بالرب، أو المسيح، أو روح المسيح، أو الروح المطلق. انه شيء ينطلق من عالم أسمى ومن فضاء معنوي نحو الانسان فيشيد فيه حياة جديدة ويمنحه طبعاً انسانياً جديداً: «فتلبسوا الانسانَ الجديد، الذي خُلِقَ على صورة الله في البر وقداسة الحق»[١].

ويشير بولس الى الظواهر المقترنة بالتجربة العرفانية كالمكاشفات، والرؤى، والجذبات، ومشاهدة الملائكة والشياطين، والوحي، والانكشافات الالهية، والموهبات غير العادية لروح القدس والتي يقع التنبؤ على رأسها[٢].

معلوماتنا عن صدر المسيحية قليلة، ويمكن الاشارة الى مكاشفات القديسة «بيربتوا»[٣] (ت ٢٠٣ م) والقديس «سيبرين»[٤] (ت ٢٥٨ م) خلال القرنين الميلاديين الثاني والثالث.

وقد رُفضت تنبؤات مونتانوس[٥] ـ التي بدأت في ١٥٥ هـ ـ وامرأتين كانتا معه هما «بريسيلا» و«ماكسيميلا» (ت ١٧٩ م)، من قبل الكنيسة، ليس بسبب الشك في كلماتهم وجذباتهم، بل لأنهم اضافوا بسبب تنبؤاتهم شيئاً جديداً الى الايمان المسيحي.

وقد حظي تعليم تلك التعاليم من قبل النساء بسخرية المعارضين واستهزائهم. وأخذوا يقولون بأن معلومات هذه النسوة ناشئة من تصرفاتهن في العقائد المسيحية، ولا تمثل تقريراً لتجارب معنوية صادرة عن عالم أسمى.

ومن الجدير بالذكر ان تلك التنبؤات تقوم على أساس اخلاء الذهن من جميع

---

(١) الرسالة الى اهل أفسس ٤ / ٢٤.

(٢) See: Jones, Rufus, (Mysticism) (Christian, Nt), In Encyclopedia Of Religion And Ethics, Ed.James Hastings, Edinburgh, 1958, Vol. 9, pp. 89 - 90.

(٣) St. Perpetua.

(٤) St. Cyprian.

(٥) Montanus, Priscilla, Maximilla.

الأفكار واعداده للجذبة. ثم يحل من بعد ذلك هيجان خارج عن اطار السيطرة والادارة. وقد جوبهت المونتانية[١] بمعارضة شديدة من قبل الكنيسة الى ان اضمحلت بشكل تدريجي.

وظهرت التعاليم المعنوية لآباء الكنيسة في آثار ارينايوس، وكليمنتوس، وأوريجانس الاسكندري، ولاسيما في الكتابات الزاهدة والمعنوية لكتّاب القرنين الميلاديين الرابع والخامس.

كليمنتوس الاسكندري (ت ٢١٥ م) يُعد اول مسيحي كتب في اللاهوت العرفاني. واللاهوت العرفاني هو المعرفة المباشرة السرية لله غير القابلة للتعريف والتي تحصل بفعل الكشف والشهود. وهي في مقابل اللاهوت الطبيعي الذي هو عبارة عن معرفة الله عن طريق المخلوقات، وفي مقابل اللاهوت الجزمي الذي هو عبارة عن معرفة الله عن طريق الوحي والانكشاف الالهي.

في عصر كليمنتوس، كان الغنوصيون يزعمون ان لديهم تعاليم سرية ورثوها عن الحواريين. وكانوا يعتقدون ان المتعلم لتلك التعاليم يبلغ مستوى اعلى من مستوى المسيحي العادي، ويتحول الى عارف أوغنوصي. وأعلن كليمنتوس في مجابهة هذه التعاليم، ان ارتقاء الغنوصي أو الزاهد الحقيقي لا يعتمد على تعلم بعض الامور الخاصة، وانما يُتاح من خلال الرياضة واحتقار الدنيا. وهذا الأمر يتضمن حياة متحفظة مرفقة بالتأمل في الله.

ويبدو ان كليمنتوس قد اقتبس الفكرة التالية من فيلو[٢]: يجب ان يُطلب الله في الظلام مثلما فعل موسى ذلك. وهذه الفكرة قد مهدت الطريق لتعاليم ديونيسيوس الأريوباجي[٣] والقديس يوحنا الصليبي[٤] حول الله.

---

(١) Montanism، حركة دينية ظهرت في القرن الثاني الميلادي شيدها شخص يدعى مونتانوس Montanus.

(٢) Philo.

(٣) Dionysius The Areopagite.

(٤) Saint John Of The Cross.

يعتقد كليمنتوس ان بركة المعرفة ستُعطى من قبل الله وعن طريق ابنه، لأن الله ليس لديه زمان ولا مكان ولا يمين ولا يسار، وهو فوق الزمان والمكان والكلام والفكرة.

ويرى ان مراحل الطلب الثلاث والتي هي بموازاة أيام سفر ابراهيم الثلاثة، كالتالي: الاولى مرحلة طلب ادراك الجمالات، الثانية مرحلة التطلع لامتلاك نفس خيّرة، الثالثة مرحلة رؤية الامور المعنوية وتنوّر عين الادراك بالنور الرباني. غير ان الانسان ليس بمقدوره ان يرى الله تعالى في هذا العالم كما هو.

اما اوريجانس الاسكندري (ت ٢٥١ م) فكان يشير غالباً الى الكشف والشهود. وطالما كان يميز بين نمطين من الحياة في العرفان المسيحي: الحياة الفعالة أو العملية، وحياة المراقَبة أو النظرية. وكان يحيا مع تلامذته حياة شبيهة بتلك التي عاشها الرهبان فيما بعد. وكان يعبر عن اعتقاده بامكانية بلوغ مرحلة الاتحاد مع الله، والتنبؤ، وسائر المواهب الروحانية، عن طريق كفّ النفس والانضباط.

وحلّت مرحلة جديدة في القرن الرابع الميلادي بعد اتساع الرهبانية. فانصرف الآلاف عن الدنيا مقبلين على الحياة المعنوية. فقد كان الاعتزال من اجل التأمل والمراقبة امراً ضرورياً للراهب.

كان القديس انطونيوس ـ المؤسس للرهبانية المصرية ونموذجها ـ يمضي الليل بأسره في الجذبة أحياناً. وحينما كان طلوع الشمس يقطع عليه عبادته، يشكو قائلاً: «العبادة التي يفهم فيها الراهب نفسه أو عبادته، غير كاملة».

وكان يعتقد ان المسيح قد علمهم ان الانزواء والابتعاد عن القيل والقال وتجنب مشاغل الدنيا، أمر ضروري من اجل الاستعداد ـ في عين التعلق بالبدن والحضور في هذا العالم ـ للوصول الى الجنة التي وُعد بها القديسون والاتحاد مع الأب والابن!

وينبري القديس المصري ماكاريوس[١] (ت ٣٨٩ م) في رسائله ومواعظه التي

(١) Macarius.

تتسم بالجمال والرقة، لوصف «اللطف الالهي» فيقول: هذا اللطف قد يأتي على شكل نار حارقة أحياناً، وعلى شكل هادئ في أحيان اخرى فيستوعب الانسان. غير ان هذا المصباح مضيء دائماً، إلّا انه يزداد ضوءاً وتألقاً حينما تتسامى نشوة حب الله.

ويتحدث أيضاً قائلاً:

المليء باللطف الالهي، يبقى في أسمى المقامات ويظل حراً وطاهراً ليلاً ونهاراً. غير انه اذا لم ينطلق أبعد من ذلك، يظل عاجزاً عن الاستعانة بالكلمة الالهية، وليس هناك ما يضمن استمراره في تلك الحالة، بل بامكانه فقط ان يقبع في زاوية ما مسروراً ونشواناً. وبذلك يظهر ان البقاء في أعلى المراتب لمدة طويلة أمر غير ممكن.

وكما فسر اوريجانس مفردتي العريس والعروس في «أناشيد سليمان» بالمسيح والنفس الانسانية، تحدث ماكاريوس أيضاً عن العريس السمائي. فهو يرى ان موهبة التأمل والمراقبة، تمثل أسمى المواهب الالهية، وذلك لاشتعال النفس الانسانية بالحب الالهي.

ويُعد القديس آمبروس ـ وهو استاذ اوغوسطينوس ـ عارفاً بين الآباء اللاتينيين. وأشار اوغوسطينوس أيضاً الى البصيرة العرفانية خلال اعترافاته، وأكد على تأثيراتها. وقد اعتبر كلاً من بطرس ويوحنا أُسوة حسنة في الحياة التي تتسم بالفعالية والمراقبة.

اما القديس بنيديكت (ت ٥٤٣ هـ) الذي سنّ بعض القوانين للحياة الدينية وكانت سائدة في الغرب حتى القرن الثالث عشر، فإنه تحدث قليلاً عن العبادة التي تتسم بعنصر المراقبة. وعبّر عن شعوره بأن الشروط الضرورية لحياة تتسم بالمراقبة هي اعتزال الدنيا، والطاعة، والصمت، ثم التواضع الذي يُعد اسمى منها جميعاً لأنه يدفع الراهب نحو الحب الكامل. كما كان يؤكد على ضرورة استمرار سنّة قصر العبادة وتميزها بالاخلاص.

وكان لديونيسيوس الكذاب وغريغوريوس الكبير، وهما من كتّاب مرحلة الرسل والمبلغين، اعظم النفوذ والتأثير في القرون الوسطى، وقد عاش الأول في أواخر القرن الخامس والثاني في اواخر القرن السادس.

من بين آثار ديونيسيوس، رسالة صغيرة تتحدث عن اللاهوت العرفاني، وقد وُضعت على رأس مؤلفاته. ويميز فيها بين نمطين اللاهوت: اللاهوت الايجابي، واللاهوت السلبي. ويتعلق هذا النمط الثاني باللاهوت العرفاني.

يُعد ديونيسيوس حاملاً لسنّة آباء الكنسية[1] اليونانيين، ولديه كلام طويل بشأن تعالي الله عن العالم والموجودات. وطريقته السلبية في معرفة الله لا تنفي عن الله كل مادي وحسي فحسب، وانما تعتقد ان الله وراء كل مفهوم عقلي ايضاً.

والموعظة العملية الوحيدة التي استُند اليها في القرون الوسطى كأسلوب للتأمل والمراقبة، كلمات ديونيسيوس التالية: ضع الحواس والأعمال العقلانية خلف الظهر في عمل التأملات العرفانية الدقيقة. لاحظ كل ما يعرفه الحس والعقل، وكل ما هو موجود وغير موجود، وحتى نفسك أيضاً قدر المستطاع، من اجل ان تتحد نفسك معه في اللامعرفة. فهو وراء كل موجود ومعرفة، اذ بالتحرر الكامل من الخارج وكل شيء، يمكن التسامي نحو أشعة العتمة الالهية المتحررة من كل شيء.

ويقول ديونيسيوس بأن هذه العتمة تظهر بسبب وفرة النور.

وكلماته هذه مهدت الأرضية كي يتحدث كاتب عرفاني مسيحي مجهول عن

---

(١) آباء الكنيسة، عدد من الكتّاب المسيحيين الذين ظهروا منذ نهاية القرن الاول وحتى نهاية القرن السابع وقد اشتهروا بالفضل والعلم والايمان والدين والزهد والتقوى. آثارهم المكتوبة باللغتين اليونانية واللاتينية، ركّزت في صدر المسيحية على اثبات حقانية الدين المسيحي، ثم للحديث من بعد ذلك عن اللاهوت وتفسير الكتاب المقدس والمواعظ.

ويُقسّم آباء الكنيسة الى فئتين: فئة قبل مجمع نيقيا، ومنهم ايغناتيوس الأنطاكي، وكليمنس الأول، وترتوليان، واخرى بعد مجمع نيقيا، ومنهم اثاناسيوس، ويوحنا فم الذهب، وبازيل الكبير، وامبروس، ويوحنا الدمشقي، وهيرونوموس، وغريغوريوس الكبير واوغوسطينوس. راجع: دائرة المعارف الفارسية، غلام حسين مصاحب.

«سحب الجهل»، ويشير القديس يوحنا الصليبي الى «ليلة الروح الظلماء»[١].

وكتب القديس غريغوريوس الكبير[٢] (ت ٦٠٤ م) بالتفصيل عن تجاربه الشخصية. ويرى ان الانسان المتدين بمقدوره ان يعيش نمطين من الحياة: حياة فاعلة، وحياة مراقبة. وترمز لهذين النمطين من الحياة كل من «مارتا» و«مريم»، وهما الاختان اللتان ورد ذكرهما في الانجيل.

ويرى غريغوريوس ان حياة المراقبة أسمى، غير انها قد تكون ذات خطورة على البعض من اصحاب الاستيعاب الضعيف. ورغم ذلك فهي لا تتاح لاولئك الذين لديهم شغل دنيوي والمتزوجين.

ويرى ان بامكان الحياة الفاعلة أو العملية ان تدعم حياة المراقبة شريطة ألّا تزاحم راحة الخيال وهدوء الذهن. ويقول بأن المسيح قدّم نموذجاً من الاتحاد بين هاتين الحياتين. ومن الضروري التأسي به لاسيما من قبل القساوسة.

وحياة المراقبة ـ من وجهة نظره ـ ليست شاملة للسكون والعزلة فقط، وانما هي ايضاً انضباط نفسي جاد، وحب عظيم لله والناس. ولابد ان ينجم عن التأمل والمراقبة: معرفة النفس والتواضع.

ورغم ان الذهن ينبسط، والنفس تمتلئ بالهدوء والحلاوة وتحترق في نار الحب خلال عملية التأمل والمراقبة، غير ان رؤية الله كما هو في هذا العالم، أمر غير ممكن.

ومما يجدر ذكره هو ان غريغوريوس الكبير لم يتحدث في آثاره عن الآثار الروحية والجسمية للتأمل والمراقبة، رغم ان كتاب «محاوراته» حافل بذكر المعاجز والتنبؤات والمكاشفات.

ولابد من البحث خلال مرحلة القرون الوسطى عن المواد الأولية المتعلقة بالتعاليم والأساليب العرفانية المسيحية، في حياة القديسين والذين كانوا كثيرين

(١) The Cloud Of Unknowing، كتاب شهير في العرفان المسيحي، مجهول الكاتب.

(٢) Saint Gregory The Great.

خلال تلك المرحلة، كالقديس جون كليماكوس[١] (ت ٦٠٦ م)؛ والقديس ماكسيموس المعترف[٢] (ت ٦٦٢ م)، وهو من القسطنطينية ويُعد كاتباً زاهداً ولاهوتياً ذكياً، لديه تفاسير على آثار ديونيسيوس الكذاب.

هؤلاء القديسون كانوا يؤكدون على ضرورة التخلي عن كل تصوير وتصوّر في العبادة.

وشهد القرن الثالث عشر الميلادي عاصفة عظيمة من الحركات العرفانية اجتاحت اوربا بأسرها بعد ظهور الفرق الرهبانية. وكان معظم كبار رجال اللاهوت في هذه الفترة، من رجال العرفان ايضاً. وكان يُنظر حين دراسة نمطي الحياة المذكورين، الى التأمل والمراقبة، كنتيجة من نتائج البحث العقلاني، لا كتجربة شهودية القديس توما الأكويني (ت ١٢٧٤ م) ورغم انه كان من أهل الوجد والجذبة، إلّا انه لم يخلّف أي أثر في اللاهوت العرفاني، عدا بعض الارجاعات العابرة الى هذا الموضوع في بعض آثاره.

يعتقد الأكويني وعلى أساس نظرية ارسطو في المعرفة ان العقل يعلم بالأفكار بواسطة الآثار التي يتأثر بها والانطباعات التي تتركها تلك الآثار.

ويرى اننا عن طريق صور الخيال فقط، بامكاننا مشاهدة الحقائق المعنوية والذوات الروحانية، أي الله، والملائكة، والأرواح. غير ان الروح المجردة أو الملاك، عقل لا تعتمد ادراكاته على العضو الجسمي. ولذلك يدرك الامور المعنوية كما هي دون الحاجة الى استخدام الصور الخيالية.

اما الانسان فبامكانه التبرك «برؤية الله المباركة»، وحينذاك يتحد الله تعالى مع عقل الانسان من خلال نوع من الانطباع، بحيث يُصبح الله الأمر المشاهَد، وكذلك الواسطة التي يُشاهَد بها. ويُدعى هذا الانطباع الالهي بالمجد النوراني[٣]، وهو

---

(١) Saint John Climacus.

(٢) Saint Maximus The Confessor.

(٣) Lumen Gloria.

الغاية التي خُلق الانسان من اجلها والتي تُتاح صورتها الكاملة بعد الموت.

اما فيما يتعلق بالمراقبة فيرى القديس توما ان معرفة الانسان هي المراقبة. ويُلاحظ الله تعالى في المراقبة بواسطة ما يُعرف بالعقل النوراني، حيث يرتقي الذهن بحيث يدرك الأمر الالهي، ولكن ليس كما تُدرك الذلة الالهية بدون واسطة. وعليه فالذي يراقب بعد الذنب، يدرك بركة الله ولطفه ، وان كان ذلك الادراك اكمل في حالة اللاذنب.

اذن فالتأمل أو المراقبة من وجهة نظره تعيد من خلال اللطف الالهي، المعرفة الضائعة التي كانت لدى آدم قبل الهبوط. والعلم الموحى الى الانسان، ناشئ ولا شك من تشعشع الحكمة الالهية، ونحن ندرك ذلك بواسطة «مواهب روح القدس» التي توحى في التعميد. وهذا ما يوجب فينا قرباً خاصاً الى الله ويدفعنا الى نوع من الحالة الالهية.

الأكويني في مقالاته عن الحياة الفعالة وحياة المراقبة، يعتقد ان حياة المراقبة حياة مشفوعة بالمطالعة والألم في طريق الحقيقة. ويرى ان الحياة الفعالة هي الحياة التي يستخدم فيها الانسان جسده للأعمال الظاهرية.

اما بشأن سلسلة الوعاظ التي ينتمي اليها فيعتقد بأن التوفيق بشكل كامل بين هذين النوعين من الحياة، لا يتحقق إلّا بالدراسة المرفقة بالموعظة[١].

واذا ما أردنا تقديم قائمة بالعرفاء النصارى الذين تؤيدهم الكنيسة الكاثوليكية ضمن الفترة الزمنية التي نبحثها، فانها كالتالي:

١ ـ القديس كليمنتوس الاسكندري — 1- St. Clement of Alexandria

٢ ـ القديس غريغوريوس النيصصي — 2- St. Gregory of Nyssa

٣ ـ القديس اوغوسطينوس — 3- St. Augustine

٤ ـ ديونيسيوس الكاذب الأريوباجي — 4- Dionysius the pseudo - Areopagite

٥ ـ القديس سيمون اللاهوتي الجديد — 5- St. Simon the New theologian

---

(١) See: Refus. Ibid. In Enc. Of Religion And Ethics, pp. 87 - 97.

٦ ـ القديسة مختيلد الماغديبورغية	6- St. Mechthild of Magdeburg
٧ ـ القديسة هيلديغارد البينغنية	7- St. Hildegard of Bingen
٨ ـ القديس فرنسيس الآسيزي	8- St. Francis of Assis
٩ ـ القديس بونافنتورا	9- St. Bonaventure
١٠ ـ القديسة غيرترود الكبيرة	10- St. Gertrude "the Great"
١١ ـ المعلم ايكارت	11- Master Ekckhart
١٢ ـ القديس غريغوريوس بالاماس	12- St. Gregory Palamas
١٣ ـ ريتشارد رول	13- Kichard Role
١٤ ـ جي تولر	14- J.Tauler
١٥ ـ هنري سوسو	15- Henry Suso
١٦ ـ كاترين السيناوية	16- St. Catherine of siena
١٧ ـ جي رويسبروك	17- J. Ruysbroeck
١٨ ـ والتر هيلتون	18- Walter Hilton
١٩ ـ جوليان النورويتشية	19- Julian of Norwich
٢٠ ـ القديسة كاترين الجنوائية	20- St. Catherine of Genoa

ونلاحظ ضمن قائمة العرفاء هذه، ست قديسات مسيحيات بحيث ان تأثير حياتهن وآثارهن قاطع الى درجة بحيث دفع الكنيسة الكاثوليكية الى الاعتراف بهن كعارفات لا غبار عليهن[١].

مارتا ومريم نموذجان للحياة الفاعلة وحياة المراقبة

ورد في انجيل لوقا بشأن هاتين الاختين ولقائهما بالسيد المسيح ما يلي:
(وبينما هم سائرون (المسيح وتلاميذه)، دخل قرية فأضافته امرأة اسمها مرتا. وكان لها أخت تدعى مريم، جلست عند قدمي الرب تستمع الى كلامه. وكانت

---

(١) See: (Mysticism) In The Oxford Of The Christian Church, p.952.

مرتا مشغولة بأمور كثيرة من الخدمة، فأقبلت وقالت: «يا رب، أما تبالي أن أُختي تركتني أخدم وحدي؟ فمرها أن تساعدني». فأجابها الرب: «مرتا، مرتا، إنّكِ في همّ وارتباك بأمور كثيرة، مع ان الحاجة الى امرٍ واحد. فقد اختارت مريم النصيب الأفضل، ولن يُنتَزع منها»)[1].

هذه القصة الواردة في الانجيل قد اتخذ منها كتّاب العرفان المسيحي مصدراً للاستيحاء ورسم نمطي الحياة الفعالة والتأملية. واتخذ اوريجانس من هذه الآيات الانجيلية سنداً للفصل بين هاتين الحياتين وذكر العناصر اللازمة لكل منهما.

ويعتقد غريغوريوس الكبير ان حياة السيد المسيح عبارة عن نوع من التوفيق بين عناصر من هاتين الحياتين، وعدّ ذلك أمراً مناسباً للمضطلعين بالدور الديني، رغم انه اولى اهمية اكبر للحياة التي تأخذ طابع المراقبة والتأمل.

مؤلف كتاب «الجهل الاكبر»، قدّم تفسيراً عرفانياً للآيات الانجيلية المتحدثة عن مارتا ومريم. فاعتبر مريم نموذجاً لأهل المراقبة، ومارتا نموذجاً لأهل العمل. ثم قدم على هذا الضوء الاستنتاجات التالية:

١ ـ من هو من اهل النظر لا ينبغي له التدخل في الحياة العملية، وألّا يعبأ كذلك بما يتعاملون به معه أو يقولون فيه. ولا يجب عليه ان يرد على لائميه دفاعاً عن نفسه، مثلما كانت مريم جالسة عند قدمي المسيح تستمع الى كلامه دون اكتراث بكلام اختها مارتا.

٢ ـ أهل العمل يشتكون دائماً من أهل النظر كشكوى مارتا من مريم، غير ان هذه الشكوى، بسبب الجهل.

٣ ـ ينبغي على أهل النظر ان يعذروا أهل العمل في أقوالهم وأفعالهم، لأن الجهل هو الذي دفع مارتا للتذمر من مريم لأنها لم تكن تعلم ان مريم كانت آنذاك مليئة بالكلمة الالهية، وكانت جاهلة بالكمال الحاصل لها.

٤ ـ ان الله تعالى يدافع عن الذين لم ينهمكوا بالدفاع عن انفسهم والمستمرين

---

(١) لوقا، ١٠/ ٣٨ـ٤٢.

في علاقتهم الحميمة معه، مثلما دافع المسيح عن مريم.

٥ ـ النصيب الأفضل هو حياة المراقبة. وكأنما قال المسيح لأهل العمل ان الاشتغال بالامور الكثيرة هو الجزء الاول، والتأمل والمراقبة هو الجزء الثاني، وهو النصيب الأفضل الذي اختارته مريم منذ البداية.

ويؤكد مؤلف «الجهل الأكبر» على ان الكلمات المتبادلة بين الاختين والمسيح، يجب النظر اليها كنموذج ينطبق على جميع أهل العمل وأهل النظر في الكنيسة المقدسة والى يوم الحشر. فعلى أهل العمل ان يجعلوا حياتهم منطبقة مع نموذج مريم، وعلى أهل العمل ان يعملوا وفق اسلوب مارتا[١].

وبعد أن ظهرت الصوامع والمؤسسات الرهبانية الى الوجود، توفرت أمام هذين النمطين من الحياة الفرصة لكي يختار الناس أحدهما بما ينسجم مع طبعهم ومذاقهم.

وأخذت المجموعتان الرهبانيتان الكبيرتان، أي الكلاريستية[٢] والكرملية[٣]، باستيعاب حلقات واسعة من النساء من اهل العمل، وأهل النظر.

القديسة «تيريزا»[٤] (١٥١٥ ـ ١٥٨٢ م) التي لديها آثار معروفة في المكاشفات والمقامات العرفانية، لعبت دوراً مؤثراً في نمو وانتظام صومعة الراهبات الكرمليات، وكانت من بين عرفاء أهل المراقبة، في ذات الوقت الذي لم تتجاهل فيه النشاطات الدينية.

---

(١) The Cloud Of Unknowing. Ch. 17 - 21.

(٢) Clarists، هنّ النسوة اللاتي كن يعملن ضمن صفوف الفرنسيسكان وكان بعضهن من اهل العمل والبعض الآخر من اهل النظر والتأمل. راجع:

(Franciscans) In Dictionary Of World Religion, ed. By Keith Crim, Harper. San Francisco, 1989, p.266.

(٣) Carmelites، أعضاء فرقة كاثوليكية بنت لها صومعة على جبل الكرمل بالقرب من حيفا بفلسطين عام ١٢٠٠ م، معلنة بذلك عن تأسسها. أشهر أعضائها تيريزا والقديس يوحنا الصليبي.

(٤) Teresa Of Avila.

النكاح العرفاني

غالباً ما يعبَّر عن حب الانسان لله في العهدين القديم والجديد برموز وصور خيالية ذات صلة بالعريس والعروس، ولهذا يُنظر منذ القدم الى العذراوية المسيحية كهدية خاصة تقدمها النفس الانسانية الى زوجها، أي المسيح. ولا يبدو أن هناك شيئاً آخر تقصده القديسة القديسة اغنس والقديسة كاترين حين تحدثهما عن العرس العرفاني.

وهذه المفاهيم، اخذت تتكامل فيما بعد، حتى ظهر اصطلاح «النكاح العرفاني» الذي أُريد به معنيان، الاول أعم، والثاني أخص:

١ ـ المعنى الاول، أي الأعم، ويلاحظ في حياة الكثيرين من القديسين. ويشمل النكاح العرفاني بهذا المعنى الكشف والشهود الذي يُخاطب فيه المسيح النفس قائلاً: «أنا اعلم انكِ عروسي»، فيهدي اليها خاتم الزواج، ويصاحب الكشف والشهود مراسم الاحتفال التي تحضرها مريم والقديسون والملائكة.

وهذا الاحتفال هو بمثابة رمزٍ لفيض ولطف معنويين. غير ان الكتّاب الذين كتبوا عن حياة القديسين لم يوضحوا ما هو هذا الفيض واللطف. ولكن بالامكان القول على الأقل ان النفس تجد غزارة فجائية من الحب لله والأُنس به، بحيث يستقطب هذا الحب عناية الله الخاصة.

والحقيقة هي ان كل ذلك كامن في مفهوم النكاح. فمثلما يجب على المرأة ان تساهم في حياة زوجها، ومثلما عانى المسيح من أجل خلاص البشرية، لابد ان يكون للزوجة العرفانية مساهمة أشد في معاناة المسيح.

ولذلك يؤدي النكاح العرفاني في ثلاثة موارد من بين كل أربعة، الى ظهور آثار جراح مصائب المسيح على الجسم[١]. وخمّن الدكتور ايمبرت[٢] حدوث ٧٧

---

(١) Stigmatics.

(٢) Dr. Imbert.

حالة نكاح عرفاني منذ أبعد الأزمنة والى اليوم، وأشار الى اسماء القديسات المتزوجات عرفانياً مثل انجيلا المقدسة من فوليغنو[١]، والقديسة كاترين السيناوية، والقديسة كوليت[٢]، والقديسة تيريزا، والقديسة كاترين من ريسي[٣]. وبذلك يكون الفن الديني قد أعمل قابليته في النكاح العرفاني، وصوّره على شكل حفل بهيج سار.

٢ ـ المعنى الثاني، أي الأخص، وقد استخدمته القديسة تيريزا والقديس يوحنا الصليبي، ويدل على الاتحاد العرفاني بالله، وهو الوضع الأسمى الذي بمقدور النفس ان تبلغه في حياتها في هذا العالم. ويطلق على هذا النوع من الاتحاد اسم الاتحاد المبدّل، أو الاتحاد الكامل، والتشبّه بالله. وتُطلق عليه القديسة تيريزا اسم «موضع الاستراحة السابقة في الباطن». وقد تحدثت عن هذا المقام في آخر رسالة لها، والتي كتبتها قبل وفاتها بخمسة أعوام، حينما بلغت هذا المقام للتو.

وهذا المقام ذو ثلاث مراحل، كالتالي:

١ ـ فيها يُشعر بحضور الله الدائمي تقريباً، حتى في بحبوحة الاشتغالات الظاهرية. وهذا الحضور لا يؤدي بذاته الى غياب الحواس. والجذبات فيها نادرة ايضاً. كما لا يكفي الشعور بحضور الله المستمر لحدوث النكاح العرفاني، وانما يؤدي الى حالة قريبة من ذلك.

٢ ـ فيها تتبدل القوى العليا من حيث طبيعة علمها. ولذلك تُسمى هذه المرحلة باسم الاتحاد المبدِّل، وهي بمثابة المرحلة الاساسية لهذا المقام. فالنفس تدرك أنها شريكة في الأعمال فوق الطبيعية للعقل والارادة، في الحياة الالهية وفي الاعمال الالهية. ولأجل فهم المراد من هذا الأمر، لابد من التذكر بأننا في الملكوت أو الجنة لا نتلذذ برؤية الله فقط، بل نشعر أيضاً بمساهمتنا في ذاته.

---

(١) Blessed Angela of Foligno.

(٢) St. Colette.

(٣) St. Catherine of Ricci.

وبالغ بعض الكتّاب العرفانيين في وصف هذا الفيض واللطف، بحيث خلطوا بين الذات الالهية والذات الانسانية. فهم يصفون ما يعتقدون انهم يشعرون به، ويتحدثون كعلماء الفلك بلغة الظواهر التي يسهل فهمها. وهنا أيضاً امتزاج بين حياتين، كالنكاح الذين يتم بين الرجل والمرأة.

٣ ـ فيها تظهر حالة الكشف وشهود التثليث المقدس أو احدى الصفات الالهية. وقد يُعطى هذا اللطف والفيض الالهي قبل الاتحاد المبدِّل في بعض الاحيان.

ويبدو أن بعض الكتّاب يرى ان في هذا اللون من الاتحاد، يظهر اتحاد بالكلمة الالهية، والذي هو أخص من الاتحاد بين شخصين الهيين. ولكن لا يوجد ما يدل على ان هذا الأمر هو هكذا في جميع الموارد.

وتطلق القديسة تبريزا اسم «الخطوبة المعنوية» على المقدمة التي تسبق الاتحاد المبدِّل، كالذي يحدث في حالة الخلسة والوجد(١).

الزهد والحياة الرهبانية عند المرأة المسيحية

استقطب الزهد والحياة الرهبانية اهتمام النساء في صدر المسيحية بنفس الحجم الذي استقطب اهتمام الرجال.

والحقيقة هي ان اقبال النساء على الاعتزال والانزواء أمر معروف حتى ما قبل المسيحية. فالنساء الروميات العازفات عن الدنيا، من النماذج الاولى للنساء اللاتي كنّ يعشن بمعزل عن الناس وفي منتهى العفة والشرف.

وكانت بين الفيثاغوريين نسوة عذراوات بلغن مقاماً رفيعاً في سلسلة المقامات الفيثاغورية.

والحياة العذراوية في الكنيسة المسيحية تحولت الى هدف وشعار لدى النساء

---

(١) Aug. Pulain - The Catholic Encyclopedia, Vol. Ix, on Line Edition Copyright, 1999 by Kevin Knight.

أسرع مما كان عليه الأمر لدى الرجال. وحظيت المرأة في كنيسة صدر المسيحية بمكانة عليا، وهذا ما يمكن ان نستشفه من التحايا التي بعثها القديس بولس الى خمس عشرة امرأة الى جانب سبعة عشر رجلاً[١].

وكانت النسوة يمارس أعمال التنبؤ[٢] ايضاً. وورد اسم «برسقة»[٣] مرتين قبل اسم زوجها على لسان القديس بولس، مما يكشف عن انها كان لديها وضع افضل من غيرها في الكنسية، ويبدو انها كانت مبلغة ومعلمة بارزة. كما قيل أيضاً بأنها هي التي كتبت الرسالة الى العبرانيين الواردة في العهد الجديد[٤].

وتحدث بليني[٥] عن المرأة الشماسة (Ministra)، وهي سلسلة من النساء الزاهدات الثابتات الدائمات، واللاتي كنّ يؤلفن جزءاً مهماً من تنظيم الكنيسة في القرون الثلاثة الاولى، وسُجِّلت أسماؤهن في قائمة أفراد الكنيسة الرسميين.

هؤلاء الآنسات لم يعشن في أوساط الناس، ولم يكن في ذمتهن عهد أو عقد لأحد، وانما كنّ يعشن حياة العزلة في بيوتهن. فكتاب «أعمال بولس وثيكلا»[٦] الذي كُتب في حوالي عام ١٧٠ م ويضم معلومات أساسية حول القديس بولس، يتحدث عن الدور البارز للنساء كنبيّات، لاسيما ثيكلا الحوارية من أهل ايكونيوم[٧] التي قيل انها كانت تقوم بغسل التعميد وأضاءت الكثيرين بكلمة الله.

وقال كليمنتوس الاسكندري ان فضيلة المرأة والرجل واحدة لأن رب الاثنين واحد، ومعلمهما واحد، وهما عضوان في كنيسة واحدة، وطُلب من الاثنين رباطة

---

(١) الرسالة الى اهل رومة، ١٦ / ١ ـ ١٥؛ الرسالة الى اهل فيلبي، ٤ / ٢ و٣؛ الرسالة الثانية الى اهل طيموتاوس، ٤ / ١٩؛ الرسالة الى فيلمون، ١ / ٢.

(٢) اعمال الرسل، ٢١ / ٩.

(٣) الرسالة الى اهل رومة، ١٦ / ٣؛ الرسالة الثانية الى اهل طيموتاوس، ٤ / ١٩؛ ١٨ / ٢٦.

(٤) CF. A. Hamack, Mission and Expansion of Christianity, II, 66.

(٥) Pliny.

(٦) Acts of Paul and Thekla.

(٧) Thekla of Iconium.

جأش واحدة وتواضع واحد، انهما يتناولان غذاءً واحداً، والزواج نَيِّرٌ بكـليهما. ويتساوى عندهما التنفس، والسماع، والعلم، والأمل، والطاعة والحب.

ويستنتج كليمنتوس من ذلك ان اولئك النسوة اللاتي لديهن حياة مشـتركة، يتمتعن باللطف والخلاص ايضاً، ولديهن فضيلة وتربية بمستوى واحد[١].

في عصره، كانت النسوة يتعلمن النصوص المقدسة ويحضرن حـلقات درس كبار المعلمين والمبشرين النصارى. فكان لدى اوريجانس عدد من التلميذات.

وعليه كانت النسوة يمارسن في الكنيسة حتى نهاية القرن الثاني أو حتى الى ما بعده، دور الشماس، والنبي، والمـعلم، والمـبلغ. ولم يكـن الأذى الذي تـعرض له المسيحيون آنذاك يقتصر على الرجال فقط، بل كان يشمل حتى النساء أيضاً.

ويبدو ان النسـاء كنّ الأغلبية في كنيسة صدر المسيحية، بين الطبقات العـليا على أقل تقدير. والمـنع الذي طال النساء بشكل خاص خلال الفـترة المـعروفة بمحنة ليكينوس[٢] في حوالي عام ٣٢٢ م، انما كان بسـبب وقوف الامبراطور على ان القوة المسيحية كانت كامنة في النساء المسيحيات.

اذن ليس من المستغرب ان يلجأ في تلك الفترة عدد كـبير مـن النسـاء الى صرف النظر عن كل شيء والإعراض عن القيود الأسرية والجاذبيات الدنيوية، مع وجود شعور بأن الزهد والتخلي عن الدنيا هو الطريق الوحيد لبلوغ أسمـى انواع الحياة المسيحية، وتحقيق الاتحاد مع الله من خلال الحياة المصحوبة بالتأمل.

النساء أدين ادوارهن في جميع مراحل الحركة الرهـبانية في مـصر، واخـتار بعضهن حياة الاعتزال في البراري، رغم ان الاجتماعات النسوية قد ظهرت أسرع من الاجتماعات الرجالية، وقد لوحظت هذه الاجتماعات في مصر مـنذ مـنتصف القرن الثالث الميلادي.

ومثل هذا الأمر، كان احتمال وقوعه في مصر اكبر من أي مكان آخر لأن مصر

---

(١) Padag, I, 4.

(٢) Lincinius.

هو البلد الذي كانت تتساوى فيه حقوق النساء مع حقوق الرجال. وكانت الزوجات تتمتع بنفس المزايا التي كان يتمتع بها ازواجهن. وعليه كانت النساء أكثر حرية في نذر أنفسهن للحياة الدينية.

وفي ايام آثانازيوس[١]، الذي كان اسقفاً للاسكندرية في عام ٣٢٧ م، كان للآنسات بيوت خاصة بهن. ويقول القديس آمبروس[٢] (ولد قبل ٣٤٠ م) ان الكثير من هذه البيوت كانت موجودة في عصره في الاسكندرية وأماكن اخرى في الشرق. وأكد القديس يوحنا فم الذهب[٣] (ولد ٣٤٤ م) على وجود هذه المؤسسات الخاصة بالآنسات في مصر.

وورد ان القديس انطونيوس حينما اعتزل الدنيا اسكن اخته التي كان يتولى امرها، في صومعة للنساء في أحد بيوت الآنسات، في وقت لم تؤسس فيه للرجال اية مؤسسة من هذا النوع.

وشيّد «باخوميوس»[٤] ديراً لأخته مريم على ضفاف نهر النيل، في مقابل صومعته. وأسست مريم هناك صومعة للنساء اخذت تديرها بنفسها.

وطبقاً للقاعدة التي وضعها باخوميوس، ظهرت فيما بعد جمعيتان دينيتان خيريتان للنساء تضم الاولى نحو ٤٠٠ امرأة بالقرب من بانوبليس[٥]، والاخرى في تسمين[٦]. ثم تأسست بعد ذلك اثنتا عشرة جمعية اخرى.

وشيّد الراهب القبطي الكبير «شنودي»[٧] ديراً كبيراً في آتريب[٨] للنساء، كان يستوعب الفاً وثمانمائة امرأة.

---

(١) Athanasius.

(٢) St. Ambrose.

(٣) St. John Chrysostom

(٤) Pachomius.

(٥) Panoplis.

(٦) Tesmine.

(٧) Shenoudi.

(٨) Atrip.

ويبدو ان نظام الصوامع المختلطة كان سائداً في مصر. وكـان الرجـال الذيـن يشتغلون بالزراعة وسائر الأعمال اليدوية، يحـملون الفـائض مـن انـتاجهم الى النساء المعتزلات في الأديرة، في حين كانت النساء تهيئ المـلابس للرجال. والى جانب الراهب المسؤول عن ادارة الرجال، كانت هناك راهبة مسؤولة عن ادارة النساء. كما كان هناك راهب يقوم بمهمة تعليم التعاليم المعنوية ومواضيع الكتاب المقدس للنساء. كما كان هناك قس وشماس يتوليان مهمة اقامة مـراسم العشـاء الرباني للنساء.

وكان صومعة النساء منفصلة عن صومعة الرجال. وكان عادة ما يفصلهما نهر النيل، فكانت حينما تموت احدى الراهبات، تقوم زميلاتها باعدادهـا للـدفن، ثم يضعنها على ضفاف نهر النيل، فكان يأتي الرهبان فيحملون الجسد لدفنه. وكان عدد هذه النساء الزاهدات كبيراً الى حد ما في تلك الفـترة. فكـان في اوكـسي رينكوس[١] وهي مدينة في طيبة[٢] وتقع على بعد ١٢ ميلاً جنوبي القاهرة ـ ما يربو على عشرين ألف راهبة.

وحينما زار بالاديوس[٣] مصر رأى فيها الكثير من الأديرة والنساء المقدسات. وقد قال: من الضروري التحدث عن النساء ذوات الصفة الرجالية، اذ ان الله قد وضع عليهن نفس «الجهاد مع النفس» الذي وضعه على الرجال، كي لا يـدّعي أحد ان النساء غير قادرات على بلوغ كمال الفضيلة.

كثير من النساء اللاتي يشير اليهن، أمضين حياة حافلة بالحماس مثل حـياة آباء الكنيسة. وكان رهبان صدر المسـيحية قـد ابـدوا ازاء الراهـبات والنسـاء المقدسات ـ متزوجات وآنسات ـ نوعاً من التسامح الذي قلّ الاحساس به فيما بعد.

---

(١) Oxyrhyncus.

(٢) Thebald.

(٣) Palladius.

ولربما يعود هذا التسامح الى هذه الحقيقة وهي انّ النسوة اللاتي شيدن أقدم الصوامع النسوية، كنّ على علاقة وثيقة بمؤسسي الصوامع الرجالية.

وهناك تقارير عديدة عن نساء كنّ يرتدين الزي الرجالي ويعشن في الصوامع ويشاركن في الزهد والرهبانية.

ورد أحد الرجال الذين ترهبنوا كانت لديه ابنة صغيرة وكان يصر على ان لا تنفصل عنه، ولذلك ألبسها زيّاً رجالياً وأطلق عليها اسم «ماريانا» بدلاً من «ماريا». وبقيت هذه الفتاة في الصومعة بعد وفاة ابيها دون ان يعرف أحدٌ انها انثى. وقد طُرِدت من الصومعة فيما بعد بتهمة خديعتها لاحدى البنات. لكنها ظلت تجلس الى جدار الصومعة على مدى اربع سنوات حتى أُعيدت ثانية اليها.

وعاشت ماريا لسنوات طويلة بعد ذلك مشاركة نشطة وفعالة في جميع الأعمال المعنوية الكبرى. ولم يعلم أحد بحقيقتها الى ان توفيت.

وقيل بشأن «اوفروسين»[١] انها تركت أباها وزوجها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وتلبّست بلباس الرجال وانزوت في صومعة الرجال، وأمضت فيها نحو ٣٨ عاماً دون ان تترك حجرتها. زار أبوها تلك الصومعة في يوم ما إلّا انه لم يعرفها. وحينما اقترب أجلها بعثت خلف ابيها وأنبأته بسرها.

ويقول بالاديوس انه وجد في مدينة آنتينو[٢] اثنتي عشرة صومعة نسوية، من بينها صومعة تُدار من قبل امرأة مسنّة تُدعى آما تاليس[٣]، أمضت ثمانين عاماً من عمرها في الزهد وكان الى جانبها نحو ستين امرأة شابة كنّ يحببنها الى درجة لم تكن هناك ضرورة لاقفال باب الصومعة، لأن حبهن لها قد أبقاهن داخل الصومعة.

ويقول بالاديوس انّ تلك المرأة العجور قد بلغت مقاماً من اللامبالاة بحيث

---

(١) Euphrosyne.

(٢) Antinoe.

(٣) Amma Talis.

انها حينما دخل أقبلت وجلست الى جانبه ووضعت يديهـا على كتفيه بدون أي تردد.

ويقول أيضاً انه كانت بين الراهبات راهبة مرّ على اقامتها في الصومعة ثلاثون عاماً دون ان تقبل أي ثوب جديد ما لم تضطر للخروج الى الكنيسة. ووصـفها بأنها كانت جميلة جداً إلّا أنّ عفّتها كانت تصونها وتحفظها.

والزاهدة المسنة الاخرى هي ام سارا التي كانت تقول لاخوتها في الدين: «انا الرجل وانتم المرأة». أمضت ستين عاماً من عمرها عائشة في غرفة بالطابق الثاني المشرف على النهر، دون ان تتفرج يوماً مـن غـرفتها عـلى النهـر الذي يجـري بمحاذاتها.

كانت تقول: «لو سألت الله ان تكون لديّ القوة لأنّ اثني على جميع الناس، فلا محالة اني سأعجز عن ذلك ولشعرت بالخجل امام كل واحد منهم. غير انني اسأل الله ان يكون قلبي خالصاً له ولكل انسان».

وأُشير أيضاً الى آنسة شابة تدعى «الكساندرا»، تركت دارها بالاسكندرية، وأقامت في أحد القبور، فكانت تأخذ ما تحتاج اليه من نافذة في ذلك القبر. وبقيت على هذه الحالة مدة عشرة أعوام دون ان تشاهد احداً. وتزيّنت للموت في العام الذي ماتت فيه.

وكانت هناك آنسة اخرى عاشت حياتها زاهدة في قريتها على مدى ثلاثين عاماً، ولم تكن تتناول الطعام إلّا في يومي السبت والأحد، وكـانت تـقضي كـل أوقاتها في العبادة.

وورد أيضاً انه حينما كان يسير بعض آباء «سكيت»[١] في الصحراء، عـثروا على امرأة مقدسة تعيش في غار على مدى ثمان وثلاثين سنة، ولم تكـن تأكـل سوى الأعشاب، ولم تشاهد رجلاً قط. وقد ماتت بمجرد رؤيتهم لها فدفنوها.

وتحدث أحد الآباء المقدسين عن أرملة مباركة عاشت حياتها عفيفة سـواء

---

(١) Scete.

قبل وفاة زوجها أو من بعده، وكان لديها جهاد ناجح مع الشيطان. وأضاف: لو وُجدت مثل هذه الامور لدى حواء، فكم يجب ان يكون أكثر منها لدى آدم، كي تُشترىٰ من قبل آدم الثاني، أي السيد المسيح؟

وكانت بين النساء اللاتي أقبلن على حياة الزهد، طبقة من النساء، كان قلما يُنتظَر منهن ان تكون لديهن مثل هذه الحياة.

وقيل انه كانت بين النسوة اللاتي كن يأتين الى الصوامع، أي اماكن اقامة الراهبات العذارى، بعض الزانيات والراقصات. فكن يلاحقن الرهبان في البراري ويزين لهم البغاء إلّا انهن كنّ يُقهرن في نهاية المطاف من قبل قوة التقدس، فينعزلن في الصوامع أو يخترن العيش لوحدهن، معلنات من توبتهن ومقبلات على الله طالبات العفو منه.

كانت مريم المصرية، و بيلاجيا[1]، من هذا النمط من النساء. فقد التقت بيلاجيا بالرهبان في البر وكشفت لهم عن كل ما لديها من جمال وحلي فأعرضوا عنها. وبعد أن تركتهم قال اسقفهم لهم انه قد التذ بجمالها كثيراً، لأن الله قدّرها لاختبارهم. وقال ايضاً:

«رأيتها مثل حمامة سوداء وملوثة، غير أنّ هذه الحمامة ستُغسل بماء التعميد، وستُحلّق بيضاء كالثلج نحو الملكوت».

وأقبلت بيلاجيا بعد قليل طالبةً التعميد، واهبةً ثروتها للفقراء، وقد ارتدت ثوباً من الصوف. ثم انطلقت بعد ذلك للعيش في حجرة في اعلى جبل الزيتون.

وكانت هناك فاجرة اخرى تدعى ثايس[2] استطاعت أن تُضل الكثيرين بجمالها الخارق لأنها «تلتهب كشعلة من النار في قلب من كان يراها». غير ان الأب «بساريون»[3] استطاع ان يؤثر عليها فغير اسلوبها ومرامها، فأحرق كل ما

---

(١) Pelagia.

(٢) Thais.

(٣) Abba Bessarion.

كانت قد حصلت عليه من خلال اسلوب حياتها السابق.

دخلت تايس الى احدى الصوامع وحبست نفسها في احدى حجرها لمدة ثلاث سنوات لم تأكل خلالها سوى الخبز الجاف والماء. وبعد ذلك حدث لبولس ـ تلميذ انطونيوس ـ كشف وشهود، فشاهد سريراً في السماء تحفّ به الملائكة وعليه تاج عظيم. فتصور أنّ ذلك السرير لقديس ذي مقام رفيع. غير انه سمع هاتفاً يهتف بأنّه لثايس التي غفر الله ذنوبها جميعاً. وبعد اسبوعين من ذلك الكشف، توفيت ثايس.

وفي شمال افريقيا نجد صوامع نسائية في القرون المسيحية الاولى. ففي عهد ترتوليان[١] و سيبرين[٢] كانت هناك آنسات يعشن ماوراء الحجب. وفي عهد القديس اوغوسطينوس كانت هناك راهبات كثيرات يعشن في الأديرة التي كان أحدها يدار من قبل شقيقة اوغوسطينوس.

ولاوغوسطينوس رسالة كتبها الى احدى صوامع النساء. ويبدو انّ المرأة كان لها دور كبير في ازدهار الرهبانية ونموها في افريقيا خلال القرنين الرابع والخامس.

ونجد في سوريا وآسيا الصغرى نساء زاهدات في تلك الفترة ايضاً. ويتحدث اوسبيوس[٣] عن امرأة تدعى اناتيس[٤] كانت متوجة بتاج البتولة وتعيش في سوريا خلال القرن الثالث. ويتحدث ثيودوريت[٥] عن شماسة تدعى بيوبليا[٦] كانت تعيش في انطاكيا خلال القرن الرابع، وكان يسكن معها في بيتها مجموعة من الشابات اللاتي عقدن عقد العفاف الأبدي.

ويتحدث بالاديوس عن لقائه باحدى الآنسات خلال احدى رحلاته،

---

(١) Tertullian.

(٢) Cyprian.

(٣) Eusebius.

(٤) Ennathis.

(٥) Theodoret.

(٦) Publia.

وتدعى «فوتينا»[١]، وقال بأنها كانت تحظى باحترام كبير. كما قال بأنه قد التقى في انطاكيا بشماسة تُدعى سابينيانا[٢] ووصفها بأنها كانت امرأة محبوبة ومحترمة جداً، وكانت لديها مناجاة حميمة مع الله.

وكان يوجد عدد من كبار النساء الاوربيات المستقطبات من قبل حياة الزهد، في بيت المقدس خلال تلك الفترة، حيث قررن ان يعشن في هذه المدينة حياة العزلة والنسك. وكانت بين صفوفهن امرأة أسبانية تُدعى ميلانيا[٣]. وقد توفي زوجها ولها من العمر اثنان وعشرون عاماً، وقد شعرت انّ لديها حباً الهياً، لذلك انطلقت نحو الاسكندرية مع عدد من النساء المعروفات وبعض الأطفال.

ذهبت من هناك الى نيتريا[٤] فالتقت ببعض الآباء المصريين، ثم انطلقت من هناك الى فلسطين فأنفقت ما لديها من مال في خدمة القديسين. وشيّدت صومعة في بيت المقدس عاشت فيها نحو ٢٧ عاماً، وأخذت تدير حوالي ٥٠ آنسة.

وكانت تعيش هناك امرأه تدعى روفينوس الاكويلية[٥] فكانت هاتان الامرأتان ـ اي ميلانيا وروفينوس ـ تستقبلان الكثير من زوار بيت المقدس وتبادران الى حل النزاعات، وتكافحان البدعة.

وقيل أنّ حبّ «روفينوس» قد امتد الى ايران أيضاً وقد دعت حفيدتها ميلانيا وزوجة ابنها التي تدعى البينا[٦]، الى حياة الزهد، وسافرت الى روما لهذا الغرض، ثم عادت الى القدس، حيث توفيت فيها بعد أن طعنت في السن.

الآنسة سيلفانيا[٧] ـ وهي شقيقة زوج روفينوس ـ لم تغتسل في يوم ما ولم

---

(١) Photina of Laodicea.

(٢) Sabiniana.

(٣) Melania.

(٤) Niteria.

(٥) Rufinus of Aquileia.

(٦) Albina.

(٧) Silvania.

تضطجع على سرير ولم تنم في فراش. ويبدو انهـا كـانت تـتجول في فـلسطين وأطرافها على مدى ثلاث سنوات. زارت جبل سيناء والتقت برهبانه. كما ذهبت الى مابين النهرين وأُدسا. وقرأت هناك كتاب «اعمال توماس»[١] الذي يقرّ الزهد، ثم سافرت الى حران فأنطاكيا، ومنها الى آسيا الصغرى. ويبدو انها كانت ذات مقام في الصومعة، اذ لديها رسائل لساكناتها. وكان لديها علم بـالآثار الديـنية، وقرأت شطراً كبيراً من آثار اوريجانس، وغريغوريوس، وبازيل. ويبدو انها قد ذهبت أبعد من العلم الدنيوي الصرف، واستطاعت ان تصنع من نـفسها طـيراً معنوياً يحلّق في فضاء الأمل من أجل الالتحاق بالمسيح.

وتُعدّ اولمبياس[٢] احدى هذه القديسات أيضاً، انها كانت قد تزوجت لكنها بقيت عذراء، فعاشت مع كلام الحق. وهبت ثروتها، وعلمت الكثير من النساء، وتُعدّ من المعترفات.

كما تعد كانديدا[٣] امرأة بارزة ومعروفة من حيث القدسية والزهد، وكـانت زوجة لجنرال رومي. حثت ابنتها على حياة العفة. وكان من عادتها ان تعمل ليلاً في الطحن من اجـل ان تجـعل جسـمها تحت سـيطرتها. وكـانت تـرى ان مـن الضروري احياء الليل فضلاً عن الصيام.

ومن بين النسوة اللاتي التقى بهن بالاديوس، هي باولا[٤]، تـلميذة القـديس جيروم وملازمته. ويرى بالاديوس انها كان لديها استعداد معنوي عظيم. وقـد شيدت ثلاث صوامع للنساء في بـيت لحـم وأعـدت المـنازل والغـرف لاقـامة الزائرين.

ويعتقد القديس جيروم انّ المرأة المسيحية التي لديها حياة كاملة، يـتحتم ان

(١) Acts of Thomas.

(٢) Olympias.

(٣) Candida.

(٤) Paula.

تكون عذراء معتزلة عن الدنيا، ولا تعرفها سوى صومعتها وكنيستها. ودفع جيروم الكثير من النساء للحياة بزهد وتنسك في فلسطين.

وبين الزاهدات السوريات، نساء أفرطن كثيراً في الارتياض، مثلما كان بين الرجال أيضاً نماذج مفرطة ايضاً. وتحدث ثيودوريت في كتاب «فيلوثيوس»[١] (= حب الله) عن نماذج من النسوة اللاتي اعتزلن الدنيا، وكنّ يعشن في حالة دائمة من «كفّ النفس».

وذكر ثيودرويت انه التقى باثنتين من هؤلاء النسوة المعتزلات، فقال بأنهما كانتا تعيشان في داخل غرفة ضيقة وفي أقسى انواع الاختلاء. وانه رآهما وقد شدّتا الى جسميهما سلاسل ثقيلة لا تسمح لهما بالحركة، فكانتا تمضيان الأيام على تلك الحالة من التطرف في الزهد.

الزاهدات السوريات كن يقضين معظم عمرهن في الأديرة ويقسمن اوقاتهن بين أعمال الخير والعبادة والتأمل. فكن في داخل الكنيسة المسيحية بمثابة عامل مشجع على الحركة والنشاط المعنوي.

ان اتساع المونتانية في آسيا الصغرى خلال القرن الثاني، قد منح المرأة موقعاً بارزاً. وقد ادعت امرأتان هما بريسيلا وماكسيميلا ـ الى جانب مونتانيوس ـ التنبؤ، مؤسسين بذلك فرقة جديدة هي «المونتانية».

في الكنيسة المونتانية، كان للمرأة مقام كبير، بل أصبح بإمكانها ان تتولى مناصب رسمية فيها من قبيل «الاسقف» و«القس»، وتقيم مراسم العشاء الرباني.

والشرط الاول الذي كان يجب توفره في من يقوم بهذه الخدمات، ان تكون لديه قوة معنوية لا تنحصر في جنس دون آخر .

وانتهج المونتانيون طريق الزهد المفرط، واعتبروا الزواج المجدد أمراً غير قانوني. وكانوا يصومون في منتهى القسوة على انفسهم. وأصبح الكثيرون

---

(١) Philotheus.

مونتانيين في فريجيا[١]. وقد مهدت التعاليم المونتانية الطريق للأخذ بحياة الزهد، ومن ثم بالرهبانية، في الأوساط النسوية بآسيا الصغرى.

وكانت هناك أيضاً راهبات تحت اشراف النظام الباسيلي. فكان لأم القديس باسيل[٢]، وأمليا[٣]، واختها ماكرينا[٤]، حياة زاهدة في آنسي[٥] مع أسرهن. ويمكن ان تُعدّ ماكرينا، المؤسسة لحياة الرهبنة لبنات جلدتها. وحينما أصبح أخوها اسقفاً افتتح العديد من الأديرة للراهبات. وأوجد نظاماً من الصوامع المزودجة على غرار النماذج التي اسسها باخومبوس في مصر.

وكان الرؤساء الرجال والنساء لتلك الصوامع على علاقة قريبة، وتُنفَّذ رئاسة الرئيس الرجل على النساء عن طريق رئيسة الصومعة.

وفضلاً عن الراهبات، كانت هناك نساء أيضاً نذرن أنفسهن للحياة الدينية وكان يطلق عليهن اسم: (Canonesses). فهؤلاء النسوة كن اعضاء في المجموعة النسوية التي نذرت انفسها للقيام بأعمال الخير مثل اجراء مراسم الدفن والاعمال الدينية المماثلة.

هؤلاء النسوة لم يكنّ مقيدات بعهد أو قسم، ولا مجبرات على العيش في دير دائمي، وانما كنّ يعشن في بيوتهن بمعزل عن الرجال.

هناك رسالة للقديس باسيل كتبها الى الكاهنة تيودورا[٦] في عام ٣٧٤ م ذكّرها ان تكون ذات حياء في اللباس، وتتحفظ حين الاجتماع بالرجال، وتعتدل في الطعام، وتستعد للعيش في حدود الضروريات، وتتسم بالتواضع وضبط النفس، وتلتزم بالدعاء، والحب، والسخاء، والندم، والايمان الصادق.

---

(١) Phrygia.

(٢) St. Basil.

(٣) Emmelia.

(٤) Macrina.

(٥) Annesi.

(٦) Theodora.

وللقديس باسيل رسالة اخرى الى النساء المنخرطات في سلك القساوسية، معنونة الى بنات الكونت تيرينتبوس[١]. وباسيل الذي كان مديناً لنساء اسرته، كان يجد من المحتم عليه ان يثابر من أجل احياء المعنويات وتجديد الحياة المعنوية في آسيا الصغرى وأن يجعل للنساء دوراً بارزاً ضمن هذا الاطار.

ومنع اوستاثيوس[٢] الزواج، وكان صديقاً للقديس باسيل في يوم ما، وشجع الجنسين على حياة العزوبة. ودعا الكثير من النسوة المتزوجات الى هجر أزواجهن والانخراط في الحياة الرهبانية. واستجابت بعض النساء لدعوته، فقصرن رؤوسهن وارتدين زيّ الرجل في محاولة للابتعاد عن جنسهن الانثوي. وقد مُنعت هذه الصورة من الزهد، من قبل مجمع غانغرا[٣] وذلك في عام ٣٤٠ م.

وكفّر هذا المجمع اولئك الذين منعوا الزواج كأمر لا ينسجم مع النجابة، كما منع الآنسات من اعتبار انفسهن أفضل من السيدات.

والحقيقة هي انّ هذه الادانة تبرهن على ان الاعتقاد السائد آنذاك هو انّ حياة العزوبة افضل انواع الحياة الدينية، وأنّ هذا النمط من الحياة كان يحظى بقبول قطاع واسع من النساء.

وعثر بالاديوس في مطلع القرن الخامس في مدينة آنكيرا[٤] بغلاطية[٥] على حوالي الفين من الآنسات اللاتي كن بارزات هناك لعفافهن وقابلياتهن. وكانت بينهن امرأة تدعى ماغنا[٦] التي كانت تحظى باحترام بالغ نظراً لما كانت تتمتع به من دين.

وقال بالاديوس انه كان في حيرة هل يدعوها أرملة ام آنسة لأنها كانت قد

---

(١) Count Terentius.

(٢) Eustathius.

(٣) Council of Gangra.

(٤) Ancyra.

(٥) Galatia.

(٦) Magna.

تزوجت لكنها بقيت عذراء، ثم نذرت نفسها بعد وفاة زوجها لخدمة الله بشكل كامل. ونظراً لايثارها فقد حظيت باحترام الجميع ومن بينهم اسقف الكنيسة. وكانت تعطف كثيراً على المرضى والفقراء والمسافرين. كما كانت تعمل بيديها، فيما تمضي الليل في الكنيسة متهجدة عابدة.

وفي الكنيسة السريانية كان هناك الكثير من النساء في الصف الأول. وكان بين الخواص من امتنع عن الزواج رجالاً ونساءً وتخلى عن امواله وممتلكاته.

وفي الكنيسة المسيحية، في القرن الثالث، كانت «فتيات أهل العهد»، الى جانب الفتيان. ففي كتاب «استشهاد شامونا وجوريا»[١] الذي ألّف في ٢٩٧ م، تقرير عن المحنة التي لحقت بالمسيحيين في عهد «ديوقلينيانوس»[٢]، حيث عاشت «فتيات أهل العهد» والراهبات في عزلة شديدة، ولحق بجميع النصارى اضطراب وحزن في منتهى الشدة.

وفي هذه الفترة بالذات كان في نصيبية[٣] دير تقيم فيه خمسون آنسة ومن بينهن واحدة تدعى فبرونيا[٤]. وكانت فبرونية قد اشتهرت بجمالها وزهدها وتعاليمها المعنوية، وقد استشهدت في نهاية المطاف.

وكتب آفراتيس[٥] رسالة الى فتيان وفتيات أهل العهد في الدير الذين كانوا يرعون فيه حرمة العزوبة. وكان يرى ان المرأة يجب ان تعيش مع المرأة، والرجل يجب ان يعيش مع الرجل. وكتب الى الآنسات اللاتي رفضن ان يكنّ زوجات لأحد، والى من كن يعشقن التقدس والعفاف: «انّ ثمرات شجرة الحياة الأبدية ستُقدّم كغذاء الى الآنسات وكل من يستجيب لارادة الله... ان اولئك اللاتي يحفظن التقدس في حريم الرب المتعالي، سيمن عليهم الابن الوحيد بكرامة عناق الأب،

---

(١) Martyrdom of Shamona and Guria.

(٢) Diocletion.

(٣) Nisibis.

(٤) Febronia.

(٥) Aphraates.

ـيع الآنسات اللاتي هن خطيبات المسيح، سيشعلن مشاعلهن ويـدخلن مـع
ـطيب السماوي (اي المسيح) الى حفل العرس... فزوجهن عـريس لا يـنفصل
ـن قط»[١].

ويخاطب أفراتيس فتيات أهل العهد: ايتها العذارى اللواتي جعلتن انـفسكن
ـيبات للمسيح، حينما يقول أحد فتيان اهل العهد الى احداكن: «اني سأسكن
ـكِ وانتِ ستقومين بخدمتي»، فقولي له: «سيغضب خطيبي عليّ ويبعث لي ورقة
ـلاق، ويطردني من بيته، أما وانتَ تريد ان تحظى باحترامي، واريد ان احظى
ـترامك، فاحذر ان يلحق بي وبك ضرر. لا تحتضن النار كي لا يحترق لباسك،
ـترم نفسك، وعليّ ان احترم نفسي»[٢].

ووضع رابولا[٣] لهؤلاء الفتيات قواعد شبيهة بالقواعد التي وُضعت للرجال.
ـن قواعده لو انّ رجلاً من غير علماء الدين تجرأ وتزوج بفتاة من أهل العهد،
ـبد من محاكمة تلك الفتاة وإرسالها الى الصوامع لتلقي العقوبة[٤].

ويبدو انه لم تظهر أديرة النساء الى الوجود في عـهد رابـولا اذ ورد انّ ديـر
ـيات اهل العهد» قد اسس في قرية «بث تهوناي»[٥] في زمان متأخر عن عهده.

وكانت الحيرة عند حدود الامبراطورية الفارسية، مركزاً من المراكز المسيحية،
ـها كانت واقعة تحت سيطرة الامبراطور الايراني غير المسيحي. وورد انّ الملك
ـذر قدّم بعض الراهبات المسيحيات قرباناً لإلٰهه العزى.

وهناك تقرير عن انسة راهبة في القـرن السـادس في بـلاد مـابين النهـرين.
ـدث الأب ماريأب[٦] انه وجد بين الجبال امرأة مـقدسة كـان لبـاسها مـن

(١) F. C. Burkitt, Early Eastern Christianity, p.138.

(٢) Ibid, p.139.

(٣) Rebbulia.

(٤) Ibid, pp. 146 - 147.

(٥) Beth Tehunai.

(٦) Mar-yahbh.

الحشائش الجافة، وطعامها من جذور النباتات وثمارها، ولديها ابنة.

وقال ماریاب بأن الأم قد ماتت فتركت تلك الفتاة التي كانت هي الاخرى امرأة الهية. وذكر بأنه قد التقى بهذه الفتاة مراراً ووصفها بأنها وان كانت في العالم إلّا انها لم تكن منه، مؤكداً على انه لم يرها يوماً وقد فتحت عينها لتنظر الى وجهه، لأنّ قلبها كان أسيراً عند الله[1].

وهكذا نلاحظ ان النساء كنّ في القرون المسيحية الاولى على استعداد ـ كالرجال ـ للإعراض عن العالم ومافيه من جاذبيات، واختيار الحياة الانعزالية المنزوية.

وكانت الحياة الدينية عند المرأة فخراً عظيماً، وكان ينظر الى هذا اللون من النساء كنساء قديسات، ولذلك كن يحظين بالاحترام والتقدير سواء كان ذلك في حياتهن أو بعد وفاتهن من خلال زيارة قبورهن وتقديم الاحترام لهن.

وتختلف الطائفة النسطورية عن باقي الطوائف المسيحية في انها كانت تعتبر ـ في القرن الخامس ـ العذراء المباركة ـ أي مريم ام المسيح ـ ذات مقام أسمى من جميع القديسين. بينما كانت باقي الطوائف والكنائس المسيحية تعتبرها ام الله وواسطة لا غير.

ويتمثل هدف النساء الزاهدات والراهبات أولاً وقبل أي شيء آخر في إضفاء القدسية على الحياة والذي يُستحصل الى حد ما عن طريق خدمة الناس، لأنّ الكثير من النساء المتدينات كن قد نذرن انفسهن لرعاية الفقراء والمرضى، غير ان معظم تلك القدسية تتحقق من خلال الدعاء والتركز، بحيث يصبح بمقدورهن في نهاية المطاف بلوغ الهدف الذي يسعى اليه العرفاء، كتلك المرأة المباركة التي لقيها ماریاب والتي كانت هائمة في حب الله ولقائه[2].

---

(١) Thomas of Marga, ii, pp. 73 - 75.

(٢) See: Smith, Margaret, Studies in Early Mysticism in The Near and Middle East, Philo Press, Amsterdam, 1973, Ch. iii ´ pp. 34 - 40.

الحركة البيجينية في العصر الوسيط

«في أوساطنا مجموعة من النساء لا نعرف ماذا نطلق عليهن ولا ندري هل هن راهبات أم نساء عاديات اذ لا هنّ عائشات في الدنيا ولا خارجها»[١]. تُعد بيجينات[٢] شمالي اوربا أول حركة نسوية في التاريخ المسيحي.

وهذه الطائفة من النساء وغير المرتبطات بالكنيسة، قد نذرن انفسهن للامور الدينية، غير انهن لم يقسمن قسماً دائمياً على البقاء في حالة البتولة والعفة، ولم يتبعن في ذلك أي قانون. كما كنّ يعشن من كد اليمين، ويتعاملن مع الدنيا، ويحتفظن بالعذراوية.

وتطورت هذه الحركة في اوربا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وكانت الكنيسة تعترف آنذاك بدورين مشروعين للمرأة فقط: راهبة معتكفة، وربة بيت.

الحركة البيجينية ونظراً لعنصر الحرية الذي تتمتع به، وفرت للمرأة استقلالاً اقتصادياً وخلاقية معنوية، وهو الموضوع الذي كان خاضعاً للنقاش بشكل واسع وغير عادي.

ورغم ان هذا الاسلوب من الحياة قد استقطب انظار كتّاب تاريخ المرأة، وجه البعض اهتمامهم نحو هذا الموضوع من زاوية الجنس. كما ان المفاهيم الانثوية

---

(١) هذا الكلام للقسيس: (Gilbert of Tournal).

(٢) Beguines، ولا يعرف مصدر اشتقاق هذه الكلمة. وهناك وجهات نظر عديدة على هذا الصعيد. فالبعض يرى انها مشتقة من Lambert Le Begue المدافع القديم عن هذه الحركة، غير ان هذا الرأي لا يصح تأريخياً. ويرى بعض العلماء الجدد انها مشتقة من كلمة (Beige) ـ لون الصوف الطبيعي ـ وهو لون لباس الكثير من النسوة. واكثر الآراء احتمالاً هو انها مأخوذة من (Albigensian) وهي صفة منسوبة الى (Albigenses)، وهي فرقة دينية ظهرت خلال القرون الوسطى في جنوبي فرنسا. وكانوا من اهل البدعة في الدين المسيحي، ولم يكونوا مسيحيين بالأساس.

See: New Catholic Encyclopedia, ed. S.V., 1989.

والمحدوديات التي كانت تتصورها تلك النسوة والقساوسة الذين كانوا على تماس معهن، لعبت دوراً اساسياً في ايجاد، ونشر، ومن ثم محدودية التحول الديني للحركة البيجينية.

فوقع هؤلاء النسوة بين دائرتي البيت والصومعة المقدستين، كان سبباً في نجاحهن وعاملاً في سقوطهن ايضاً. لأنهن قد استنبطن القوة والحرية من فضاء جنسيتهن المبهمة، غير ان الابهام الذي يلف مكانتهن كنساء في الكنيسة، كان مخلاً الى درجة بحيث لم يستطع الرجال الذين كانت بأيديهم المرجعية والولاية الفكرية، مداراتهن.

منشأ الحركة البيجينية

يمكن ملاحقة منشأ الحركة البيجينية في الحركتين الاصلاحيتين اللتين شهدهما العصر الوسيط: العرفان الصومعي، والحياة التبليغية أو التبشيرية.

العرفان الصومعي، كان مسلك أصحاب الزهد، والارتياض، والكشف، والنظر، فضلاً عن المثابرة والسعي للاتحاد مع الله. وكان أعظم حماته وداعميه القديس برنار[١] (١٠٩٠ ـ ١١٥٣ م).

شبّه برنار ـ في تقليد منه لسفر نشيد الأناشيد في العهد القديم ـ الارتباط بين الفرد والرب بالنكاح المعنوي بين العروس الانسانية (النفس) وبين العريس السماوي (المسيح). وقال بأن هذه الصور الخيالية المتصلة بالنكاح، تعظّم الأنس والمعرفة بين الفرد المؤمن والمسيح، وتبعث على فهم النفس الانسانية ككائن انثوي، وتوفّر أساساً لعارفات القرن الثالث عشر ومن بينهن البيجينات كي يبلورن بموجبه شكلاً متميزاً للمعنوية النسوية.

اما الحياة التبليغية والتبشيرية فقد ظهرت في أكثر انماطها تأثيراً على يد

---

(١) Bernard of Clairvoux.

القديس فرنسيس الأسيزي[١] في مطلع القرن الثالث عشر.

كان هناك عدد من الشخصيات غير الروحانية كالقديس فرنسيس الأسيزي، يؤيدون العودة الى أهداف المسيح وحوارييه، وتعهدوا باتخاذ نهج حياتي يتميز بالفقر المطلق، والبساطة، والالتزام الصادق بموعظة الانجيل.

لقد شقّ تأسيس سلسلتي الفرنسيسكان والدومينيكان في عام ١٢١٥ م، طريقاً جديداً وحيوياً نحو الكمال المعنوي، وقد استقطب هذا الطريق الكثيرين، واكتسب ـ لاسيما بين عموم سكان المدن ـ صبغة قانونية وشرعية.

هاتان الحركتان اللتان تمثلان الاصلاح الديني في القرون الوسطى، ادتا الى ظهور دائرة في الدين المسيحي كان لديها أعظم الغموض في الجنسية، ورد في العهد الجديد:

«فليس هناك يهودي ولا يوناني، وليس هناك عبد أو حر، وليس هناك ذكر وأُنثى، لأنكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع»[٢].

فمن وجهة نظرهما، بامكان القوة المعنوية ان تسكن في كل شخص له اتصال بالله، لأن الله غير منحاز لأحد. ففي عالم ماوراء الطبيعة، بامكان أي شخص ـ حتى المرأة ـ ان يتجاهل التركيبة الكنائسية الواقعة تحت سيطرة الرجال، مع البقاء في ذات الوقت ضمن اطار دائرة التعاليم الدينية الصحيحة، أي الأرثوذكسية.

طبقاً لتعاليم الكنيسة، الاتصال المباشر بالله يمكن ان يتحقق من خلال العبادة،

---

(١) القديس فرنسيس الأسيزي Francis of Assisis، ولد في أسيز بايطاليا (١١٨١ ـ ١٢٢٦ م)، وهو مؤسس رهبانية الفرنسيسكان. وكان ابن تاجر ثري. دخل السجن في عام ١٢٠٢ خلال حرب أهلية. ثم أُصيب بمرض عضال بعد خروجه من السجن، اقترن بأزمة نفسية وتغير باطني. ثم قرر بعد شفائه ان ينذر نفسه للعبادة وخدمة الفقراء. وكان يخدم المصابين بالجذام وأعاد تشييد كنيسة القديس داميانو (Damiano). وخلال رحلته الى روما في عام ١٢٠٩، نجح في الحصول على دعم البابا اينوقنتيوس الثالث للاسلوب الذي انتهجه في الفقر والخدمة. ان ايمانه البسيط وحبه المتحمس لله والانسان، وحبه للطبيعة وتواضعه العميق، أمر خلق له جماهيرية كبيرة. توفي عام ١٢٢٦ في مسقط رأسه.

(٢) الرسالة الى اهل غلاطية، ٣ / ٢٨.

والزهد، والمكاشفات، والعشاء الرباني، أو المراقبة العرفانية. ويجوز ان تتحقق النبوة، والتحذر من الشرور، والتكهن بالمستقبل، وتقديم المواعظ للقادة، لكل من يستقي الهاماته الأصيلة من الله.

من وجهة نظر نساء العصر الوسيط، وهن الممنوعات من التلبس بلباس القساوسة، ان هذه الحركات الاصلاحية بامكانها ان توسع معنوياتهن بحرية من خلال تأكيدها على التنبؤ، والتبليغ، وايجاد جو خال من التشدد في مضمار اللاهوت.

وكانت هناك حواجز تعترض تلك النافذة المطلة على الحرية، فالمؤمنات كان بامكانهن استلام الالهامات من الله، غير ان هذا الأمر محدود من حيث الظاهر ضمن اطار دائرتي البيت والصومعة. فكن يجدن انفسهن محدودات ضمن هاتين الدائرتين سواء بواسطة الرجل الذي هو اما الزوج أو القس، أو بواسطة قانون ديني، أو بكليهما.

المرأة كانت تجد نفسها مطوقة مع رسالتها الدينية فانها حتى لو كانت قد عقدت عهد العفّة، تبق كنيسة القرون الوسطى تنظر اليها كانسانة مستعدة للوسوسة الجنسية، بل وتبق تعتبرها كمصدر للوسوسة الجنسية دون الرجل.

مضافاً الى ذلك، تعتقد الكنيسة ان الضعف العقلي الذي عليه المرأة يضعها أكثر من الرجل في مهب الخدع الشيطانية ويخلق منها وسيلة للمكر والفتنة.

هذا الفهم للمرأة في القرون الوسطى، كان مؤثراً جداً في طبيعة نظرة الرجل الى المرأة، غير انه كان يحظى بأهمية قليلة لدى المرأة من حيث بلورة هويتها. فالمرأة التي تتميز بكونها داعية دينية قوية، كانت تفهم نفسها كمسيحية بالدرجة الاولى، وكأنثى بالدرجة الثانية. وهذا الفارق بين نظرة الرجل الى المرأة، ونظرة المرأة الى نفسها، كان عاملاً حاسماً ومهماً بالنسبة للحركة البيجينية.

ولم يكن الأمر عائداً للمرأة في اختيار الدائرة التي تقيم فيها، أي البيت أو الصومعة. فالمرأة الشابة التي لا تجد الزوج، كانت تُبعث الى الصومعة، والمرأة التي

تتزوج في سن مبكرة، لم يكن يُسمح لها بالتعهد بعهد العفة بدون رضى الزوج.

الحياة التي كانت تُنذَر لله، كانت تعني غالباً كف النفس عن الامور الجنسية. لذلك عادة ما كانت المرأة تتخذ قرارها بالالتحاق بالصومعة اما قبل سن الزواج أو بعد اجتياز سن الزواج، أو حينما تترمل، وحينذاك سيكون عهدها قطعياً غير رجعي.

فكان ترك الصومعة بمثابة ارتداد عن الدين. ولو قُدّر لامرأة ما ان تلتحق بالصومعة فانها غالباً ما تجد اوضاعها غير متلائمة مع ما تريد، لأن الاختلاط بين الراهبات اللاتي نذرن انفسهن عن صدق مع اولئك المجبرات على الرهبنة، يؤدي الى ظهور محيط غير متناسق، ومليء بالمشاحنات والابتذال.

كان الوعاظ العظماء وذوو الهيبة يخاطبون الناس العاديين، وأفلحوا في استقطاب عدد كبير من النساء. وظهرت هذه الحركة الاصلاحية الجديدة باوربا في اواخر القرون الوسطى، وساهم فيها عدد كبير من النساء اللاتي لم يجدن زوجاً مناسباً. غير ان تصور المرأة بدون مكان، أي بدون اسرة أو صومعة، كان امراً يبعث على القلق في تفكير القرون الوسطى، لاسيما الفرنسيسكان والدومينيكان، الذين وان كانوا يحبذون توسع تدين المرأة، إلّا انهم كانوا يفتقدون للاستعداد اللازم لادارة عدد كبير من النساء اللاتي كن يحبذن الاستمرار في اسلوب حياة القساوسة.

تهميش المرأة المتدينة

كانت الصومعة هي الحل المتداول لقضية المرأة في الحركات الجديدة. والحبس في الصومعة يمنع المرأة عن جزء كبير من الحياة التبليغية، أي التبشير بالمسيحية في العالم غير المسيحي. ورغم ان النبوة كانت جائزة للمرأة، غير ان الموعظة لم تكن جائزة لها، لأن الموعظة تقتضي الظهور بين الناس وفي الملأ العام، بينما يمكن القيام بالنبوة في الخلوات أو عن طريق المكاتبة.

من وجهة نظر الفرانسيسكان والدومينيكان، تُعتبر المرأة المتدينة غير المعتكفة وغير المتزوجة مثيرة للقلق حتى اذا كانت متقية. وقد ساهمت هاتان الحركتان في رواج فكرة ان المرأة أمر يتّسم بالخطورة ومنحرف ومفسِد بالفعل.

يقول القديس فرنسيس الاسيزي لزميلته القديسة «كلار»[١] التي اسكنها في صومعة خاصة: «كان المرض قبل هذا اليوم في أجسامنا وكان هناك أمل بالشفاء منه. غير انه نفذ هذا اليوم الى العظام وأصبح غير قابل للشفاء».

كان يُنظر الى النساء كأمر لا يطاق من الناحيتين المالية والمعنوية. لذلك كان مبلغو هاتين الفرقتين يتجنبون النساء، لأنهم كانوا يبتعدون عادة عما يمنعهم عن اداء مهمتهم الأساسية، أي الموعظة.

وعبّرت الطوائف الرهبانية عن استيائها من النساء أيضاً ووصفتهن بأنهن كائنات ذات أضرار على صفائهم الأخلاقي، ولذلك كانت تتحاشاهن ايضاً.

ماري اويغنيس[٢]

كانت دائرة نفوذ اسقفية ليج[٣]، تمتد الى هولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ، وهو المكان الذي ظهرت فيه الحركة البيجينية. وأول امرأة عُرفت كبيجين، هي ماري اويغنيس. وقد كتب حياتها حاميها الوفي القس الدومينيكاني جاك دي فيتري[٤] (١١٧٠ ـ ١٢٤٠).

---

(١) القديسة كلار (Clare) وُلدت في آسيز بايطاليا (١١٩٤ ـ ١٢٥٣)، ومؤسسة فرقة خاصة بالفقراء. وفي عام ١٢١٢ تأثرت بتعاليم فرنسيس الأسيزي فوهبت جميع ثروتها والتحقت به في بورتيونكيولا (Portiuncula). فأسكنها فرنسيس اولاً في صومعة بنيديكتية. ثم جعلها مشرفة على مجموعة من النساء اللاتي رغبن في الانضمام الى حلقته. اعتبرها البابا الكساندر الرابع قديسة وذلك في عام ١٢٥٥.

(٢) Mary Doignies.

(٣) Liege.

(٤) Jacques de Vitry.

والكتاب[١] الذي ألفه وان كان غير قابل للوثوق تأريخياً، إلّا انه يكشف عن تصورات ماري لنفسها كامرأة بيجينية، ورؤية جاك اليها كمعترف.

والأمر الذي أجاز لماري القيام بدور فاعل في الحياة التبليغية والتبشيرية، ناشئ ولا شك من الارتباط الشخصي بعالم المعنى. فماري التي عاصرت القديس فرنسيس، كانت نظيره الانثوي في الكثير من الجذبات.

لقد أشاحت عن ثروتها وتحملت الارتياض القاسي والزهد الذي لا يطاق، وأصبحت احدى اوائل النساء اللاتي استلمت الجراح المقدسة[٢] على غرار القديس فرنسيس.

وكانت ماري متزوجة قبل ذلك، إلّا انها اقنعت زوجها أن يعيش معها في منتهى العفة، واخذ الاثنان منذ ذلك الحين يعملان في مستشفى خاص بالمرضى المصابين بداء الجذام.

وحينما بلغت شهرة ماري بالتقوى والتدين مسامع جاك دي فيتري في جامعة باريس، كان لديها الكثير من الاتباع رجالاً ونساء. ووصفها جاك حينذاك بأنها كانت تقوم بأعمال عظيمة من الارتياض، وكانت تنطلق منها مواهب روحانية كالدموع، والمكاشفات، والجذبات.

والمفتاح الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في فهم ادراك ماري لهويتها الجنسية هو رغبتها في الأخذ بدور عام وفاعل ومعتبر.

ان ماري ومن خلال اقناع زوجها بالاقبال على الحياة الدينية وأداء مهمة كهنوتية في محيط عام، وقبول التلامذة من الجنسين، اثبتت ان التشبه بالمسيح اسلوب حياتي، فيه الجنس خنثى، أو مبهم على الأقل.

ويبدو انها وخلافاً لمعظم المصلحين الذكور، كانت غافلة عن الفهم الرجالي للمرأة، اي النظر اليها كموجود ضعيف وذي خطورة من الناحية الأخلاقية، أو

---

(١) Vita.

(٢) Stigmata.

انها ذهبت الى ابعد مما ذهبوا اليه. ولذلك لم تكن تخشى ان تعمل مستقلة عن قانون معين أو محيط رهباني.

آراء جاك دي فيتري

بما أن موقف جاك دي فيتري لعب دوراً كبيراً في نجاح الحركة البيجينية، ينبغي علينا ان نعرف كيف كان يعترف بالمرأة المتدينة غير المعتكفة.

قد يبدو من النظرة الاولى بأنه كان ذا رأي متطور ومتحرر ازاء المرأة، غير ان احدى مواعظه تشير الى عكس ذلك: «الرجل رئيس زوجته من اجل ان يتحكم فيها، وان يصلحها ويقف أمامها كي لا تسقط من غير حساب. لأن جنس المرأة جنس غير قابل للاعتماد، وضعيف، ولا ينبغي الاعتماد عليها بسهولة. فالمرأة الشهوانية كالحية ملساء ولا يمكن الوثوق بها، ومتحركة كالسمكة الثعبانية. وعليه فمن الصعب الحفاظ على المرأة او تحديدها. فبعض الأشياء من الضعف بحيث يستحيل الحفاظ عليها ... والمرأة هي هكذا: حائرة وشهوانية لأن الشيطان هو الذي يحركها»[١].

ويبدو ان هذا اللون من المناهضة للمرأة عند جاك ـ والذي يذكر بمحاربة آباء الكنيسة لها مثل جيروم ـ كان يحول دون أي دعم للحركة البيجينية غير المحدودة. غير انه كان مثل جيروم يمقت الجنس الانثوي عموماً في ذات الوقت الذي لديه فيه أصدقاء من هذا الجنس، كما كان يرى الغلبة التي لدى ماري على الشهوة الجسمية الطبيعية عن طريق العفة ورفض الامور الجسمانية، مفتاحاً لقابليتها.

ان كتاب جاك في حياة ماري، حينما يُقرأ أو يُفسَّر من خلال التركيز على هذه الفكرة، ندرك انه يعتبر ماريا تختلف اختلافاً كلياً عن سائر النساء. فماري من وجهة نظرة شخص يجب النظر اليه بتعجب واندهال، لأنها نجمة عرفانية كبرى

---

(١) Quoted in Alcuin Blamires, ed., Woman Defamed and Woman Defended: An Anthology of Medieval Texts, Oxford: Clarendon Press, 1992, p. 146.

من أجل انوثتها:

«ماري التي ذاقت طعم الروح، كانت لا تقيم وزناً لجميع الأفراح الحسية. وقد مرضت في يوم ما، ووجدت نفسها مجبرة على تناول اللحم، وشرب النبيذ لبعض الوقت ... ويبدو انها قد سكرت آنذاك الى حد ما. وقد تبرأت من جسمها في حالة من القلق والاضطراب، وحينما قاست ذلك السكر بحلاوة عيسى، تناولت السكين وقطعت من لحم جسمها قطعة كبيرة عقوبة على ذلك الخطأ، ثم دفنت تلك القطعة في الارض خجلاً. وبما انها كانت ملتهبة بنار الحب الشديدة، لم تشعر بألم ذلك الجرح، وشاهدت وهي في حالة الجذبة أحد الملائكة يجلس بالقرب منها»[١].

المدح المتبادل بين ماري وجاك، شجعها على توجيه الانتقادات اليه دون تردد، حتى انه قال: ان آراءها ونصائحها الاصلاحية هي التي دفعت أعماله الى الامام.

كان جاك ينظر اليها كنبية حقيقية وذلك للقدسية التي كانت عليها، ورغم انه كان يعتبر المرأة حائرة وشهوانية، إلّا انه لم يخش ان تُفسده ماري، لأنها ليست كباقي النساء.

ظهور نظرية المؤنث القدسي

يُعد النهج الذي سلكه جاك لتمييز ماري عن «الجنس غير القابل للاعتماد»، رمز دعمه للبيجينات. فتأكيده على الديانة القوية، واستياء ماري من الجسم، يكشف عن قوله بتمايز جنسي ثالث ينطبق على ماري وأخواتها المعنويات، وهو «المؤنث القدسي».

جاك وخلافاً لمعظم القساوسة والرهبان والأساقفة، اتخذ نهجاً لتحديد البيجينات من الناحية العقلية، ووضعهن ضمن مقولة أقل اثارة للقلق، كي يكون

(١) (The Life of Mary Oignies, by Jaques de Vitry), in Elizabeth A. Petroff, Medieval Women's Visionary Literature. New York: Oxford University Press, 1986, p. 180.

بمقدورهن الحصول على موقع شرعي في الكنيسة، مع ضرورة ان تُحدد القيود والتحديدات بشكل واضح لا لبس فيه.

وفي عام ١٢١٥، منع المجمع الرابع الذي عُقد في لاتيران[1] تأسيس اية فرقة جديدة. ورغم ذلك استطاع جاك ومن خلال تعيينه كأسقف ان يستحصل من البابا هونوريوس الثالث[2] تأييداً شفهياً بالمضمون التالي: «لتعش النساء المتدينات ـ ليس ضمن دائرة نفوذ أُسقفية ليج، بل في فرنسا وألمانيا أيضاً ـ في بيوت اشتراكية، وليحث البعضُ البعضَ الآخر على أعمال الخير برغبة مشتركة».

ورغم ان عدم اهتمام جاك بالحفاظ على الموقع الذي شغلته الفرقة البيجينية قد قلص من حماسها والاندفاع الذي كان لديها في بادئ الأمر، إلّا ان البابا غريغوريوس التاسع أصدر امراً جعل بموجبه «الآنسات العفيفات في ألمانيا» تحت حمايته. وبهذه الحماية البابوية، ازدهرت الحركة البيجينية، ووجدت المرأة في ظلها رسالتها في مختلف أنواع الحرف والأعمال ومن مختلف الطبقات الاجتماعية.

العارفتان هاديويتش ومختيلد

العارفة هاديويتش[3] (منتصف القرن ١٣) والعارفة مختيلد[4] (١٢١٢ ـ ١٢٨١)، عملتا على بلوغ الحركة البيجينية ذروتها، وتوسيع دائرتها الدينية، بحيث باتت تشمل بعض التجارب العميقة في الاتحاد الالهي وتأليف الآثار الأصيلة.

وتميزت هاتان العارفتان البيجينيتان بالابداع والخلّاقية واستخدام اسلوب جديد يعكس الحرية المعنوية للنساء المنضويات تحت لواء هذه الفرقة أو الحركة. فكان فهمهما للثقة بالنفس، والمرجعية الالهية، والأنس بالمسيح، أوسع من الفهم

---

(١) Lateran.

(٢) Honorius.

(٣) Hadewijch of Antwerp.

(٤) Mechthild of Magdeburg.

الذي كان لدى الراهبات.

اضف الى ذلك ان اتصال هاتين العارفتين بالعالم غير الديني، ادى الى ان تكون آثارهما طافحة بالعينية العاطفية، أو على حد تعبير كارولين بينوم: «انها المرة الاولى في تاريخ المسيحية تنطلق تأكيدات دينية والهية خاصة، عن النساء، وتؤثر تأثيراً جوهرياً على المعنوية»[١].

وتُعد آثار هاديويتش من أقدم الآثار المحلية في هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ، وقد كتبت احدى وثلاثين رسالة وأنشدت اربعاً وأربعين مقطوعة شعرية وستة عشر شعراً آخر من ضرب الدوبيت، فضلاً عن كتابتها لأربع عشرة مكاشفة.

كانت على معرفة باللغة اللاتينية، وقوة البلاغة، وعلم الأعداد، والفلك البطليموسي. وكانت معروفة من قبل الكثير من آباء الكنيسة ومعظم كبار كتّاب تلك الفترة.

وكانت مختيلد مبتكرة أيضاً في الأدب المحلي، وتُعد العارفة الألمانية الاولى التي كتبت آثارها باللغة العامية، وواحدة من مؤسسي العرفان الألماني. وقد كُتبت مكاشفاتها ومحاوراتها مع الله تحت عنوان «النور الجاري من الذات الالهية»[٢].

وكانت هاتان العارفتان تعتبران نفسيهما وعاء للالهام الالهي. وقدوجدت كل منهما في نفسها الجدارة للتحدث عن جانب الله بواسطة الكشف والشهودات الروحية. ورغم انهما تعترفان بأن من الممكن ان تكون الكتابة، من حق الرجال وامتيازاً منحصراً فيهم، غير انهما استطاعتا ان تحوّلا نقطة ضعفهما الواضحة ـ أي انوثتهما ـ الى نقطة قوة.

وتبدأ مختيلد كتاب «النور الجاري من الذات الالهية» بعبارة «ان الله يستخدم الضعفاء لقهر الأقوياء»، ثم تقول: «لابد من استقبال هذا الكتاب بسرور، لأن الله

---

(١) Bynum, Caroline, Jesus as Mother, p. 172.

(٢) The Flowing Light of the Godhead.

نفسه هو الذي يتكلم فيه ... فهو يكشف عن «أنا» الالهية ويعرض التقدس مع الثناء ... آه رباه! من هو الذي كتب هذا الكتاب؟ لقد كتبته بضعفي لأنني سمحت لنفسي ألا اكتم الموهبة التي فيه»(١).

وتصف هاديويتش قوتها المعنوية بأنها قوة مذهلة، وتكاد تكون قوة لا تُقهر، وتقول:

«منذ ان كنت في العاشرة من عمري، كنت أحب الله حباً جماً. وخلال السنتين الأوليتين التي بدأتُ فيها مثل هذا الحب له، لو لم يكن قد اعطاني قوة أعظم من معظم الناس ولو لم يضفِ على طبعي قوة طبعه، لكنت قد مُتّ»(٢).

هاتان المرأتان استطاعتا من خلال هذا الضمان أو الاجبار الالهي، تجاهل عقيدة مجابهة المرأة التي كان يؤمن بها القساوسة، وأن تذهبا الى أبعد من ذلك.

هاتان المرأتان وعلى غرار ماري اويغنيس، أجازتا التنبؤ والتشبه بالمسيح لكل من هو على اتصال بعالم المعنى. وتريان ان التمايز الجنسي، أمر مادي ودنيوي ومؤقت.

وكتبت هاديويتش بصفتها زعيمة احدى المجموعات البيجينية، رسائل عديدة الى فتاة بيجينية شابة عبرت فيها عن دعمها وتشجيعها لها. وقالت لها فيها:

«لا تصدقي ان هناك شيئاً اقوى من قدرتك التي يتحتم عليك استخدامها في طلبه، اي الله ... فلو عملتِ طبقاً لذلك الوجود الذي خلقه الله فيكِ، لأصبح طبعك شريفاً الى درجة بحيث لن يكون هناك ألم يجب ان تبتعدي عنه، ولأصبحتِ شجاعة الى درجة بحيث لا تتركين أي عمل دون ان تنجزيه، بل انكِ ستبلغين ما هو أفضل من الجميع، أي تلك الوحدة الكبرى، أي الله»(٣).

---

(١) Mechthild, Flowing Light, in Petroff, Ibid ., p.23.

(٢) Hadewijch, Visions, tr. Mother Columba Hart, in Ibid ., p. 194.

(٣) Hadewijch, Letters to a Young Beguine, tr. Eric College, in Ibid ., p. 191.

انوثة النفس الانسانية

بالرغم من الأخذ برأي العرفاء في القوة المعنوية، والقائم على تـفسير ثـنائي الجنسية للرسالة النبوية، بقيت كل من مختيلد وهاديويتش على اعـتبار نـفسها مؤنثة. فلم يكن عرفانهما من النوع الذي ينفي الجنسية، وانما هو الانطلاق الى أبعد من الساحة المادية، حيث ينتهي بالذوبان التام في الحب الالهي.

هاتان المرأتان تنطلقان ككاتبتين لاستخدام الصور الخيالية للزواج الواردة في سفر «نشيد الأناشيد» ـ والتي هي عبارة عن شعر غزلي بين العروس والعريس ـ لتصوير اتحادهما العرفاني مع المسيح. فهما ومن خلال شرح سنّة القديس برنار الذي يعتبر النفس الانسانية، مؤنثة (Anima)، جعلت كل منهما نفسها ـ كامرأة ـ في موضع العروس. فسمح لهما هذا العمل للتعبير عن حـبهما للـمسيح البـشري المذكر.

بما انهما من الفرقة البيجينية، كانتا حرتين من حيث الاتصال بالعالم الذي هو ماوراء الصومعة. ولذلك مزجتا لغة الحب الملتهب بأبيات من «نشيد الأنـاشيد» من أجل التعبير عن تجاربهما العاطفية. وكان بمقدور الحماس الذي كان لدى كل مـنهما ان يـطرح نـفسه في هـيئة حب صريح، مـثلما نـلاحظ ذلك في مكـاشفة هاديويتش بشأن مراسم العشاء الرباني:

«دخل في هيئة رجل ولباس امرأة، مثل المرة الاولى التي اعطانا فيها بدنه، اذ كان بهذه الهيئة واللباس. كان يبدو في صورة انسان ورجل. تقدم نحوي عجيباً وجميلاً وفي هيئة عظيمة، وبتواضع. كان يفعل كما يفعل كل من يتعلق تعلقاً كاملاً بآخر. ثم سلم نفسه الي على شكل مذهب ديني، بصورته الظاهرية، كما هو معتاد. ثم ناولني قدحاً كي اشرب منها، واقعاً وظاهراً، كما هو مـعتاد. ثم تـقدم نـفسه نحوي، واحتضنني بقوة، وضغطني اليه. فشعرت ان جميع جـوارح جـسمي قـد أصبحت جوارح جسمه، بوجد كامل وطبقاً لرغبتي القلبية والبشرية. وعليه فأنا

راضية من حيث الظاهر، وقد سُرِقتُ تماماً»[١].

من حيث النظرة العرفانية، الدور الذي تلعبه عروس المسيح يوحي بنوع من الأنانية الذي يستوعب الصفات الخاصة بأحد الجنسين وكذلك صفات الجنسين معاً. وكان بمقدور البيجينات استقطاب أفضل خصوصيات الاثنين من خلال رفض هوية الزوجة والراهبة.

وبلغت المعنوية البيجينية ذروتها بآثار مختيلد وهاديويتش. فالفرقة البيجينية ومن خلال معارضتها للقيود الجنسية غير المرئية، تحققت لها الحرية النسبية خلال فترة قصيرة فقط، وذلك قبل ان تنبري الشخصيات الرسمية لمعاداة نشاطاتها.

وقد أُقصيت هاديويتش عن زعامة الفرقة البيجينية بعد سنوات من تولي منصب الزعامة، دون أن يُعرف لماذا وكيف. غير ان البعض عزا ذلك الى عرفانها ذي طابع الحب الملتهب[٢].

هاديويتش التي لم يقلل الأذى الذي الحقه بها مراجع الكنيسة من حماسها ونشاطها، وجهت النصيحة التالية الى متهميها قبل اقصائها:

«كونوا على استعداد دائماً لتنفيذ الأمر الالهي، فلا تغفلوا قط، ولا تعبأوا بالآخرين قط: دعوهم يستهزئوا، دعوهم يؤيدوا، دعوهم يؤنبوا، دعوهم يقدّسوا، دعوهم يفعلوا كل ما يحلو لهم»[٣].

مختيلد التي كانت ترى ان مهمتها تتلخص في توجيه الانتقاد الى القساوسة والسياسيين الفاسدين ووصفهم بالمعزى والمرائين، كانت مُلاحقة طوال عمرها من قبل القساوسة الدومينيكانيين الذين كانوا يتهمونها بالبدعة. غير انها ظلت على موقفها المتشدد بصفتها منبر الله الخاص، وباتت تطالب الله بالدعم مباشرة:

«حذروني بشأن هذا الكتاب، وقال لي الكثيرون يتحتم ألا يبقى هذا الكتاب،

---

(١) Hadewijch, Visions, in Ibid ., p. 196.

(٢) Ibid ., p.177.

(٣) Hadewijh, Letters to a Young Beguine, in Ibid, p.191.

وانما يجب أن يُلق في النار. غير انني فعلت عين ما كنت أفعله منذ طفولتي حينما تستولي عليّ الشدة: اودعتُ نفسي بين يدي الدعاء ... الهي! أنا منزعجة حالياً، فهل انا منزعجة من اجل عظمتك، ام انك انت الذي القيتني في الضلال من خلال الأمر بكتابة هذه الموضوعات؟»[١].

وهربت مختيلد في نهاية المطاف الى صومعة في هيلفتا[٢] وهي في الثانية والستين من عمرها، وكانت مركزاً للتدين الألماني.

واحتماء مختيلد بالصومعة ولجوؤها الى حياة العزلة في آخر عمرها ليعبر عن المصير الذي آل اليه عدد كبير من النساء البيجينيات في نهاية القرن الثالث عشر، وذلك بسبب أنواع الضغط والأذى التي تعرض لها من قبل الكنيسة التي يحكمها الرجال.

مارغريت بوريت[٣]

لم يكن اسلوب حياة أفراد الحركة البيجينية قابلاً للتمييز عن الرهبانية التقليدية في نهاية القرن الثالث عشر. فكانت كل مجموعة من النساء البيجينيات تعيش معيشة اشتراكية في محل شبيه بالصومعة يدعى بالبيت البيجيني (Bejuinage) وذلك في العديد من المناطق في اوربا الشمالية. وكانت هناك مجموعة من القواعد والنظم القاسية التي لابد من احترامها من قبل هؤلاء النسوة وعدم تخطيها. ولم يكن يُسمح لهن عادة بمغادرة تلك البيوت الخاصة بدون الحصول على اذن من الجهات العليا التي تديرها. وقد عمل ذلك على الحد من الحماس الذي كان لدى نساء هذه الحركة. ولم تعد هذه الحركة قادرة على ايجاد فرص واسعة للنساء ذوات النزعة الدينية والباحثات عن حياة تبشيرية وتبليغية.

---

(١) Mechthild, Flowing Light, in Petroff, Ibid, p.23.

(٢) Helfta.

(٣) Marguerite Porete.

ورغم وجود الأخطار والتهديدات، استمرت عدة معدودة من البيجينات في المطالبة بحقهن المعنوي في الاختيار، وحرية الحركة. وربما تُعد مارغريت بوريت أكثر هؤلاء النسوة صراحة، وهي العارفة الفرنسية التي أُحرقت في عام ١٣١٠ بتهمة البدعة.

استخدمت مارغريت في رسالتها ذات الستين الف كلمة المسماة «مرآة النفوس البسيطة التي تفنى، ولا تبق إلّا في طلب الحب الالهي»، صوراً خيالية شبيهة بالصور الخيالية التي لدى كل من هاديويتش ومختيلد، واصفةً من خلال ذلك المراحل السبع التي تقطعها النفس من اجل الاتحاد الكامل بالله.

مارغريت ومثل باقي العرفاء، كانت تدعي المرجعية أيضاً اعتماداً على نفس الأساس الذي اعتمده الآخرون لانكار تلك المرجعية، وهو كونها امرأة:

«لم يكن لدى الله موضع لوضع خيره .. ولو لم يكن قد فعل هذا فيّ ... لم يكن هناك مكان يضع فيه نفسه بشكل كامل. وأنا بذلك أُسوة النجاة. وفوق ذلك هو انني منقذة كل مخلوق وعظمة الخالق ... فأنا خلاصة الشرور كافة. فاذا كنت حاملة لجميع ذلك الشر بسبب طبعي، فأنا جميع الشر في هذه الحال ... اذن اذا كنتُ جميع الشر، وكان جميع الخير، فلابد من التصدق على أفقر موجود، والا لنهبنا ما هو حقه. فالله لا يخطأ ولا يشتبه، والا لأفسد كل شيء. وفي هذه الحالة اكون أنا خيرهُ لأنني محتاجة»[1].

وكانت مارغريت أكثر عداء من أسلافها لرجال الكنيسة، فهي تدعي ان لديها معرفة بكنيسة غير مرئية ورمزية في المعنى مُشادة من «النفوس الحرة البسيطة»، وقد دُعي أعضاؤها لاعلان رأيهم في الكنيسة الصغيرة المشادة في الأرض. مضافاً الى ذلك انها كانت تقول بأنها تتحدث عن نفسها لا عن الله، وكان توجه انتقادها لجميع اولئك الذين يحجمون عن سماع كلماتها المنطلقة من بصيرتها الفذة، من رجال الكنيسة:

---

(١) Quoted In: Bynum, Holy Feast, p.277.

«يا علماء اللاهوت وايها القساوسة، مهما كان لديكم من شعور، فانكم لن تفهموا هذا الكتاب ما لم تستقبلوه بتواضع. فهذا الاسلوب يتيح لكم غلبة العقل بواسطة الحب والايمان. فالحب والايمان خادمان في بيت العقل»(١).

وما هو أكثر جرأة من ايمان مارغريت، كان اصرارها على التجوال، والوعظ، ونشر مفاهيم كتابها، الأمر الذي دفع برجال الكنيسة الى وضع حد لمداراة امرأة غير معتكفة.

ودُعيت مارغريت للمحاكمة بتهمة نشر بدعة «الروح الحرة»(٢). وتلك البدعة كانت عبارة عن الاعتقاد بالأمر التالي: بامكان الانسان ان يصل الى الكمال المعنوي من خلال حياته في هذا العالم. وحينما يبلغ المرء هذا المقام ـ رجلاً كان ام امرأة ـ فبامكانه ان يمارس اية معصية لأنه قد حصل على الحصانة.

بدعة «الروح الحرة» والتي تُعرف بـ«النزعة نحو اللاابالية» و«التمرد على القانون»، قد ادخلت الذعر الى رجال الكنيسة لأنها تهدد نظام الكنيسة صراحةً. ما كان يحظى بأهمية خاصة لدى مستجوبيها هو ان هذه البدعة لا تختلف عن اعتقاد جميع المنتميات الى الفرقة البيجينية وعدد اقل جداً من افراد الفرقة البيغاردية(٣).

فلم يكن رجال الكنيسة قلقين ازاء الوضع القانوني لهاتين الفرقتين فحسب، وانما ايضاً ازاء دعوتها الى حرية المرأة واختيارها. وقد كانت هاتان التهمتان مؤثرتين في ادانة مارغريت سيئة الحظ.

ورغم التحذيرات المتكررة التي وجهت الى مارغريت بشأن كتابها الذي يحمل بين طياته البدعة، إلّا انها بعثت هذا الكتاب الى ثلاثة من العلماء المعروفين، فعبّروا

---

(١) Quoted in: Gerda Lerner, The Creation of Feminist Consciousness: From The Middle Ages to Eighteen - Seventy, New York: Oxford Univ. Press, 1993, p.81.

(٢) Free Spirit.

(٣) Beghards.

عن تأييدهم له.

ورغم ذلك فقد استُدعيت للاستجواب للمرة الثانية وطُلب منها ان تعلن الندم لكنها أبت ذلك وأصرت على عقائدها فزج بها في السجن، فلم يؤثر ذلك على موقفها.

وانتزع القس المسؤول عن ملفها اجزاء من كتاب مارغريت وبعث به الى بعض الأخصائيين في اللاهوت بجامعة باريس، فاعلنوا ان ذلك الكتاب بدعة، وأطلقوا على مارغريت اسم «المبتدعة المصرّة»، لأنها أصرت على أفكارها رغم التحذيرات المتكررة التي وجهت اليها. وحكمت عليها الكنيسة بالموت حرقاً وذلك في عام ١٣١٠ ونُفّذ فيها هذا الحكم.

ورغم انها قد ذهبت أبعد من سائر العرفاء في وصف اتحاد النفس بالله، غير ن انتهاج نظرية «الروح الحرة» لا يعني النزعة نحو اللاأبالية قط. ما كان يقلق المستجوبين هو الشخصية الاجتماعية المستقلة والمتحركة التي كانت لديها.

«ولربما كانت مارغريت من أهل البدعة، لكنها لو كانت قد فعلت كما فعلت مختيلد وانزوت في صومعة من الصوامع، لما كانت قد استقطبت كل هذا الاهتمام. فحياتها الناشطة، وعزمها الراسخ واصرارها على أفكارها، والأوضاع السياسية السائدة آنذاك، ساعدت بمجموعها على الحكم عليها بالموت»[١]، وقد ارادت الكنيسة من ذلك ان تجعلها عبرة لغيرها.

من ذلك نفهم كيف بامكان التعارض بين الرؤى الرجالية والنسائية ازاء مرجعية امرأة ما للتحدث في الجو العام، ان يفرز نتائج دامية ومرعبة.

ويبدو ان العرفان المتطرف لمارغريت وجرأتها في نشره، قد صبّ في صالح الدومينيكانيين في آخر المطاف، وهم الذين كانوا يعتبرون الجنس الانثوي جنساً خطراً وكذلك ضعيفاً من الناحية العقلية ومستعداً للانخداع.

---

(١) Rebert E. Lemer, The Heresy of the Free Spirit in the Later Middle Ages, Nortredame: University Press, 1972, p.208.

من وجهة نظر المستجوبين: «حرية» البيجينات مساوية لبدعة «الروح الحرة». وقد انعدم الجو الوسط للنساء المتدينات من خارج اطار الكنيسة، على مدى سنتين من وفاة مارغريت.

مجمع فينا وادانة البيجينية

في عام ١٣١٢، اعلن مجمع فينا رسمياً عن ادانة بدعة «الروح الحرة» واسلوب حياة الفرقة البيجينية. وأدان البابا كليمنت الخامس نساء هذه الفرقة واللاتي لم يقسمن قسم الطاعة ولا يتابعن قاعدة أو سنّة. وصرح هذا الحكم بأن هؤلاء النسوة قد جئن بعادة خاصة، ويبحثن كالمجانين في امور من قبيل التثليث والذات الالهية، وينشرن ومن خلال التظاهر بالقدسية عقائد بين الناس تتعارض مع اصول عقائد الكنيسة وشعائرها، فيوقعن عامة الناس في الضلال.

وبعد ذلك أضاف البابا كليمنت فقرة الى هذا الحكم تقول بضرورة ان تحيى المتدينات حقاً من أعضاء هذه الفرقة حياة الندم، غير انه لم يوضح ما المراد بـ «المتدينات حقاً».

ونظراً لعدم وضوح فتوى البابا كليمنت، لم يميز رجال الكنيسة بين هؤلاء الأعضاء، وقرروا تخريب جميع بيوت البيجينات القويمات في المعتقد (Orthodox) في سائر أرجاء اوربا.

وبعد الاعتراضات العامة التي نفذها أنصار هذه الفرقة، انبرى البابا يوحنا الثاني والعشرون لتقديم تعريف جديد للبيجين الجيدة: «البيجين الجيدة هي المرأة التي تبق في البيت ولا تبحث في التثليث». وطبقاً لهذا التعريف لا تُعد البيجين الجيدة، جيدة.

أضف الى ذلك ان كلام البابا يوحنا هذا لازال يحمل معه الغموض والابهام، ولذلك راح رجال الكنيسة يتخذون سياسات متنوعة ازاء المنتميات الى البيجينية، الأمر الذي دفع بالبعض منهن الى الالتحاق بمختلف المؤسسات والفرق

المنظمة، وبالبعض الآخر الى الاقامة في البيوت البيجينية التي لم يكن هناك اختلاف بشأنها، بينما ظل البعض معرضاً للخطر لاحتمال توجيه تهمة الابتداع في كل لحظة.

ومن هنا يمكن ان نقول بثقة بأن الحركة البيجينية لم تكن بعد عام ١٣٢٠ سوى قشرة خالية من اللب، وفقدت كل ما كان لديها من عظمة.

الحركة البيجينية، مرآة للعبرة

القصة الطويلة لهذه الحركة منذ ظهورها كحركة منشقة عن حركة اصلاحية اكبر يديرها الرجال، والى تطورها كفرقة تحظى بالاحترام، وحتى تحولها الى مؤسسة وتعرضها للأذى والملاحقة من قبل الكنيسة، بامكانها ان تكون نموذجاً جديراً بالدراسة والتفحص وأخذ العبرة منه.

التفاسير الانثوية والذكرية للجنس الخاصة بالمحيط الديني والثقافي لتلك المرحلة التاريخية، لعبت دوراً كبيراً في بلورة حركة حرية التعبير لدى عضوات الفرقة البيجينية، واتساع تلك الحركة ومن ثم تقلصها وتحديدها.

ما هو مهم في البحث، مكانة البيجينات كنساء وسط بين البيت والصومعة. فالجو الجنسي المعرَّف تعريفاً غامضاً رغم كونه محفزاً للمرأة، إلّا انه كان مثيراً لقلق الرجل. فالاصطدام الحاصل بين تصور المرأة لنفسها كأداة الهية وبين تفسير القساوسة للرسائل المستقلة لنساء الحركة البيجينية بشأن الدين والايمان، ادى الى خلق توتر شديد أسفر عن كوارث.

الموضوع الذي كان يثيره جاك ديفيتري والمستجوبون هو ان الانوثة تساوي الضعف العقلاني والأخلاقي.

نظراً لخوف القساوسة من المرأة على اعتبار انها مصدر بالقوة للفساد الجنسي والبدعة، وهما عنصران ملوّثان ويشكلان خطراً على الحياة الدينية، أخذت البيجينات ـ كنساء وبدون الزامات خارجية كالمرجعية الرجالية، والقواعد المكتوبة، والقسم الأبدي، والاعتكاف في الصومعة ـ يواجهن مشكلة نظرية غير

قابلة للحل.

ولم يكن هناك سوى جاك وبعض القساوسة ممن هم على شاكلته ينظرون اليهن كحالات خاصة، أي كنساء على قدسية كبيرة بحيث لم يعدن عنصراً مؤنثاً، ولهذا كان بامكان هذا النمط من الرجال فهم البيجينات غير المعتكفات.

ولكن لا يبدو ان البيجينات أنفسهن كن مساهمات في نظرة الرجال الى الجنس الانثوي، كموجودات ناقصة عقلياً وأخلاقياً. فهؤلاء النسوة كنّ يرين أنفسهن عرائس للمسيح ووعاء الهياً ممتلئاً بالقوة المعنوية والحكمة.

فالعرفان الذي كان لديهن ـ والذي بلغن به عالم الملكوت ـ والزهد الذي اتصفن به ـ والذي انطلقن بواسطته أبعد من الجسم المادي ـ قد سمحا لهن بخلق هوية نسوية عارية من الفساد، خلافاً لاعتقاد الرجال. والشاهد على هذا الأمر هو الثقة العالية بالنفس التي كانت لديهن، وحياتهن وآثارهن الحافلة بالحماس والنشاط، مما وفر لهذه الحركة ايماناً دينياً متحمساً، والذي يُعد من أبرز ملامحها.

اختلاف أساليب فهم المرأة في العالم المسيحي

في أعقاب استقراء الفهم الانثوي والذكوري للجنس من خلال مسار الحركة البيجينية، لابد من التذكير بأن الخصوصية الجنسية التي ادت الى اضطراب القساوسة وقمع الحركة المذكورة لم تكن منطلقة من جوهرية المسيحية بالضرورة، رغم ما في المسيحية من حديث عن حواء والحية.

فحتى ضمن اطار ايديولوجي واسع كالمسيحية، نجد هناك تفاسير متفاوتة بين الرجال والنساء ومختلف الفرق والطوائف، للشيء الذي يصنع التذكير والتأنيث، أو ما هو الشيء المقبول أو الباعث على الأسف بشكل كبير.

فالاصلاحيون البروتستانتيون ـ مثلاً ـ الذين كانوا ينتقدون العزوبة ويؤكدون على الأسرة، بدأوا حركة اخذت تنحسر فيها بشكل تدريجي الرؤية المسيحية للمرأة كموجود فاسدٍ جنسياً وتحل محلها رؤية معاكسة لها تماماً.

طائفة الأنوثة الحقيقية[١]، كانت تعتبر الانوثة مساوية للطهر والعفاف والفضيلة الخلقية، وربما ناجم هذا الرأي عن اعتبار المرأة كحاضنة للأبناء. وبالنتيجة ـ ولربما يبعث هذا على التعجب على ضوء البحث السابق ـ شُجعت النساء على السفر كمبشرات بحرية، في حين لا حق لهن في التنبؤ لأنهن بهذا العمل يغتصبن حق الرجال![٢]

البيجينات والحب والاتحاد مع الله

تحدثت هاديويتش في جميع آثارها عن فكرة الاتحاد مع الله، فهي ترى ان في اتصال النفس بالله حلاوة خاصة اذ يسكن كل من المحب والحبيب في الآخر، ويحل كل منهما في الثاني بحيث ليس بمقدور أي واحد منهما ان يجد نفسه بمعزل عن الآخر. ورغم هذا الاتحاد في الجسم بين الاثنين، تبقى نفساهما متميزة كل منهما عن الاخرى[٣]، كما تحدثت هاديويتش عن تحول الانسان الى اله ايضاً[٤].

واستخدمت مختيلد الكثير من التمثيلات والتشبيهات على صعيد الاتحاد بالله. وأدرجت بحث التثليث ضمن بحث الاتحاد بالله، وتحدثت عن اتحاد الانسان بالأقانيم الثلاثة. ونقلت في احدى عباراتها ضمن هذا الاطار خطاباً مجازياً من الله للنفس: «ايتها النفس! انتِ متعلقة بي الى هذا الحد الذي ليس باستطاعة أي شيء ان يحول بيني وبينك».

ونراها تخاطب الحب قائلة: «ايها الحب الذي وظيفته هي التوحيد بين الله

---

(١) Cult of True Womanhood.

(٢) See: Abby Stoner, Sisters Between: Gender and the Medieval Beguines, On line.

(٣) Bernard Mcginn, "Love, knowledge and unio Mystica in the western christian Tradition", in mystical union in Judaism, christiaity, and Islam, ed. Mosheh Idel and Bernard Mcginn, New york, Continuum, 1996, p. 71.

(٤) Ibid.

وروح الانسان»[١].

وكانت مارغريت بوريت تولي الحب أهمية كبيرة. وكانت ترى ان طريق بلوغ الوحدة مع الله، هو ترك الارادة. ولو ترك أحد جميع اراداته وأزاحها «لأصبح كل شيء ولا شيء، لأن الحب أوصله الى الوحدة».

وتعتقد بوجود عدة مراحل في طريق عروج النفس الى الله، وترى ان النفس تغرق في الله وتتحد به في المرحلة السادسة بحيث لا تبصر الله ولا نفسها. غير ان الله ومن خلال التجلي لهذه النفس، يرى ذاته في مرآة هذه النفس. أي انه هو الذي يحب ذاته، وهو الذي يرى ذاته، وهو الذي يثني بوجوده على ذاته[٢].

وتأثر المعلم ايكارت بهؤلاء العارفات الثلاث، لاسيما بمارغريت بوريت وكتابها «مرآة النفوس البسيطة»[٣].

اوريجانس[٤] والرمز العرسي

يُعد اوريجانس (١٨٥ ـ ٢٥٤)، متكلماً وفيلسوفاً ومفسراً يونانياً بارزاً في مرحلة الرسل والمبلغين، وأحد اكثر الشخصيات المسيحية نفوذاً خلال المرحلة التي سبقت مجمع نيقيا.

كان تلميذاً لدى كليمنتوس الاسكندري، ثم واصل أعماله من بعده. ويحتمل البعض انه كان تلميذ آمونيوس ساكاس الذي كان معلماً لافلوطين.

وبعد عام ٢٣٢ م ذهب الى قيصرية وأسس فيها مدرسة. وقد اشتهر بسبب تعريفه بنظام اللاهوت المسيحي في كتابه المعروف «حول الاصول»[٥].

---

(١) Ibid, pp. 71 - 72.

(٢) Ibid, p.74.

(٣) See: Bermard Mcginn, ed. Meister Eckhart and the beguine mystics, New york, Continuum, 1994.

(٤) Origan.

(٥) De Principles.

ولديه الكثير من التفاسير على كتب «الكتاب المقدس»، ونشر عدة مجلدات من المتون المقدسة بالروايات العبرية واليونانية.

في التفسير الذي كتبه على سفر «نشيد الأناشيد»، قدم فهماً تمثيلياً عنه، وعبّر عن اعتقاده في ان هدف النبي سليمان من كتابة ذلك النشيد ان يلقي حب الامور الالهية والسماوية في النفس، ولذلك لجأ الى استخدام تمثيل العروس والعريس.

ويعتقد اوريجانس كذلك ان العرفان المسيحي الحقيقي أو العرفان المعنوي، يظهر في صورة شبيهة بالهيجان الجنسي. وله موعظة خلال تحدثه عن «نشيد الأناشيد» تقول: «ما أجمل ان يُجرح المرء بالحب الالهي! ... هل انت مستعد لتجريد جميع اعضاء جسمك من اللباس وجعلها في معرض الأذى من اجل ان تُجتبى؟»[١].

القديسات في العصر الوسيط

ظهرت نساء عارفات كثيرات وفي مستوى رفيع من العرفان والمعنوية، خلال العصر الوسيط. فإلهامات القديسة كاترين السيناوية[٢] (ت ١٣٨٠)، قد تحولت الى تعاليم عميقة على صعيد الحياة المعنوية.

وشهود القديسة كاترين الجنوائية[٣] (ت ١٥١٠)، كان يشمل اللاهوت الجزمي الذي كان يحظى بجمال كبير وأهمية تفوق الوصف. وأوقعتنا القديسة جيرترود[٤] تحت تأثير سعة افق لاهوتها، رغم ان المفاهيم التي كانت تستخدمها، تصويرية، مثل الكشف والشهود عند مختيلد الهوكبومي[٥] (ت ١٢٨٩)، ومختيلد

(١) Quoted in Bugge, John, Virginatas, 1975, p. 76 - 77.

(٢) Catherine of Siena.

(٣) Catherine of Genoa.

(٤) St. Gertrude.

(٥) Mechtilde of Hockebom.

الماغديبورغي[١] (ت ١٢٨٠) التي كتبت مكاشفاتها باللغة الألمانية.

كانت القديسة بريجيتا السويدية[٢] (ت ١٣٧٣) تواجه جذبات كثيرة كان من بينها مكاشفات في آلام السيد المسيح.

وكانت القديستان هيلديغارد البينغينية[٣] (ت ١١٧٩)، واليزابيث الشوناوية[٤] (ت ١١٦٥)، نبيتين ايضاً، ونسبتا الكثير من المعلومات الغريبة التي كتبتاها، الى منشأ الهي.

وآثار انجيلا الفوليغنوية[٥] (ت ١٣٠٩)، وجوليان النورويتشية[٦] (١٣٤٢ ـ ١٤٢٠) وغيرهما، كانت رائعة وباعثة على التهذيب الخلقي.

ويبدو ان قيمة هذه الالهامات والمكاشفات تعتمد على القدرة العقلانية المستقبلة لذلك النور العرفاني، ومدى قابلية القديسة على ترجمة تجاربها الى لغة مفهومة، وكذلك على نسبة الاستفادة من ذلك النور المقدس. وذلك لأن الخيالات الباطلة والخدع الشيطانية، كثيرة الوقوع في مثل هذه الأحوال.

فحينما توافق الكنيسة على الالهامات المنتشرة لشخصية مقدسة وتقرها، فلأن تلك الالهامات ليس فيها شيء يخالف الايمان المسيحي، ويمكن قراءتها بدون ان تثير اية علامة استفهام حول ايٍّ من المعتقدات الدينية الصحيحة.

وعلى هذا الضوء، حينما نقرأ هذه الالهامات، علينا أن نلتفت الى انها قد تكون مزيجة بالتصورات أو التفاسير الخاطئة، في نفس الوقت الذي علينا ألا نعتبرها تصورات محضة، أو نتجاهل النور المعنوي الكامن خلفها.

هناك تجاهل للعرفاء الانجليز الذين ظهروا خلال العصر الوسيط، وأهم

---

(١) Mechtilde of Magdeburg.

(٢) St. Bridgita of Sweden.

(٣) St . Hildegard of Bingen.

(٤) St. Elizabeth of Schonau.

(٥) Angela of Foligno.

(٦) Julian of Norwich.

هؤلاء: مارجيري كيمب[١] (ت ١٢٩٠)، وريتشارد رول[٢] (ت ١٣٤٩)، ووالتر هيلتون[٣] (ت ١٣٩٦)، وقد خلّفوا آثاراً مهمة.

وفي اواخر القرن الرابع عشر عارف مجهول بعض المواضيع العجيبة التي على رأسها كتيب شهير يدعى «سحابة الجهل»[٤].

وهذا الكتيب مكتوب بطريقة رائعة جداً وواضحة وعملية ويُعد دليلاً جيداً نحو العبادة التأملية. ويبدو انّ تعاليم يوحنا الصليبي الذي جاء بعد مائتي عـام، وردت فيه بشكل موجز وملخص.

ويُعدّ المعلم ايكارت[٥] (ت ١٣٢٧) ابرز وجه عرفاني ألماني خـلال القـرن الرابع عشر. وقد جوبهت آراؤه بعاصفة من الانتقادات. ورغم انه قد قبل بعض تلك الانتقادات بمنتهى التواضع، إلّا انه أُدين من قبل البابا يوحنا الثاني والعشرين في عام ١٣٢٩.

واستمر على خطى ايكارت عرفاء آخرون كبار مثل هنرى سـوسو[٦] (ت ١٣٦٦)، والذي كان يتميز بطبع شاعري وزهد عـظيم، وتـولر[٧] (ت ١٣٦١)، وكان واعظاً كبيراً لازالت تعاليمه ذات قيمة عملية كبيرة حتى يومنا هذا.

وهناك عارف آخر يدعى رويسبروك[٨] وكان تـلميذاً لتـولر، ولديـه آثـار معظمها في التجارب الشخصية الملتهبة بالحب[٩].

---

(١) Margerie Kempe.

(٢) Richard Rolle.

(٣) Walter Hilton.

(٤) The Cloud of Unknowing.

(٥) Master Eckhart.

(٦) Henry Suso.

(٧) J. Tauler.

(٨) J. Ruysbroeck.

(٩) See: (Mysticism) in Enc. of Religion and Ethics, ed. I. Hastings Vol. 10, pp. 90 - 97.

هيلديغارد البينغينية (١٠٩٨ ـ ١١٧٩)

كانت هيلديغارد المولود العاشر في أُسرة ارستقراطية. وقد نذرها أهلها للكنيسة حين ولادتها. وبدأ شهودها الأول وهي في العام الثالث من عمرها، فكانت تشاهد اموراً نورانية، وسرعان ما أدركت انّ هذه القابلية خاصة بها، وقد كتمت تلك الموهبة لسنوات.

وحينما بلغت العام الثامن، أودعتها أسرتها عند امرأة تُدعى جوتا[١] كي تربيها تربية دينية. وكانت جوتا قد وُلدت في اسرة ثرية ونبيلة، كما كانت فتاة شابة وجميلة جداً، وقد نذرت نفسها للّه وعزفت عن ملذات الحياة، لكنها لم تدخل الى الصومعة، وانما اخذت بصفتها «حامية للمرأة»[٢] تقوم بتعليم وتربية التاركين للدنيا.

كانت جوتا تعيش في غرفة صغيرة الى جانب احدى الصوامع. وكانت تتصل بالخارج من خلال نافذة في تلك الغرفة تستلم من خلالها الطعام والضروريات. وكانت «حاميات المرأة» يعشن في تلك الغرفة مع من كنّ يتولين تعليمهن، وكن يمتنعن عن الخروج منها، منصرفات للعبادة والتأمل أو لبعض النشاطات كالخياطة والتطريز في معظم الأحيان.

وليس واضحاً نوع التعليم الذي كانت تتلقاه هيلديغارد من مربيتها جوتا. والقدر المسلّم به هو انها كانت تعاليم ابتدائية. ولذلك كانت تشعر بحاجة الى تعليم في مستوى أعلى، وعدم تناسب المواد التعليمية التي كانت تتعلمها مع مطلوبها.

ويبدو انّ مجاورة الموضع الذي كانت تقيم فيه لكنيسة صومعة ديسيبودنبرغ[٣]، ادى الى تعرفها على اصوات النواقيس وايقاعات الأناشيد التي

---

(١) Jutta.

(٢) Anchoress.

(٣) Disibodenberg.

كانت تنبعث من الكنيسة. وكان لهذا الأمر تأثير على نمو الذوق الموسيقي عندها وإعداد الأناشيد والايقاعات التي تُجرى في مراسم الكنيسة.

توفيت جوتا، وهيلديغارد في العالم الثامن والثلاثين من عمرها، فاختيرت رئيسة للصومعة المجاورة للمكان الذي كانت تديره جوتا.

الصحوة والإشراق

خلال الاعوام التي عاشتها هيلديغارِد الى جانب جوتا، كانت جوتا وراهب يدعى فولمار[1]، هما الشخصان الوحيدان اللذان يعلمان بشكل سري بما كان لديها من كشف وشهود.

وكانت لديها مكاشفة في عام ١١٤١ غيّرت مسارها الحياتي تماماً. وقد منّ الله عليها في هذه المكاشفة بفهم معنى المتون الدينية دفعة واحدة، وأمرها ان تكتب كل ما تراه في كشفها وشهوداتها.

تقول هيلديغارد بهذا الشأن:

«حينما كان لي من العمر اثنان واربعون عاماً وسبعة أشهر، حدث ان فُتحت السماوات وانحدر نور عجيب ذو تألّق لا يوصف الى داخل دماغي، فجعل كل قلبي وصدري كالشعلة المتقدة. لم يحترق قلبي، لكنه أصبح ساخناً. وحينذاك أدركت فجأة معنى شروح الكتب (المقدسة)...».

ورغم ذلك كانت تشعر بالضعف، وتسوّف في كتابة مكاشفاتها:

«ورغم اني رأيت هذه الامور وسمعتها، ولكن نظراً للشك والضعف العقائدي الذي كان لديّ، وكذلك نظراً لكلام الرجال المتفاوت، تجاهلتُ لفترة طويلة الأمر بكتابة المكاشفات، ليس عن عناد وانما عن تواضع، حتى نزل عليّ العقاب الالهي فرقدت في فراش المرض».

ورغم انها لم تكن تشك في المصدر الالهي لتلك المكاشفات النورانية، لكنها

---

(١) Volmar.

كانت تميل لكي تحظى تلك المكاشفات بتأييد الكنيسة الكاثوليكية وتقديسها.

وهكذا فقد كتبت رسالة الى القديس برنار من أجل الحصول على مباركته. ورغم ان اجابة القديس برنار كانت سطحية الى حد ما، إلّا انها استقطبت اهتمام البابا اوجينوس[١] نحو هذا الموضوع.

وكان البابا اوجينوس ذا فكر نيّر الى حد ما فحثّها على كتابة مكاشفاتها وإكمالها. وانطلاقاً من هذا التشجيع استطاعت الفراغ من تأليف اول كتبها في الكشف والشهود وأطلقت عليه اسم «إعرفْ طرق الله»[٢]. فذاع صيتها منذ ذلك الحين في المانيا وخارجها.

رأيها في الزواج

يُعدّ موضوع الزواج، في اهم المواضيع التي تناولتها هيلديغارد، والذي يحظى باهتمام عامة الناس. ولديها في الغالب رؤية ايجابية نحو الزواج والتناسل، رغم انها تعتبره من إفرازات هبوط الانسان الى الارض. فأوردت في أحد كتبها، حين التحدث عن هاتف سماوي بأنّ ذلك الهاتف قال بأنه لم يجد في ذرية آدم منذ هبوطه، ذلك الانسان القويم الذي ينبغي وجوده، لأن الشيطان قد سرق تلك الاستقامة منذ ان ذاق آدم ثمرة التفاح[٣].

وبالنتيجة فالنوع البشري ـ بل وحتى العالم المادي ـ ليس سوى شكل ناقص من ذلك الشيء الذي اراده الله لمخلوقاته بالأساس. وعليه فنتائج الهبوط وفق هذه الرؤية كثيرة. ولهذا السبب وُلد المسيح من ام عذراء، لأن الزواج ينقل معه الى الابناء ميراث تلك اللااستقامة الاولى.

في ايام هيلديغارد كان الزواج أمراً متعارفاً وإنْ كان هناك إكراه في معظم

---

(١) Pope Eugenius (1145 - 1153).

(٢) Scivias, Tr. by Mother Columba Hart and Jane Bishop New York, Paulist Press, 1990.

(٣) Scivias, 1, Vis, 2, Ch 13.

الاحيان. وكانت الكنيسة تعارض بشدة رأي بعض الفرق المبتدعة التي كانت تعتبر العالم وكل شيء مادي، لاسيا الزواج، عملاً شيطانياً.

الكتارية[١] بدعة دينية امتدت حتى منتصف القرن الثاني عشر من بلغاريا الى المانيا، وكانت ناشطة في كولن بشكل خاص. وكانت هيلديغارد تواقة لمجابهة افكارها، بل وكانت تحرض قساوسة كولن للدعوة ضدها وتفنيد أفكارها. ولذلك يمكن ان تكون آراء هيلديغارد الايجابية ازاء الزواج، ذات طابع جدلي.

ويبدو أنّ معظم آرائها في الزواج مقتبسة من قصة الخلق الواردة في الكتاب المقدس، أو انها اخذت صورة عقلية بما ينطبق مع تلك القصة.

من وجهة نظرها، بما انّ آدم وحواء نموذجان للزوج الانساني، فلابد للمرأة ان تطيع الزوج. وبما انهما يصبحان جسماً واحداً بعد الزواج فلا يجوز أي انفصال بين الاثنين، إلّا بحكم الكنيسة. بل لا يجوز الطلاق والافتراق حتى اذا زنى أحدهما. والحالة الوحيدة التي يُسمح فيها بالافتراق الاختياري هو ان يتفق الاثنان على ترك الدنيا من خلال الدخول الى الحياة الدينية، أي الرهبانية.

وكان هناك سماح بالزواج الشرعي من أجل ايجاد الأبناء، اذ انّ هذا العمل موصى به من قبل الله لتكثير أبناء آدم من خلال التناسل.

والميزة الاخرى للزواج من وجهة نظرها هي «ان اولئك الذين لديهم حياة دنيوية ينجبون اولاداً، بينهم من يسير في طريق العفة وكذلك بينهم متقون يحلقون نحو الامور الالهية عن طريق الرغبة في أعمال الخير»[٢].

وهذا الكلام شبيه جداً بكلام القديس ذي المعنيين حول الزواج: «أنا أُشيد بالزواج لأنه يضع العزّاب بين يديّ»، لأن بعض الأبناء المتولدين من الزواج يختارون الحياة الرهبانية ويؤدون قسم العفة، ويعيشون عزباء حتى آخر عمرهم.

حتى القرن الثاني عشر، عبّأت الكنيسة مجموعة عظيمة من الممنوعات في

---

(١) Catharism.

(٢) Scivias, 2, Vis, 5, Ch. 37.

مقابل حتى مثل هذا الزواج المقدس عند الله. ولم توسع هيلديغارد هذه الممنوعات، وانما اقتصرت على منع العلاقة الجنسية بالمرأة الحبلى أو في فترة الطمث.

وغالباً ما كانت تستعين في عرض أفكارها بعلم الفسلجة ومعلوماتها العلمية.

وعلى صعيد آخر فانها وعلى العكس من بعض القساوسة، كانت تسمح لمن هن في حالة الطمث بالحضور الى الكنيسة. إلّا انها كانت تمنع البعض من دخولها لفترة معينة وهم: النساء والرجل بُعيد الجماع، والرجال المجنبون، والجرحى[١].

رأيها في الخلقة

انبرت هيلديغارد لتفصيل رواية الكتاب المقدس في الخلقة معبرة عن رأيها أيضاً خلال ذلك:

«الرجل هو الأثر الكامل للّـه لأن الله يُعرف بواسطته. ولذلك خلق الله المخلوقات جميعاً من أجله، وسمح له للدعوة اليه والثناء عليه في بحبوحة الحب الحقيقي عن طريق الاستعداد النفسي. غير أنّ الرجل بحاجة الى معين يشبهه. فخلق الله معيناً مثله، أي المرأة، والتي يكمن فيها جميع العرق البشري.

كان مقدَّراً ان توجَد المرأة بقدرة الله، بالضبط كما ظهر اول رجل بواسطة الله. وعليه فالرجل والمرأة يكمل أحدهما الآخر بحيث يعمل أحدهما عن طريق الآخر، لأن الرجل لا يُدعى «رجلاً» بدون المرأة، والمرأة لا تدعى «مرأة» بدون الرجل. فالمرأة أثر الرجل، والرجل الصورة التي تتسلى بها المرأة.

ليس بامكان أيّ منهما أن يوجد بدون الآخر. والرجل دال على الوهية ابن الله، والمرأة دالة على بشريته»[٢].

اذن استنباطها من قصة الخلقة هو: الانسان أو آدم هو اكمل كائن مخلوق،

---

(١) Flanagan, Sabina, Hildegard of Bingen, Routledge, London, 1999, pp. 63 - 64.

(٢) Flanagan, Ibid, p. 143.

والدليل على كماله وشرفه هو ان المخلوقات الاخرى قد خُلقت من أجله. والمهمة الأساسية للانسان هي الدعوة الى الله وحمده والثناء عليه. غير ان الانسان محتاج في مهمته هذه الى من يمد له يد المساعدة والنصرة، فخُلقت المرأة لهذا الغرض.

وهكذا يتلخص دور المرأة من وجهة نظرها في اكمال دور الرجل، ويحظى هذان الدوران المكمل أحدهما للآخر بأهمية خاصة. وبذلك نرى أن هيلديغارد وبدلاً من ان تستنتج من قصة الخلقة تدنّي مستوى المرأة عن الرجل، استنتجت انهما قد خُلقا من اجل هدف واحد، وفهمت من رواية الكتاب المقدس التأكيد على الدور التكميلي لكلا الجنسين، اكثر من أي شيء آخر.

الصور النسوية في مكاشفاتها

دراسة التقارير التي كتبتها هيلديغارد عن مكاشفاتها، تكشف عن الأمر الغريب التالي وهو أنها لم تشاهد مريم في دورها البشري كأم للمسيح أو في أي دور آخر، بل حينما تظهر الصور النسوية في مكاشفاتها، فإنها غالباً ما تتصل بصور الفضائل، أو الكنيسة، أو صفات الله الخاصة كالحكمة والحب[1].

ولبعض هذه الصور، لاسيما صورة الكنيسة، واقعية وصلابة اكثر في مكاشفاتها من باقي الصور البشرية[2].

وبذلك كانت تهتم بالصور النسوية في اللاهوت المسيحي، بينما كان هذا الاهتمام يُطرح قبل ذلك في اطار السيدة مريم ودورها.

آثارها المهمة

في حوالي عام ١١٥٠ نقلت هيلديغارد صومعتها المتنامية من ديسيبودنبرغ

---

(١) والغريب في الامر ان مفردتي الحكمة والحب، مؤنثتان في اللغة العربية وعدهما ابن العربي من الأبعاد الانثوية لذات البارئ تعالى.

(٢) Flanagan, Ibid, p. 68.

الى ضفاف الراين. ثم شيدت بعد ذلك صومعة اخرى تدعى «ايبينجين»[١]

وكانت الأعوام الأخيرة من عمرها مباركة وخلّاقة. فكانت تصنع الألحان والايقاعات للمراسم الدينية، والتي كانت تُجرى في ايام الاحتفال والعطل داخل الكنيسة.

وفضلاً عن كتابها «إعرف طرق الله»، لديها كتابان مهمان بشأن مكاشفاتها هما «كتاب فضيلة الحياة»[٢]، و«كتاب الأعمال المقدسة»[٣]. وشرحت في هذا الكتاب الأخير آراءها في العالمين الصغير والكبير، ووصفت الانسان بأنه مرآة العظمة الالهية وذروة الخلق الالهي.

ولديها كتابان آخران هما «الفيزياء»[٤] و«سبب الشفاء»[٥] وهما في التاريخ الطبيعي والقوى المعالجة لمختلف الامور الطبيعية. ورغم عدم ملاحظة أية اشارة الى الكشف والشهود في هذين الأثرين، ولكن يلاحظ فيهما متابعة الفلسفة الدينية القائلة بأن الانسان أشرف المخلوقات وأنّ كل شيء في هذا العالم قد خُلق له.

كانت هيلديغارد امرأة بارزة، ورائدة نسوية في عصرها في بعض البقاع. فبينما كانت النساء المحترمات في عصرها قليلات جداً، كانت تُستشار من قبل البابوات والأساقفة والملوك. وفي الزمن الذي قلما كنا نجد فيه امرأة كاتبة، كانت تكتب في التاريخ الطبيعي والاستخدامات الطبية للنباتات والأعشاب.

وكانت أيضاً أول ملحّنة معروف تأريخ حياتها. وقد شيدت صومعة تنبض بالحياة للنساء كانت تُنَفَّذ فيها أناشيدها وآثارها الفنية.

كانت بحق امرأة فذة في العصر الوسيط، إذْ نجحت في التفوق على جميع

---

(١) Elbingen.

(٢) Book of Life's Merit.

(٣) Book of Divine Works.

(٤) Physica.

(٥) Causae et Curae.

العقبات الاجتماعية والثقافية والجنسية من خلال استخدام معلوماتها الواسعة في الدين والطب والموسيقى، حتى استطاعت ان تحصل على سمو خالد غير محدود بزمان.

بريجيتا السويدية (١٣٠٣ ـ ١٣٧٢)

هذه المرأة وعلى غرار هيلديغارد، بدأت الفترة السياسية والكتابية الجادة من حياتها بعد بلوغها الأربعين من العمر.

ترملت بريجيتا في عام ١٣٤٤ فبدأت آنذاك دورها كنبية ليس للسويد فحسب، بل لسائر أنحاء اوربا.

وكان لديها قبل ذلك كشف وشهودات، فاستعانت برجال الكنيسة في كتابتها ونشرها. ومن هؤلاء كان الاستاذ ماتياس[١] الذي ترجم لها الكتاب المقدس الى اللغة السويدية. وكانت تشير اليه والى آخرين في حلقتها بتعبير «أولياء الله».

واولى خطواتها كانت ارشاد امبراطور السويد واصلاحه، ويُدعى «ماغنوس»، وكان بحاجة ماسة الى ذلك الارشاد.

وكانت قلقة جداً من اجل اوربا لاسيما ازاء الحرب بين بريطانيا وفرنسا التي استمر ت مائة عام، ونفي البابا الى أفينيون بسبب الانقسام الحاصل في كنيسة الروم الكاثوليك خلال الفترة ١٣٧٨ ـ ١٤١٧.

فخلال هذا الحدث الاخير والذي عُرف بالانشقاق العظيم[٢] كان هناك بابا يقيم في أفينيون وآخر معارض له يقيم في روما. وفي عام ١٣٤٧ أُمر الاستاذ ماتياس من قبل الاسقف هيمنغ الآبوئي[٣] بابلاغ امبراطوري بريطانيا وفرنسا والبابا بأنّ المسيح والعذراء يأمران هذين الامبراطورين بايقاف تلك الحرب،

(١) Master Mathias.

(٢) Great Schism.

(٣) Bishop Hemming of Abo.

ويأمران البابا بالعودة الى روما.

مكاشفة

لبريجيتا مكاشفة بشأن الامبراطور ماغنوس كالتالي:

رأت في تلك المكاشفة مِقراً وكتاباً «وكان ذلك المقرأ كشعاع الشمس. وحينا نظرتُ الى الأعلى لم استطع ان ادرك طول ذلك المقرأ وعرضه. وحينا نظرت الى الأسفل، لم استطع أن ادرك حجمه وعمقه... وانما رأيتُ فقط كتاباً على ذلك المقرأ يتألق مثل اكثر انواع الذهب تألقاً.

ولم يكن ذلك الكتاب مكتوباً بالحبر، بل كانت كل كلمة من كلماته حيّة تتحدث كما يتحدث الانسان فتقول إفعل هذا أو ذاك. ولم يقرأ أي انسان نص ذلك الكتاب، غير ان ما كان يشمله ذلك النص كان يُلاحَظ على ذلك المقرأ. ومن مقابل ذلك المقرأ رأيتُ ملكاً... كان ذلك الملك جالساً وعلى رأسه تاج. يبدو انه كان جالساً في وعاء زجاجي مغلق».

واستمرت بريجيتا في وصف ذلك الكشف وتحدثت عن وجود ملاك يحفظ الملك في ذلك الوعاء الزجاجي، ووجود شيطان يهدده.

انها تتحدث عن ذلك الملك الحي وكأنه جالس في وعاء من الزجاج، لأنّ حياته قابلة للإنكسار والتحطم كالزجاجة. وتقول انّ هذا الملك يمارس المعصية عن عمد لكنه لو تاب لأنقذه الملاك من شرّ الروح الشريرة.

وتضيف قائلة بأنه كان الى جانبه ملك ميّت والى جانبه لوحة تتحدث عن حبّه للشهوة وحرصه وطمعه. ثم تتحدث الكلمة الالهية من ذلك المقرأ قائلة: «ما تبصرينه هو الذات الالهية نفسها. وانّ عدم قدرتك على ادراك طول وعرض وعمق وارتفاع ذلك المقرأ، يعني انه لا وجود للبداية والنهاية في اللة، لأنّ الله بلا بداية ولن تكون له نهاية».

وقالت أيضاً بأنّ الكلمة الالهية خاطبتها قائلة: «الكتاب الذي تجدينه على

المقرأ يعني انّ في الذات الالهية عدلاً وحكمة لا نهاية لها، فلا يضاف اليهما شيء ولا ينقص منهما شيء. وهذا هو كتاب الحياة، وليس كالكتب الدنيوية التي لم تكن ثم كانت، بل انّ نص هذا الكتاب خالد وأبدي، لأنّ في الذات الالهية وجوداً لا نهاية له. وبالامكان ادراك ما هو موجود وما كان موجوداً وما سيوجد، بدون حدوث أي تبدل أو تغيير. وليست هناك شيء غير مرئي عنده لأنه يرى كل شيء».

القول بأنّ الكلمة الالهية تتحدث بذاتها، بمعنى انّ الله تعالى كلمة غير متناهية، وجميع الكلمات منه، وكل شيء، يمتلك الحياة والوجود فيه. وحينما تتحدث هذه الكلمة بصورة مرئية، فانها حينذاك قد أصبحت في صورة انسان، وأضحت معروفة بين الناس.

وأضافت بريجيتا حين ذكر هذه المكاشفات في الرسالة التي بعثتها الى الملك، انها في حالة تقديم كلمات الكلمة الالهية اليه. مؤكدةً له : لو انّ عدداً قليلاً من الناس قد ادرك الكلمات السماوية النازلة من الله وآمنوا بها، فليس الذنب ذنب الله، وانما ذنب الانسان.

وكتبت بعد ذلك:

«رأيتُ محراباً وكأساً وخمراً وماءً وخبزاً. ورأيتُ قسيساً في كنيسة عالمية يرتدي الزيّ الرسمي ويقدم العشاء الرباني. وحينما انتهى من تقديمه، رأيتُ الشمس والقمر والنجوم والأجرام جميعاً وقد أخذت ترتل أعذب الألحان».

ورأت في كشف آخر لها في أواخر عمرها ابنها المخطئ تشارلز وهو يُحاكَم في كنيسة المقبرة المقدسة. وأدت أدعيتها ودموعها من اجل ولدها الى أن ينسى الشيطان ذنوب ولدها وخطاياه. فالكتاب الذي كتب فيه الشيطان تلك الذنوب قد تحولت أوراقه الى بيضاء فجأة. والكيس الذي وضع تلك الذنوب فيه، حينما فتحه الشيطان لم يجد فيه شيئاً. ونسي الشيطان تلك الذنوب تماماً، ولذلك أُخذ

الشيطان الى جهنم وهو يبكي ويلعن بريجيتا.

انّ معظم صور خيالاتها ذات صلة بالمحاكم، لأن أباها كان قاضي بلاط ملك السويد، كما كان زوجها قاضياً أيضاً.

وبعد طاعون عام ١٣٤٨ تنبّأت أنّ يوم القيامة قريب جداً وكتبت الى الامبراطور ماغنوس تخبره بذلك. ثم رحلت الى ايطاليا بعد ذلك اذ ان البقاء في السويد بات يشكل عليها خطراً كبيراً. وأقبلت في بيتها على العبادة. وطالما كانت تعيش حالة الكشف والشهود. وكان لها كتّاب من الرجال كانوا يساعدونها، أحدهم اسقف أسباني يُدعى الفونسو الجايني[١].

سافرت في أواخر حياتها الى الأرض المقدسة. وكانت تلقي المواعظ خلال مرورها بنابولي وقبرص. وتنبأت بسقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٢.

كتابها الكبير حول الانكشافات الالهية، قد طُبع فيما بعد وانتشر في سائر أرجاء اوربا.

حين موتها عقد كل من الفونسو الجائيني، والملكة جوانا من نابولي، والملكة مارغريت من السويد، والامبراطور تشارلز من هميا، والكاردينال آدم ايستوف من بريطانيا، العزم على اعتبارها قديسة[٢].

جوليان النورويتشية[٣]

وهي عارفة وكاتبة كاثوليكية انجليزية وقد أخذت اسمها من اسم كنيسة القديسة جوليان النورويتشية. ولا نمتلك معلومات كثيرة عن حياتها. أمضت السنين الأخيرة من حياتها في كنيسة القديسة جوليان كامرأة منعزلة. ويُحتمل انها كانت تدعم هذه الكنيسة مالياً.

---

(١) Alfonso of Jaen.

(٢) See: Bolton, Julia . (the Mystics; Internet), Hallawy, 1977, Online.

(٣) Julian of Norwich.

أوردت انها كان لديها في الثامن من حزيران عام ١٣٧٣ خمس عشرة مكاشفة على مدى خمس ساعات. كما كان لديها مكاشفة في اليوم التالي. وكانت تبلغ من العمر آنذاك خمساً وثلاثين عاماً. وانبرت بعد ذلك بعشرين عاماً لتفسير تلك المكاشفات في كتاب يحمل عنوان «ست عشرة مكاشفة في الحب الالهي»(١).

ويُعدّ كتابها هذا ثمرة تأملاتها من اجل الرسوخ في معنى هذه التجارب العرفانية الأصيلة والتي على رأسها مكاشفاتها في آلام المسيح والتثليث.

تفسير هذه المكاشفات المدعم بذكر مكانها وزمانها، ممتزج بتأملات في مضمار أسرار الايمان، والدعاء، والعبادة، لاسيما حب الله. فهي تعتقد انّ مفتاح حل جميع هذه المسائل، كامن في الحب الالهي، لاسيما مسألة الشر التي وان كانت نوعاً من فقدان الواقعية الالهية، إلّا انها في الحقيقة ليست سوى انحراف للارادة الانسانية التي كلّما انكشفت أكثر، كشفت عن الحب الالهي اكثر.

ويبدو انّ جوليان قد كتبت كتابها تأثّراً بالأفكار الافلاطونية والتي من الممكن انها قد وقفت عليها عن طريق كتابات والتر هيلتون وكتاب «سحب الجهل»(٢).

جوليان وعلى خلاف بعض القديسات مثل مارجري كيمب، كانت لديها حياة انعزالية، وكانت تبحث عن مكاشفات خارج دائرة الكنيسة. فكانت تعيش في غرفة ملتصقة بالكنيسة ولا تتصل بأي أحد إلّا عند الضرورة. فكانت تركز كل ما لديها من قوى من اجل استلام المكاشفات العرفانية.

وكانت كتاباتها والمواد الأولية لكشفها وشهودها، انعكاساً لتعقيدات جمالات المرأة المعنوية. فكانت من خلال انتخاب نمطها الحياتي، وكذلك عن طريق طبيعة

---

(١) Julian of Norwich, Revelations of Divine Love, tr. by: Clifton Walters, New York, Penguin, 1982.

(٢) See: (Julian of Norwich) in the Oxford Dictionary of the Christian Church, pp. 766 - 767.

مكاشفاتها، قد فصلت نفسها عن الدور الذي كان يُتوقَّع من المرأة في العصر الوسيط أن تنهض به[١].

كانت مرجعية المرأة نادرة جداً في بريطانيا خلال العصور الوسطى. فطبيعة حياة المرأة وانحباسها في البيت، ادى بها الى أن تبقى في الهامش على الأصعدة الثقافية والاجتماعية والسياسية. غير أن الكنيسة فتحت قناة كان بامكان المرأة ان تتعلم عن طريقها، لكنها كان ممنوعاً عليها في نفس الوقت ممارسة الوظائف التي يمارسها رجال الكنيسة، ولا يحقّ لها أن تكون قسّاً.

ان السير والسلوك العرفاني قد وفرا للمرأة منبراً من اجل ايصال صوتها الى الآخرين. وتُعدّ جوليان من بين تلك النسوة اللاتي انتهزن هذه الفرصة جيداً، فسلطت في كتاباتها الضوء على العنصر النسوي في السير والسلوك العرفانيين.

ويتضح لنا من اسم كتابها، انّ جميع شهوداتها كانت في مضمار الحب الالهي. وقد صورت الله في هذه الشهودات والمكاشفات كالأم التي تشمل بحبها الامومي جميع ابنائها. وبذلك نراها قد مزجت بما لا يقبل الفصل، بين عنصر التأنيث وصور الخيال الامومية لتؤلف منهما حواراً لا يلتقي مع حوار سيادة الرجل في اللاهوت المسيحي.

ومن المهم رغم ذلك الالتفات الى الأمر التالي وهو أنّ جوليان وسائر القديسات المسيحيات كنّ مجبرات للتحدث في داخل هيكلية سيادة الرجل، حيث يلعب الرجل وفقاً لتعاليم القديس بولس دور الآمر والمرأة دور المطيع. فيرى بولس على صعيد تعليم المرأة: «وعلى المرأة أن تتلقى التعليم وهي صامتة بكل خضوع»[٢].

غير ان جوليان تتحدث عن كشفها وشهودها، وتقف بوجه فكرة العصور الوسطى القائلة بأن على المرأة اختيار الصمت ازاء القضايا المعنوية والدينية،

(١) Everhart, Deborah, Medieval Women, Online, 1995.

(٢) العهد الجديد، الرسالة الاولى الى اهل طيموتاوس، ٢ / ١١.

وتقول: «اذا كنت أمرأة، فهل لا يحق لي التحدث معكم عن احسان الله؟!»[١].

اللهجة التي تميزت بها كلمتها هذه وغيرها لتدل على مدى استقلالها الفكري وثقتها بنفسها. ولاشك في ان هذه الثقة بالنفس ناشئة الى حد كبير من مقامها لفكري الرصين، حيث كان لديها علم كبير باللغة اللاتينية واللاهوت الانجيلي.

فحينما انتُزعت فرصة التعلم عن النساء في العصر الوسيط، استطاعت جوليان ن تحظى بالاعتبار والتكريم من خلال هذه المعلومات التي لديها عن الكتاب لمقدس وبراعتها الأدبية. أي ان مرجعية الجنس المؤنث تعود في الواقع الى مدى لتمتع بالمعلومات الدينية والتي تجلّت في بعض الشخصيات النسوية مثل جوليان.

ويكشف البحث الدقيق في الصور الخيالية التي ظهرت في مكاشفاتها عن عمق معلوماتها الدينية وتأثير العنصر النسوي في سلوكها المعنوي. فمتى ما ظهر رجل وأصبح ذا اعتبار، فانه يصبح خنثى امام مرونة القوة النسوية وحضور العناصر لمؤنثة. وعليه فالله الذي هو «الأب السماوي» في الثقافة المسيحية، قد أخذ معنى خاصاً عند جوليان.

ففي احدى مكاشفاتها شاهدت الله على صورة ملك واقف على رأس سلسلة مراتب الوجود. رأته وقد وضع التاج على رأسه، وقالت بأن الوهيته تكشف عن مقام الأب. وأن وقوع الله على رأس القوة يكشف عن هيمنته على كل شيء وتوزيعه للعدل. غير ان الذي يحظى بالاهتمام هو انّ هذا المقام العظيم ليس ملازماً للغضب، لأن الله مؤشر على السلام والصلح ايضاً. وبذلك يكشف عن المقام لسالم للروح الانسانية. وعليه فقد ظهر الله بلا غضب في هذه المكاشفة وغلب عليه جانبه الانثوي[٢].

نستشف من كتاب مارجري كيمب التي التقت بها بين ١٤٠٠ ـ ١٤١٠ انها كانت ذات شهرة واسعة في قضايا التشاور بالشؤون المعنوية. ومن المحتمل انها

---

(١) Julian of Norwich, Revelations, Ch.6.

(٢) Ibid, Ch.[illegible]

كانت لاتزال تعيش في بيتها حينما حدث لها مكاشفات عام ١٣٧٣. وهذه المكاشفات التي تسلط الضوء على حياتها المعنوية قد وصلت الينا في روايتين: طويلة، وقصيرة.

ورغم ان كلا الروايتين معتبرتان غير أنّ مخطوطة الرواية القصيرة أقدم من الرواية الطويلة. ومن المفروض عادة ان تكون الرواية القصيرة خلاصة للرواية الطويلة، ورغم هذا يعتقد الباحثون انّ الرواية القصيرة قد كتبتها في بداية الأمر، في حين تمثل الرواية الطويلة نتاج التأملات والاشراقات التي كانت تستلمها على مدى عشرين عاماً بين الرواية الاولى والثانية.

ورغم عدم توفر معلومات ذات بال عن حياة جوليان قبل مكاشفاتها، لكن من الواضح انها كانت زاهدة نادرة. فحين ظهور مكاشفاتها كانت لازالت تعيش مع امها في البيت وتعبّر لها عن حبها العميق.

تقول جوليان انها كانت تسأل الله ثلاثة أشياء: الاول ان يجعلها ترى آلام المسيح بعين رأسها كي تساهم في هذه الآلام عن طريق الحب، مثلما فعلت ام المسيح ذلك.

والثاني ان يعطيها مرضاً جسمياً كي تشرف على الموت عن طريق جميع الآلام الجسمية والنفسية والمعنوية، فيتطهر ذهنها وقلبها بهذه الطريقة من حب جميع الامور الدنيوية.

والثالث ان يهبها ثلاثة جراح: جرحاً ناشئاً من حزن الذنب، وجرحاً ناشئاً من المساهمة في الم المسيح، وجرحاً ناشئاً من الشوق الى الله.

وقيّدت الطلبين الأولين بعبارة «اذا شاء الله ذلك» لاطنها كانت تعلم انهما خارجان عن المألوف. اما الثالث فلم تقيّده بقيد.

وقد المّ بها المرض حينما كانت في العام الخامس والثلاثين من عمرها، وذلك في اليوم الثالث وحتى اليوم الثامن من مايس عام ١٣٧٣. وقد نقلها هذا المرض الى حافة الموت، حتى تصور جميع من كان حولها ـ كأمها والقس ـ انها في حالة

الاحتضار، ولذلك وُضع الصليب أمام وجهها وانهمكوا في اجراء آخر المراسم الخاصة بالموت . إلّا انها شعرت فجأة انّ الألم قد انتهى تماماً وانقلب الصليب أمام عينها الى شيء آخر وأخذت تسيل منه قطرات من الدم. ثم اخذت تظهر لها المكاشفات بعد ذلك.

بدأت المكاشفة الاولى في الساعة الرابعة صباحاً، واستمرت تترى باقي المكاشفات حتى انتهت آخر مكاشفة في ذلك اليوم في الساعة التاسعة صباحاً. وحدث لها مكاشفة اخرى ـ وهي الأخيرة ـ في اليوم التالي. وحينما انتهت هذه المكاشفة شعرت ان مرضها قد عاد اليها.

واستغرقت بعد ذلك في النوم، وتعرضت لتهديد الشيطان في النوم وبعد اليقظة.

والغريب في الأمر انها قد ميّزت بين مكاشفاتها ومكاشفات من قبلها. فقبل جوليان انبرى أهل الكشف والشهود لوصف آلام المسيح، غير أنّ مكاشفاتها تميزت عن مكاشفاتهم بميزتين رئيسيتين:

الاولى انّ عنصر التصوير فيها قليل فبرغم أنّها واضحة إلّا انها أقرب الى الانتزاعية منها الى التصويرية.

والثانية انّ هذا العنصر التصويري يقع في الدرجة الثانية من حيث المجموع. فالرؤية بعين الرأس لا تفعل شيئاً سوى عرض مكاشفات اعمق على ذهنها. وهذا أمر لم يتحقق دفعة واحدة، وانما خلال سنوات طويلة ضمن مراقبة أو بصيرة معنوية كاملة ولربما غير قابلة للافشاء في مضمار الحقيقة الالهية الكامنة خلف ذلك النوعين من المكاشفة السابقة.

انها تقول بأنّ جميع التعاليم المقدسة قد أراها الله لها في هذه المكاشفة، أي بواسطة الرؤية بعين الرأس، وعن طريق الكلمات التي تبلورت في ذهنها، ومن خلال رؤية الصور الخيالية. وقالت بشأن الرؤية بعين الرأس انها وصفت ما رأت بما كان ممكناً من الصواب، وأنها قالت جميع الكلمات بالصورة التي كشفها الله لها. اما بشأن الصور الخيالية فقالت بأنها قد تحدثت عنها ولكن ليس بمقدورها

التحدث عنها بشكل كامل.

طبقاً لكتابات جوليان، يبدو انها لم تحدث لها اية مكاشفة بعد هذا التاريخ. غير انّ سؤالها عن معنى أحد شهوداتها، قد وجد اجابته بعد خمسة عشر عاماً في «ادراك خيالي»، فيا وجدت الاجابة على أصعب شهوداتها بعد عشرين عاماً. وهاتان الاشارتان لتدلان على انّ أحداث الثامن من مايس كانت موضع تأمل وتفكير بالنسبة لها بشكل دائم.

وقسمت جوليان مكاشفاتها الى أربعة اقسام:

الأول، الرؤية بعين الرأس.

الثاني، الرؤية في عالم الخيال وهي شبيهة بالرؤية بعين الرأس.

الثالث، رؤية أكثر خيالية من السابقة ولا تشبه الرؤية بعين الرأس.

الرابع، الرؤية الخيالية.

وهذا التقسيم يذكّر بثلاثة انواع من المكاشفة التي أشار اليها القديس اوغوسطينوس، ثم أوردها جميع المتكلمين في العصور الوسطى ضمن آثارهم ومن بينهم القديس توما الاكويني. وبذلك تُعدّ تقليدية. وهذه الانواع الثلاثة هي:

١ ـ الكشف الجسمي، والذي يُعدّ من نمط الادراكات الحسية.

٢ ـ الكشف الخيالي، والذي يُعدّ من ادراكات الحواس الباطنية.

٣ ـ الكشف القلبي، وهو المعرفة المحضة، والتي تُكتسب اما ضمن اطار استيحاء الافكار أو الكلمات، أو عن طريق اسمى من ذلك.

وتؤكد جوليان في ذات الوقت على انّ جميع مكاشفاتها تنطبق انطباقاً كاملاً مع التعاليم الدينية وقيم الكنيسة. لكنها تذكّر بأنّ الكشف أو الشهود ليس دليلاً على قدسية صاحب الكشف والشهود، ولا يفيد روح الانسان شيء سوى الايمان والحب.

ونستنتج من ذلك انّ جوليان تتفق مع المتكلمين ذوي النزعة العرفانية في الفكرة التالية وهي: ان المكاشفة في حد ذاتها ليست من الألطاف والفيوضات

العرفانية، أي لا تعدّ جزءاً أساسياً من الحياة العرفانية أو التأملية.

والسؤال الذي يثير نفسه هو: هل بلغت جوليان مرحلة عالية من الاتحاد بالله؟

والحقيقة هي انّ بعض مكاشفاتها الخيالية، من هذا النوع، والتي قال فيها القديس يوحنا الصليبي أنها لا تتحقق إلّا لأولئك الذين اتحدت روحهم مع الله. واذا لم يكن الأمر كذلك، فلابد من القبول على الأقل بأنها كانت انسانة من أهل التأمل والمراقبة العميقة.

ولجوليانا عدة مكاشفات مهمة في مريم العذراء، قالت في احداها:

«في هذه المكاشفة أورد الله السيدة المقدسة الى ذهني. وقد رأيتها في رؤية خيالية شبيهة بالرؤية بعين الرأس: آنسة بسيطة وانسانة متواضعة، صغيرة في السن واكبر قليلاً من الطفل. وكانت ذات قامة من هي حبلى. وأراني الله أيضاً حكمتها وحقيقة روحها فأدركت عظمة خالقها وصغرها كمخلوقة... وأدركت في هذه الرؤية بهدوء انها من حيث القيمة والبركة أسمى من كل تلك الأشياء التي هي دون رتبتها، اذ لم يُخلَق شيء فوقها عدا الرجولة المقدسة للمسيح».

بعد ذلك ترى جوليان مريم الى جانب الصليب:

«رأيت هاهنا جزءاً من شفقة سيدتنا مريم المقدسة، لأنها والمسيح كانا فريدين في الحب، بحيث أنّ عظمة حب مريم كانت سبباً في عظمة ألمها... اذ كلما كان الحب اكبر وأعذب، كان ألم رؤية المحب لبدن الحبيب اكبر واعظم».

وأدركت جوليان عظمة الحب الالهي لمريم ورأت انها أمُّ الجميع:

«وبما أنّ بذور كل انسان يحظى بالخلاص، قد أُلقيت في المسيح، فهو اذن انسان كامل. وعليه فسيدتنا هي أُمّنا، حيث جميعنا منطوون فيها، وولدنا منها في المسيح، لأنها أُمُّ مخلّصنا، وأُمّ جميع اولئك الذين يتخلصون بمخلصنا. ومخلصنا هي أُمّنا التي هي حُبلانا الى الأبد».

العبارة الأخيرة تقدم لنا جزءاً مهماً من تعاليم جوليانا، أي الاعتقاد بأمومة

الله. ويُعدّ القديس أنسلم أول من اعتقد بهذه الفكرة بين المنظرين المسيحيين الغربيين. ولربما كانت جوليان على علم بتعاليمه وآرائه. ومن الواضح انّ مفهوم الامومة قد أوجد دوياً عميقاً في وجود جوليان.

تقول جوليان في المسيح عيسى:

«امنا الحنون، امنا الرؤوم الكريمة، من أجل ان تكون أمنا في كل شيء، فقد وضعت موضع أعمالها بشكل متواضع تماماً وبصورة هادئة تماماً في رحم تلك العذراء ـ أي مريم ـ... فخدمة الأم الأقرب هي اكثر الخدمات استعداداً ووثوقاً لأنها أخلص خدمة... فنحن نشهد على انّ جميع مخاضات امنا قد جاءت بنا الى الألم والموت. وما هذا سوى انّ امنا الحقيقية، أي عيسى، الذي هو الحب الذي لا يتناهى، قد أنجبتنا للسرور والحياة الأبدية؟... فالأم قد تُعطي لابنها لبناً قليلاً، غير انّ امنا العزيزة ـ عيسى ـ يمكنها ان تغذينا من نفسها، وتقوم بهذا العمل عن رغبة عظيمة، من خلال المراسم المقدسه (= العشاء الرباني) التي هي الطعام القيّم للحياة الحقيقية... هذه الكلمة الجميلة العاطفية (اي) الام، على جانب كبير من العذوبة والحنان بحيث لا يمكن استخدامها إلّا فيه (أي في عيسى) وفي امه مريم التي هي الام الحقيقية لعيسى والجميع».

اولئك الذين قرأوا كتاب جوليان كلّه، يدركون كيف تنظر بعمق وفي ذات الوقت ببساطة الى أسرار الايمان، أي التثليث المقدس، ووحدة الكلمة الالهية أو الطبع الانساني، والمعصية الذاتية، والخلاص.

ولابد أن يعجب المرء من الامور العميقة في ذهن هذه المرأة المعتزلة، وكذلك من قوة فكرها خلال سعيها لتوضيح هذه الأمور وشرحها.

غالباً ما يُشعر انها قد رأت في باطن روحها الانسانَ ومصيره من جانب المعرفة الالهية التي لا زمان لها، ولم يكن بامكانها ان توفق بين هذه الرؤية وبين ما يمر عليه خلال حركة الزمان.

كانت تعلم انها حينما تتحدث بضمير المتكلم، تتحدث في ذات الوقت بالنيابة

عن كل انسان مسيحي: حبّ المسيح، وموت المسيح وان كانا لها، إلّا انهما أيضاً لكل من سيجد الخلاص. فلم يكن بامكانها ان ترى الفرد، بل كانت ترى جميع الناس.

انّ كل قارئ يقع تحت تأثير تفاؤل جوليان، رغم انها كانت على علم بالضعف والألم والمعصية، وتعتقد تماماً بتعاليم الكنيسة بشأن العذاب الأبدي. والكلمات التي تُنهي بها كتابها، مشهورة:

«اذا اردت ان تعرف ما هو مراد الله من كل هذا، فاعلم انّ مراده هو الحب. فمن هو الذي دلك عليه؟ الحب. ما هو الشيء الذي دلك عليه؟ الحب. لماذا دلك عليه؟ من أجل الحب».

جوليان، عبّرت وعلى عزار جميع العرفاء عن عجزها عن وصف مكاشفاتها كما حدثت. وكانت ترى الحقيقة في الحكمة العلوية، وبامكانها قبول التناقضات الظاهرية. وحينما تنطلق لاستخدام الفكر واللغة البشرية، تبقى تلك التناقضات الظاهرية على حالها.

تُعدّ جوليان من حيث الاستعدادات والمواهب الذهنية والقلبية، احدى ابرز النساء الانجليزيات في عصرها ان لم تكن ابرزهن جميعاً.

كان بامكان ذهنها ان يتعامل مع أعمق الأسرار الالهية والحياتية، وقد استطاع ان يجتذب معظم الاصطلاحات العرفانية والدينية المعقدة.

كما كانت امرأة كريمة وعطوفة، وذات رهافة كبيرة في الاحساس، وكان بامكانها ان تكشف عن ذلك بكلمات تشق طريقها الى القلب مباشرة. ولم تكن لغتها صعبة ولا سهلة جداً، لأنّ لديها ذاكرة قوية ودائرة واسعة من الكلمات.

ومن حيث الجدية والعمق، كان لديها مقام رفيع جداً بين عارفات العرفان الوسطى[١].

---

(١) Knowles, David, the English Mystical Tradation, London, Burns and Orales, 1961, Ch.V11, Julian of Norwich.

جوليان من وجهة نظر عارف معاصر

من المناسب ان نشير ضمن هذا الاطار الى رأي توماس ميرتون[١] في جوليان النورويتشية. فهو يقول: «من المحتمل ان تكون جوليان أشهر من جميع العارفات الانجليزيات واكثرهن جاذبية. وهي من طراز كاترين السيناوية وبريجيت السويدية، مع فارق هو انها وعلى العكس من معاصراتها لم تشغل نفسها بالقضايا ذات الصلة بمختلف العوالم والكنيسة، وانما حجزت نفسها في زاوية هادئة... ولاشك في انّ السيدة جوليان اعظم العرفاء الانجليز. مضافاً الى ذلك انها من اعظم علماء اللاهوت الانجليز بالمعنى القديم لكلمة اللاهوت[٢]...

جوليان ـ في الواقع ـ تركيب رائع من التجربة العرفانية والتأمل اللاهوتي بدءاً بالمكاشفات الجسمية لمصائب المسيح وانتهاء بالمكاشفات القلبية للتثليث، وكذلك بدءاً بالتأملات على صعيد الخلقة والمشيئة وانتهاء بالمكاشفات التي تكشف عن سر الفدية والرحمة الالهية.

ولا يبدو دقيقاً وضع مكاشفاتها في اطار «الكشف الخصوصي»، ولاشك في انها كان لديها كشف عن نمط «الحب الالهي»، يضارع كشف القديسة تيريزا الأفيلائية[٣] أو القديسة مارغريت ماري[٤]، سيما وان عنوان كتابها هو:

(Revalations of Divine Love).

ولكن ينبغي فهم هذه الكشوفات والشهودات كما ينبغي. فهي تجارب فوق طبيعية، عميقة، نافذة، عن الحقائق التي انكشفت للكنيسة وعُلِّمت من خلالها.

---

(١) Thomas Merton، من رهبان القرن العشرين ومن أعضاء فرقة اللاترابيين (Trappists) المتنعين عن الكلام. ويُعد من الوجوه العرفانية العالمية الشهيرة. ولديه ٢٩ كتاباً في العرفان والمعنوية.

(٢) المراد بالمعنى القديم للاهوت ليس فقط فهم الحقائق الدينية، وانما ان تتحقق فيه ايضاً.

(٣) Tresa of Avia.

(٤) Margaret Mary.

ولابد من التأكيد على انّ كتابهـا عيني وواقعي بكامله. ورغم انه شخصي، لكن يجب ألا يُعدّ مجرد تقرير عن التجارب النفسية الفردية، وانما هو وثيقة تشهد على تعاليم الكنيسة، وشرح نابع من التأمل. وهو في حقيقة الأمر عرفان من التعاليم الأساسية للمذهب الكاثوليكي.

لاهوت السيدة جوليانا، لاهوت قائم على كمال الحب الالهي. فالحب الالهي من وجهة نظرها، حقيقة نهائية تفقد في ظلها جميع المخلوقات وجميع صروف الحياة والتاريخ أهميتها. وهذا لا يعني ان العالم والزمان والكون والتاريخ، امور غير حقيقية، وانما تتمثل حقيقتها في انكشاف الحب فقط.

غير انّ هذا الانكشاف غير واضح بشكل مباشر. بل لابد من موهبة الهية من اجل ان يُشرق هذا الانكشاف، ولكي يُلاحَظ كل معنى العالم والكون من حيث علاقته الحقيقية بالله وتدبيره الأزلي المتّسم بالرحمة»[(١)].

وتقول جوليان في احدى مكاشفاتها:

«رأيت سائر أرجاء العالم في صورة تافهة وبحجم بندقة في كف يدي. وحينما سألت ما هذا؟ أُجِبت اجابة عامة: هذا عالم المخلوقات. فكنت اتساءل في دهشة: مثل هذا الشيء التافه الى متى بإمكانه ان يستمر؟ اذ بدا قابلاً للفناء في كل لحظة»[(٢)].

«والغريب في الأمر هو انّ اهمية هذه المكاشفة كامنة في الحقيقة التالية وهي انّها تكشف بشكل اكبر عن اهمية عالم المخلوقات لا عن تفاهته، لأنّ العالم وان لا يُعدّ شيئاً قياساً الى الله غير المتناهي من المنظار الوجودي، غير انّ الحب الالهي هو الذي طلب هذا العالم وحافظ على وجوده. وعليه يمكن الاستنتاج بأنّ هذا

---

(١) Merton, Thomas, Mystics and Zen Masters, New york: Dell publishing Company, 1967, pp. 140 - 141.

(٢) Julian of Norwich, Revalations of Divine Love, in a new translation by James Walsh, S.J. London, 1961.

العالم عظيم عند الله لأنه مظهر لحبّه الذي لا يتناهى»[١].

وتتحدث جوليان عن هذه المحادثة أيضاً فتقول:

«العالم ثابت ودائم، وسيستمر في المستقبل لأنّ الله يحبه. وكل شيء، يكتسب وجوده عن هذا الطريق، أي عن طريق الحب الالهي. ورأيتُ في هذا الشيء التافه ثلاث خصوصيات: الاولى هي انّ الله خلقه، والثانية ان الله يحبه، والثالثة ان الله يحـــفظه. اذن مــاذا رأيتُ في في هـــذا الشيء التــافه؟ رأيتُ الصــانعَ والمحب، والحافظ»[٢].

اضف الى ذلك انّ جوليان رأت في هذه المكاشفة نفسها مع جميع الموجودات، محفوفين بالحب الالهي ومحاطين به، بحيث «انـه جـامع جـميع الخـيرات لجـميع الموجودات. هكذا أفهم.. انه لباسنا جميعاً، فأحاط بأطرافنا والتف حولنا جميعاً من فرط الحب. وقد احتضننا جميعاً وتعلّق من رأسنا وحتى اقدامنا كل ذلك من اجل الحب الناري الذي يكنّه لنا»[٣].

«لاهوت جوليان النوريتشية، لاهوت رحمة، وابـتهاج، وحمـد وتسـبيح. ولا يوجد من هو أوسع منها في التفاؤل في سائر آثار ومكتوبات العالم المسيحي. في احدى مكاشفاتها يوجّه اليها المسيح الأسئلة التـالية: المـعاناة التي اعـانيها مـن اجلك، ألا تُعدّ فدية جيدة؟... وهل انتِ راضية عن عـملي؟ وهـل انت راضـية عني؟ هل أنت مقتنعة من انّ عملي من اجل رضاك؟ وهل يكفي حبي لك؟

وتُجيب جوليان: نعم.

ويقول المسيح: انه لمنتهى ابتهاجي ولذتي ان اعاني كل هذا الألم من اجلك. ولو كان بمستطاعي لعانيتُ اكثر من هذا لأجلك.

ويفتح هذا الحب منظراً جديداً في السنّة الاوغوسطينية القائمة على الحب بلا

---

(١) Merton, Ibid, p. 142.

(٢) Julian, Ibid, p. 53.

(٣) Julian, Ibid.

تعلق. فالذي يميز هذا الحب في السنّة الاوغوسطينية عن سائر انواع الحب هو انه ليس فيه أي تعلّق أو منفعة مرتقبة. أي ان المحب لا يريد من الحبيب شيئاً سوى حبه.

والمكاشفة التي كانت لدى جوليان عن الرحمة الالهية والتي فسرتها على انها نوع من الحب الامومي تجاه المخلوقات، لربما أخذتها عن آثار القديس أنسلم[١]. لذلك لم تكن قد ترددت في القول بأنّ «عيسى أُمّنا»[٢].

تقول جوليان:

«منقذنا، امنا الحقيقة الحبلى بنا الى الأبد، ولن نخرج من رحم هذا المنقذ الى الأبد... والله القادر، ابونا الحنون. والله الحكيم امنا الرؤوم:ومعنا حب روح القدس وخيره. وهؤلاء جميعاً ربٌّ وخالق واحد. وحينما نمتزج بعضنا ببعض ونُصبح وحدة واحدة، فانه زوج حقيقي لنا، ونحن زوجاته المحبوبات الجميلات»[٣].

ولابد أيضاً من التوكيد على اصالة مكاشفة جوليان حول قضية الشر في ظل الرحمة الالهية، وهي المكاشفة الثالثة عشرة. ومما قالت فيها: «لابد من وجود الذنب، غير أنّ كل شيء سينتهي بخير، وكل شيء سيُختم بخير، والأوضاع والأحوال ستنتهي الى خير أيضاً»[٤].

كاترين السيناوية[٥]

كاترين هي المولود الرابع والعشرين لصّباغ سيناوي في ايطاليا. وقد رغب الكثيرون بالزواج منها إلّا انها رفضت ذلك للعهد الذي تعهدت به في البقاء عذراء

(١) كان أنسلم أول عالم لاهوتي مسيحي قال بأن الله أخذ قالباً انسانياً وظهر في صورة المسيح كي يموت من اجل ذنوب الناس ويفتدي ذنوبهم.

(٢) Merton, Ibid, pp. 142 - 143.

(٣) Julian, Ibid, pp. 83 - 157 - 158.

(٤) Ibid, p. 91.

(٥) Catherine of Sena.

عفيفة. وقررت الانضمام الى الفرقة الدومينيكانية الثالثة التي تقبل الأرامل فقط. وقد أفلحت في ذلك فأخذت تمارس مهمة رعاية المرضى والافراد المشرفين على الموت، وكذلك المجرمين المحكومين بالموت.

كان لديها عدد كبير من التلاميذ الذين كانوا يحبونها كثيراً ومنهم معتزل انگليس يدعى ويليام فليت[١] والذي اعتمدت جوليان في كتابها «المكاشفات»[٢] على كتابه المسمى «علاج الاغواءات»[٣].

ومنهم أيضاً قانوني يدعى كريستوفانا دي غانو[٤] الذي ترجم فيما بعد كتاب «الوحي والانكشافات الالهية»[٥] لبريجينا السويدية الى اللغة الايطالية.

ومنهم أيضاً اندريا فاني[٦]، وكان رساماً رسم صورة دقيقة لكاترين لازالت في سان دومينيكو[٧]، بسينا التي جرت فيها اكثر مكاشفاتها.

كان ريموند الكابيوائي[٨] هو الذي كتب حياتها، وقد أصبح فيما بعد رئيساً للطائفة الدومينيكانية.

وكان البابا اوربان السادس[٩] معتمداً على كاترين كثيراً في بقائه.

توفيت كاترين في الثالثة والثلاثين من العمر بعد حياة سياسية متحركة بما يفوق طاقتها، بفعل ثقل المسؤولية التي أُلقيت على عاتقها من قبل الكنيسة، وبعد فترة من الصراع مع المرض.

---

(١) William Flete.

(٢) Showings of Julian of Norwich.

(٣) The Remedies Againts Temptations.

(٤) Cristofano Di Ganno.

(٥) Revelations.

(٦) Andrea Vanni.

(٧) San Domenico.

(٨) Raymond of Capua.

(٩) Pope Urban V1.

حينما توفيت بريجيتا السويدية، بعث البابا غريغوريوس الحادي عشر[١] شخصاً يدعى الفونسو الجايني[٢] الى كاترين السيناوية. وكانت كاترين اميّة تماماً قبل ذلك، إلّا انها اخذت تكتب رسائل مهمة حول الصلح إلى البابوات والأباطرة والملوك والملكات.

وطلب البابا اوربان السادس من كاترين ان تنضم الى كاترين السويدية ـ بنت بريجيتا ـ للتفاوض مع الملكة جوانا النابولية[٣] بالنيابة عنه.

وعدا الرسائل التي خلفتها، لها كتاب عرفاني مهم يحمل عنوان «الحوار»، وهو عبارة عن حوار بين الله وابنته، أي روح كاترين. وفي هذا الحوار يقول الله لكاترين ان ولده (= المسيح)، هو الجسر بين الله والانسان. وهو جسد متدرج يبدأ بالعواطف الايجابية وينتهي بالحب ومن ثم بالسكون.

ويقول لها أيضاً ان الوهية ولده قد امتزجت بتربتها البشرية.

ويبدو انّ هذا الأثر قد ترك تأثيراً على كتاب «مكاشفات» جوليان بواسطة الكاردينال آدم ايستون[٤] الذي كان على معرفة جيدة بكاترين السيناوية، وجوليان النورويتشية، وبريجيتا السويدية.

وتركت كتابات كاترين العرفانية ـ لاسيا كتاب «الحوار» ـ وسلوكها الزاهد، تأثيراً كبيراً على المذهب الكاثوليكي في العصر الوسيط.

عُدَّت «كاترين» قدّيسة عام ١٤٦١، ودعيت كأحد اساتذه الكنيسة[٥] في عام ١٩٧٠.[٦]

---

(١) Pope Gregory X1.

(٢) Alfonso of Jaen.

(٣) Joana of Naples.

(٤) Cardinal Adam Easton.

(٥) A Doctor of Church.

(٦) See: Dictianary of Religion, ed. Jonathan Smith, Harpercollins, U.S.A, 1995, and Bolton, Julia, The Mystics Internet, Holloway, 1999, online.

مارجري كيمب[١] (١٣٣٩ ـ ١٣٧٣)

كانت ربة بيت لا تقرأ ولا تكتب، إلّا انها انطلقت بشجاعة لتقليد حياة القديسات وتعلم كتبهن. ومن اجل النهوض بهذه المهمة كانت تطلب من الآخرين كي يقرأوا عليها الكتب الدينية لوالتر هيلتون وبريجيتا السويدية. وسافرت بعد ذلك الى نفس الاماكن التي زارتها بريجيتا من قبل، مثل كومبوستيلا[٢]، والقدس، وروما، وتروندهيم[٣]، وكولن، وغودانسك.

وكان الدومينيكانيون في لين[٤] على صلة مباشرة بريموند الكابوائي تلميذ كاترين السيناوية.

انبرت بعد ذلك لكتابة خواطرها تحت عنوان «كتاب مارجري كيمب»[٥]. وقدّمت عن نفسها صورة اتسمت بالجد والجفاف، على العكس من بريجيتا السويدية، وجوليان النورويتشية، وكاترين السيناوية، اللاتي اتسمن بروحية مرحة ومحيا طلق[٦].

كانت زوجة وأُماً وعارفة، وعقدت مع زوجها عقداً للتحرر من الأدوار المحتومة التي تُتوقَّع منها، وأُعفيت بموجب هذا العقد أيضاً من وظائف الزوجية، وحصلت على الإذن بالسفر، وساهم زوجها في كشفها وشهودها.

على العكس من حياة جوليان الانعزالية، كانت لديها حياة اجتماعية كاملة، حتى انها انبرت لمعارضة رجال الكنيسة ودافعت عن حقها في الحديث بشأن

---

(١) Margery Kempe.

(٢) Compostela، قبر يُزار في شمال اسبانيا، يعتقد النصارى ان القديس جيمس ـ من حواريي المسيح ـ مدفون فيه.

(٣) Trondheim.

(٤) Lynn، الموضع الذي كانت تقطن فيه كيمب في بريطانيا.

(٥) The Book of Margery Kempe, B.A. Winde att, New York, Renguin, 1985.

(٦) Bolton, Julian, Mirror of Saints, Holloway, 1999, Online.

مكاشفاتها بين الناس.

لقد قدّمت لنا نمطاً جديداً من الثقافة. فهي لم تكن تقرأ وتكتب غير انها كانت خبيرة في تفسير الكتاب المقدس وشريعة الكنيسة. وكانت جزءاً من تلك الطائفة من النساء اللاتي، بالرغم من القيود الكثيرة التي فرضها عالم سيادة الرجل، استطعن ان يحصلن على الحق في التعبير عن آرائهن وكتابة ما لديهنّ من أفكار. وحاولن من خلال كتابة قصص حياتهن التصدي للكتابات المناهضة للمرأة. وقد لعبن خلال ذلك دوراً كبيراً في تاريخ المساواة بين الجنسين(١).

في معظم المواجهات الانكشافية بين مارجري والمسيح، كان المسيح يظهر لها ليس في لحظة تاريخية خاصة من حياته وانما في هيئة ماوراء الانبعاث. وفي اولى مكاشفتها شاهدت المسيح جالساً الى جانب سريرها بوجه مستبشر وفائض بالحنان. أي انها رأته خارج اطار قصة الكتاب المقدس وفي باطن عالم شخصيتها.

ومثل هذه المكاشفات العرفانية، كانت بمثابة هبات وهبها لها السيد المسيح، وليست بسبب جهودها الدينية والعرفانية. فلم تكن تطلب مثل هذه المكاشفات، بل ولم تكن تتوقعها، وانما كان المسيح هو الذي وهبها لها. لكنها لديها مكاشفات فيها الكثير من التجارب المعنوية المعقدة، وليست غير متوقعة كالمكاشفة الاولى.

ويمكن تمييز نوعين من المكاشفات عندها:

في النوع الاول منها تتحدث مع المسيح أو مريم. وهذه المكاشفات تختلف بشكل كامل عن المكاشفات الروائية التي شاهدت فيها لقطات من حياة المسيح، وساهمت فيها.

وفي النوع الثاني تظهر منهمكة في الرسائل المعنوية مثل تأملات في حياة المسيح. وهذا النوع غالباً ما كان يحدث لها اثناء التأمل والمراقبة، حيث كانت تشاهد بعض المشاهد ثم تشترك فيها كعامل فعّال، ثم تُدخِل نفسها في تلك الرواية المقدسة من خلال حديثها.

---

(١) Everhart, Deborah, Medievol Women, Online, 1995.

ولابد هنا من التمييز بين العرفان ـ أي التجربة العرفانية ـ وعمل المراقبة. ففي العرفان هناك ثلاثة عناصر مهمة:

١ ـ الشعور بالحب أو بالابّهة بين الله والعارف والذي طالما وُصف كالنار المطهِّرة.

٢ ـ هذه التجربة أوسع من الحس أو الاستدلال، ولذلك فهي لا تنتهي.

٣ ـ العارف يأخذ طابع الانفعال والقبول، ويفقد حالة الوعي الذاتي بشكل كامل.

مكاشفات مارجري، تُعدّ من نمط النوع الاول، اذا انها تصف نفسها بأنها ذائبة في الحب المتأجج في روحها. وتقول بأنّ المسيح قال لها بأنه ملأ روحها بنار الحب.

وأهم الكتب التي صُنِّفت خلال القرون الوسطى في النار العرفانية والحب الالهي هو كتاب (Incendium Amories) تأليف ريتشارد دول. وكان من بين الكتب التي قُرئت على مارجري.

والعنصر الثاني يتحدث عن ضعف اللغة عن تقرير التجارب العرفانية. وتتحدث مارجري عن عدم قدرتها على تبيان تجاربها المعنوية من خلال مشاعرها كما ينبغي. وهذا العجز ليس من تقصيرها، وانما هو جزء من مصير العرفان والتعقيد الذاتي الذي تتسم به المتون العرفانية.

غير انها لم تفقد وعيها الذاتي قط. فقد كانت تمتلك هذا الوعي في جميع مكاشفاتها بحيث كان بمقدورها التحدث والدخول الى الرواية المسيحية. وهذا الوعي الذاتي الفعال، قد ادى الى ايجاد نوع جديد من الارتباط بينها وبين الأسرة المقدسة. وعليه يُعدّ نجاحها في الانضمام الى الاسرة المقدسة للكتاب المقدس، مديناً لقابليتها على التوفيق بين المراقبة التي هي من ممارسات القرون الوسطى، والعرفان.

المراقبة أو التأمل ـ على العكس من العرفان ـ يمكن ان تحصل لكل أحد. فهي

تربي درجات حياتية أوطأ. ويمكن القول بتعبير أصح انّ المراقبة ليست نشاطاً عرفانياً، وانما هي جزء من وظائف الانسان خلال حياته اليومية.

ورغم انّ المراقبة ليست تجلياً خاصاً للفيض الالهي، إلّا انّ كتّاب متون المراقبة في القرون الوسطى، اعتبروها على صلة بمراقبة اكثر عرفانية. فمؤلف كتاب «تأملات في حياة المسيح» تحدث ـ من خلال الاستناد الى رأي القديس برنار دي كليرفو[١] ـ عن ثلاث درجات من المراقبة: الاولى هي التمركز، والثانية والثالثة هما المراقبة الحقيقية، أو العرفان.

والتمركز عبارة عن رؤية الفرد لنفسه حاضراً في الامور المتصلة بأقوال المسيح وأفعاله. وتبدأ مكاشفات مارجري الخاصة بمصائب المسيح ووفاة مريم، بهذا النوع من التمركز. ورغم انّ هذا العمل لا يبلغ في حد ذاته مستوى العرفان أو التجربة العرفانية، ولكن يمكن عده المرقاة الاولى في سلّم الصعود الى العالم العلوي. أي ان التمركز بامكانه ان ينتهي الى التجربة العرفانية.

كانت مارجري تنتقل في مكاشفاتها من دائرة لدائرة اخرى. ففي مكاشفتها بشأن وفاة مريم، فانها كانت تبكي بصوت مرتفع غير انّ الحواريين الذين كانوا هناك، كانوا يلومونها على ذلك ويطلبون منها الانقطاع عن البكاء واختيار الصمت. غير انها كانت تجيبهم: «كيف لا أبكي وأنا أرى أمّ الله تموت؟ من المستحيل هذا لأنني ممتلئة بالألم الى درجة بحيث ليس بمقدوري أن لا أبكي. فلابد أن ابكي».

وقد انطلقت بعد ذلك للحديث مع مريم في دائرة خارج اطار الزمان والمكان.

ومن هذا ندرك انها قد وضعت أقدامها في ساحة العرفان من خلال مكاشفة حصلت بفعل التمركز والمراقبة.

في هذه المكاشفة لم تكن مريم هي التي تحدثت معها وانما ملكة السماوات. والمرشد المعنوي خارج رواية التمركز، هو في الغالب شبيه بالمسيح الذي التقت به

---

(١) Bernard De Clairvaux, Saint.

مارجري في معظم كتابها.

ونجحت مارجري في استخدام الحوار لملء الصدع الحاصل بين التركيز والعرفان، حين تمركزها خلال وفاة مريم.

ولربما يرجع نجاح ارتباطها العرفاني بمريم الى الأهمية التي توليها للنساء والتي يمكن ملاحظتها في كتابها ورغبتها في ان تكون جزءاً من اولئك النسوة اللاتي تحدثت عنهن أو تكون لديها آصرة علاقة بهن.

فلقاؤها بجوليان النورويتشية، وخدمتها للقديسة بريجيتا السويدية في روما، كان امراً مهماً لديها بنفس أهمية ظهورها في دور الممرضة أو المساعدة خلال لقائها بالمرضى أو الفقراء.

وقد بلغ امل مارجري في الاتحاد بالنساء المقدسات ذروته خلال مشهدين: حين تأملاتها في وداع المسيح لأمه ومريم المجدلية، وحين صلبه.

ولم تكن حركتها من التأمل الى التجربة العرفانية، ناجحة تماماً. فحينما كانت قد تصورت نفسها انها متحدة مع النساء المفجوعات بالمسيح، لاسيا مريم المجدلية، كان عليها ان تبقى في مستوى المراقبة والتأمل. كما انها خلال مكاشفتها بشأن صلب المسيح، كان لديها محادثة شهودية مع مريم ومريم المجدلية.

ويبدو ان الشعور بالتوحّد مع مريم المجدلية، اقوى واكثر تبريراً من التوحد مع مريم امّ المسيح. فمريم المجدلية التي تتحد مارجري معها، شخصية مقتبسة من الروايات الاسطورية والروايات المذكورة في الكتاب المقدس وفي دراميات القرون الوسطى والآثار الدينية.

ففي كتاب «تأملات في حياة المسيح»، نلاحظ مقطوعة طويلة نسبياً ومهيجة عن آلام مريم المجدلية واخلاصها حين غسل قدمي المسيح.

مريم المجدلية رمز للمذنب الذي غُفرت ذنوبه والتائب الذي قُبلت توبته، وقد تخلص بيُمن حب المسيح وبركة رحمته.

وكانت المجدلية تؤكد غالباً على طبيعة المسيح باعتبارها اول من شاهده بعد

الانبعاث. وتحدثت الأناجيل الأربعة عن صلب المسيح وعن دورها في اذاعة نبأ انبعاث المسيح.

حديث المتون المقدسة عن خروج سبعة شياطين من مريم المجدلية على يد المسيح، قد امتزج بواسطة الأساطير مع حدث بيت الفريسي الذي كانت فيه احدى النساء الخاطئات تمسح قدمي المسيح بدموعها وشعرها وتدهنهما بالطيب.

وتُقيم مارجري علاقة مباشرة بين مريم التي تغسل قدمي المسيح وتدهنهما وبين مريم المجدلية.

وفي مكاشفة موت مريم يقول المسيح لماجري انّ عليها ان تعيش خمسة عشر عاماً آخر قبل أن تلتحق به في الملكوت. ويذكّرها بأنّ امه، والقديس يوحنا، ومريم المجدلية، كانوا مجبرين على الاستمرار في الحياة بعد وفاته.

والحوار التالي يرتكز على المقارنة بينها وبين مريم المجدلية:

«قالت مارجري للمسيح: رباه ليتني كنت محبوبة لديك بمستوى مريم المجدلية. فأجابها: بنتاه، لاريب في اني احبك بمستواها، واكنّ لكِ نفس الحب الذي اكنّه لها».

وشاهدت مارجري في احدى مكاشفاتها نفسها الى جانب المسيح والسيدة مريم. ولم تكن مريم المجدلية حاضرة في تلك المكاشفة. وتطلب السيدة مريم من المسيح أن يبقى معها، إلّا انه يوضح لها لماذا يريد ان يذهب، فيُغشى عليها.

وتؤدي مارجري دور مريم المجدلية باعتبارها المساهم النشط الآخر في هذا المشهد. فبدا لها ان المسيح كان عندها وانها اخذت تلقي بنفسها عليه وتطلب منه البركة واللطف، وأنها كانت تبكي بكاء مراً وهي تقول: رباه، ماذا ينبغي ان افعل؟ اني أعلم جيداً أنك لن تدعني وحيدة في هذه الدنيا، اذ لا طاقة لي على العيش بدونك.

فأجابها المسيح: بنتاه، اسكني، وكوني مع امي، وابحثي عن الراحة فيها، لأنها أُمي ولابد أن يحل بها هذا الحزن أيضاً. بنتاه، اني سأعود، وسآتي اليها واليك،

وسأُدخل السكون الى قلبك وقلبها، واحوِّل حزنكم جميعاً الى سرور.

وهكذا نرى ان مارجري تتحدث مع المسيح عن ألمها ومحنتها، وهي بهذا تحتفظ بشعورها الذاتي. فهي تسأل السيد المسيح، ولا تنسى نفسها في ذات الوقت الذي تلعب دور غيرها. فحديثها عن المسيح يحل محل حديث مريم المجدلية معه، فيعرفها المسيح، ويرد عليها، ويدعوها ببنته، ويجمعها مع امه، وكأنه يتحدث مع مريم المجدلية. ولا تُعد هذه المكاشفة، تجربة عرفانية صادقة، وانما هي نوع من التمركز الشخصي الفعال، ذلك لأن مارجري قد حلت محل شخصية اخرى وهي شخصية مريم المجدلية.

وفي مشهد صلب المسيح، تجد مارجري نفسها عضوة في الأسرة الروحانية المسيحية، فتشير الى نفسها بضمير «نحن» بدلاً من «أنا»: «حينذاك قالت مارجري لربنا ما كان يدور في خلدها: آه رباه! تترك اماً مشوشة القلب لحالها؟! اذن ماذا نفعل؟ وكيف نطيق هذا الحزن العظيم الذي أصابنا به حبك؟

وحينذاك سمعت اثنين من اللصوص يتحدثان مع ربنا. فقال لأحدهم: ستكون معي في الجنة هذا اليوم. وشعرت بالسرور من كلام الرب للص، وطلبت من ربنا الرحمة، لأن بامكانه ان يرحم روحها كما رحم ذلك اللص. وكانت تتصور انها أسوأ من أي لص».

وجاء في هذه المكاشفة ايضاً:

«وبدا في نظر مارجري ان مريم المجدلية تقول لربنا: اسألك رباه ان تأذن لي ان امسح على يديك وأُقبل قدميك، لأنني بهذا العمل احصل على اللطف والفيض».

وقد وُصف بكاء مريم المجدلية، ومساعدتها في الإعداد لدفن السيد المسيح، بينما كانت مارجري تشاهد ذلك باكية دون أن يُسمح لها الاقتراب من جسد المسيح: «وبدا لها انها مثل امرأة فقدت عقلها فكانت تهرول هنا وهناك وتصر على ان تبقى مع ذلك الجسد العزيز لوحدها كي تبكي الى جانبه عريانة».

ويلعب حديث مارجري دوراً فعالاً ومهماً في الصعود من التركيز الى التجربة

العرفانية، إلّا ان هذا الدور مستوحى من رواية الأناجيل. فعدم قدرتها على تغيير مشهد صلب المسيح، لدليل على تقبلها النهائي لقول جمهور المتدينين في قبول رواية الأناجيل.

فرغم انها قد وضعت قدميها في وادي البدعة من خلال كتابها، غير ان دينها وايمانها كانا في نهاية الأمر غير مبتدعين. ففي ذات الوقت الذي يتمرد فيه كتابها على التعاريف والمحدوديات، إلّا ان تركب شخصيتها من التمركز والتجربة العرفانية لم يذهب أبعد من الارشادات الواردة في كتاب «تأملات في حياة المسيح»، وقد استخدمت تلك الارشادات ما كان ذلك في وسعها[١].

مقارنة بين الرؤيتين العرفانيتين المسلمة والمسيحية:

١ ـ من حيث الانطباق أو عدم الانطباق مع الكتب الدينية

أ ـ العرفاء المسلمون

من خلال دراسة النظرة القرآنية ورؤية العرفاء المسلمين للمرأة، يتضح ان العرفاء ورغم انهم سعوا للتفكير خارج دائرة النظرة العرفية وسيادة الرجل، إلّا ان آثارهم كانت في بعض الأحيان غير قادرة على الابتعاد عن هذه النظرة العرفانية كثيراً. ولكن هناك اختلاف بين الفرق والمذاهب العرفانية في هذا المنحى.

وانطلق القرآن وعلى ضوء العصر الذي ظهر فيه، لاستئصال جذور فكرة تفوق الرجل على المرأة، من خلال ايجاد حركةٍ باتجاه التأكيد على انسانية المرأة واعطائها حقوقاً. وألغى التمايز بين المرأة والرجل من خلال اتخاذه لمعيار التقوى والعمل الصالح ضمن دائرة الروح والمعنوية.

والنسوة اللاتي أثنى القرآن عليهن، ينتمين الى العديد من الطبقات. فبعضهن كنّ ذوات مركز اجتماعي كبلقيس، وبعضهن ذوات مركز معنوي كمريم. كما كان بعضهن ازواج نبي أو قديسات كامرأة ابراهيم وامرأة زكريا. كما تحدث القرآن

---

(١) Coluson, Carolyn, Essays in Medieval Studies, 12, online.

الكريم عن امرأة فرعون التي كانت عبدة صالحة رغم ما كان لديها من سلطان دنيوي.

وعليه فالقرآن يتحدث في اطار المعنى، ويطرح المعايير المعنوية فقط. ولكن تُلاحظ بعض الاختلافات بين الجنسين ضمن اطار القوانين الفقهية، وهذه الاختلافات غير ناشئة من نوع من التفوق، وانما عن نوع من تقسيم الوظائف. اذن منحى رؤية القرآن للمرأة، يقوم على العدل وعدم التمييز بين الاثنين.

وهناك تذبذب واضح بين العرفاء على صعيد مدى انطباق أفكارهم مع الرؤية القرآنية بشأن المرأة. فالبعض كالغزالي يُعطون مشروعية اكبر للنظرة العرفانية، ويصدرون الأحكام اعتماداً على بعض الاحاديث التي لم تتحقق صحتها وانما تحظى بشيوع عامي فقط.

الغزالي لم يستطع ان يقتطع نفسه عن هذه الافكار حتى في اطار العرفان. مضافاً الى ذلك اننا نلاحظ خلف افكاره هذه، رواية العهد القديم في حواء، والتي ليس بالامكان التعويل عليها. واذا كانت حاله هكذا، فمن الطبيعي ان يتخذ مثل هذه النظرة المجحفة ازاء المرأة. ومما لا شك فيه انها نظرة غير منطبقة اطلاقاً مع القرآن الكريم وسيرة الرسول الأكرمﷺ.

غير ان شخصية اخرى مثل جلال الدين الرومي، فانه وان استخدم قوالب تقليدية وعرفية في استعراض القصص والموضوعات، إلّا ان غلبة الصور الخيالية وكذلك رسوخه العرفاني في المسائل، لم يسمحا له كي يكون أحادي النظرة كالغزالي. ولذلك نجد عنده نظرات اكثر انصافاً حتى على صعيد الزواج ورعاية حقوق المرأة الانسانية.

ويمكن أن تُعد التعابير السامية التي استخدمها الرومي في «المثنوي» بشأن المرأة، افضل النماذج التي تمثل النمط العرفاني الذي تجاوز الحدود المادية والقواعد العرفانية، والذي راح ينظر الى الامور من زاوية اخرى.

ولذلك يمكن أن تُعد نظرته للمرأة أقرب من الغزالي الى النظرة القرآنية، لأنه

قد جعل من المساواة الانسانية اساساً في تبرير التفاوت والتوزيع في الوظائف بما ينطبق مع الحاجات وحكمة الخلقة.

ان استخدامه للمرأة في الصور الخيالية والتشبيه، وكذلك البحث عن سر الخلقة في النكاح وانجذاب كل من الجنسين الى الآخر، امور تدل بمجموعها على انه كان يرى خلف كل تلك الاختلافات ذلك الواحد الأحد وتلك الوحدة الوحيدة.

والقضية معقدة الى حد ما بشأن ابن العربي. فهو يُعد شخصية فذة لا نظير لها في عالم العرفان الاسلامي من حيث آرائه البديعة في المرأة وتفاسيره الخاصة للآيات القرآنية.

ان تضلعه بالقرآن والعربية والأدب العربي وسائر العلوم الدينية، وفر لديه مجالاً أوسع للايتاء بتفاسير جديدة ومدهشة بشأن النساء. ورغم ذلك قد نجد لديه في بعض الأحيان تكراراً لقضية خلق حواء من ضلع آدم، وتفسير توزع الاعمال وصدور الأحكام الخاصة بالجنسين على أساسها.

طبعاً بامكاننا ان نشاهد في مواضع كثيرة من آثاره، تحدثه عن المقام المعنوي للمرأة وتوكيده على ان لديها القابلية للتسامي بنفس مستوى قابلية الرجل.

وكانت من بين شيوخه في العرفان، امرأتان، وقد اثنى عليهما كثيراً وأشاد بهما.

ان حب المرأة في العالم ـ عند ابن العربي الذي يرى ان اصل كل شيء منبثق من الله ـ يمثل مرآة كاشفة تماماً عن علاقة الحب فيما بين الانسان والله. فهو يرى في هذه المرآة رموز الحب والفناء.

من وجهة نظر ابن العربي: بامكان أظهر الأعمال ان تحوي رموزاً عن علاقة الحب القائم بين الخالق والانسان. حتى ان بامكان الرجل والمرأة ان يرى كل منهما صورة الله في وجه الآخر.

ولربما بالامكان القول ان الأسس التي تقوم عليها افكار ابن العربي ونظراته الى المرأة، ذات انطباق كبير مع القرآن الكريم. ورغم لجوئه الى استخدام بعض

الأحاديث الموضوعة في بعض تفاسيره، إلّا انه قدّم الى جانبها تفسيراً جديداً أيضاً.

ويُلاحظ على أي حال نوع من الترفع عن الروايات المتعارفة في جميع تفاسير ابن العربي. ولابد من القبول على هذا الأساس بأن التطورات الاجتماعية قد تركت آثاراً واضحة على نظرة العرفاء للمرأة وعملت على تطويرها ايضاً.

وعلى صعيد العزوبة والزواج، يلاحظ وجود بعض اللاانسجام مع الرؤية القرآنية لدى بعض العرفاء. فالقرآن ينظر الى كيان الأسرة كياناً طبيعياً ومطلوباً ولازماً من أجل الكمال الانساني، وهو الكيان الذي يقوم على المودة والرحمة الالهيتين.

وقد أخذ العرفاء بهذا المبدأ الى الحد الذي لا يُعد عائقاً في طريق سلوكهم العرفاني.

وهناك بعض العرفاء الذين تأثروا بالعرف الاجتماعي والظروف الزمانية والمكانية، فاعتبروا المرأة عاجزة وضعيفة حتى ضمن الدائرة المعنوية. غير ان هذه النظرة، شخصية، ولا علاقة لها بالقرآن والسنة النبوية.

لذلك ينبغي القول في خاتمة المطاف بأن انطباق أو عدم انطباق رؤية العرفاء المسلمين مع القرآن والسيرة النبوية، أمر يختلف من عارف لآخر باختلاف الزمان والمكان وقوة الفكر العرفاني لدى كل عارف.

ولربما يمكن القول بأن التحفظ أو التطرف الملاحظين عند بعض العرفاء ازاء المرأة لربما يعودان الى النظرة التي كانت لدى عامة الناس والمتشرعين اليهم، والتي تتمثل في كونهم لاابالين وغير متقيدين، في محاولة منهم لتبرئة انفسهم من هذه التهمة.

ومن الانصاف القول ان فكر العرفاء المسلمين كان يفتح باستمرار نافذة جديدة من اجل استنشاق المرأة لهواء جديد وسليم في ظل المجتمعات الاسلامية الحبلى بسوء الظن والاضطرابات منذ صدر الاسلام وحتى القرن الثامن الهجري،

وهي الفترة التي شهدت أعنف انواع الفوضى السياسية والاجتماعية.

وعلى هذا الضوء يمكن ملاحظة آثار وأمارات من هذه الرؤية المعنوية القرآنية التي تعطي الاهمية للتقوى والعمل الصالح، ولا تنظر الى الظاهر والجنسية، خلال تقويم الانسان والحكم عليه.

ب ـ العرفاء المسيحيون

يمكن القول بشأن العرفاء المسيحيين الذين تمت الاشارة اليهم في هذا الكتاب انهم ملتزمون تماماً بتعاليم القديس بولس. فنجد ان شخصيات كالقديس اوغوسطينوس والقديس توما الأكويني تستند الى كلمات بولس وتعاليمه اكثر من استنادها الى كلمات السيد المسيح وتعاليمه.

ولربما يعود ذلك الى أن تعاليم القديس بولس وأفكاره المبتناة على تعاليم العهد القديم وذات الخلفية اليهودية، كانت هي الغالبة في العصور الوسطى.

وكانت لدى اوغوسطينوس نظرة سلبية واساءة ظن غريبة في المرأة وذلك بفعل مانويته وثنويته وحياته قبل التوبة. ولربما يعد حال الأكويني احسن حالاً منه واكثر اعتدالاً في هذا المجال. غير ان الرجلين كليهما تغلب عليه فكرة تدني المرأة عن الرجل لكونها ذات عقل ناقص من جانب، ولأنها خُلقت من الرجل من جانب آخر.

وبالامكان القول بأن رواية العهد القديم قد افرزت آخر آثارها ونتائجها في أفكار وآثار المتألهين المسيحيين، لاسيما في العصر الوسيط.

حرمان المرأة من مقامات الكنيسة الرسمية، وفرض الانصياع للرجل عليها والاستسلام له بشكل كامل، أمر أدى ولا شك الى اقصائها من ميدان الاجتماع والتعليم والتعلم، لاسيما على الصعيد الديني، وجعلها في الهامش.

غير ان القديسات المسيحيات كن يطلبن مساراً غير الذي كانت تنادي به مرجعية الكنيسة من خلال العرفان والرهبانية وكتابة الكتب.

وتختلف وجهات نظر العارفات المسيحيات الى حد كبير عن وجهات نظر العرفاء المسيحيين. اذ كان لديهن اهتمام اكبر بعنصر الحب في الدين المسيحي، ولهذا كان لديهن استعداد اكبر للانطلاق نحو الله.

ويبدو انهن قد عبّرن عن وفاء اكبر نحو المسيح منه الى بولس الرسول اقتداءً منهن بأم المسيح، فاستطعن من خلال هذا الطريق أن يطرحن جوانب أخرى من اقبال الله على الانسان، وهي الجوانب التي قلّما اهتمت بها الأدبيات العرفانية الرجالية في الدين المسيحي. ومن هذه الجوانب: عنصر الانوثة والرجولة في الله، وحبه الواسع للبشرية، وعنايته الخاصة بالمرأة، ودور السيدة مريم في انتقال هذه المفاهيم.

وعليه ينبغي القول بأن العارف والعارفة في الدين المسيحي، قد قطع كل منهما طريقاً منفصلاً عن الآخر، على صعيد الوفاء للنصوص المقدسة. وقد اكدت النساء اكثر من الرجال على سلوك السيد المسيح وكلماته، في حين ابدى الرجال وفاء اكبر نحو سنّة القديس بولس. ولعبت النساء كذلك دوراً مهماً في شرح عرفان الحب وتفصيله.

٢ ـ من حيث نقاط قوة وضعف كل منهما

من نقاط الضعف الملاحظة في رؤية العرفاء المسيحيين هي اتخاذهم من رواية العهد القديم أصلاً ومبدأً، واعطاء أهمية كبيرة باستنباطات بولس الرسول من هذه الرواية والأحكام المترتبة على ذلك.

رواية العهد القديم والمسيحية البولسية تقدمان اساءة ظن عميقة بالمرأة، وتظهر المرأة طبقاً لها موجوداً شريراً لا يمكن الوثوق به. ولربما يُعد الاعتقاد بالخطيئة الذاتية من الذرائع الاخرى التي تساعد على ترسيخ الافكار غير السليمة ازاء المرأة.

ففكرة كالتالي وهي ان آدم نموذج لجميع الرجال وحواء نموذج لجميع النساء،

وانتقال أعمالهم لجميع الأجيال البشرية، بمثابة أرضية لظهور جميع التفاسير الخاطئة بشأن المرأة. ولذلك نلاحظ النظر الى المرأة كشر منذ بدء الخلقة والى يومنا هذا، مضموناً أساسياً في فكرة المتألهين والعرفاء المسيحيين.

وهناك اعتقاد ضمني بهذه الرواية أيضاً في رؤية العرفاء المسلمين. ولكن بما ان القرآن لا يؤمن بها ولا يؤيدها، فقد عُد اعتبار المرأة شراً، فكرة عرضية وغير جوهرية في التعاليم الاسلامية، بل وتتعارض معها ايضاً.

طبعاً يوجد بين المسلمين من يتجاهل سيرة الرسول الأكرم محمدﷺ وكبار أولياء الاسلام، ولا يهتم كثيراً بسلوكهم وتعاملهم مع المرأة. وبدلاً من ان يهتم هذا النمط من المسلمين بالأحاديث والروايات الصحيحة المؤكدة على هذا الصعيد، ينطلق للأخذ بما يجري على ألسنة عامة الناس وما يأخذ به العرف. ولذلك لم تنجح المفاهيم العرفانية في التخلص نهائياً من مثل هذه الافكار، ولذلك نلاحظ وقوعها احياناً تحت تأثير سيادة الرجل شاء أصحابها ام أبوا.

العرفاء المسلمون والمسيحيون يؤكدون معاً على ان السمو في المقامات العرفانية والسير والسلوك، أمر لا علاقة له بالجنس، وبامكان كل من الانثى والذكر الانطلاق في هذا الطريق. ولكن يبدو ان العرفاء المسلمين كانوا أفضل من المسيحيين في تسليط الضوء على هذه الفكرة وتوضيحها، نظراً لامتلاكهم للأسس الفكرية والمقومات العملية اكثر مما كان لدى المسيحيين.

ان اتضاح التاريخ الاسلامي وحياة الرسولﷺ والنساء اللاتي كنّ حوله، كابنته فاطمةعليها السلام وأزواجه وأزواج أصحابه قد أتاح فرصة اكبر للمفكرين المسلمين لاستنباط اصول النظرة الاسلامية للمرأة، في حين لم يتوافر هذا المستوى من الوضوح لدى المسيحيين ازاء تاريخ المسيحية وحياة المسيح ومريم والنساء اللاتي كن حولهما.

الاسلام والمسيحية كلاهما حال دون حصول المرأة على مقامات ومناصب في التنظيمات والمؤسسات الدينية، ولم يحصلا طوال التاريخ على ذلك عملياً، رغم بلوغ

نزريسير من النساء لأعلى الدرجات العلمية والمعنوية مع وجود جميع القيود والمحدوديات المفروضة.

ورغم ان القيود التي كانت تواجه النساء المسيحيات في العصر الوسيط لم تكن بأقل من القيود التي كانت تواجهها النساء المسلمات في القرون الاسلامية الاولى، غير ان القديسات المسيحيات اللاتي كن يعشن في العصر الوسيط كان لهن حظ اكبر في نشر آرائهن وكتابة مكاشفاتهن.

وقلما نجد بين العارفات المسلمات من أفلحت في كتابة خاطراتها أو شرح مكاشفاتها. ومع ذلك وفرت الفرق العرفانية مجالاً اكبر للمرأة من سائر المؤسسات الدينية، من أجل ممارسة أعمال الخير والنشاطات العرفانية في كلا العالمين الاسلامي والمسيحي.

المصادر

المصادر الفارسية

١ ـ ابن سينا، الاشارت والتنبيهات، ترجمة وشرح حسن ملكشاهي، سروش، ١٩٨٤.

٢ ـ ابن العربي، ترجمان الاشواق، ترجمة وشرح رينولد نيكلسون، روزنه، ١٩٩٨.

٣ ـ اقبال، افضل، تأثير مولانا على الثقافة الاسلامية، ترجمه محمد رفيعي مهر آبادي، عطائي، ١٩٨٤.

٤ ـ الافلاكي العارفي، احمد بن اخي ناظور، مناقب العارفين، تصحيحات وحواشي وتعليقات تحسين يازيچي، طهران، دنيا الكتاب، ١٩٨٣.

٥ ـ آوانسيان، آوانس، مقدمة تفسير المثنوي، ١٩٧١.

٦ ـ ايزوتسو، توشيهيكو، صوفيسم وتائوئيسم، ترجمة محمد جواد جوهري، روزنه، ١٩٩٩.

٧ ـ بدوي، عبد الرحمن، رابعة العدوية شهيدة الحب الالهي، مولى، ١٩٨٨.

٨ ـ التفسير المثالي، ناصر مكارم شيرازي وبعض الكتاب، طهران، دار الكتب الاسلامية. ٢٨ جزءاً، ١٩٨٨.

٩ ـ طهراني، السيد محمد حسين، رسالة بديعة، انتشارات الحكمة، ١٩٨٤.

١٠ ـ جام، شهيد احمد، مفتاح النجاة، تصحيح علي فاضل، ١٩٦٨.

١١ ـ جامي، عبد الرحمن، نفحات الانس من حضرات القدس، تصحيح مهدي توحيدي پور.

١٢ ـ الجندي، مؤيد الدين، نفحة الروح وتحفة الفتوح، تصحيح نجيب مايل الهروي، ١٩٨٣.

١٣ ـ الخوارزمي، تاج الدين، شرح فصوص الحكم، تحقيق نجيب مايل الهروي، مولى، ١٩٨٩.

١٤ ـ دائرة المعارف الفارسية، اشراف غلام حسين مصاحب، نشر فرانكلين، ١٩٧٧.

١٥ ـ دوبوار، سيمون، الجنس الثاني، ترجمة قاسم الصنعوي.

١٦ ـ ديوان رباعيات أوحد الدين كرماني، تحقيق احمد ابو محبوب، ١٩٨٧.

١٧ ـ ريتر، هلموت، بحر الروح، ترجمة عباس زرياب الخوئي والدكتور مهر آفاق بايبردي، الهدى، ١٩٩٥.

١٨ ـ زرّين كوب، عبد الحسين، قيمة ميراث الصوفية، امير كبير، ١٩٩٠.

١٩ ـ زرّين كوب، عبد الحسين، تاريخ ايران بعد الاسلام، ١٩٦٤.

٢٠ ـ زرّين كوب، عبد الحسين، سرّ النيّ، ١٩٨٩.

٢١ ـ زرّين كوب، عبد الحسين، صوت جناح العنقاء، سخن، ١٩٩٩.

٢٢ ـ ستّاري، جلال، صورة المرأة في ثقافة ايران، نشر مركز، ١٩٩٤.

٢٣ ـ السمعاني، احمد بن منصور، روح الارواح في شرح اسماء الملك الفتاح، تصحيح نجيب مايل الهروي، ١٩٨٩.

٢٤ ـ السمناني، علاء الدولة، رسالة اقبالية، تصحيح نجيب مايل الهروي، ١٩٨٧.

٢٥ ـ السهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، ١٩٨١.

٢٦ ـ السهروردي، ضياء الدين ابو النجيب، آداب المريدين، تصحيح نجيب

مايل الهروي، مولى، ١٩٨٤.

٢٧ ـ الشبستري، الشيخ محمود، روضة الاسرار، تحقيق صابر كرماني، طهورى، ١٩٨٢.

٢٨ ـ شيمل، آن ماري، عظمة شمس، ترجمة حسن لاهوتي، ١٩٩١.

٢٩ ـ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تصحيح وتحشية محمد روشن، ١٩٨٧.

٣٠ ـ الطوسي، نصير الدين، أخلاق ناصري، تصحيح مجتبى مينوي وعلي رضا حيدري، الخوارزمي، ١٩٩٠.

٣١ ـ الطوسي، نصير الدين، اخلاق محتشمي وثلاث رسائل اخرى، تصحيح محمد تقي دانش بجوه، جامعة طهران، ١٩٦٠.

٣٢ ـ الطوسي، نصير الدين، تصورات أو روضة التسليم، تصحيح فيلاديمير ايفانوف، ١٩٨٤.

٣٣ ـ العطار النيشابوري، فريد الدين، الهي نامه، تصحيح هلموت ريتر، طوس، ١٩٨٩.

٣٤ ـ العطار النيشابوري، فريد الدين، تذكرة الاولياء، تصحيح رينولد نيكلسون، دنيا الكتاب، ١٩٠٥.

٣٥ ـ العطار النيشابوري، فريد الدين، منطق الطير، تصحيح محمد جواد مشكور، الهام، ١٩٨٤.

٣٦ ـ العقيلي، سيف الدين حاجي بن نظام، آثار الوزراء، تصحيح مير جلال الدين الحسيني الأرموي، ١٩٨٧.

٣٧ ـ عين القضاة الهمداني، تمهيدات، تصحيح عفيف عسيران، منوچهري، ١٩٩١.

٣٨ ـ عين القضاة الهمداني، رسائل عين القضاة، تحقيق علي نقي منزوي وعفيف عسيران، مؤسسة ثقافة ايران، ١٩٨١.

٣٩ ـ عين القضاة، رسالة شكوى الغريب، مع مقدمة وتحقيق عفيف عسيران، جامعة طهران، ١٩٦٢.

٤٠ ـ الغزالي، ابو حامد، إحياء العلوم، تحقيق حسين خديو جم، مؤسسة ثقافة ايران، ١٩٧٣.

٤١ ـ الغزالي، ابو حامد، كيمياء السعادة، تحقيق حسين خديو جم، ١٩٩٢.

٤٢ ـ الغزالي، ابو حامد، نصيحة الملوك، تصحيح جلال الدين همائي، جمعية الآثار الوطنية، ١٩٧٢.

٤٣ ـ الغزنوي، سديد الدين محمد، مقامات زنده پيل، تحقيق حشمة الله مؤيد السنندجي، مؤسسة ترجمة ونشر الكتاب، ١٩٦٦.

٤٤ ـ فروزانفر، بديع الزمان، شرح المثنوي الشريف، زوّار، ١٩٩٤.

٤٥ ـ معجم اللغة الفارسية، الدكتور مهشيد مشيري، سروش، ١٩٩٥.

٤٦ ـ قاموس القرآن، السيد أكبر القرشي، طهران، دار الكتب الاسلامية، ١٩٨٢.

٤٧ ـ القبادياني، ناصر خسرو، جامع الحكمتين، تصحيح هانري كربن ومحمد معين، اصدار جمعية ايران وفرنسا، ١٩٥٣.

٤٨ ـ قصص الانبياء، تصحيح فريدون تقي زاده الطوسي، ١٩٨٣.

٤٩ ـ الكتاب المقدس، ترجمة من العبرية والكلدانية واليونانية، باشراف مؤسسة توزيع الكتب المقدسة، ١٩٠٤.

٥٠ ـ الكاشاني، افضل الدين محمد مرقي، المصنفات، تصحيح مجتبى مينوي، يحيى مهدوي، ١٩٨٧.

٥١ ـ كديور، جميلة، المرأة، صحيفة اطلاعات، ١٩٩٦.

٥٢ ـ كياني، محسن، تاريخ الخانقاه في ايران، طهوري، ١٩٩٠.

٥٣ ـ غولپينارلي، عبد الباقي، مولانا جلال الدين، ترجمة توفيق سبحاني، مؤسسة الدراسات الثقافية، ١٩٩١.

٥٤ ـ غولپينارلي، عبد الباقي، المولوية بعد مولانا، ترجمة توفيق سبحاني، كيهان، ١٩٨١.

٥٥ ـ اللاهيجي، محمد، مفاتيح الاعجاز في شرح گلشن راز، تصحيح محمد رضا خالقي وعفة كرباسي، زوّار، ١٩٩٢.

٥٦ ـ مثنويات الحكيم السنائي، تحقيق مدرّس رضوي، ١٩٦٩.

٥٧ ـ محمد بن منوّر، اسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، تحقيق ذبيح الله صفا، ط ٣، امير كبير، ١٩٧١.

٥٨ ـ المستملي البخاري، ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد، شرح التعرف لمذهب التصوف، تصحيح محمد روشن، اساطير، ١٩٨٤.

٥٩ ـ المستوفي، ابو الفضل، يوسف بن علي، خردنامه، تحقيق اديب برومند، ١٩٦٨.

٦٠ ـ مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي، فيه ما فيه (مقالات مولانا)، تصحيح جعفر مدرس الصادقي، ١٩٩١.

٦١ ـ مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي، المثنوي المعنوي، تصحيح نيكلسون، مولى، ١٩٨٧، ٣ أجزاء.

٦٢ ـ مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي، المجالس السبعة، تصحيح فريدون نافذ، نشر جامي، ١٩٨٤.

٦٣ ـ مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي، مكتوبات، ١٩٨٩.

٦٤ ـ نجم الدين كبرى، آداب الصوفية، تحقيق مسعود قاسمي، ١٩٨٤.

٦٥ ـ نجم الدين كبرى، فوائح الجمال وفواتح الجلال، مروي، ١٩٨٩.

٦٦ ـ النخشبي، ضياء الدين، سلك السلوك، تصحيح غلام علي آريا، ١٩٩٠.

٦٧ ـ نصر، سيد حسين، رأي المفكرين المسلمين في الطبيعة، الخوارزمي، ١٩٧٣.

٦٨ ـ نظام الملك، سياستنامه، تصحيح عباس اقبال، اساطير، ١٩٩٠.

٦٩ ـ نيكلسون، رينولد، ملاحظات حول فصوص الحكم، ترجمة آوانس آوانسيان، ١٩٨٤.

٧٠ ـ مستر هاكس، قاموس الكتاب المقدس، اساطير، ١٩٩٨.

٧١ ـ الهجويري، علي بن عثمان، كشف المحجوب، تصحيح و.جوكوفسكي، مقدمة قاسم انصاري، طهوري، ١٩٩٤.

٧٢ ـ همايي، جلال الدين، مولوي نامه، طهران، ١٩٨٣.

٧٣ ـ ابن بابويه، عيون اخبار الرضا، قم، ١٩٩٨.

المصادر العربية

٧٤ ـ ابن خلكان، وفيات الاعيان، غوتينغن، ١٨٥٠.

٧٥ ـ ابن العربي، محيي الدين، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى وابراهيم مدكور، المكتبة العربية، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م، ١٤ جزءاً.

٧٦ ـ ابن العربي، محيي الدين، فصوص الحكم، تعليقات أبي العلاء العفيفي، مكتبة الزهراء، ١٩٨٧.

٧٦ ـ ابن الفوطي، كمال الدين، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بيروت، دار الفكر الحديث.

٧٨ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ليدن، ١٨٦١ م.

٧٩ ـ الجاحظ، كتاب الحيوان، القاهرة، ١٣٢٤ هـ.

٨٠ ـ الجامع الصغير، ابن ابي بكر السيوطي، القاهرة، دار الكتب العلمية، ١٣٧٣ هـ.

٨١ ـ الشافعي، يافعي، روض الرياحين، القاهرة، ١٢٩٧ هـ.

٨٢ ـ الشعراني، عبد الوهاب، الطبقات الكبرى المسمى بلواقح الانوار في طبقات الاخيار، مصر، المطبعة الازهرية، ١٩٢٥ م، ١٣٠٤ هـ.

٨٣ ـ القاساني (الكاشاني)، عبد الرزاق، شرح فصوص الحكم، قم، ١٩٩١.

٨٤ ـ الامام القشيري، لطائف الاشارات، قدم له الدكتور ابراهيم البسيوني،

مركز تحقيق التراث، مصر، ١٩٨١.

٨٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد الباقي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٦٤ هـ.

٨٦ ـ المكي، ابو طالب، قوت القلوب، القاهرة، ١٣١٠ هـ.

٨٧ ـ ابو زيد، نصر حامد، دوائر الخوف (قراءة في خطاب المرأة)، المركز الثقافي الغربي، بيروت، ١٩٩٩.

٨٨ ـ بدوي، عبد الرحمن، الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، مكتبة مدبولي الصغير، ١٩٨٨.

٨٩ ـ البحراني، السيد هاشم الحسيني، البرهان في تفسير القرآن، قم، مؤسسة اسماعيليان.

٩٠ ـ بحار الانوار، محمد باقر المجلسي، بيروت.

٩١ ـ البغدادي، ابو بكر احمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها في سنة ٤٦٣، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٩٨٠ م، ١٤ جزءاً.

٩٢ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ليدن، ١٨٦٦ م.

٩٣ ـ التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد، عالم الكتب، ١٤٠٩ هـ.

٩٤ ـ تفسير القرآن العظيم، اسماعيل عمر ابو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، مكتبة النور العلمية، ١٤١٣ هـ ٤ أجزاء.

٩٥ ـ التميمي البغدادي، اصول الدين، ١٤٠١ هـ.

٩٦ ـ الجرجاني، القاضي عضد الدين، شرح المواقف، ط قم.

٩٧ ـ جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد، حسن بن فضل الطبرسي، بيروت، دار الاضواء، ١٤٠٥ هـ جزءان.

٩٨ ـ دغيم، الدكتور سميع، موسوعة مصطلحات علم الكلام الاسلامي، لبنان، ١٩٩٨.

٩٩ ـ الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل، قم، نشر ادب

الحوزة.

١٠٠ ـ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مصر، ١٩٤٨.

١٠١ ـ السخاوي، ابو الحسن علي، تحفة الأحباب، تصحيح احمد نشأت، مصر، ١٩٣٧ م.

١٠٢ ـ الشيخ الصدوق، الاعتقادات، المكتبة الاسلامية، ١٣٨٣ هـ.

١٠٣ ـ صحيح، محمد بن اسماعيل البخاري، الرياض، مكتبة الرشد وشركة الرياض، ١٤١٩ هـ ٩ أجزاء.

١٠٤ ـ القيصري، داود، رسائل القيصري، حواشي محمد رضا القمشئي، جمعية الحكمة والفلسفة، ١٩٧٨.

١٠٥ ـ الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، طهران، دار الكتب الاسلامية، ١٣٩٧ هـ ٢٠ جزءاً.

١٠٦ ـ الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، مكتبة المفيد.

١٠٧ ـ محمد بن حسن عماد الدين، حياة القلوب، القاهرة.

١٠٨ ـ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة، ١٩٧٠.

١٠٩ ـ المقريزي، محمد بن علي، الخطط، القاهرة، ١٩٢٢.

١١٠ ـ ميزان الحكمة، محمد المحمدي الري شهري، مركز النشر، ١٩٨١، ١٠ أجزاء.

المصادر الانكليزية

111 - Aguinas, St. Thomas, The Summa Theologica, tr. by Fathers of the English Dominican province with Burns, Oates, and Washbourne Ltd. London - New York, 1975, 2 vol.

112 - Augustine, St. Aurelius, Confessions, tr. by R.s. pine - Coffin, Harmondsworth: penguine Classic, 1961.

113 - Augustine, St. Aurelius, City of God.

114 - Augustine, St. Aurelius, Se Genesi and Litteram Libri xii.
115 - Augustine, St. Aurelius, One the Trinity, in Vol. III Select. Library.
116 - Aristotle, Ethics.
117 - Aristotle, History of Animals.
118 - Aristotle, Generation of animals.
119 - Aristotle, politics.
120 - Bakhtiar, Laleh, Sufi Expressions of the Mystic Quest, Thames and Hudson, England, 1997.
121 - Baker, Derek, Medieval Woman, Oxford: Basil Blackwell, 1978.
122 - Blamires, Alcuin, Woman Defamed and Woman Defended An Anthology of Medieval Texts, Oxford, Clarendon press, 1992.
123 - Bokton, Julia, Mirror of Saints, Holloway, 1999, Online.
124 - Bolton, Julia, The Mystics' Internet, Holloway, 1997, Online.
125 - Bugge, John, Virginatas, 1975.
126 - Bynum, Caroline Walker, Holy Feast and Holy Fast: Jesus as Mother, University of California Press, 1982.
127 - Catherine of Siena, The Dialogue, tr. by Suzanne Noffke, New York Paulist Press, 1980.
128 - Coulson, Carolyn, Essays in Medieval Theology, 1999, Online.
129 - Dictionary of Religion, ed. by Jonathan Smith, Harpercollins, U.S.A. 1995.
130 - Dictionary of World Religions, ed. by keith Crim, Harper San Francisco, 1989.
131 - Encyclopedia of Early Christiantity, 1995.
132 - Encyclopedia of Religion and Ethics, ed. by James Hastings, Edinburgh, 1958.

133 - Everhart, Deborah, Medieval Woman, 1995, Online.
134 - Flanagan, Sabina, Hildegard of Bingen, Routledge, London, 1999.
135 - Gies, Frances and Joseph, Women in the Middle Ages, New York, Thomas Y.Crowell company, 1978.
136 - Gregory, The Great, Morals on the Book of Job, tr. by J. Bliss, Oxford, J.H. parker, 1850.
137 - Hadewijch of Antwerp, Letters to Young Beguine, tr. by Eric Colledge, 1965.
138 - Hadewijch of Antwerp, Visions, tr. by Mother Columba Hart, 1986.
139 - Hildegard of Bingen, Scivias, tr. Mother Columba Hart and jan Bishop, New York: Paulist press, 1990.
140 - Julian of Norwich, Revelations of Divine Love, tr. by Clifton Watters, New York penguin, 1982.
141 - Knowles, David, The English Mystical Tradition, London, Burnes and Oates, 1961.
142 - Lerner, Gerda, The Creation of Feminist Consciousness: From the Middle Ages to Enghteen - seventy, New York, Oxford University press, 1993.
143 - Lerner, Robert E. The Heresy of the Free Spirit in the Later Middle Ages, Notre Dame: University press, 1972.
144 - Meister Eckhart and the Beguine Mystics, ed. by Bernard Mcginn, New York, Continuum, 1994.
145 - Merton, Thomas, Mystics and Zen Masters, New York, Dell publidhing Company, 1967.
146 - Metchild of Magdeburg, The Flowing Light of the Godhead.
147 - Medieval Theology, ed. by Rosemary Reuther, New York, Simon and Schuster, 1974.

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع